

مجموعة قصصية

الخوف

صالح مرسي

فريق
متميزون



E-BOOK



مكتبة فريق_متميزون.

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



(كلمة مهمة):

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير هذا الإنتاج المشترك بين قناتي (متميزون) و (د. حازم مسعود) للكتب النصية على توفير هذه الخدمة النوعية التي نطمح بأن تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قناة د (حازم مسعود)

اشترك بالقناة

الذوف
(مجموعه قصصية)

صالح مرسي

إهداء..

إلى كل أب.. مثل أبي..

صالح مرسي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخوف..

كبر جابر، وخط شاربه، واخضر ذقنه، وتعدى الخامسة عشرة، ورغم هذا لم يستطع أن يقود القارب!

كبر جابر، أصبح شاباً، ولكنه وسط الشباب طفل، والاسم الذي يحمله سيضيع، ويا ليته ما كان، ويا لبيت اليوم الأسود الذي ولد فيه ما وجد.

كبر جابر، ورآه أبوه يدخن ويفهقه كالحشاشين في المقهى، ولكنه ما زال جباناً يخاف المياه، ويخاف الرياح، ويخاف البحر!

كبر جابر الذي سيقول الناس عنه: إنه ابن الحديدي، ويا وكسة الاسم، ويا عرة العائلة بجابر آخر سلالتها.

لا يدري المعلم محمد الحديدي كيف أصبح ابنه هكذا، لقد رباه في البحر، فوق سطح المياه، ومنذ أن عرف كيف يخطو فوق الأرض وهو يصحبه معه في غدواته وروحاته، يضعه في القارب، ويتوكل على الله، يجوب الميناء؛ يحمل هذا، ويوصل ذلك، ويأتي الصيف، ويحمل الكثيرين إلى كل مكان، والولد معه، لم يتركه لحظة.

في البداية كان يحايله ويلاعبه ويعده بالكرامة والعسلية؛ عله يمسك الدفة أو يجلس إلى المجداف.. دون جدوى، ثم أخذ يتوعدده ويسبه ويشتمه وقد يزغده عله يخاف أو يقدم.. دون جدوى أيضاً. ثم ضربه. ضربه بالعصا، وضربه بكفوفه، وضربه بكل ما وصلت إليه يده، ثم خلع ذراع الدفة الغليظة وأخذ ينهال على جسده حتى ازرق لحمه وطفح منه الدم.. ولم يفلح جابر، لم يمسك بدفة، ولم يجذب حبلاً، ولم يقبض على مجداف.

والعيال أصبحوا رجالاً، حنفي، وسيد، وعبد، ورومة، كثيرون كثيرون ملثوا الميناء، وبلعطوا في المياه، وجابوا بالقوارب كل رصيف، وجاوروا كل سفينة، واقتلعوا الرزق من أنياب الأمواج، وزوجهم أبائهم وفرحوا بهم وقالوا للحديدي «عقبال جابر»، ولكن جابر لم يبلعط في المياه، ولم يكسب قرشاً، ولم يفكر في الزواج.

ليت الأمر وقف عند هذا، وليت جابر أفلح في صنعة أخرى، إنه لا يفلح إلا في التدخين والجلوس على المقهى والذهاب إلى السينما... والابتسام للناس ببلاهة وعبط عندما يقولون له «يا خرع»!!

يومها كانت الشمس غائبة وراء السحب السوداء، والأرض مبللة بالمطر الذي ظل يهطل ساعات وساعات، وسطح المياه يتلوى كظهور التماسيح، ثم يجري في سلسلة طويلة من الأمواج تضرب الرصيف بعنف وتزمرجر، ويتناثر رذاذها على حافته المتآكلة وكأنه أصابع كثيرة تريد اقتلاع الأرض من مكانها، والدنيا برد، والريح تصفر، والقوارب ملطوعة بجوار الرصيف كالجنث، لا حياة فيها ولا حركة، والرجال قبعوا بجوار المقهى، بعضهم قرفص على الأرض، والآخرون يشربون الشاي.. والولد جابر جالس في الطرف، عاطل، ضائع، لا شغلة له ولا شغلانة، ولا يدري المعلم محمد ماذا حدث ولكنه سمع سيد البوهي يقول لابنه «يا خرع»... وضحك جابر، ابتسم في بلاهة ولم يرد.

وكل الجالسين في المقهى ساعته لم يفهموا شيئاً سوى أن الحديدي يضرب ابنه.
كانت الصفعات والركلات تنهال عليه بلا حساب، والغل القديم والجديد يسري في
كفي الأب وقدميه أيضاً لينصبَّ على جسد ولده بلا رحمة. وهاج الرجال.. «وعيب
يا معلم، وميصحش».. وآخرون يقولون «معلش.. ما كلهم شباب زي بعض».

هدأ الحديدي وكله نار تغلي.. وعوت الريح مزمجرة بصوتها الرفيع، وسرت في
الأبدان رعشات، واصطكت أسنان، وبكت السماء أمطاراً مجمدة أخذت تضرب
الأرض وسطح المياه بقطع الثلج التي كانت تنفتت وتذوب، ثم تجري نحو البحر
الهائج ذي اللون الغامق الكئيب، وكأنه يقتلع أعماقه، ويتقيأ أحشاءه.

لا يدري المعلم الحديدي لم حدث ما حدث بعدها.. ولا يدري كيف فكر ولا كيف
تصرف.. كان قد رمى طوبة جابر منذ مدة، ولم يعد يعنيه أن يجذف أو يقود
القارب، أو يفرد الشراع، سلم مجهوده الذي ضاع وهو يعلمه، وسلم أمره أيضاً لله،
وسلم كل ما فعله يوم كان يصحبه في الصيف، والبحر رائق والسماء صافية،
ويجلس أمامه يحادثه ويحته.

«يا جابر، امسك الدفة كده.. يا جابر، حل البارومة كده.. يا جابر، القماش لازم
تملاه الريح، وإذا كان الريح شرقي خليك بوجي، وإذا كان غربي اضرب بلط يمين
وشمال لحد ما توصل».

كلام كثير، وعرق، وينهج المعلم وهو يجذف ويفرد الشراع ويعود فيطويه ثم يعود
فيفرده، ويتساقط العرق، وتلمع بشرته، وجابر جالس أمامه كالجوال الفارغ، ملقى
في إهمال وبلاهة وكأنه ليس هنا.

كانت القوارب وقتها تتناثر على صفحة المياه داخل الميناء، تروح وتجيء وتميل
إلى اليمين، وتدور حول نفسها ثم تميل إلى اليسار. والعيال يقودونها، وأبائهم
بجانبيهم، يشجعون ويصفقون ويقولون بمرح: «صل عالنبي يا جدع». وتدوي
أصواتهم في فضاء الميناء الواسع، ويردها الصدى عندما تصطم بجوانب السفن
الهائلة العالية الجدران.. وهو جالس في قاربه، ابنه يقبع كإبن الموظفين، جبان
خائف، يرتجف.. وهو محروم من أن يقول ككل الأباء: «صل عالنبي»، أو يقول:
«حصوة في عين اللي ما يصلي على النبي»!

ويتمنى، يتمنى أن يقولها مرة من أعماق قلبه، وينتظر الوقت الذي سيطلقها فيه،
ويحل الليل، وينغمها بطريقة لافتة، ويقولها في سره مرات ومرات وعشرات
المرات، ويضيف إليها دعوات ونداءات: «الورد كان شوك من عرق النبي فتح»
وغيرها وغيرها... يحفظ ويحضر ويتمنى ويضطرب قلبه!

الأيام تروح وتجيء، والسنون تروح والسنون الأخرى تضاف إلى عمر جابر،
والحسرة في قلب المعلم لا حد لها.. أصبح بلا ولد، ذراعه اليمنى مشلولة، وذراعه
اليسرى بنت لن تجلس في قارب أو تقود فلوكة.. بنت سيزوجها لرجل، رجل
غريب، ربما أصبح ذات يوم مالكا لقارب الحديدي، وتراث عائلة الحديدي.

ولا يدري المعلم لم كان يرتجف كل هذا الارتجاج وهو جالس، لم كان يرتجف
وكأن زمهرير القطب قد لف جسده. الرجال من حوله صامتون، وهو صامت يغلي،
ودمه يفور، وعيناه تدمعان في غيظ، لا يستطيع أن يصنع شيئاً، تدور عيناه مغلفتين

بالدموع وتجري فوق وجوه كثيرة جلست صامته تنظر إليه بإشفاق، رجال من سنه، وعيال من سن ابنه، كلهم أذرعهم مفتولة، أكلت المياه من بطون كفوفهم ثم حجرتها فأصبحت كالحديد.. ولم يكن كالحديد في الميناء كلها سوى جده المعلم صابر الحديدي.

نهنه جابر في صوت مكتوم، وصفرت الريح وعوت، وتمايلت القوارب وأزّ خشبها وهي تحتك ببعضها، وترنحت الصواري، ودفعت الريح مقعداً وقلبتة، وخف هطول المطر، واندفعت الأمواج نحو الرصيف تلطمه بوحشية، وتخرج منها آلاف الأصابع كأنها تريد اقتلاع أحجاره.

قال رجل شيئاً وهو ينفخ في كفيه، وزام آخر، ورفع المعلم الحديدي عينيه إلى السماء، وراقب الأفق، وهبت ريح باردة، ثم قال:

«محدث يطلع النهارده يا رجاله، دي نوة العجوزة نزلت آهيه، والبوره نازله من الشرق».

أمن الحاج حسن على حديثه وهو يرقب الأفق بدوره ويدفئ كفيه في كوب الشاي الساخن، وهز المعلم أبو شادي رأسه وقال: إن هذه النوة الملعونة عدوة القوارب والبحارة، وإن أحداً لم يستطع أن يخرج في البحر أثناءها إطلاقاً... ثم صمت ورفع عينيه إلى الحديدي وابتسم وقال:

«إلا اثنين من عيلة الحديدي، الله يرحمه المعلم صابر، ويديله طولة العمر المعلم محمد».

لم يدر المعلم أبو شادي وهو يقول تلك الجملة أنه كان يغرز خنجرًا في أحشاء المعلم محمد، كان الرجل يعلم جيدًا أن أحداً في الميناء لم يستطع أن يقاوم هذه العاصفة، سواه هو وجده، وهمهم بصوت خفيض وكأنه يتابع تفكيره:

«أبويا الله يرحمه مات فيها».

وجاءت الأصوات من كل ناحية:

«ألف رحمة تنزل عليه، الفاتحة له».

وتابع المعلم الحديدي أفكاره بصوت مسموع:

«كان عندي سنتها عشر سنين، وكان جايب لي الفلوكة الصغيرة الخضراء، ويومها النوة نزلت عليّ وأنا في وسط المياه، رحنت رابطة على رصيف الفحم، وقعدت استنى، ومات أبويا قدامي، راسه جت فوق حجر الرصيف، وصرخت عليه، ومددت له يديه، لكن الدم بس هو اللي استنى على الرصيف.. و...».

وساد الصمت فجأة، توقف الرجل عن الحديث ونكس رأسه، كان ثمة خاطر رهيب قد انبثق في ذهنه، واضطرب، وراه الرجال ساعتها وقد اكتسى وجهه بصفرة شديدة، وسأله أحدهم عما به، ولكنه ظل صامتاً، وطلب الجوزة، وأخذ يجذب منها أنفاساً شرهة وعيناه غامتا واكتستا بلون أسود غريب، كانتا تجولان في الوجوه ثم تقفان عند وجه ولده، وتضطربان، ويسأله الرجال:

«إنت عيان يا معلم محمد؟!».

«مالك يا معلم؟!».

«قوم روح وارتاح».

«يا شيخ وحد الله.. البركة فيك إنت...».

كانوا يتحدثون ويثرثرون ويتكلمون، ولكنَّ أحدًا منهم لا يدري أن كبده كانت تحترق، لم يذكر أحدهم اسم جابر، لم يقولوا عنه كلمة.. وهو حزين، ولكن حزنه يتحول إلى ثورة، وثورته تتحول إلى أفكار جنونية.

لذلك اصفر وجهه حتى أصبح كالمرريض بدوار البحر.

كان ثائراً، وكان مشفقاً، وكان حائراً.. وأصبح يتعذب!!

شملت عيناه وجه جابر ثم ارتدتا عنه في زعر، والفكرة تكبر وتكبر، والأمل؟ ليس هناك أمل، ولكن... ولكن الأفكار عادة ما تأتيه هكذا، مثل أول مرة خرج فيها في نوة العجوزة هذه، تلك العاصفة المجنونة التي لا ترحم، والتي تبتلع كل من يتحداها وتطويه في جوفها المزمجر الرهيب، وتطوي معه كل ما تستطيع أن تبتلعه من سفن وقوارب، ثم تهدأ وتلفظه جثة مهزومة، لتعود في العام التالي، وفي نفس الموعد مجنونة شرسة لا ترحم.

«يا معلم محمد، ما توحده الله..».

«لا إله إلا الله..».

قالها بحزن وكأنه يترحم على عزيز فقده؛ فقد كانت الفكرة الرهيبة قد تقلصت كالمرض في رأسه، ثم انفجرت وتوهجت وأصبح لا مفر..

«قوموا يا رجاله نلم الفلايك في الكن».

قالها بهدوء وكأنه لا ينوي سوى أن يسحب قاربه إلى مكان هادئ في ركن الرصيف، ونهض الرجال معه، وخطا هو خطوة، ثم التفت إلى ولده، وهوى قلبه بين ضلوعه، وبردت أنفاسه وتهدجت ثم ناداه:

«قوم يا جابر معايا.. أنا تعبان حبتين».

ومضى الركب الكبير نحو طرف الرصيف، كان الموج ينقض عليه وكأنه قبضة هائلة فردت عشرات الأصابع فجأة، وتناثر الرجال وهم يقفزون كالقروذ فوق الرصيف، يتعلقون بالصواري. وأخذ كل منهم يعمل ويقاوم الريح، ويجذب قاربه نحو «الكن»، وينظر الحديدي إلى ولده، كان يقف مرتجفاً من البرد، ذراعاه متدلّيتان بجانبه في بلاهة، وأحس وقتها بالدنيا تدور من حوله.

ثم...

لا يدري.. لا يدري كيف تم الأمر، كيف طاعه قلبه، لا يدري إلى اليوم.

أمر جابر أن يقفز إلى القارب ليحمل المجاديف إلى الداخل، ويسوي الأرض ويخلع الدفة... وقفز جابر إلى القارب فترنح به، وترنح هو معه، وانحنى المعلم محمد على الحبل الذي يربط القارب بالرصيف، وكان ولده لا يزال ينتثر، وفجأة أحس المعلم بعينيه تغيمان، وجز على أسنانه، وأغمض عينيه بشدة.. ورفع يده بطرف الحبل. وتردد لحظة.. ولكنها كانت مجرد لحظة قصيرة، قصيرة جداً، انحنى بعدها إلى الأمام، ودفع القارب بكل قوته... وترك الحبل يهوي في المياه. وهوى مع الحبل قلبه إلى قدميه.

ومضت دقيقة..

مجرد دقيقة كان جابر وقتها لا يزال يتعثر، ولكنها كانت كافية لأن تقذف بالقارب إلى وسط المياه والرياح العاصفة والمطر الذي كان ينهمر من جديد. وتنبه الرجال على صرخة خالوها تصدر من أعماق ألف رجل:

«يا ترجع انت والقارب، يا مترجعوش انتو الاتنين.. فاهم؟!».

وصرخ جابر في توصل وقد شله الرعب:

«في عرضك يابا...».

وران سكون عميق، وشلت الألسنة، حتى القلوب كادت تتوقف وتقفز في اضطراب من الحلو التي كانت مغمورة في دعر.

ورغم أن أحدًا من الرجال لم يستطع أن يقترب من المعلم محمد الحديدي، فإن كلاً منهما وقف ينظر إلى القارب الذي كانت الرياح تحمله إلى بعيد فوق سطح مزجر متلاطم. وانطلقت صرخات جابر وتوسلاته، وحملتها الرياح إلى أذني والده، وخفق قلب العجوز وكاد يبكي، بل إنه أحس بالدمع يغزو عينيه، وتقدم نحو أحد القوارب خطوات، ولكنه تراجع مرة أخرى، وقلبه ينفطر وهو يرى الأمواج الصغيرة تتكسر وتجري نحو القارب كأنها أسنان وحش سيفترس ولده.. أفاق للحظة، وتقدم نحو قارب.. لكن الوقت كان قد فات!

كانت هناك همهمات ودمدمات:

«الراجل اتجنن..».

«الولد حايموت..».

«يا حول الله..».

«وده اسمه كلام برضه؟!».

«خليه يتعلم..».

«والعلام يبقى بالشكل ده؟!».

«ولو يجرى للولد حاجة، يبقى يعمل إيه؟!».

كان جابر وقتها يبكي بلا دموع، كان يعلم تمامًا أنه لن يستطيع شيئاً، لم يدر مم كان يخاف، ولم كان الذعر يلم به كلما رأى ذراع الدفة الطويلة الغليظة... ترنح به القارب، مال إلى اليمين، ومال إلى اليسار، وتسربت إليه المياه، واقتلع الذعر قلبه ونفضه نفضات رهيبية، وجرى نحو الدفة، وأمسك بالذراع في يده.. وانحرف القارب، وعاد يترنح ويدور حول نفسه، واضطرب جابر، ونهض فجأة من مكانه، كان الذعر قد شل عقله تمامًا، والقارب يبتعد عن الرصيف، وكان ينهه في دعر، وهبت ريح قوية دفعت بالقارب فمال بشدة، وترنح جابر، وتمائل جسده النحيل.. ثم هوى إلى المياه.

عندما دوت صرخات الحناجر الكثيرة فوق الرصيف، كانت ذراعا جابر تنتشبان بحافة القارب، وقد غرق جسده في المياه الباردة كالتلج، وارتفع رأسه فوق اللجة، ورأت عيناه السماء سوداء مقبضة، وتحولت قبضته إلى قبضتين من الصخر.. وثمة شيء يجذبه إلى الأعماق، ويشد جسده كله، ويميل معه القارب.

وصرخ..

واندفع جسده فجأة إلى أعلى، كان يحس رعباً غريباً؛ رعباً تبخر تماماً عندما أحس بساقيه في الهواء، وشعر بصلاية قاع القارب، فاستدار ناحية الرصيف بسرعة وكأنه يصد وحشاً يريد التهامه، وكان ثمة قارب يشق المياه، وأيقن أنه أبوه.

وعندما نظر إلى الخلف، وجد قارباً يندفع بشراعه نحو رصيف الفحم، حيث أثار دم جده، ولم يكن هناك مفر، وجد نفسه يعمل دون وعي، يداه تعملان، ورأسه يعمل، وساقاه تقفزان هنا وهناك، وغاب تماماً، كل ما يذكره أنه كان يقفز في القارب ويمسك بالحبال ويوجه الدفة ويفرد القماش، وكأنه صنع ذلك آلاف المرات من قبل، لم يكن هناك خوف قط، وأحس بنار غريبة تتدلح في صدره.. وهمس بصوت جاف مرتعب:

«مش عاوز اموت، مش عاوز اموت».

وعندما رفع رأسه، كان أبوه يقف كالعملاق في القارب الآخر، يدور به ويندفع مسافات بعيدة، ثم يدور ويتجه نحوه من جديد. ولكنه في لحظة كان قد نسيه تماماً.. نسي أباه ونسي كل شيء عدا الشراع الذي انفرد في فرقة مدوية، وصفق القماش، وأصبح هائلاً كبيراً كجناح طائر ضخم.

قبض على ذراع الدفة ببسراه، ثم مال إلى الخلف وهو يجذب حبل الشراع بكل قواه.. وتوقف القارب عن الزحف وترنح، ثم مال بشدة.. ثم استقام وبدأ يندفع إلى الأمام.

لم يصدق جابر نفسه، ولم يصدق المعلم الحديدي عينيه، ولم يصدق الرجال الذين كانوا على الرصيف ما رأوه.

أحس الحديدي وقتها كأن الدنيا كلها لا تسعه، ووقف برهة يبخلق في قارب ابنه الذي كان يشق طريقه في سرعة، وقد امتلأ الشراع بالهواء، وجابر هناك، بجوار الدفة، متحفز، نصف قائم ونصف جالس، واضطرب قلب الرجال، وجاش صدره بكل ما فيه من حب وأمل.. وانطلق صوته هائلاً مدوياً:

«صل على النبي يا جدع.. صل عالنبي.. ترضي النبي.. حصوة في عينك ياللي ما تصليش.. عالنبي».

وتردد الصدى وحملته الرياح إلى كل مكان، ثم ارتد إليه مدوياً حلواً كأحلى ما سمع من أنغام.

استدار بقاربه نحو الرصيف، وانثنى الشراع ثم مال، ثم امتلأ بالهواء وكأنه يشير إلى ولده أن يتبعه، ودار قارب جابر، وانثنى الشراع، ثم مال، ثم امتلأ بالهواء. وكأنه يقول «حاضر»!!

والرجال على الرصيف يهللون، والقاربان يعودان، والرياح تعوي وتزجر وتصفر في غضب كأنها وحش قيده سلاسل، والقاربان يشقان الطريق وينزلقان فوق السطح المربد بسهولة وقوة.. و...

وكبر جابر.

أم

كانت هانم قصيرة حذاء.. قد أصيبت بجرح عميق في رقبته.. وعندما التأم الجرح كانت قد أصبحت خفء.

وشببت لأرى هانم تعمل عند جيراننا في البيت.. عائلة بسيوني، ورغم كثرة عددهم كانت تخدمهم جميعاً بهمة لا تعرف الكلل، تستيقظ في الصباح الباكر فنظف تعمل وتعمل حتى المساء المتأخر، ولا أراها إلا صاعدة أو هابطة أو عاملة، وصوتها المكتوم المختق يطن بين جدران البيت في رتابة.

كانت تحتمل الأذى من الجميع، وتخدم الجميع، وترضي الجميع... حتى نحن الصغار كثيراً، بل دائماً ما كنا نضربها بأقدامنا الصغيرة في ساقها المتورمتين المشوهتين، فلا تتأوه، إنما تنظر إلينا في بلاهة، وتحك ساقا بساق وهي تقول بصوتها المخنوق:

«بس بأه يا سيدي..».

ولم يكن هناك شيء لا تعلمه هانم؛ فهي تطبخ وتخبز وتغسل وتكنس وتمسح وترعى الصغار وتطعمهم... وتعمل كل شيء... وأي شيء. تحمل الأطفال وهي ذاهبة إلى السوق على كتفها، وتحملهم على ظهرها وهي منحنية تمسح الأرض أو السلم... ولم أسمعها مرة تتذمر، ولم أسمعها تشكو، بل كانت تلبى طلبات الجميع الكثيرة المتناقضة في صمت وجمود وآلية.

وأذكر مرة أن أخوين من عائلة بسيوني طلبا منها شيئين مختلفين في وقت واحد، وكل منهما مصرّاً على أن تلبى طلبه في البداية، ووقفت هي تتلقى ركلة من هذا وأخرى من ذلك، وكل منهما يصرّ، وهي تدور على نفسها في حيرة وفي عينيها انطفاء ينبئ بالعدم.. وفي حركاتها رتابة وركود وكأنها لا تحيا.

لم تكن هانم تحب أحداً. ولم نحس أن في حياتها طراوة. بل إنني لا أذكر أنني رأيتها مرة تقبل أحد الأطفال الكثيرين الذين كانت تحملهم، بل حتى لا تربت عليه. كانت تحمل الطفل وتضعه فوق كتفها.. هكذا، كأنها تضع صندوقاً أو حملاً... أي حمل!

كذلك لا أذكر أن هانم كانت ترتاح... بل إنني ما رأيتها جالسة إلا في النادر، فلم يكن للراحة معنى في حياتها، بل كانت تعمل وكأنها لم تخلق إلا لكي تعمل وتستم وتضرب وتسب وتهان.

ورغم حياة هانم هذه، فلم تكن تخاف أحداً قدر خوفها من عمي سيد.

كان رجلاً أنيقاً مهيباً ذا وجه عريض قوي.. يضع تحت إبطه كرابجاً سودانياً أسود ربيعاً، ويركب حصاناً ينقدمه دائماً أنور السائس الذي كان يصحبه في غيباته الطويلة التي لم نكن نعرف لأيامها عدداً. وكان أنور يببب الأيام التي يقضيها في البلدة في حجرة هانم فوق السطح، ولم تكن هانم هي التي تخاف عمي سيد فقط، كنا كلنا في الحقيقة نخافه ونخاف لدغات سوطه الأسود الطويل الذي كان الكبار يرهبوننا به.

ولم يكن غريبًا أن نسمع صرخات هانم المكتومة عندما يعود عمي سيد من إحدى جولاته، كان دائمًا يضربها بالسوط، ونراها بعد ذلك تهبط السلم وهي تبكي بكاء أجوف روتينيًا، بلا دموع، وهي تتحسس مواطن الألم من جسدها الضامر الواهي.. وكنا نقول إنها لا تبكي لأنها لا تحس، فجلدها ميت، وعقلها ميت، لا حياة فيهما ولا تؤثر فيها الضربات... حتى ضربات سوط عمي سيد!

ولست أدري متى سمعت هانم تغني لأول مرة، ولكنه كان شيئًا غريبًا على البيت كله، أخذ الجميع يتندرون به ويضحكون منه، واتخذوه زمنًا مادة لسخريتهم.

على أن هانم اعترها فجأة شيء من المرح غير مألوف فيها... كانت تغني وهي تعمل. ووجهها قد شملته راحة غريبة وكان جلدها المشدود قد استرخى في رحابة ورضا... وقد تميل فتقبل أحدنا أو تحتضنه، ولا تأبه لصفعات الصغير وصراخه فيها وشتائمهم وركلاته، بل كانت تضحك وهي تربت عليه.

بل إنها أخذت في أحيان كثيرة تلاعبنا وتضحك معنا، ونحن نسخر منها ومن صوتها المكتوم ووجهها القبيح وبشاعة رقبتها ذات الجرح العميق.

وعندما يسألها أحد ساخرًا عن سبب طربها، كانت تجيب وقد اكتسى وجهها بإشراق عجيب:

«يوه.. هو انا منيش نفس؟!».

وفجأة أصيب الجميع بمفاجأة مذهلة؛ فقد اكتشفوا - ولست أدري كيف - أن هانم حبلى!

واشتعلت النار في البيت، واهتز الحي كله، وأصاب الجميع ذهول ودهشة، وأخذت الأقاويل تترى، وأصبحت هانم مادة للحديث في كل مجتمعات الحي، بل البلدة كلها! وحاولوا أن يعرفوا الفاعل بشتى الطرق، ولكن هانم أصرت على الإنكار، فاتجهت شبهاتهم إلى أنور السائيس، وكان نصيبه لدغات من سوط عمي سيد... ولكنه فر في اليوم التالي من لفحات السوط وهو ينكر كل صلة له بالموضوع.

وثارت ثائرة الجميع، وانهالت الضربات والركلات على هانم، وتحملت وقاست كثيرًا من الهوان والعذاب. كنت أرى عمي سيد ينهال عليها ركلاً وشفعًا... ويكف هو ليقوم عمي عبده أو حافظ أو أحد الكثيرين في عائلة بسيوني، ولكنها كانت صامته. وبطنها مع الأيام ينتفخ، والتعب والإجهاد رسما خطوطًا سوداء تحت عينيها وعلى وجهها.

وكان الكل يصرون على شيء واحد؛ هو أن يجهضوا هانم. ولكنها رفضت، وازداد عذابها، وأصرت على الرفض، وأحفظ هذا الجميع عليها خاصة عمي سيد.

كان شيئًا غريبًا أن تعترض هانم أي مخلوق. وكان الأغرب أن تعترض كل مخلوق وتقف وحدها في معركة غير متكافئة، تتحمل في صبر وصمت وجمود وهي تدافع عن بطنها ضد الركلات المنهالة عليها بذراعيها في استماتة.

حتى نحن الصغار لم تسلم هانم من أذانا؛ كنا نضربها بأقدامنا في ساقبها مشيرين إلى بطنها المنتفخ ونحن نصرخ فيها بأصواتنا الرفيعة الحادة:

«جبتي ده منين يا خنفة؟!».

وفي الحقيقة أنني أول الأمر كنت أنظر إلى الموضوع من خلال عقلي الصغير في شيء كبير من الدهشة والحيرة... كنت أبحث عن وجه الغرابة في الأمر، فلقد كانت أمي كثيرًا ما ينتفخ بطنها وتلد إخوة لي وأخوات. ولم يكن أحد يركلها بقدمه أو يضربها أو ينهال عليها شتمًا وسبًا.

وعندما ينسُت من وجود تعليل للأمر انسقت في التيار بعواطفِي الصغيرة، وكرهت هانم كما كرهها الجميع، وأخذت أؤذيها وأركلها بقدمي الصغيرة.

وكلما مرت الأيام زادت ثورتهم، وزاد عناد هانم، وأصبحت حياتها جحيمًا قائمًا، والجميع يصبون عليها حقدهم وغضبهم بلا رحمة ولا هوادة، وهي تتحمل في صمت وصبر، لا تدافع ولا ترد الضربات إلا بمقدار أن تحمي بطنها منها... وامتلاً وجهها بالكدمات، ومزق سوط عمي سيد لحمها، واعتبرها الناس شيئًا نجسًا وحرموا عليها دخول بيوتهم، ولم تكن تمر في شارع دون أن ينالها أذى، أو سخرية أو إهانة. ولكنها كانت تمضي في طريقها لا تلوي على شيء... تتحمل السخرية والإهانة في صمت وصبر عجيبين.

ومرت الأيام - ولست أدري كيف مرت بها - وهي تتحمل ما تتحمله من صنوف العذاب والهوان. وتدافع عن حملها بإصرار وعنادة، وقد اعترى حياتها تغير كبير رغم هذا كله... ذلك أن الجمود الذي كان ناشرًا جناحيه على حياتها اختفى، وأصبح في عينيها بريق يكاد يضيء تقاطيعها المشوهة.

وكرت الشهور... وسمعت ذات صباح أنها وضعت طفلًا... وبقيت هانم في حجرتها فوق السطح لا تبرحها، ولا يصعد إليها أحد، وأصبحت منذ ذلك اليوم تسليتنا الوحيدة... كنا نتسلق سلمًا وراء حجرتها وننظر من شباك صغير في أعلى الجدار، وننقرج عليها وهي ترضع وليدها أو تهدده، كأنها حيوان غريب... وكان الصغير كتلة من اللحم الأحمر، قد لفته هانم في خرق كثيرة... ولست أدري لم كان يعتريني الاشمزاز عندما كنت أرى ابن هانم الذي لم نكن نعلم له اسمًا!

وأهملتها عائلة بسيوني... لم يكن يصعد إليها أحد بطعام أو شراب حتى هزلت فوق هزالها، وضمرت فوق ضمورها، وتحركت ضمائر كثيرة، حتى أمي التي كانت تسبها دائمًا إذا جاءت سيرتها، والتي حرمت عليها دخول بيتنا... رأيتها مرة تبكي وأنا أخبرها كيف رأيت هانم، وما أصابها من ذبول وشحوب، وأرسلتني لها بطعام، وأصبحت هذه عادة كل وجبة... أصدع بالطعام إليها وأقدمه لها من بعيد.

وكان الأمر شاقًا على نفسي في البداية، كنت أحس كأنني أختنق إذا دخلت حجرتها... ولكن سرور هانم كان كبيرًا وهي تراني أدلف من الباب وفي يدي الطعام، وما تكاد تراني وأنا داخل عليها حتى تقول وهي تدفع الطفل نحوي:

«بص. مش حنو والنبي يا سيدي؟!».

ولم أكن أعلم سبب الاشمزاز الذي كان يعتريني كلما رأيت الطفل وهو يمتص ثدي أمه، وقد أطبق عليه بكفيه الصغيرتين وأنشبت فيه أظافره اللينة، ولكني كنت لا أملك سوى أن أراها كل يوم مرات. وقد أحسست بمرور الأيام أن هناك شيئًا ينمو في نفسي، وبت أحب الوقوف لأطيل النظر في وجهه الصغير... ومع الأيام أحسست بنفسي أحبه، وشعرت برغبة جارفة في الاقتراب منه... وقد جازفت مرة، وربت

عليه وأنا أبتسم... وما إن رأيتني هانم أفعل ذلك حتى شاهدت دموعًا في عينيها وهي تردد في رجاء ولهفة:

«مش حنو والنبي يا سيدي؟!».

لست أدري لم بكيت وقتها. ولم أستطع سوى أن أبكي وأنا أغادر الحجرة... ولكن صداقة قامت بيني وبين ابن هانم في الخفاء، فلم أكن أجروء أن أخبر أحدًا أنني أحمله، بل أقبله وألاعبه، وكان سرور هانم بذلك شديدًا حتى خلت أنها تكاد تطير من الفرح والغبطة.

وأحبني ابن هانم... وأصبح يرتاح إلى صدري وإلى البزازة التي أحضرتها من دولاب أمي، وشغلني هذا الأمر عن اللعب مع أقراني زمناً، وبت لا أعرف لي طريقاً غير حجرة هانم وابن هانم... ولقد سألتها ذات مرة عن اسمه فأخبرتني أنها سمته «سيد».

وقلت لها على الفور:

«على اسم عمي سيد؟!».

ولم أدري لم اعترافها في تلك اللحظة وجوم غريب، حتى خلت أنها ستموت وأنا أرى وجهها المحققن يكاد ينفجر، وبكى الصغير، ولهوت في إسكاته، ولكن منظر هانم كان يلح علي.. ثم عزوته إلى أنها خائفة من عودة عمي سيد.

ذلك أن عمي «سيد» كان غائباً منذ فترة طويلة، قبل أن تضع هانم. وكانت غيبته قد طالت هذه المرة عن كل المرات، والجميع ينتظرون عودته بشيء كبير من القلق، وفي نفوسهم تساؤل عما سيفعله بهانم عند عودته.

وأخيراً عاد عمي سيد.

وأصاب البيت وجوم كبير. وأخذت الألسنة تتساءل في خفوت ورهبة عما سيحدث... وأصابني هلع وقلق لما سيصيب سيد الصغير... كان عمي سيد قد صعد إلى مسكنه والسوط تحت إبطه كالعادة، وعلى وجهه العريض لمحت الهم والكمد.

ومر وقت قصير رأيتُه بعدها يصعد إلى السطح وفي يده السوط... وكان شعوري بالقلق يعذبني، وشيء خفي يدفعني إلى الصعود.

وكان قلبي يدق بقوة وعنف وأنا أقترب من حجرة هانم، وسمعت في الداخل همهمة كانت تشتد وتخفت، ووجدتني أتسلل إلى السلم وأتسلقه، وأطل في حذر من الشباك.

كان منظرًا غريبًا ذلك الذي رأيتُه؛ هانم تقف أمام عمي سيد، والطفل ملقى في ركن الحجرة... وكان واضحًا أن عمي «سيد» يريد بالطفل أذى، وهانم تدافع عنه.

لولا خوفاً من السوط الرهيب لاندفعت أرجو عمي «سيد» وأقبل يديه بل قدميه ليترك الطفل الرضيع. ولكنني دهشت وأنا أسمع عمي «سيد» يحايل هانم.. بل يربت على كتفها، ولكنه كان يتكلم في صوت جاف جامد وهو يقول بين الحين والآخر:

«لازم يموت الولد ده يا هانم».

ولكنها كانت ترفض في عناد وإصرار... وأخذ عمي سيد يهددها، وهي لا تتزحزح قائلة في قوة أدهشتني:

«دابني.. دا ضنايا..!».

وأخذ صوت عمي سيد يرتفع تدريجياً... وزمجرته تكاد تهد جدران الحجر، ولكن هانم لم تلتن... واجتاحني سرور بالغ وأنا أرى إصرارها يهز أعماقي هزاً عنيفاً... وأخذ يلوح لها بيده والسوط فيها وهو يقول في غيظ وحقد:

«لازم يموت.. لازم يموت.. فاهمة..؟».

وفي عيني هانم كنت أرى شيئاً غريباً... وأحسست رغم صغري أن الحياة تتدفق منهما في قوة، حتى اجتاحني شعور بأنني أريد أن أقبلها... نعم أقبل هانم الشوهاء الخنفاء.. كنت أراها والدهشة تملؤني ترد على عمي سيد بعنف وقوة وإصرار، ثم تردد بين الحين والآخر:

«موتتي أنا الأون. أنا الأون».

وخرج صوت عمي سيد في فحيح عنيف:

«إنتي بتردي عليا يا بت؟!».

وردت عليه قائلة:

«إنت مانك ومانه.. كن الناس عانفة إنه ابني وبس».

وصرخ عمي سيد صرخة مدوية وهو يقول:

«لكن أبوه، حايسألوا كل يوم عن أبوه..».

كان يبدو أن عمي سيد معذب... والكلمات تخرج من حلقه متحشجة متقطعة، وهانم تقول له:

«منكش دعوه.. ده ابني أنا بس.. أنا منيش غينه..».

وحاول عمي «سيد» أن يتقدم من الطفل... ولكن هانم حالت بينه وبين الرضيع... فازداد هياج، وارتفع السوط في الهواء، ثم هوى يمزق جلباب هانم.. ثم ارتفع وهوى... ومزق لحمها في قسوة رهيبية... وظل يضربها وهي جامدة صامتة، وتفجرت الدماء من أماكن كثيرة في جسدها، ولكنها لم تلتن، ولم تتراجع، ولم تتخل عن الدفاع عن وليدها.

وعمي سيد يصرخ ويزمجر في حقد هائل وهو يهوي بالسوط بلا رحمة:

«لازم يموت.. لازم يموت..».

وطال الصراع... ومزق السوط صدر هانم ووجهها وظهرها، ثم سقطت على ركبتيها من الوهن، ولكنها كانت ممسكة بساقي عمي سيد، وهو قد اجتاحه جنون أرعبي وأخافني... وظل يهوي بالسوط وهو يصرخ، وهي تغمغم وتئن، وأصواتهما تختلط بأصوات الوليد الباكي الصارخ. ولسانه الصغير يتلاعب في فمه المفتوح كأنه يلعن ضارب أمه... ويدها وقدماه تضرب في الهواء في عنف كأنه يريد أن يفعل شيئاً.

ولست أدري كم من الوقت مضى... ولكنني وجدت عمي «سيد» يكف فجأة، وقد خارت قواه، ووقف ينهج ويلهث بصوت عالٍ... ثم استدار ومضى خارجاً وهو يترنح.

كنت في وقتي أرتعد، ولم أستطع أن أبرح مكاني... ودموعي تتساب من عيني دون أن أشعر، وهانم ملقاة فوق الأرض وقد اختلطت الدماء المتفجرة من جسدها، وكانت تئن أنيناً مكتوماً... وتبكي، لكن بكاءها هذه المرة لم يكن أجوف جافاً، بل كان بكاء حاراً، وهناك دموع تنهمر في كثرة من عينيها وهي تنظر نحو الباب الذي خرج منه عمي سيد، وتهز رأسها في إشفاق وتقول:

«إخص يا سيد.. كده.. دا جزائي!».

وجذني كلامها من بحر الحيرة الذي كنت غارقاً فيه... ونظرت ورائي لأرى عمي «سيد» يغادر السطح وهو لا يكاد يتماسك، ورأيت وجهه العريض وهو يستدير نحو السلم. وأدرت رأسي بسرعة أنظر إلى الوليد الباكي، وفي عقلي الصغير خواطر غريبة!!

وأخذت هانم تزحف بعد برهة... ودمأؤها تترك آثاراً على الأرض... واقتربت من طفلها الصارخ، ومدت يديها المرتعشتين وحملت الصغير بينهما، ثم ضمته إلى صدرها، وناولته ثديها الممزق الدامي... وهو سادر في صراخه وبكائه، وظلت تربت عليه وتهدهده، وهي تقول خلال شهقاتها:

«إخص يا سيد.. دا جزائي؟!».

وأخيراً، التقط الطفل الثدي وهو يغمغم... ثم يصمت، ويغرق في الرضاعة... بينما كانت أمه تهزه في حنان وتربت عليه بكفها، ودموعها تنهمر من عينيها، وتسقط فوق صدرها، وتنزل على ثديها، وتختلط برضاع الصغير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الابن

خيرية لا تتجب.

وهي مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت... ليس لها سوى زوجها محمود.

ومحمود يتحرق شوقًا للخلفة... يريد طفلًا.

والسنون تمر، والأيام تجري، وينتهي الزمن عند نقطة تحدها أنوثة المرأة بشهر... وتنتظر خيرية بقلب واجف، تضطرب وتتضرع، وتظل الليالي ساهرة تططب على زوجها وتضحكه، وتمتص الأمل من بين شفثيه، وتمر ليلة، وليلة، ويأتي اليوم الموعود، وما تكاد تحس مغصًا حتى تنفجر باكياً. لم تصبح أمًا بعد.

الأطباء يؤكدون أنها ليست عاقراً.. وأن زوجها كذلك.

وهي لم تدع شيخًا ولا ضريحًا ولا وليًا إلا وزارته ونذرت له.

قالوا لها «معمول لك عمل»، فذهبت إلى الحاجة وسيمة وأعطتها عشرة جنيهاً مما دبرته واختزنته، ولا يدري أحد حال الدنيا المنقلبة، وظلت تتردد عليها أيامًا طويلة، واشترت ههدداً وذبحته وشربت دماءه، ولكنها لم تحمل.

ذهبت إلى الكوبري وجلست تحته لكي «تنخض» عندما يمر القطار، وجاء القطار وانخضت، ولكنها لم تحمل.

أما محمود فقد كان في أول الأمر يسخر من تلهفها وضيقها ويقول لها: إن هذا أمر الله... وبعد ذلك صمت ولم يعد يقول إنه أمر الله، بل أخذ يردد في تتاقل كلما جاءت سيرة العيال «على الله» فقط!

ثم أحست بعينيه تجوسان خلال البيت سارحتين، وعرفت أنهما تبحثان عن طفل.

وخيرية مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت، ليس لها سوى زوجها محمود.

ومضت أعوام ثلاثة... وأصبح الأمر لا يطاق، وأصبحت خيرية ترى في كل يوم جحيم الضرة، وبرودة الوحدة والطريق، وهي وحيدة، ليس لها سوى زوجها محمود.

وعندما قال لها محمود ذات ليلة وهما متجاوران فوق الفراش: «نفسى فى عيل يا خيرية»... بكت، فأولها ظهره، وزام، ثم قال فى تبرم: «هو العياط حاجيب عيال؟!». «

وبدأ محمود يتذمر علانية، ثم بدأ يلمح بأنه لا بد سيتزوج. وعندما قالت له ذات مرة: إن هذا أمر الله... انفجر فيها قائلاً إن الله حلل له الزواج من مثنى وثلاث ورباع!

ومحمود مبسوط، ويستطيع الزواج من غيرها وألف من تتمناه زوجًا لها، وهي تعلم ذلك جيداً، وتعلم أيضاً أنها مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم، ليس لها سوى زوجها محمود.

وأحست كأن الدنيا تطبق بكليتها على صدرها... وبكت كثيرًا، وتوسلت كثيرًا، دون فائدة!

وحُيِّل إليها أن لا فائدة ولا مفر، ولا بد من الاستسلام المكتوب، فلم ينفذ زار، ولم يشفع ولي، ولم يحرك قلب محمود عمل أو شبشبته!!
ولكن المشكلة حلت ذات يوم.

يوم أن جاءت حبيبة ابنة خالتها من دمنهور، وشاهدت دموعها فضحكت منها وسخرت لعجزها. وخيرية تعلم أن حبيبة مستقوية، وأنها ست قادرة، واعية، تعرف كيف تعيش.

مصممت حبيبة بشفتيها وهي تتهمها بالخيابة وصغر العقل، ثم مالت عليها وهمست في أذنها بالأمر كله... وهو لن يكلفها أكثر من عشرة جنيهات.
«خلاص يا حبيبة؟!».

«عيب يا اختي، هو كلام عيال!».

«أوعي يا حبيبة».

يوه ما بلاش كلام فارغ أمال!».

وسافرت حبيبة...

وحل الموعد... ودار الشهر دورته، وانتهى الزمن، ووجفت خيرية، وفوجئ محمود بأن زوجته حامل... وكاد يطير من الفرحة، وكان يومًا من أسعد أيامه. وفي الليل، عندما أراد أن يقبلها تمنعت وتدللت، وادعت أنها تعب. وضحك. ونام وهو يضم بين جفنيه صورة طفل يقول له «بابا»، ثم همس لنفسه برضاء: «عندها حق تتدلع!»

ومر أسبوع وأسبوع، وتوحمت خيرية، وطار محمود يأتي لها بالخوخ والتفاح وكل ما كانت تطلبه. وأصبح يخاف عليها من الهواء، وعاد حبه ومرحه، وكلما توغلت الأيام في الشهور تجلى حبه لها وخوفه عليها. وعندما قالت له ذات ليلة صافية راقت فيها بسمة الحياة، وكانا متجاورين يضحكان، عند ما قالت له: إنه لا يحبها بل يحب طفلها.. ضحك وقتها وقال وهو يداعبها:

«بذمتك الحب اللي من غير عيال ينفع؟!».

وأحست وقتها كأن خنجرًا قد غرز في أحشائها الفارغة... وبادرت في اليوم التالي بإرسال خطاب إلى حبيبة التي ردت عليها تقول لها ألا تتعي همًا وأن الأمانة ستكون جاهزة في أي وقت.

وعندما تعجب محمود من عدم انتفاخ بطنها، ضحكت منه ساخرة، ثم قالت إن هذا أول بطن، وأول بطن لا يظهر كالبطن التالية.

ومحمود رجل مؤمن، من بيته إلى الجامع، ومن الجامع إلى الدكان، لا أم وراءه ولا أب، ليس سوى أخت في أقاصي الصعيد، والجو خال، وكيف كنت خائبة طوال هذا الوقت يا خيرية؟!!

ثم أيها كانت أيضًا سمينية، وكان واضحًا أن هذا الأمر من الممكن حدوثه، وصدقها محمود وقد امتصته السعادة وبات لا يعيش إلا لليوم الذي سيسمع فيه كلمة «بابا».

وفي الحقيقة أن خيرية كانت تمر في تلك الفترة بأزمة عنيفة.

ذلك أنها استبشعت الأمر في البداية، ولم تكن لتستطيع أن تتصوره. وهي بعد سفر حبيبة، كادت أن تتراجع، وانتابها الذعر أياماً. ولكنها ما إن كانت ترى شوق زوجها وقلقه، وما إن يترأى لها شبح الضرة، وتظن في أذنيها كلمات زوجها - حتى يهون كل شيء.

والأمر كان بسيطاً للغاية.

حبيبة أكدت لها أنها تستطيع أن تدبر لها طفلاً بعشرة جنيهاً، وما عليها إلا أن تتظاهر بالحمل، وأن تحرص على ألا يكشف زوجها الأمر، وفي بداية الشهر التاسع تأتي حبيبة لزيارتها ثم تصر على أن تصحبها معها لترعاها أثناء ولادتها، فهي وحيدة، لا أم لها ولا أخت سوى حبيبة.

وعندما قالت لها خيرية: «وجوزك يا حبيبة؟»، ضحكت منها وهي تقول: «وهمَّ الرجالة يفهموا في الحاجات دي؟».

كانت حبيبة تتحدث في هدوء وثقة، لم تهتز فيها شعرة، ولم تضطرب لحظة، وعندما كاشفتها خيرية بخوفها اتهمتها بالخيانة وصغر العقل، وأن مثلها ليس لمن العيش مع رجال هذا الزمن.

والإنسان عادة لا يقدم مرة واحدة، إنه يقف حائراً، يغلب عليه الخوف في البداية، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ولا يحتاج إلا أن يخطو خطوة، فتنبت قدمه، والخطوة التالية هي بداية الطريق. ولن يقف بعد ذلك، وسيسير حتى النهاية.

وهذا ما فعلته خيرية... عندما أخبرت زوجها للمرة الأولى أنها حامل، كادت في اليوم التالي أن تتراجع، وهمت في المساء أن تخبره أنها أخطأت، ولكنها ما كادت تنطق كلمة، حتى سمعته يحمد الله ويشكر فضله، ويقبل يده ظهراً وبطناً.

واضطرب قلبها، وأجلت الأمر إلى اليوم التالي.

كانت تحبه، وكانت تخاف عليه، وكانت أيضاً في رعب دائم من المستقبل، فهي مقطوعة من شجرة، وحيدة، لا أب لها ولا أم ولا أخ ولا أخت، ليس لها سوى زوجها محمود.

وكلما مرت الأيام كانت تحس ثقلاً يشدها إلى الأرض، وتحس بكل يوم وكل ساعة كأنها تربطها بما اعتزمته، وكلما بعدت الشقة، وكلما طال الزمن وتعددت الأسابيع ثم الشهور أصبح مستحيلاً أن تتراجع. ومر شهر وآخر وأصبح لا مفر... وسارت في الطريق في ثبات وقد اعتادت أشواكه، بل إنها أخذت توغل فيه بعقلها، وتستعجل الأيام وتسبقها بخيالها.

وبدأت تفكر في الطفل.

وتوغل الأيام مرة أخرى في الزمن، وتمر الشهور وينتظم تفكيرها تدريجياً، ويهدأ بالها، وتترتب أفكارها، ثم أخذت هذه الأفكار تأخذ خطأ مستقيماً ينتهي عند قلبها. فأحبتة. وزادها حبها إيغالا في الأمر. وفي الشهر الثامن كادت أن تصدق نفسها وتؤمن فعلاً أنها حامل.

وجاءت حبيبة، وسافرت معها خيرية!!

وعندما تسلم محمود برقية تخبره أنه أصبح أباً... طار إليها والفرحة لا تكاد تسعه، وعندما رأى الطفل في مهده وقد انحنت عليه خيرية، كاد أن يبتلعهما من فرط

نشوته.

لقد أصبح منذ ذلك اليوم «أبو جلال».

حقاً أنه تضايق في أول الأمر لأن خيرية لا ترضع ولدها، ولكن شهقة حبيبة، وأوامر الطبيب التي منعها من ذلك، وسيل الكلمات التي انسابت من فم الولية الطيبة، أسكنته وأجمته.

والحقيقة أن هذا الأمر ما كان يهمه، فقط... شفتا الصغير وهما تتفرجان في صرخة، وعيناه الصافيتان الرائقتان، ويداه الدقيقتان وهما تتحركان في الهواء، تتفرجان ثم تقتربان في عصبية لذيدة، وقدماه الصغيرتان ترفسان الهواء... وهو كله ولده، كتلة حية من قلبه المتلهف... كل هذا أنساه كل شيء، وطفق يعيش بكل جوارحه في الجسد الصغير، يرقب حركاته، ويرقب رضاعه، ويرقب بخياله عمره المتدرج مع الزمن، وجسده الذي سيكبر ويكبر ويصبح رجلاً ذا شارب، وسيعلمه، وسيصرف عليه، وسيفعل كل ما لم يفعله أب من أجل ولده، فهو ولده وهو قد أصبح أباً.

في الليلة الأولى، عندما دبرت حبيبة الأمر ووزعت زوجها لأن خيرية جاءها الطلق، وعيب أن يبقى رجل في البيت، وعندما رتبت كل شيء، الحجرة والمياه والطشت والخرق، ودماء دجاجة، وعندما دق الباب ودلفت أم مسعود تحمل بين يديها لفاقة... قفز قلب خيرية بين ضلوعها في عنف، وانبهرت أنفاسها، وتلاحقت باردة رطبة. وكانت حبيبة توحد الله وتصلي على النبي وهي تكشف الغطاء عن وجه صغير، ولم تدر خيرية ماذا تفعل... ولكن حبيبة كانت تدرى.

ناولتها الطفل بسرعة، وأحست وهي تحمله بين ذراعيها برجفة شديدة شملت كل أوصالها. ولم تتابع المناقشة التي دارت بين المرأتين والتي انتهت بخروج أم مسعود بعد أن قدمت لهما ورقة وهي تقول بصوتها المتحشرج المنقطع:

«آدي شهادة الداية... وابقوا سموه بكرة في المستوصف».

ومضى الوقت، وأخذت خيرية تختلس النظر إلى وجه الطفل، ثم أطالت النظر بعض الشيء، ثم شملت تقاطيعه بعينيها... ووجدته مسمماً هادئاً، وسرها أن شعره كان أسود وأن عينيه كانتا عسليتين، وعندما بكى ناولته البرازة، وكانت حبيبة قد أعدت كل شيء وجاءت لتجلس بجانبها فوق الفراش الذي أعدته إعداداً دقيقاً، ثم تناولت منها الصغير وأخذت تلاعبه وتضاحكه وتتاغيه وكأن شيئاً لم يحدث، وعندما سمعتا طرقة على الباب ناولتها حبيبة الصغير وهي تقول:

«خدي ياختي ابنك لما أشوف مين».

وتحرك شيء غريب في أعماق خيرية عندما سمعت كلمة «ابنك»... وما درت إلا وذراعاها تضمان الطفل في حنان، وأخذت تتسمع إلى غمغمته وهو يمتص من البرازة غذاءه، ويرفص بقدميه الصغيرتين الحمراء، وامتصتها حركاته، وهزت شفتاه الرقيقتان أحلامها، وبعث منظر لنته الحمراء التتميل في صدرها؛ ذلك التتميل الذي أخذ ينتشر ويجوس خلال ثديها. واجتاحها رغبة طاغية في إرضاعه!

قاومت الفكرة في أول الأمر، ولكنها أخذت تلح عليها. والليل يوغل. والسكون يغريها بالكثير... وهي وحدها معه. وهو مستسلم قابع في أحضانها، وتسربت يدها

إلى صدرها في تردد، واختلست النظر إلى الباب المغلق، وامتدت أصابعها لتجذب ثديها إلى الخارج، ثم انحنت تقربه من الفم المفتوح نصف فتحة، وعندما أحست الهواء الساخن المنبثق من أنفه الصغير الدقيق يطوف بثديها، دفعت الحلمة إلى الشفتين، فتسربت إليها هزة لذيدة نشوة... وعندما انطبقت الشفتان على الحلمة، ولعب اللسان الصغير حولها، أحست ذلك الدفء الرفيع يتسرب إلى كل جسدها فينمله، وانفردت ساقاها المثنيتان تحت الغطاء... وغرقت بكليتها في الحلم الجديد، وأغمضت عينيها وقد امتصتها نشوة جارفة، ثم ضمت الطفل بكلتا ذراعيها وانحنت بشفتيها تقبل رأسه الصغير... ونسيت كل شيء عدا أنها ترضع ولدها.

وتسرب حبه إلى قلبها، وكان ينمو وتتضح ملامحه، فينمو حبها ويطغى على كل مشاعرها. وعندما ابتسم لأول مرة، أحست كأنها ملكة الدنيا. وعندما جلس وحده، شعرت كأنها لا تحتاج إلى شيء سوى النظر إليه. وعندما بدأ يحبو، استقرت عواطفها. ولكنه عندما وقف، أحست أنها راسخة الحياة. ويوم أن خطا خطواته الأولى، اندفعت تضمه إلى صدرها وتبكي من فرط سعادتها.

وتسرب الأمان إلى قلبها... ولم تعد تحس أنها مقطوعة من شجرة ولا وحيدة، حقاً إنها بلا أب ولا أم، ولكن لها جلال الصغير، ولدها الذي أخذ يخطو خطواته الأولى. ويوم أن قال لها «ماما»... أخذت تلح عليه وتعلمه، ولم تتركه إلا عندما قال «بابا». ومرت الأيام...

ولم يفاجأ محمود ذات ليلة عندما أخبرته خيرية أنها حامل... وضحك وهو يقول: «هي العقدة انحلت؟!».

ولكن خيرية لم تتم في تلك الليلة، وظلت ساهرة تبخلق في الظلام، وتحضن الصغير ولا تصدق... لقد كانت حاملاً حقيقة هذه المرة!!

كان الأمر غريباً، وكانت تحس أشياء صغيرة تطوف بنفسها طوفاناً هادئاً محيراً. وعندما تسربت خيوط النهار. امتدت يداها إلى الصغير تضمه إلى صدرها كأنها تحميه من شيء مخيف، وانتابها الذهول فترة، وعجب زوجها لذلك وأخذ يردد في مرج:

«زي ما يكون أول مرة!!».

وفي غمرة ذهولها لم تنس «جلال»، بل كانت تحس أحياناً أن حبها له يزداد ويقوى ويشتد، ولكنها كانت دائماً تفكر في الزائر الجديد، دائماً وبلا انقطاع.

وعندما توحمت، أحست كأن خيطاً يربطها بمجهول يزحف، لم تتدلل، ولم تتوجع، وإنما أخذت الأمر برهبة وخشوع لم تدر لهما سبباً.

وليلة أن وضعت «عادل» لم تتم. كانت هناك شفتان تمتصان من ثديها الحياة. وكانت تحس إحساساً مقدساً يربط عواطفها بالرضيع، وأن هناك شيئاً كبيراً، ربما أكبر من الحياة، يجذبها إليه. كان محمود نائماً، وكان جلال قد تعرت ساقاه وقد رفس عن نفسه الغطاء وامتدت يدها لتدثره، ووقع نظرها على وجهه... وتوقفت يدها.

كان الليل صامتاً مغرقاً في الصمت، وكانت هي تفكر، بل كانت تبحث عن شيء سرعان ما اتضح وسط ظلام تفكيرها، أحست مرهوبة بحبها لجلال باهتاً شاحباً،

أحست به يتضاءل ويصغر، ثم يصبح لا شيء بجانب شيء آخر، شيء غريب هائل كان يدثرها كلها، ويدثر عمرها، ويدمجها دمجاً مع قطعة اللحم الصغيرة التي كانت تمتص من ثديها الحياة.

وحاولت أن تثور على نفسها، وأن تبتسم عندما تتذكر بسملة جلال... تلك البسملة التي كانت تسعدها كل السعادة، ولكنها أحست بزيف البسملة، زيف صديء لا جدة فيه، ليست له تلك اللمعة التي تجلجل في بكاء عادل!!

وكبر عادل... ومع نموه كان يمتص حنانها امتصاصاً... لم تعد تربط بين ملامحه التي كانت تتضح وبين حياتها، كانت ترى فيه شيئاً يملأ حياتها كلها وتفكيرها كله، ويضعها معه في نطاق ضيق، في عالم ليس فيه سواهما.

ويوم أن بكى جلال وبكى عادل، وقفت بينهما حائرة. كانت تنظر إلى هذا ثم تنظر إلى ذاك. هذا ابنها... وجلال؟ إنه... ولكن هناك ذلك الخيط الذي يشدها بعنف نحو عادل... وترددت، وازداد بكاء الاثنين، فما درت إلا وهي تندفع نحو عادل بكل قلبها وعواطفها.

ثم أخذت تهرب... تهرب دائماً من شيء مجهول لم تكن تدريه وإن كانت ملامحه أخذت تظهر لها وتتضح، فتغمض عينيها عنه وتواصل الهرب. ولكنها واجهت الحقيقة ذات يوم.

صفع جلال «عادل»... فما أحست إلا ويدها تهوي بكل قوتها على صدغه. ومنذ ذلك اليوم، سقطت الغلالة الرقيقة التي كانت تحجب عنها الحقيقة التي نمت في ظلام أعماقها، ثم أخذت تجاهر أمام نفسها وتعلن سر مشاعرها. كرهت «جلال».

كرهته وهي تشعر أنه دخيل على ولدها وبيتها، دخيل ينتزع من ابنها أباه، ويسلب منه حقه.

عندما كان يبكي كانت تضربه. وعندما كان يضحك كانت تزجره. وعندما كان محمود يلعبه كانت تحس النار تكوي فؤادها.

وجلال يكبر، ومحمود يزداد حبه له، ويزداد مقتها هي له.

وأصبحت لا تحتمل الأمر.

ماذا لو مات؟!!

وارتجف قلبها... ثم هدأ.

ماذا لو مات؟!!

ولم يرتجف قلبها... وترقرقت في عينيها دموع لم تدر لها سبباً.

ماذا لو مات؟!!

ولم يرتجف قلبها وظلت عيناها جافتين.

ثم أحست أنه يجب أن يموت، وأنها يجب ألا تكون خايبة. وأن ترعى حق ولدها.

نعم يجب أن يموت. ويجب أن يبقى حب محمود لابنه الحقيقي. لعادل وحده.

ووسط هذا كله، كانت الحياة تضيق بها، ووجه جلال يعذبها. كانت الحقيقة كبيرة رهيبة مسطحة تغطي كل حياتها، وتسد أمامها كل الطرق، وتسجنها في نطاق ضيق لا يترك لها منفذاً لشيء.

وهو شيء رهيب أن يحس المرء كرهاً ومقماً نحو إنسان، المفروض أنه يحبه، شيء رهيب على النفس. قد يضطر المرء إلى أن يكتب أحاسيسه، وأن يظهر غير الحقيقة... وهكذا كانت خيرية، تتقاذفها أنواء حيرتها من ناحية لأخرى، فقد تصفو ساعة، وتعلم أن لا ذنب له، وقد تقبله وقد تضاحكه، ولكنها كانت تحس كأنها تبذل له ما ليس من حقه، بل لقد أصبحت تحس كأنها تعطيه ما هو حق لعادل. وأصبحت قسوتها ظاهرة، وكرهها واضحاً، ويصرخ فيها زوجها ألا تقسو عليه، وتقول هي إنها تربيته، ويبرطم هو قائلاً: «زي ما يكون مش ابنها»!

ثم بدأت تحس في خوف الصغير لذة، وفي ارتجافه منها نشوة، وفي صمته وانطوائه ارتياحاً... وشعرت أنه يلغي نفسه بنفسه، أصبح يقبع في ركن من الأركان صامتاً، تدور عيناه الصغيرتان في المكان في حيرة وألم هائل يتلوى له الجسد الطري، ويذبل وينحل، ويزحف الأصفرار إلى جلده، لا يأكل إلا بمقدار ما تعطيه، ولا يضحك إلا بمقدار ما يسمح له وجود أبيه.

ولا شيء يثني خيرية. والأمر قد أصبح طبيعياً... قسوتها أصبحت طبيعية، وكرهها له أصبح طبيعياً. واعتادت نفسها ممارسة ذلك، وارتاحت لمنظر الألم الذي رسم خطوطاً سوداء حول العينين الصغيرتين اللتين أصبحتا تبرقان بريق غريب؛ بريق لم تستطع خيرية أن تواجهه بعينيها مرة... مرة واحدة.

وكان يوم...

كانت تعد الطعام عندما انسكبت مياه تغلي لتكوي ساقها، وصرخت، وجاءت جارة وجارة وجارة، وازدحم المكان، وصراخها يعلو، وألمها يشتد ويزداد، وجاء محمود، وذهبت معه إلى الطبيب، وعادت وألمها قد ازداد، وقلبها يتمزق مما عرفت.

وانقضى اليوم ولا تدري كيف انقضى... وجاء الليل ليترك محمود الحجرة هو وجلال حتى تنام.

ولكنها لم تتم.

بقيت مفتحة العينين تبخلق في لا شيء. يكويها ألم ساقها المربوطة، ويكوي نفسها شيء آخر؛ شيء مرعب... ويجذبها النوم بعنف لا برحمة، ويوقظها الألم بقسوة، ويدور رأسها، ولا تدري إن كانت نائمة أم مستيقظة، قد تكون هذه أم تلك، وقد تكون بين بين، والأمر في كل الحالات واحد.

تقفز إلى ذهنها ساق مشوهة محترقة، ويتسرب الألم من ساقها إلى فخذها فبطنها وظهرها وصدرها ثم يرتفع ليطوف كإعصار رهيب يسحق رأسها.

لقد أصبحت مشوهة... وقد رأته كل شيء، رأته ساقها حمراء فاقعة الحمرة، تكاد تصبح قطعة من الدماء اللامعة، وقد تدلى جلدها الرقيق كأنه ثوب مزقته يد عابثة.

نعم... لقد أصبحت مشوهة. وانطلق الخوف كالمارد من جديد.

محمود، ماذا سيفعل؟! ماذا سيقول؟! ترى هل سيظل يحبها؟!

ترى، هل سيجزع من منظر ساقها؟ وهل سيتزوج غيرها؟ وماذا سيكون مصيرها؟
وماذا... وماذا...؟

أفكار وأفكار وأفكار... ورعب يلد رعباً، وجزع يتلو جزعاً، وثعابين الخوف تلدغ كل قطعة في جسدها... فتتلوى. والليل مظلم، مظلم جداً، والسكون مخيف، ولا نوم ولا يقظة، شفتاها مفتوحتان في فزع، وأنفاسها لاهثة تتردد بسرعة، وأهة تخرج بوعي، وأخرى بلا وعي. ودوامة لا ترحم... محمود، عادل، طلاق، صراخ، وحدة، حزن، بكاء، تشويه، وساق حمراء كقطعة لأمعة من الدماء تهتز وتتأرجح في الظلام كاللهيب.

كابوس وراء كابوس، وحلم مزعج، ويقظة أشد إزعاجاً، وألم دفين قاتل.
وهدأت قليلاً.

وأخذت تتسمع سكون الليل، وعرق بارد يغرق كل جسدها المهدود، وهممة تأتي من بعيد، صوت صغير رفيع مرتجف، لا تدري من أين، ولكنه لا يذهب... أهي في حلم؟ أهي نائمة؟ لا تدري، ولكن الصوت يأتي، لا يغيب، رفيع متموج مع هواء الليل الساكن المغرق في السكون.
وتنتبه لنفسها قليلاً... وتحس شيئاً.

ثمّة شيء يتلمس في الظلام ساقها، وثمّة ضوء يتسرب من المصباح السهاري في الصالة... ويرتد إليها وعليها شيئاً فشيئاً، وتترك مكانها من الحجرة بعد لأي، والضوء شاحب، ولكنه يوضح فضاء الحجرة، والصوت لا يكف، فيه ألم، وفيه حزن، وفيه شيء كالرحمة ارتاحت إليه.

ورفعت رأسها، وبدأت عيناها تخترقان ستر الظلام وتتحسسان موضع الرؤية.
هناك... أسفل... عند قدمها رأت شيئاً، ما إن ميزته حتى جمدت تماماً.

كان جلال واقفاً بجسده الصغير، وكان يبكي في صمت، وكان يقبل ساقها المربوطة ويتحسس بشفتيه لفائف قدمها الملطخة بالدماء والدواء. وكان صوته قد أصبح واضحاً... ومن وسط الطنين الذي كان يدوي في أذنيها سمعته:
«ماما.. أنا حب ماما.. يا لب حب ماما».

وكان قبضة تعصر قلبها، وشيئاً حاداً ينغرز في صدرها، حاداً حاداً كطرف سكين مرهف، يغوص ويغوص ويمزق بقسوة كل شيء، وحاولت أن تتكلم ولم تستطع، وفردت ذراعها مرتعشة في الهواء، والصغير لا يشعر... يتحسس الساق والأربطة، ويهمهم ويبكي في صمت، ويناجي بكلمات ساذجة صغيرة ربّاً لا يدري عنه شيئاً.

والليل... هو نفس الليل الذي جمعهما من قبل، منذ ثلاث سنوات، لأول مرة.

نفس السكون، ونفس الوحدة، إلا من أنفاس عادل... وانطلق الماضي يطويها فكأنما ردت إلى عالم آخر، وكان لسانها يجاهد، ويتلوى في حلقها... ومع زحف صوتها من أعماق صدرها، تحرك لسانها:

«جلال...».

وارتجف الصغير كأن يد شيطان قد مسته... وابتعد قليلاً.

«جلال...».

ولم يردد.. وازداد ابتعاده.

«جلال..».

وازداد بكاؤه، وأخذ يبتعد، وهمت هي من مكانها، وحركت ساقها المربوطة، وازداد الألم، وانتشر كاويًا في كل جسدها، ولم تبال. كان هناك شيء أقوى من كل ألم يدفعها إلى جلال، وكان جسدها يرتجف وهي تحاول الهبوط من الفراش.
«جلال..».

ولم تشعر أنها كانت تقولها هذه المرة باكية ودموعها تنهمر في قطرات كبيرة ثقيلة.
«يا ابني.. يا جلال..».

وتقف على ساق واحدة، وتستند إلى مقعد، وإلى السرير، ويتقهقر الصغير حتى يلتصق ظهره بالحائط، وهي تقترب منه، وخوفه يزداد، وتمد يدها إلى الباب فتفتحه، ويتسرب الضوء ليشمل الجسد الصغير المرتجف، نفس العينين اللتين رأتهما منذ ثلاث سنوات، صافيتين بريئتين، فقط فيهما اليوم حزن، وشيء آخر؛ شيء تنبئ عنه تلك الخطوط التي بانَت في الضوء الشاحب أكثر سوادًا وأكثر عمقًا، كان فيهما رعب!

وامتدت ذراعاها نحوه... وانفردت ذراعا الصغير تصدان عنه شيئًا مجهولًا، وازداد بكاؤه، وتقطعت كلماته التي انطلقت تبرر فعلته:
«أ.. أ.. أنا.. حب.. حب.. حب ماما..».

ولم تدر خيرية بعد ذلك شيئًا، قد تكون قد صرخت، وقد تكون قد بكت، لم تدر شيئًا قط، كل ما تعيه هو تشنجات ودموع وكلمات حانية، وجسد صغير يلتصق بصدرها وذراعان رفيفتان تلتفان حول عنقها وتضمانها بكل قواها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما أضاء زوجها النور... أفاقَت لتجد نفسها فوق الأرض، تضم جلال إلى صدرها وهي تتشجج باكية:
«سامحني يا ابني.. سامحني».

وربت محمود على كتفها وقال بحنان بصوت متحشرج نائم:
«يا ولية خضتيني.. مش كده.. ده أمر الله.. مش أحسن ما كان الحرق أكبر من كده.. احمدي ربنا، قومي، قومي نامي».

ونامت ليلتها وعلى شفيتها ابتسامة، وأحست النوم يتسرب حانيًا إلى جفניה المبللين بالدموع، كأنها ولدت من جديد، ودقات قلبها تدق منتظمة، وراحة حلوة هادئة تشملها... لأول مرة منذ زمن طويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرجل الكبير

إبراهيم أفندي رجل دُغري لا يعجبه الحال المائل، وهو أيضًا رجل مستقيم يرضى بالقليل، ولا ينوبه من الدنيا سوى السجارة وفنجان القهوة، والحمد لله على ذلك، فهو لا يطلب شيئًا سوى الستر.

ولكن الذي ينجص عليه حياته ويحرمه النوم هو ابنه محمود، فالولد خسران وأخلاقه تالفة، حقًا إنه ينجح كل عام، ولكن النجاح غير مهم، فإبراهيم يعلم تمامًا أن الأدب فضله عن العلم.

والذي يغيظه حقًا هو أن الولد يقول إنه لم يعد طفلًا، وإنه قد أصبح رجلًا... ويوم أن قال ذلك، ثارت ثائرة إبراهيم، وقال لابنه: إنه رجل على نفسه فقط، أما في البيت فالرجل هو وحده، وليس من رجل سواه، وإن لم يعجبه الحال فليره عرض أكتافه.

وكان من الممكن أن يتحمل إبراهيم أفندي كل شيء، كان من الممكن أن يطيق سهر ولده في الخارج إلى ما بعد منتصف الليل، وقد يطيق صوته الغليظ الأجنس وقلة أدبه على أمه وإخوته... ولكن الذي لا يطيقه ولا يتحملة هو أن يعلم أن ابنه يدخن.

ويومها نظرت الست زبيدة إلى وجه زوجها المحتقن، وإلى العرق النافر في منتصف جبهته العريضة، وقالت له بصوتها المستكين: «خير يا إبراهيم؟». ولكن الذي قاله إبراهيم في ذلك اليوم لم يكن خيرًا أبدًا... وعندما حاولت أن تقول كلمة طيبة، وما كادت تنطق بـ والنبي يا اخويا، حتى انفجر فيها كإعصار، وألقى عليها يمينًا بالثلاث إن هي اقتربت منه!! وانفلتت زبيدة تجري إلى حجرة أخرى وهي تتشج بحرقه وتقول:

«إخص عليك يا إبراهيم، بعد العمر ده، وبعد الشيبية، ترمي علي اليمين؟!».

وأخيرًا جاء محمود.

ولا يدري أحد بالضبط ما حدث، كان إبراهيم موقنًا أن ابنه سينكر، وكان محمود يعلم أن أباه لن يصدق، فقال «نعم» من هنا، وانهالت عليه العصا بكل غضبة أبيه من هنا... ولكن المصيبة أن الولد أمسك بالعصا وكسرها، وهاج الأب وصرخ، وهاج محمود وصرخ، ولم يطق إبراهيم، فكيف يرد الولد عليه، ويعلو صوته على صوته؟

وسمع الجيران يومها صراخ زبيدة. ورأوا «محمود» يهبط الدرج مسرعًا، وفتحت الأبواب، وتزاحمت الرعوس، وتطلعت العيون... وكان إبراهيم أفندي الذي يسكن الدور الأول ممددًا في وسط الصالة وقد أفقدته الصدمة وعيه.

ومر يوم ويومان، ومرت عدة أيام، وبدأ قلب الست زبيدة يأكلها على ولدها الذي أصبحت لا تعلم عنه شيئًا.

وأخذت تسوق طوب الأَرْض على إبراهيم عله يلين، وعلَّ محمود هو الآخر يعود. والحقيقة أن الأمر لم يكن بالصورة التي تصورتها، فلقد رضي إبراهيم أن يحدث ابنه بالحسن، ورضي محمود أن يصلح أباه ويقبل رأسه ويده، وأن يقسم بألا يدخن مرة أخرى.

وجلس إبراهيم أفندي ينفث دخان سيجارته في وجه ابنه - دون قصد- ويقول له إن الحالة كما يرى، وإن السجائر تضر ولا تنفع، وإنها تهلك الصحة... «وآديك شايف صحتي، واسألني أنا، النهارده سيجاره، بكره يبقوا اتنين، بعده تلاته..».

وعندما قبّل محمود رأس أبيه ويده، بكت الست زبيدة ودعت من قلبها أن يهدي الله ابنها.

ولكن الولد لم يهتد... وعادت ريمة إلى عاداتها القديمة.

وعاد إبراهيم أفندي ثائراً، وثورته هذه المرة تكاد تحرق كل شيء... وهمت الست زبيدة أن تقول كلمتها الطيبة، فصرخ فيها زوجها بأنها هي السبب، سبب خسارة الولد، وأنها، وأنها، وأنها، و... وعندما قالت له: «كلها سنة وياخذ الشهادة ويشتغل». قال لها: «أطلق شنبلي لو طالها».

«ليه بس يا خويا بتبشر على الولد؟!».

ولأول مرة لم تفهم الست زبيدة ماذا يريد زوجها... قال لها إن الولد كان يهتف في وسط شوية عيال «تسقط الحكومة»، وقال: إنهم أناس على قد حالهم، وإنه لن يتحرك من مكانه مهما فعلوا بابنها، وإنه وضع أصابعه في الشق، وخلص، رمى طوبة محمود ولن يسأل عنه.

ولكنه لم يرم طوبة محمود.

فإنه قد يطيق أن يسهر ولده في الخارج، وقد يطيق أن يدخن، فهذه أشياء يقدر عليها... قد يتحمل ذلك كله عله يفلح ويأخذ الشهادة ويغور من وجهه، وهو بعد ذلك لا يريد منه شيئاً. لا يريد منه سوى أن يبعد عنه ويتركه للصغار ليرببهم، ولكنه لا يطيق أن يسمع من ولده ما سمع منه في تلك الليلة.

«ابعد عن السكة دي أحسن لك».

«ومين يدافع عن البلد؟!».

«كان غيرك اشطر!!».

«معلش.. الحكومة لازم تسقط يا بابا..».

ويثور إبراهيم أفندي، فهو رجل دُغري لا يعجبه الحال المائل، وهو صاحب أولاد، كوم لحم، بطون تريد أن تأكل، ألا يكفيه ما هو فيه من ذل؟ ألا يكفيه عبد الستار أفندي الوكيل الذي كان في العام الماضي فقط يعمل تحت إمرته، فإذا به بين يوم وليلة رئيسه وسيده وتاج رأسه؟ ويصرخ في ولده بحدة:

«اسمع كلامي بقول لك، ابعد عن السكة دي.. لا.. مش عايز كلام.. مش عايز مقاطعة، حكومة آل، وطنية آل، ياخي انتيل وشوف دروسك الأول، هي دي بلد يا حمار! هي دي بلد تستاهل؟ وافرض.. افرض إن الحكومة دي سقطت، حاتيجي حكومة أنيل منها.. إيه؟ تسقط اخره؟ تبقى عملت إيه؟ ما انيل من ستي إلا سيدي!».

وثورته تتحول تدريجياً دون أن يدري إلى شيء آخر... وهو ثائر حقاً، وجبهته حمراء يكاد الدم أن يبك منها، والعرق يتوسطها نافرأ، وهو لا يقبل مناقشة، وعلى محمود أن يبعد عن الشر ويغني له، فهو بلا ظهر يستند إليه، ليس كعبد الستار، إنه مقطوع من شجرة.

وقد يطيق إبراهيم أفندي ألا تعجب ولده الحكومة، وقد يطيق أيضاً أن يهتف بسقوطها، ولكنه لا يطيق من ولده أن يقول: إن الملك أيضاً يجب أن يسقط!

وماذا يفعل مع هذا الولد الذي يريد جلب المصائب عليه؟!

ويلين صوته، ثم يشند ويثور، ويأمر ولده أن يبتعد، ثم ينصحه، ثم قال له: «عندك حق». ثم توصل إليه:

«يا ابني احنا مش ناقصين، كل واحد بيقول يالله نفسي، يا ابني اهتدي بالله».

ولم ينم ليلتها، كان الأمر قد بلغ ذروته، وأحس أنه لم يعد يطيق رائحة ابنه، وكره حياته تلك، أحس بيته الصغير تعبت به يدان قاسيتان فتترنح جدرانها، وظلت عيناه تتحلقان في الظلام، وظل ينتهد وينفخ طول الليل... كله إلا هذا، إنه ليس من ذلك النوع من الآباء الذين يخضعون لأولادهم، لا، لن يترك هذا الولد يفعل ما بدا له، يجب أن يسمع كلامه ويطيعه، وإلا... وإن لم يعجبه الحال، فليره عرض أكتافه.

وتغلي الدماء في عروقه، ويحس وكأن رأسه سينفجر، وأن شيطاناً قاسياً يعصر جسده ويعذبه ويحيل حياته إلى ذلك الجحيم المستعر، وكره محمود، كرهه بكل عذابه وقرقه من الحياة، وبدأت كراهيته تمتد لتشمل كل شيء، تشمل زوجته وأولاده وبيته.

والأيام تمر، لا راحة ولا أمل في راحة، والدنيا تزداد ضيقاً به يوماً بعد يوم، والغلاء يشتد، وتصبح المعيشة ناراً، وغيظه وحنقه يزدادان، والبيت هبطت عليه غلالة سوداء حالكة، فالأمر لم يقتصر على ذلك، ولو سمع محمود نصائح أبيه لما حدث ما حدث، ولما أصبحوا في تلك الحالة التي كانوا عليها ذات ليلة قارسة البرد، وقد حل الوجوم على الجميع، وثورة إبراهيم أفندي هذه المرة كظيمة عاتية، تزمجر في أعماقه بقوة، وظلام الليل الحالك يصل إلى القلوب المتوجسة، وهو بين الحين والآخر يردد في صوت منفعل مرتجف: «يعني لو كان سمع الكلام. يعني لو كان سمع الكلام!».

ويرفع بصره إلى السماء، وتحقن الدماء في وجهه، وينفر العرق في منتصف جبهته. ويختنق صوته وهو يقول:

«يا رب، أنا عملت إيه في دنيتي بس؟!».

وينتهد في حرقة، وتتشتت أحاسيسه، والليل يمضي، وزوجته لا تكف عن البكاء، والصغار في حجرتهم قد حبسوا أنفاسهم، وعيونهم الصغيرة تلمع في الظلام وتبلق في لا شيء، وعقولهم حائرة، وحزن يعتصر قلوبهم، وخوف رهيب يدثر كل البيت بقسوة، ومن جوف الظلام تأتيهم تأوهات أمهم، وتهز قلوبهم صرخاتها الطويلة الممطوطة الملتاعة.

«يا ابني...!».

وينبعث صوت أبيهم خشناً غليظاً، ولا يدرون ماذا يقول، ويسود السكون. ويعمق، ثم ينبعث صوت أمهم في لوعة:

«يا رب خليك معاه! يا رب».

وتنسال دموعهم في صمت، ولا أحد يدري شيئاً سوى ألفاظ ضخمة ترسل الرعب إلى نفوسهم... سجن وبوليس وعساكر، واختفى محمود بعد ذلك، ولم يعد.

أيام طويلة كئيبية تمر، وإبراهيم أفندي لا يدري ماذا يفعل. قالوا له أن يذهب إلى محام، فذهب وعاد ثائراً صاخباً لا عنأ... عاد يهذي وكأن الزمن لا يكفيه ضياع السنة على الولد والمصاريف التي اقتطعها من قوت الصغار، لا يكفي كل هذا، فيرزقه الله بأتعاب المحامي لتقضم ظهره.

وتعتربه لحظات يحس فيها بنفسه ضئيلاً صغيراً، يحس وكأن آلام الدنيا كلها قد حطت فوق أكتافه، ويرفع كفيه إلى السماء... ويتوسل في صوت خفيض:

«يا رب، أنا عملت إيه في دنيتي بس؟!».

ولا يدري ماذا فعل في دنياه حقاً، لا يدري سبب عذابه هذا المقيم، ويغضب، ويهدأ، ثم يعود إليه غضبه أشد مما كان... ويصرخ في زوجته:

«عاملِّي راجل حضرتته، والله يوم ما يطلع ما حايغت باب البيت، فاهمه، ابقي قولي كاني ولا ماني، إنتي حره..».

وتقول زوجته: «معلش»، ويصرخ في وجهها:

«معلش دي حاتسد فلوس المحامي؟!».

ويقترب يوم المحاكمة، وإبراهيم أفندي يسمع عن ولده الكثير، يسمع عن مظاهرات وهتافات وسب في الذات، ويصدق، ويصدق كل شيء، ويعلم أنه حدث، وينظر إلى المحامي في قلق، ويقول الرجل: «ربنا يستر».

وهو يقسم لكل من يراه أنه لم يدخل محكمة في حياته، ولا قسم بوليس، ولكنه الزمن الأغبر الذي جعله يتشحط ويمد يده للذي يسوى والذي لا يسوى، ويلطم وجهه على خلق الله... ومين السبب؟ ابنه!

كان الرجل يتعذب حقاً، ولكن أشد ما كان يعذبه ذلك الإحساس الغامض الذي كان يحس به رغماً عنه، وتلك الرغبة الخافية العرييدة في رؤية ولده، ولكنه رجل دُغري، فكان يجب أن يعلن سخطه وغضبه وعدم رضائه... فلم يذهب. ولم يفكر في زيارة محمود.

إلى أن كان يوم المحاكمة، وكان لا بد من الذهاب.

ولم يكن هناك داع للبهذلة، لذلك فقد رفض أن تذهب معه زبيدة، غادر البيت يومها وفي قلبه ألف خاطر، وفي نفسه صراع رهيب، وفي صدره رغبة جارفة، وعيناه فلقتان وكأنهما تبحثان عن شيء.

وما كاد يأخذ مكانه في القاعة حتى اعتراه قلق رهيب، وكان صدره يعلو ويهبط في انفعال وسرعة، وكانت يده ترتجفان، وعيناه لا تستقران، ترى كيف حال الولد؟ وماذا فعلوا به؟ وتتهجد، وسعل وحوقل، وصلى على النبي، وعندما ساد الهرج، التفت إلى الباب ليجد صفاً طويلاً يسير في اتجاه القفص.

ورأى محمود!

وتعلقت عيناه بالوجه الشاحب الذي برزت عظامه وغارت فيه عينان كانتا وكأنهما فجوتان سوداوان، وكان الطابور يقترب، ووجه ابنه يقترب، وعيناه تبحثان في القاعة، والناس تتهامس، والتقت عيونهما، وابتسم محمود.

ولا يدري إبراهيم أفندي إن كان قد ابتسم هو الآخر أم لا، ولا يدري إن كان قد قال شيئاً، كل ما يدريه هو أنه وجد نفسه جالساً في مكانه مرة أخرى وعيناه معلقتان بوجه ابنه الشاحب وراء القضبان، وتمنى لو ينهض إليه، وكان يعلم أنهم سيمنعونه، ولكنه تمنى لو فعل شيئاً، وأحس أن ساقيه ترتجفان، وعرف أنه لن يقوى.

والأحداث تمر بسرعة. أسئلة وأجوبة. وسكون مطبق. ومحام يتكلم. ورجال يأتون. والقاضي يسأل. وهمهمات. أشياء كثيرة كانت تدور دون أن يعيها. وشيء غريب مثلج كان يطوف بجسده. وأنفاسه منبهرة مترددة. وعيناه لا تكادان تريان سوى الوجه الشاحب. وهمس متواصل في أعماقه. همس رهيب يتردد صداه في كل أرجائه «مش قلت لك يا محمود. احنا مش قد البهدلة دي!». .

ولكن محمود كان يبتسم. دائماً يبتسم. نفس الابتسامة الغاضبة التي كان يلمحها على وجهه كلما تشاجرا.

ويسمع اسم ولده، ويسود سكون قصير، ويقف المحامي، ويقف محمود، ويأتي صوته ضعيفاً وكأنه أت من أغوار سحيقة:

«أنا عايز اقول حاجه يا حضرة القاضي...».

وترنح محمود في وقفته، وهمس إبراهيم «ليه تعمل في نفسك كده؟!».

وتكلم القاضي. وتكلم المحامي. وساد الصمت. واران سكون عميق على القاعة كلها. وتعلقت عينا إبراهيم بوجه ولده، ورأى شفثيه ترتعشان، ثم خرج صوته في أول الأمر ضعيفاً كما كان، وتكلم كثيراً، وعلا صوته قليلاً، ثم استقام.

كان محمود يتكلم بقوة. وصوته تعود إليه نبرته التي طالما اخترقت أذنيه، وكان ثائراً كعادته، منفعلاً، وأخذ صوته يعلو ويعلو ويشتد، ثم يصبح صلباً قوياً، وتمتد يده إلى قميصه، وعندما يظهر لحمه الممزق... تدوي في القاعة شهقة إبراهيم، ولم يكن يدري أطلقها هو، أم أنها انطلقت رغماً عنه... الذي يدريه أن عينيه التقتا بعيني محمود، وأن صوت ولده الأجنس ظل يدوي في القاعة، وهمس كثير حوله، والوجوه تتمايل، وشيء كالدفء يسري في أوصاله عندما سمع جاره يمصص بشفثيه، ويقول: «والنبي راجل من ظهر راجل».

ويسري التتميل في جسده مدغدغاً كل حواسه، كان الناس يستمعون إلى ولده، وكان ولده قوياً، كان رجلاً، رجلاً كبيراً.

ولا يدري كيف ابتسم، وكيف أحس تلك الحرارة، لم يعد يخاف. ولم يعد يهيمه أحد، ولم يعد يعجبه عبد الستار ولا غير عبد الستار، فرحة غامرة تهبط عليه، ويدور بعينيه في الوجوه التي كانت معلقة بجسد ابنه، كان محمود لا يزال يتكلم، وكانت الهمسات تصل إلى أذنيه فيحس لها لذة. وفي عينيه دموع، وفي قلبه شيء غريب، شيء لم يعرفه أبداً، لم يكن حباً، فلقد كان يحب ابنه طوال عمره، ويفرك كفيه في عصبية، وتتسع الابتسامة فوق شفثيه، وتتراخي عضلات وجهه المشدودة وكأنها تستريح بعد عناء طويل، ويهز رأسه في نشوة، وينظر إلى جاره، كانت عينا الرجل معلقتين بوجه ابنه، ويميل إليه، وترتفع إصبعه مرتجفة مرتعشة تشير إلى محمود... ويقول هامساً:

«دايني.. دايني».

لم يعد يهمله شيء، لا المصاريف ولا العام الذي خسره محمود، ولا أتعاب المحامي... لا... لا شيء يهمل بالمرّة، شيء واحد يحس به... هو أن محمود ابنه، ولأول مرة يحس أن كلمة محمود حلوة حلوة... لها مذاق العسل.

كان القاضي يسأل، ومحمود يجيب، ووكيل النيابة يتكلم، والمحامي يترافع، والوقت يمضي، وإبراهيم لا تكف عيناه عن التعلق بولده.

وجلس محمود، وتكلم آخرون في القفص.. لا.. لا.. ليسوا مثل محمود، ولا يستطيع أحد أن يكون مثله، لم يسمع لأحدهم صوتاً خشناً كصوت ولده... والوقت يمضي، والأمر ينتهي بسرعة، وكأنه لم يبدأ. ويسود الهرج، ويفتح باب القفص، ويندفع إبراهيم نحو ولده، وتمنعه أيد غليظة، ولكنه يحاول ويعافر، وينطلق صوته حنوناً ليناً:

«محمود.. محمود.. عايز حاجه يا ابني؟!».

وأحس أنه يقول يا ابني بكل صوته وكأنه يريد أن يسمعها لكل الناس، وتلتقي عيونهما، وتلتقي ابتسامتهما، ويحس الرجلان كأن كلا منهما يحتضن الآخر:

«سلم على نينة، أنا عال خالص، شد حيلك».

«ما لكش دعوه بيّه، ومتتعاش هم، قول قوام، عايز حاجه؟!».

كان وجه محمود يقترب ويقترب، ويقول إبراهيم بكل لهفته:

«قول يا محمود، مش عايز حاجه؟».

«عايزك طيب.. سلم عليهم».

وتضايق إبراهيم، كان يريد أن يصنع شيئاً، أي شيء، كان يجري بجوار ولده ولا تريد عيناه أن تفارقاه، وفجأة تذكر شيئاً، وامتدت يده مرتجفة إلى جيبه بسرعة، وامتدت ذراعه إلى ولده وقد قبضت يده على شيء، ونظر محمود إلى علبة السجائر في يد أبيه وابتسم بكل وجهه، وامتدت يده بسرعة واختطفت العلبة في مرج، وقال وهو يبتعد:

«ربنا ميحر منيش منك».

«ولا يهملك.. ولا يهملك.. كل اللي انت عاوزه.. ولا يهملك».

كان محمود يبتعد، ولكنه لم يختف عن العينين الدامعتين، والوجه الذي كان يبتسم في ارتياح لأول مرة منذ زمن طويل، طويل جداً، وكلما ابتعد زاد ارتجاف قلبه، والناس تنزاحم، وينبعث الهمس من أعماقه: «والله لك وحشه يا محمود».

وعندما كان ولده يقترب من السيارة، كانت ابتسامة رحبة تشمل وجهه كله، وعندما وضع محمود قدمه فوق السلم، نظر إبراهيم إلى السيارة بلهفة، وامتدت إصبعه مرتعشة نحو العربية... وقال لجاره بصوت هامس:

«دا ابني.. أنا أبوه.. صحيح أنا أبوه!».

الهرب

كان سطح المياه يكاد يلتهب تحت قرص الشمس الذي بدا كجمرة رهيبية معلقة في الفضاء الصامت الآسن... وما تكاد العين أن تلتقي بالسطح المترقرق اللامع حتى تجفل مذعورة، وترتد إلى ظل خانق كئيب... ثم تجذب جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة.

كانت السفينة تنزلق على السطح بنتأقل شديد، وصوت الآلات يطن في الداخل، ومع طنينه الرتيب كانت تنبعث من الآلات حرارة تنتشر في الممرات وتختلط بحرارة الجو فتزيد من شدة الاختناق.

الممرات كئيبة مظلمة، والمراوح تعمل بلا انقطاع منذ يومين، ثم أصبحت هي الأخرى تنفث هواء ساخناً ملتهباً، فامتدت إليها الأصابع وأسكنت حركتها وأخمدت دورانها... وما لبث أن ران جمود رهيب على كل شيء... حتى على نفوس الرجال وأجسادهم العارية المستلقية فوق سطح السفينة في استرخاء وكسل.

كانت ثمة مجموعات متناثرة، وهناك في الطرف الأيمن، كانت مجموعة من أربعة رجال منهمكة في لعب الورق، قد ظللتهم قطعة سميكة من القماش، بانث وقتها كأنها كابوس يكتم الأنفاس... كان الرجال عراة لا يستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة، والعرق يتصبب من جباههم، ويسيل على وجوههم وأعناقهم ويتخلل شعيرات صدورهم، وأصابعهم تمسك بالأوراق والأقراص الملونة وهم غارقون في اللعب... متأفون منه في ذات الوقت.

وكانت المجموعات الأخرى المنتثرة تمارس أشياء مختلفة... فمن حديث كسول ملول، إلى شراب بارد تحول في لحظة إلى شراب يغلي... وفي نهاية المؤخرة كان ثمة شاب يافع ناعم الوجه مستلق وحده، شاخص بعينه إلى المظلة السميكة... بينما في وسط المكان كان عملاق ضخم الجثة قد تمدد وراح في نوم عميق.

صرخ أحد اللاعبين وسب الأوراق وسب زملاءه وسب الحر والبحر والذنيا بأجمعها إثر خسارته لمبلغ كبير. ثم تساءل وهو يهرش لحيته النابتة عن موعد وصول السفينة... فرد عليه آخر، بانث على وجهه العريض - الذي يتوسطه أنف أفطس كبير - أمارات قلق وضيق:

«إن شا الله ما وصلت، هي جهنم حانبقى أكثر من كده؟ علشان تتمرن من دلوقت على الشوي».

كان الشاب المستلقي في نهاية المكان لا يزال يبالحق في المظلة المعلقة فوق رأسه، وصدرة العاري الخالي من الشعر يعلو ويهبط في سرعة وضيق، وعيناه قد احمرتا... وشفثاه جفتا وأصبحتا كقطعيتين من الصخر.

أما العملاق النائم في الوسط، فكان شخيره قد ملأ المكان، فصرخ فيه أحد اللاعبين، ولكنه كان غارقاً تماماً، وشخيره المنتظم يتصاعد من أنفه وفمه المفتوح... وانطلقت ضحكات ملولة، سرعان ما ماتت عندما أصابت العملاق النائم فردة حذاء خلعتة من نومه خلعاً... فنهض مذعوراً، وتلقفته سبة بذينة أطلقها أحدهم، فاصطدمت بأذنيه، ولكنه بدا وكأنه لم يسمع شيئاً، فأمسك فردة الحذاء بكف غليظة هائلة، وأطاح بها في

الهواء فطارت ثم استقرت على سطح المياه، ثم غاصت في جوفها، وما لبث أن عاد إلى مكانه من جديد مسنداً رأسه إلى ذراعه المثنية.

وعلت في الجو صرخة مهددة:

«والله لتشتري لي غيرها... إنت حر، يا كده يا أخرب بيتك».

تصاعدت الضحكة الملولة، وسرعان ما ماتت من جديد في صدر صاحبها... وصرخ أحد اللاعبين متهمًا زميلًا له بالغش، ورد زميله عليه بصرخة مماثلة، وهدهد باللقائه في المياه... وهمد الأمر بعد لحظات، وعاد السكون والهدوء إلى المكان. وعلا حفيف المياه المحتكة بجوانب السفينة، وتصاعد في الجو بخار خانق رطب، وصبت الشمس شواظها بلا رحمة وبإصرار قاتل... وهتف رجل:

«هوا.. شوية هوا..».

وران الصمت من جديد... عميقًا. عميقًا.

وظهر في أعلى سلم صغير رجل أخذ يهبط السلم في ببطء وتثاقل، كان بادياً عليه أنه يملك الأمر والنهي، كان القائد... وتحولت إليه الرعوس لفترة، وشملته العيون بنظرة، ثم استدارت في محارها وعادت إلى أماكنها غير مبالية.

علت شفني الرجل ابتسامة واهنة مرهقة وهو يوميئ برأسه إلى الشاب المستلقي في المؤخرة... ثم سأله في صوت أجش خافت:

«مالك؟!».

أدار الشاب بصره دون أن يرد عليه، ثم تقلب بجسده كله إلى الناحية الأخرى، بينما صدره يعلو ويهبط في انفعال وسرعة وضيق. كان الشاب نحيلًا أسمر الوجه ضئيل الجسم، وجهه الصغير الناعم يثير تساؤلًا بين الوجوه الخشنة الرهيبة... وقال القائد في اقتضاب وهو يمضي وكأن الأمر لا يعنيه:

«إنت تعبت من أول سفرية؟!».

ولم يثلق جوابًا... وكأنه كان يعرف ذلك، فقد دس بين شفتيه سيجارة أشعلها، وجذب منها نفسًا سرعان ما طرده في الهواء وألقى بالسيجارة إلى المياه، ثم استدار وعاد من حيث أتى.

علا شخير النائم مرة أخرى، فزأر العملاق ذو الذقن النامي، وامتدت يده إلى فردة الحذاء الأخرى وطوحها تجاه الرجل النائم، فارتطمت بوجهه في شدة، وهب الرجل غاضبًا مزمرًا، وأطبقت يده على فردة الحذاء وطوحها بكل قواه فأصابته الرأس ذا الأنف الأفتس العريض الذي كان مائلًا فوق جسد ضخم كانت ذراعه منمكتين في اللعب.

وبدأ العراك.

كان واضحًا في البداية أن كليهما يريد أن يحطم الآخر، وقد هم بعض الرجال أن يفرقوا بينهما، ولكنهم عادوا مسترخين إلى أماكنهم وقد بدت السعادة على وجوههم... ومع صوت اللكمات، أشعلت السجائر، وانتشرت الابتسامات على الوجوه، بينما كان الرجلان يتقاتلان ويئنان من وقع ضرباتهما.

قال رجل من بعيد:

«كفاية يا محسن...».

ودوى في المكان صوت لكمة، ودار أحد الرجلين وهو يهجم كالوحش على زميله... وعم السكون تمامًا إلا من صوت الضربات المتلاحقة في البداية، والتي أخذت بمرور اللحظات تتباعد وتتباعد، واسترخت الأجساد المشدودة بعدما بدا أن الرجلين قد نالهما التعب تمامًا. وأن أذرعهما قد وهنت، وأصبح واضحًا أنهما سيفترقان بعد لحظات... ولكن هذه اللحظات لم تطل؛ إذ علا في الجو صوت غريب... غريب جدًا. كان نحيبًا متصلًا، وبكاء حارقًا... وكان الشاب الصغير الراقد في مؤخرة السفينة قد دفن رأسه بين ذراعيه، وأخذ جسده ينقبض وينفرد في حركات تشنجية... كان يبكي بحرقة.

وتوقف الرجلان فجأة... واسترخت أذرعهما. وبحلقا في الجسد الممدود الذي انصبت فوقه كل العيون... وهمس أحدهما بصوت مسموع:

«الولد بيعيط!».

وقهقه الآخر وهو يمسح بظهر كفه دماء كانت تسيل في جانب فمه، وهو يقول في سخرية:

«نجيب له بزازه؟!».

كانت دهشة الجميع شديدة عندما التوي جسد الشاب، والتفت برأسه الصغير نحو الرجل القائم وسط المكان، هائلًا عملاقًا كأحد ملوك البحر الطغاة، وصرخ الشاب بكل صوته:

«اخرس...».

ضحك العملاق وهو يقول:

«حانتسكت والا احطك في اللفة؟!».

«اخرس يا كلب..».

كان المنظر فريدًا، فتراخى جسد العملاق الآخر، واستلقى فوق الأرض. بينما كان الشاب قائمًا على ركبتيه وذراعيه متحفزًا كقطة متوحشة أمام أسد ضخم مفترس... وعاد الشاب إلى الصراخ بكل صوته المختنق، ودموعه تسيل من عينيه فتختلط بقطرات العرق النابتة فوق وجهه:

«وحوش. وحوش. كلاب».

قهقه العملاق وقد بدا له الأمر مسليًا تمامًا.. وقال في برود:

«تحب أجيب لك شخشيخة يا ابني؟».

وقفزت القطة في سرعة وأنشبت أظافرها في عنق الأسد، والتحم الجسدان التحامًا غير متكافئ... وتصلبت عضلات الرجال وتوترت أعصابهم وهم يرون جسد الشاب يهوي مرتطمًا بالأرض في قسوة... وصاح أحدهم من نهاية المكان:

«بالراحة عليه يا محسن».

قفز الشاب من جديد، وارتفعت يده وهوت في صفعه هائلة فوق وجه محسن، ورد محسن بصفعة أكثر قسوة، وجرت الدماء من فم الشاب وأنفه ولطخت وجهه...

كانت الدموع قد جفت تمامًا... وعيناه قد اختفى احمرارهما، والعرق ازداد تصيبه فوق وجهه وجسده، وأنفاسه قد انتظمت، بينما الآخرون قد استلقوا في أماكنهم تمامًا في استرخاء لذيذ. لذيذ! والعرق السائل من مسام جلودهم ينزلق في ببطء... ونسمة من هواء - لا يدرون من أين - هبت فشملت أرواحهم. وتباعدت أصوات الضربات، وتباعدت وتباعدت، ووضح أن المتعاركين قد وهنت قواهما، وسرعان ما توقفت أصوات الضربات وران سكون، قطعه صوت قدمي العملاق وهما ترحفان فوق أرض المكان... ثم هوى جالسًا في مكانه من الجماعة... وقال في صوت لاهث مستريح:

«فرق الورق، وبلاش سرقة».

وفجأة...

توقفت ساقان بجوار جسده، وهوى الشاب جالسًا إلى جانبه، ثم قال وفي عينيه نظرة ارتياح، وبقايا الدماء تلتخ وجهه:

«وسع لي مكان.. عاوز العب معاكم».

وعادت الشمس ترسل شواظها إلى سطح المياه الذي كان يضوي ملتهبًا، وما تكاد العين تلتقي به حتى تجفل مذعورة، وترتد إلى ظل خانق كئيب... ثم تجذب فوقها جفنها وتسبح في ظلام أشد كآبة، والسفينة تنزلق فوق سطح الماء بتناقل... والأجساد ممددة...

ممددة ممددة في استرخاء...

والجو خانق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العروسة

عشرة أعوام كاملة... وهو يشترك في السباق، ويخسر.
عشرة أعوام منذ أن أصبح له قارب، وهو يبذل كل جهده وطاقته لكي يكسب ولو مرة، مرة واحدة، دون جدوى.

كانت الأيام دائماً تقترب من يوم السباق، وكان العام يمر كالريح، والرجال يستعدون، وهو يستعد معهم، يخرج القارب إلى البر... ويظل شهراً دون عمل، ولم يكن يهمله. لم يكن يعنيه أن يأكل أو يشرب، كل الذي كان يشغل باله هو أن يستعد، كان يعرض قاربه الكبير للشمس حتى يجف... ويطلبه حتى يخف، وينظفه حتى يصبح كالعروسة... وكان اسم القارب «العروسة».

ويأتي يوم السباق... ويزدحم الميناء بالخلق الكثير، ويقف الرجال مهللين ومغنين... ويمتلئ سطح المياه بالقوارب الصغيرة... ويمتلئ الجو بالأغاني وصوت الدفوف والمزمار... ويمتلئ بالقلق والهتاف، وتتطلق الإشارة، وينطلق القارب وينزلق فوق المياه بسرعة... محروس يجلس بجانبه، يشد الحبال، ويرخي قلماً ليفرد آخر... والريح تملأ الشراع، والمياه تجري من تحته لها أنغام كشقشقة العصافير، وقلبه يخفق، والأصوات تصل إليه من بعيد، أصوات الأصدقاء، وأصوات الشامتين، وتعلو الصرخات من كل جانب، وينقلب سطح المياه في الميناء إلى زفة، وتتطلع كل العيون، والقوارب تجري من حوله ومن أمامه، وتنساب إلى باب البوغاز، ثم تنتهي إلى الفئار، ومن الفئار تنحرف نحو الرصيف الكبير الممتلئ بالناس... ولكنهم كانوا دائماً يصلون قبله...

في العام الأول قال: «معلش»... وفي العام الثاني قال: «برضه معلش، أنا لسه صغير»... وفي العام الثالث لم ينم ليلة السباق... ولكنه قال أيضاً: «معلش ناخذها السنة الجاية»... وجاء العام الخامس فبكى من الغيظ. ثم، مرت الأعوام العشرة وأصبح عمره ثلاثين عاماً كاملة... ولم يكسب فيها مرة.

وهذا العام قرر ألا يدخل السباق.

بل أصبح لا يطيق ذلك اليوم... ويفر من كل جلسة تأتي فيها سيرته، ومرت الأيام... وطوت في داخلها عاماً.

وقرر سيد الحموي ألا يدخل السباق هذا العام... فهو لن يجني منه سوى «الوكسة والعار»، واسمه سيكتب دائماً في الذيل.

سنوات عمره كلها قضاها في البحر... يدها منذ الصغر لا تعرفان الطريق إلا للمجاديف وحبال الشراع، والدفة في يده أليفة، لينة طيبة... والقارب كله ينصاع لقيادته كما تنصاع له أصابعه.

ورغم هذا فهو لا يكسب!

وسيد الحموي قد قرر ألا يدخل السباق بعد ذلك.

قال له محروس: «عيب يا سيد، لازم تخش، ويمكن.. يمكن تكسب».

ورد عليه في ضيق: «مش حانخش السبق، خلاص يا محروس». خلاص... قرر سيد ألا يدخل السباق، ولن يدخل سيد السباق. وبقي من الزمن شهر.

وأخرج الرجال قواربهم إلى البر، وبقي قاربه في الماء. وامتألت ساحة الخليج بأرضها اللينة المنخفضة بالقوارب... قوارب كبيرة تستعد لليوم الموعود، وقوارب صغيرة تستعد للزفة والتشجيع، والرجال يكحتون، وينكتون، والعمال يعملون ويصلحون ولا يهدعون. كان الرجال كثيرين كالقروء، يتسلقون ويهبطون ويفقزون ويعملون ويأكلون ويشربون الشاي ويدخنون السجائر والجوزة... الرايات الملونة غسلت وعلقت ترفرف في الهواء، والأشعة البيضاء بانثت مشرعة على الأرض كأنها كسوة العيد... والساحة أصبحت كخلية النحل، والرصيف قد خلا من القوارب، إلا من قلة ضئيلة هزيلة من بينها قاربه، بانث وقتها غلبانة منكسرة لا حول لها ولا طول.

كان يمر على الرجال في الصباح فيجدهم منهمكين... محمود ينظف قاع قاربه، وزينهم يكحت الجوانب، وعمر يحرق الطلاء القديم، والحاج حسن حوله عشرة صبيان تحت إمرته، والألوان الزاهية تبهر العين وتفرح القلب. ودبت في المكان ضحكات العيد، وقاربه في المياه... لا طلاء أحرق، ولا قاع كحنت، ولا رايات غسلت، ولا ضحكة رفت على شفثيه.

وحدثته حسنية ذات مساء، وكاد أن يضربها، وكادت أن تترك له البيت غاضبة... وقالت له في ثورتها وهي تصرخ في وجهه:

«إنت خايف يا سيد؟!»

وصمت ليلتها سيد... ولم يرد عليها سيد... ودفن رأسه في الوسادة وهو يقول لنفسه: اللهم اخزيك يا شيطان... ولكنه لم يخز الشيطان، بل هب واقفا كالنمر الهائج وصرخ فيها، ورفع يده عليها ثم عاد وتكوم في الفراش، ثم عاد ونهض ودخن، ثم قام وترك لها البيت وخرج إلى الطريق.

الدنيا كانت ليل... والفوانيس معلقة هناك في الساحة الواسعة، والرجال لا يزالون يعملون ويضحكون ويستعدون للسباق... وهو قد صمم ألا يدخل السباق... قاربه قائم وحده كالحوت، لا أنيس ولا سمير... سوى قوارب صغيرة كالأسماك الوليدة، يتلاعب شراع قاربه المطوي بينها في الظلام كعملاق مسلول.

ووقف سيد أمامه.

الدنيا ظلام في ظلام، وكل شيء راكد، وكل شيء هامد، لا حياة ولا حركة، ولا طلاء ولا رايات، واقترب سيد من القارب، ومد إليه يده، وربت على جانبه، ثم مد قدمه وقفز إلى داخله، وجلس في الليل يدخن، ينظر إلى النجوم المنثورة في السماء، ويصغي إلى الأصوات الآتية من هناك، ويضرب قلبه جنبات صدره، وتغرق عيناه في ظلام الماء الساكن تحته، وتمتد يده إلى الماء فتعبث فيها أصابعه، ويتمنى أن يقفز إليه، ويدثر نفسه في طياته، ويغوص ويغوص... ويعيش وحده في القاع، وهو قد يفعل ذلك... لو لا حسنية.

ولا يذكر سيد بعد ذلك شيئاً... كل الذي يذكره أنه قال للقارب: «ليه مش عاوز تتصرني؟»

ولم يرد عليه القارب!!

وفي الفجر مضى إلى البيت.

في الصباح قالت له حسنية: «إنت لسه زعلان يا سيد؟». وقال لها: «لأ مش زعلان». وقالت حسنية: «يا سيد دنا مراتك، إنت نسيت يا سيد؟» وقال بجفاء: «اصطبحي عالصبح يا ولية». وقالت حسنية: «العروسة لسه ما نسيئتش». وقال سيد: «يا فتاح يا عليم». وألحت حسنية: «مش انا برضه حسنية؟». وقال سيد: «وانا قلت حاجة؟». وقالت حسنية: «مانا عوزاك تقول يا سيد». وقال: «بس أقول إيه؟». وقالت حسنية: «وحياة غلاوتي تقول، إيه اللي مزعلك؟». وقال سيد بلا وعي: «أنا... أنا خايف يا حسنية».

ووجم سيد... وابتسمت حسنية.

«خايف من إيه يا سيد؟»

ولم يرد سيد... ترك البيت وجرى.

ووجد نفسه في وسطهم من جديد... وقال زينهم: «نويت على إيه يا سيد؟»... وقال سيد: «مش داخل السبق»... وصمت زينهم وتركه، وجلس سيد ينظر إلى القارب.

جاء زبون، وقال سيد: «أنا تعبان». وجاء آخر، وقال سيد: «مانيش طالع»... ومضى النهار، وسيد ينظر إلى القارب.

يوم وراء يوم، والساحة لا تنام طيلة الليل، والرجال يستعدون للعيد، وحسن ومحمود وزينهم يحدثون سيداً: «عيب يا سيد، محدش ضامن»... ولكن سيد لن يدخل السباق، ولن يكتب اسمه بعد اليوم في الذيل... ويكفيه من العمر عشر سنوات.

جلس في المقهى ذات يوم... لا يدري ما الذي حدث سوى أن الحاج حسن قال: «السبق للجدعان».. وقال سيد: «يعني هو اللي ما يخشش السبق ما يبقاش جدع؟»

وقهقه الرجال... وقال الحاج متهمكماً: «عيب يا سيد.. حد داس لك على طرف؟»

عشرة أعوام وهو يدخل السباق... عشرة أعوام وهو ينتظر اليوم ويستعد... يكحت ويطلي ويعلق الرايات ويبخر القارب ويقسم أن يقيم ليلة لله... عشرة أعوام والعروسة تتطلق وسط القوارب كالعروسة، مزينة لامة، تتهادى في البداية وتمخر المياه، وتسبق، ثم تنقل وتراجع، ويكتب اسمه دائماً في الذيل.

لا... لن يكتب اسمك يا سيد بعد اليوم في الذيل.

كفاك يا سيد «وكسة»... وكفاك ذلاً، وكفاك ما قالوه في كل عام... وكفاك أنك لم تكسب ولا مرة... فما الذي تجنيه سوى الغم والكمد، وكتابة اسمك دائماً في الذيل.

وليلة السبق لم ينم سيد... حاول أن ينام، ولكنه لم ينم، حاول أن يجلس مع الرجال، ولكنه لم يستطع، كانوا هايصين، الحاج يجلس وسط شلة، وعنده وسط شلة، ورومة وحسين وعلي ومحروس... والدنيا كلها، والقوارب نزلت إلى المياه، وراحت فوقها وجاءت، وتهادت وتبخرت، وقاربه ملطوع في مكانه لم يتحرك.

وطلع النهار.

ووجد سيد نفسه في وسطهم.

رصيف الميناء كان يشغي بالخلق، العيال والبنات، خواتم وأولاد عرب، وناس، ناس كثيرة كأن السماء أمطرتهم فأغرقت بهم الدنيا... وهو في وسطهم حائر، عيناه زائعتان، وقلبه يتهاوى بين ضلوعه، وأنفاسه... أنفاسه باردة لاهثة، وحسنية بجانبه، وزغدانة وسيدة، وعطيات، وكلهن كلهن تجمعن ووقفن يرقبن مع الخلق الكثير، والقارب لا يزال يتطوح صاربه كالمارد المسلول... وقالت حسنية:

«مالك يا سيد؟»

«ولا حاجة يا حسنية».

«سيد؟»

ولم يرد سيد... كانت عيناه معلقتين بالقارب الذي كان يتمايل وسط القوارب المزوقة كالأجرب، لا حياة فيه ولا بنادير، ولا طلاء جديدًا ولا أعلام، وقالت حسنية:

«سيد؟»

ورد سيد... وقالت حسنية:

«إنت نسيت يا سيد؟»

لا... لم ينس سيد... لم ينس أيام أن كان يصحبها في العروسة، وكانت حسنية وقتها عروسة، يطوفان المياه، يشرق ويغرب، يتهادى ويتمايل، ويغرغان في الضحك، ويربت على جوانب العروسة في فرحة وهو يقول: «يلا يا عروسة.. اسبقي الرياح يا عروسة».

لا... لم ينس سيد... لم ينس وغلاوة حسنية عنده، لم ينس قط أنه قال لها وهو يضحك: «وايه يعني لما اخسر، حافضل كل سنة وراهم وراهم لحد ما اكسب يا حسنية».

وجاءه الصوت من بعيد:

«إنت نسيت يا سيد؟»

«لا... مانسيتش يا حسنية».

الساعات تجري، وسأل سيد أحد الأفندية: «ساعتك كام يافندي؟»، وقال الأفندي: «أربعة إلا ربع».

بقت ربع ساعة يا سيد، وبعدها تنطلق الطلقة، وتفر القوارب كلها إلى عرض المياه، وقاربك ملطوح يا سيد، وأنت واقف هنا تتفرج كالأغراب، كأنك لست ابن كار، وكأنك لم تتركب في حياتك قاربًا.

هل هذا كلام رجال يا سيد؟ ليه حق الحاج لما ضحك عليك وقال السبق للجدعان، أليس السباق حقًا للجدعان، وألست أنت أحد الجدعان، وأولاد الكار يا سيد؟ إياك أن يتركك السباق يا سيد... وفجأة صرخ سيد:

«حسنية..»

«وحانطلع السبق؟»

«أيوه..».

«يا حلاوة النبي..».

«أيوه..».

«وإذا خسرت؟»

«أيوه..».

«حاتخش السنة الجاية؟»

وتوقف سيد عن العمل، ورفع عينيه لبرهة إلى محروس الذي كان يعمل ويعمل دون أن ينظر إليه، ورفت ابتسامة على وجه سيد، وقال وهو يعود إلى العمل:
«أيوه..».

ومضت دقيقة... واثنان... وثلاث... وأربع... وبقيت خمس دقائق.

وانطلقت العروسة نحو الصف الطويل من القوارب الواقفة في الانتظار... وسمع سيد من بعيد صوتاً يقول:

«سيد الحموي داخل السبق يا جدعان..».

«زمر يا جدع.. سلام مربع للعروسة..».

وانبعث اللحن يزغرد في الهواء، واستدار سيد نحو الرصيف في لفطة سريعة... والتقطت عيناه صورة الناس والزحام... ورأى حسنية تقف وسط العازفين وعلى وجهها ابتسامة سعيدة... وانساب القارب فوق السطح الأملس، وتمايل، ودار، وتطايرت من حوله القوارب الصغيرة المزينة المليئة بالطبل والزمير والضحكات والتهليل... وأخذت تفر من أمامه مذعورة كالأسمك الصغيرة أمام حوت كبير... وشقت العروسة طريقها في سرعة، وامتلاً شراعها الهائل بالريح... ومالت على جانبها متبغدة مترقصة... وكان الصف الطويل من القوارب يقترب... وكلها مستعدة، المعلمين الكبار وراء الدفة، والصبيان على الحبال والأشرعة، والعروسة تطير وتنزلق وتسبح، والأعلام الصغيرة تطرقع فوقها... وما كاد سيد أن يصل إلى صف القوارب ويحاذيه، حتى دوت طلقة البداية في الهواء... وانطلقت القوارب، وعلت الضجة يلاً والصراخ والهتاف، وصرخ سيد وهو جالس بجوار الدفة نصف جلسة... صرخ بكل قواه:

«يلاً يا عروسة.. اسبقي الريح يا عروسة».

قاع البحيرة السوداء

تجمع الرجال حول القوارب، وتمددت أجسادهم السمراء اللامعة في استرخاء... ووراءهم وأمامهم وفوقهم وعلى جوانبهم، كانت الشباك ملقاة ومعلقة في تهديل واستسلام، كأنها هي الأخرى تستريح من عناء اليوم... وسبح كل شيء في ضوء القمر.

ورغم أن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل، فإن آثار الشمس كانت لا تزال عالقة بكل شيء، ولم تفلح النسومات الرطبة الندية في تخفيف تلك الحرارة، وذلك الصهد الذي كان يتصاعد من الرمال ومن سطح مياه البحر.

والتفت النسوة في حلقات حلقات... أغلبهن قد ألقمن أطفالهن أنداءهن، وضمنهم إلى صدورهن، وأخذن يثرثرن ويعبثن بأصابعهن في رمال الشاطئ.

وخلف أحد القوارب المنتصبة على الرمال فوق قوائم بدت وكأنها أرجل قصيرة غليظة... كانت امرأة عجوز قد استسلمت للصبية والفتيات الملتفين حولها.. وقد تعلقت عيونهم بها، وقد همت أن تقص عليهم القصة للمرة المائة أو المائتين، وربما كانت المرة الألف... فهي لا تدري، ولا تمل من حكايتها، كما لا يمل الصغار سماعها.

صاح أحد الرجال ينادي على ولده... فتلمل الطفل في مكانه، وتعلقت عيناه بوجه العجوز دون أن ينطق كلمة... بينما ابتسمت هي وقالت: «شوف أبوك داكر عايز ايه.. مش حاكي إلا لما تيجي».

قفز الصغير بسرعة وانطلق يعدو فوق الرمال... بينما عينا العجوز تتبعانه في وله وشغف، وبدلها شبحه في ضوء القمر طويلاً... أطول من سنه بكثير... كان الطفل في الثامنة من عمره، بينما كانت قامته قامة صبي في الثانية عشرة، وكان جسده عريضاً وذراعا مفتولتين، فتعلق نظر العجوز به لفترة، ثم قالت بصوت خافت: «أهو أنا وعيت عليه كان في طول سيد تمام.. بس كان أصغر منه..».

وسرعان ما انتصب بجوار الصبي رجل عملاق الجثة، وضع يده على كتفه ومضى به بين القوارب... فارتجف قلبها... وقالت إحدى الفتيات:

«هو عمي داكر رايح فين؟»

وساد الصمت برهة. صمت مزقه صوت امرأة تنادي على ولدها... فتلمل الصبي وسط الحلقة... وابتسمت العجوز وهي تقول:

«بلاش النهار ده يا ولاد.. بلاش.. أنا تعبانه».

زام البعض... وهم البعض بالاحتجاج، ولكنها كانت قد أطرقت، فأيقنوا أنها لن تحكي... ثم أخذوا ينهضون في تتأقل وينفضون من حولها... وفي لحظة، كانت قد أصبحت وحيدة.

امتدت يدها فغرفت من الرمال الدافئة حفنة... وامتدت عيناها فتعلقتا بقرص القمر... ثم انزلقتا إلى سطح المياه... وسبحتا بعد ذلك فوق السطح في رحلة طويلة عبرت

بها مدخل الخليج الضيق... ثم سرح خيالها فقفز بها فوق القمة السوداء الشامخة...
وراء القمة حدث كل شيء.

وقد مضى زمان طويل... زمان لم تعده بالسنين وإن كانت قد عدته بدقات قلبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت أيامها عروسًا.

لم يكن قد مضى على زفافها أكثر من قمرين اثنين... وكانت الحياة في الخليج شاقة،
والأسماك قد شحت وقلت، وتعرض الرجال للأمواج الصاخبة خارج الخليج حيث
كان جوف البحر يبتلعهم مع قواربهم وشباكهم. ولا يلفظ منهم شيئًا. فانكملت
رحلاتهم، وشح رزقهم، وجاءت عليهم أيام سوداء... أيام كانت الشباك تخرج من
المياه كما تلقى إليها. فارغة. فلا هم قادرون على الخروج إلى البحر بقواربهم
الهزيلة الصغيرة، ولا أحدهم بقادر على الاقتراب من البحيرة السوداء.

كم تتناقش الرجال وتحدثوا وحكوا الحكايات عن جيوش السمك التي كانت تملأ
البحيرة. وكم سمعتهم أيامها يصفون أنواع السمك الكبير والصغير، الغالي
والرخيص، جيوش وجيوش كانت تقفز أمامهم في مرج فوق سطح البحيرة... ولكن
أحدهم لم يستطع أن يقربها.

حتى عندما تسلقوا الصخرة الكبيرة الشامخة، وهبطوا إلى شاطئ البحرية ثم ألقوا
بشباكهم إلى مياهها، وما يكادون يجذبونها حتى يجدها مهلهلة ممزقة... فحاولوا
وحاولوا، أيامًا وأيامًا، في الليل والنهار... ثم أيقنوا بعدها أن كل ما سمعوه كان
صحيحًا، وأن البحيرة لا بد أنها مسكونة بجنية شرهة.

ثم قرر رجال أن يدخلوا البحيرة، ولكنهما لم يعودا. لم يعد منهما شيء سوى أشلاء
القوارب، وبقع دماء طففت على سطح المياه... ثم ذاب لونها الأحمر في لون مياه
البحيرة السوداء.

ومرت شهور قاحلة، لا رزق فيها ولا عمل... يلقي الرجال بشباكهم لتخرج فارغة،
وتتظر عيونهم إلى البحيرة في حسرة. ولكن أحدًا منهم لم يجرؤ على الاقتراب منها.
ثم قرر الرجال أن يقتلوا تلك الجنية.

لا يذكر أحد من الذي قال هذا... ولكن الذي حدث أن الشاطئ تحول في يوم وليلة
إلى جيش. الرجال والعيال والنساء والفتيات. حمل الرجال الحراب والسكاكين
والفئوس والأسلحة والعصي. وحملت النسوة المشاعل. وتجمع العيال بالحصى
والحجارة والطوب. وتسلق الجميع قمة الصخرة الشاهقة وهبطوا واحدًا وراء واحد
إلى الشاطئ، ثم أحاطوا البحيرة من كل جانب... حتى مدخلها الصخري الضحل،
وقف فيه عدة رجال، غمرت المياه سيقانهم حتى منتصفها، وعلى أكتافهم وفي
أيديهم أسلحتهم. وسدوا الطريق إلى البحر. ومرة ليلة، ثم ليال سبع وهم ينتظرون
دون جدوى. سبع ليال طويلة لم ينم فيها أحد.

ولكن الجنية لم تظهر!!

كانت ليالي غريبة. الشاطئ يخلو، والجميع يسهرون، وفي النهار يعملون. ولحظات
النوم تمضي كالريح. والأكواخ شح فيها الطعام.

كم من ليالٍ مرت عليها لم تكن تجد ما تقدمه له من طعام، ولكنه كان دائماً مشرق الوجه... تقاطيعه لم تنسها رغم الأعوام الطويلة، كم أحببت تلك التقاطيع، وكم سحرتها وفتنتها. وكانت سعيدة أيامها، وكان يقول لها:

«إنتي حلوة يا نرجس.. حلوه زي القمر..».

ولم تكن تخجل من غزله، بل كانت دائماً تستزيد منه وتقول له:

«زي القمر بس؟»

فينطلق ضاحكاً ويعابثها قائلاً:

«إنتي يا بت مش بتتكسفي أبداً.. إنتي مش وليه؟!»

كم أحبته... وكم بكت عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غنى رجل، فسبح صوته في ضوء القمر وهو يغمر الشاطئ، فتلمع أطراف المياه وهي تلتقي بأطراف الرمال فتصنع معها خطاً متعرجاً كعلامات الطريق. فألقت بحفنة الرمال من يدها وأسندت رأسها إلى يسراها. وامتدت أصابع يدها تعبث في الرمال من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيف فعل ما فعل؟

إنه لم يذكر لأحد شيئاً. ولقد كانت يومها سعيدة، كانت فرحة تكاد تطير من الفرح. وكانت تبحث عنه. خرج في الصباح ولم يعد. سألت عنه فقالوا لها: «في الميه».

وغربت الشمس وسألت عنه فقالوا لها: «مع الرجال».

كان ذلك في الليلة الثامنة... وكان اليأس قد أخذ بتلابيب الرجال، بعضهم كان يعد العدة للرحيل، فلم يعد في المياه سمك، ومياه الأرض واسعة. وبعضهم تشبث بالشاطئ. وكان هو أكثر المتشبهين به.

لقد سمعته ليلتها يتحدث بحدة... كان الرجال يتناقشون، وكان يتناقش معهم، ولم يظهر عليه شيء، ولم يحدث أحداً عما كان ينوي أن يفعله.

سمعته ليلتها يقول للرجال بصوته الثابت القوي:

«نسيب الشط لمين؟ دا حنا اتولدنا عليه، وعشنا فيه.. جنية إيه يا رجاله! مفيش جنية، لازم فيه حاجة.. حاجة!».

فصاحوا فيه: «حاجة إيه؟!»

وصمت...

لقد كان هذا ما يدهشها منه، لقد سألته ذات ليلة نفس السؤال، فصمت، وطال صمته، ثم قال:

«يعني الجن ملقوش غير البحيرة اللي حيلتنا؟.. أبأهتنا ما كانوا بيصطادوا فيها..».

«ماهي انسكنت بعدها».

«يا وليه اعقلي.. بقلها قد إيه مسكونه!!».

وكان يعرف كما كانت تعرف... كان يعرف أن الجنية جاءت مع تلك العاصفة المشثومة، قبل أن يولد هو أو تولد هي... عاصفة هوجاء لم ير الشاطئ لها مثيلاً... أطاحت بالقوارب والأكواخ، وابتلعت أناساً وألقت إليهم بجثث أناس آخرين... أناس من أرض بعيدة.

وقد حكى لها أمها الحكاية... وحكى له أبوه الحكاية. ولكنه كان دائماً يقول: «مفيش جنية».

وقد قال ذلك الرجال في تلك الليلة... واحتد الحديث بينهم... كانوا جميعاً في كوم، وهو وحده مع اثنين آخرين في كوم. ثم تحول النقاش إلى صياح... ثم سمعته يقسم ألا يبني معهم حول البحيرة. فذهب الجميع ليلتها إلا هو.

لو كانت تعرف ما سيفعل لما غادرت، ولكنه كان صامتاً كقلب الرمال الباردة. ثم اختفى ولا تدري أين... فذهبت ليلتها مع الذاهبين إلى شاطئ البحيرة، كم تمنى أن تلقاه ليلتها ولو للحظة.

حملت مشعلها في يدها وأخذت تبثلق في سطح المياه الساكنة الذي كان ينشق بين الحين والحين عن أسراب وأسراب من الأسماك العابثة اللاهية. وكانت الحسرة تأكل قلبها كما كانت تأكل قلوب الجميع. وفجأة... انعصر قلبها حتى كاد يتوقف.

فعلى اليسار، هبطت العيون إلى أسفل حيث مدخل البحيرة. ورأى الجميع قارباً صغيراً يسبح في بطن وسكون، يضرب مجدافاه سطح المياه، وتشق مقدمته أمواجها الرقيقة في قوة وإصرار... وصاح أحد الواقفين عند المدخل:

«مين هناك؟!»

وعلت الهمهمة هنا وهناك... وتحول شاطئ البحيرة إلى خلية من الأجساد المتحركة القلقة... والرعوس قد استدارت كلها إلى حيث القارب، بينما العيون تجاهد في ضوء القمر الشاحب أن تلمح صاحبه. والقارب يقترب ويقترب، والصياح يعلو فيشق الفضاء:

«مين في القارب؟!..»

وأضاء أحدهم مشعله. فأضاءت امرأة مشعلها. ومرت لحظات غمر الشاطئ بعدها ضوء عشرات المشاعل، وانعكس على سطح البحيرة وترقرق. وذاب ضوء القمر تماماً. وجاء بعدها صوته:

«أنا داكر..»

وشهقت. ثم جمدت ولم تدر ماذا تفعل أو تقول. كان القارب لا يزال يقترب من البحيرة ويقترب، والأصوات قد علت وعلت. ثم صاح أحد الرجال:

«ارجع يا داكر.. ارجع حرام عليك شبابك».

وتوقف المجدافان، ثم وقف داكر بقامته المديدة الفارحة في وسط القارب، وصاح في الرجال الواقفين عند المدخل:

«إللي عايز بيحي معايا بيحي.. واللي مش عايز..»

وقاطعه صوت أبيه من فوق الشاطئ البعيد:

«ارجع يا بني.. ارجع حرام عليك.. كفاية اللي راحوا في جوفها.. كفاية اللي بلعتهم».

وقد عاد إلى المجدافين... وأخذ يضرب بهما سطح البحيرة في قوة... والقارب يسبح ويسبح ويسرع في انزلاقه... ولم يستطع أحد من الرجال أن يعترض طريقه... بينما ضوء المشاعل يغمر سطح البحيرة... والقارب يتوغل ويتوغل... وصوت يدوي في الفضاء:

«حانعمل إيه يا داکر؟»

ولا يرد داکر، بل يوغل ويوغل، حتى توسط القارب البحيرة تمامًا، ونهض من مكانه، وجمد للحظة. ولكنها كانت لحظة مرت كلمعة البرق. ثم أخذ يخلع ملابسه. فانطلقت الصيحات تغمر الفضاء. كانوا يعلمون كما كانت تعلم أن البحيرة عميقة عميقة. وكان الكبار منهم يقولون إنها بلا قرار. فلم تستطع أن تكتم صوتها، فصرخت. صرخت ملتاعة حتى أخرس صراخها كل الأصوات... وأخذت تقترب من الشاطئ، وخطت في المياه خطوة، في يدها المشعل يضيء وجهها المفزوع، ثم خطت خطوة أخرى... وامتدت أكثر من يد تمنعها، ولكن الأيدي لم تمنع صوتها:

«ارجع يا داکر.. ارجع..».

فاستدار بوجهه ناحيتها... ورغم بعده الشديد، فقد خيل إليها أنه يبتسم. وكانت تعلم أنه لن يرد، ولكنها عادت إلى الصياح بصوت مختنق:

«ارجع.. يا داکر.. أنا بطني مليانه.. أنا حبلى يا داکر.. حبلى..».

ساعتها، خيل إليها أنه وجم، فقد توقفت يدها عن خلع ملابسه، واستدار نحوها تمامًا. ومرت لحظة صمت عميق... عاد بعدها يخلع ملابسه ثم تخلص منها تمامًا. وانحنى إلى قاع القارب والتقط سكينًا لمع في ضوء المشاعل. دس السكين بين أسنانه، وانحنى والتقط سيخًا طويلًا... ثم هوى جسده إلى المياه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تتهددت العجوز، وغرست أصابعها في الرمال كأنها تريد اقتلاع شيء. وتمتمت شفاتها بلا حديث. وأغمضت عينيها كأنها لا تريد رؤية ما حدث بعد ذلك.

لقد اقتلع قلبها ليلتها منظره وهو يشق المياه عائداً، ويتعلق بحافة القارب لاهناً، والأصوات تدوي من حوله:

«فيه إيه؟! لقيتها يا داکر؟!..».

«لقيت الجنيه؟!!»

«يا أخي ما ترد.. شفت حاجه؟!!»

وصاحت هي بكل جوارحها:

«يا داکر.. يا داکر».

وعاد يخطفي في المياه من جديد.

وما كادت تمر لحظة حتى فار جوف المياه، فار وغلى كأن لهيب الدنيا قد وضع تحت قاع البحيرة... وشقت السطح سحابة رهيبة من الرذاذ المتناثر، فصرخت. وصرخ الرجال... وقالت أصوات:

ولا اتجوزتش بعده راجل. مملاش عيني راجل غيره... وكمان محدش من الرجاله
طلبني يا ولاد.. الله يرحمه..»
وسقطت من عينيها دمة، لمعت في ضوء القمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساقية

الموظف في زماننا هذا كالساقية، ما يأتيه باليمين يصرفه باليسار. وما يكاد يقبض مرتبه حتى تنفتت الأوراق الكبيرة إلى جنيهاً، والجنيهاً إلى أنصاف وأرباع، وهذه إلى قروش... وسرعان ما تذوب الماهية كلها في الشقوق التي لا نهاية لها.

وهناك مثلٌ يقول: «على قد لحافك مدد رجلك». ولكنه نادراً أن نجد موظفاً يريد أن يمدد رجله على قد لحافه. فالساعي يتشبه بالأفندية الموظفين، والكاتب ينشعبط على حبال الحياة حتى لا يصبح ابن الباشكاتب أحسن من ابنه، والباشكاتب يعتبر نفسه مديراً ولو بالعافية، والمدير هو في مكتبه وزير ورئيس وزراء، يدير جمهوريته من وراء كرشه الكبير بكل حذق ومكر، يتحين الفرص، ويسعى ويستدين ليدخل إلى بيته تليفوناً وثلاجة، ولتتزوج ابنته من شاب يناسب المقام.

وعبد التواب أفندي زين العابدين... رجل ليس له من أمل في حياته التي أصبح نصفها في القبر سوى تربية أولاده وضمان مستقبلهم. وهو رجل عصبي لا يستطيع أحد في بيته أن يقول له «تلت التلاته كام»، أو يتقوه أمامه بكلمة أو يعترض على رأي له... وهو أيضاً رجل طيب يحبه أولاده وزوجته وزملاؤه ورؤساؤه... يحبه الجميع، ويصفونه بأنه قطعة من السكر.

وكما أن الحلو لا يكمل، فإن عبد التواب أفندي له عيب يعرفه عنه الجميع، ذلك أنه في أول كل شهر يصبح رجلاً لا يُطاق. وما إن يهل يوم 28 حتى تهجم التكشيرة على وجهه، ويَرُوى ما بين حاجبيه، وتضيق عيناه، ولا تفارق يده ورقة طويلة بها أسماء الديانة..!

عشرون عاماً وهو بهذه الحال، وكل شهر يقول إنها لا بد وأن تتعدل، ويأتي كل شهر ولا تتعدل، بل لا بد له من خازوق لا يعرف من أين يأتي.

وفي هذا اليوم، كانت الحياة في البيت لا تطاق، فالقروش التي تكوّن الماهية تبعثرت ما بين أجرة البيت، وقرشين لأم علي، وأربعة لبرعي، وخمسة وسبعين قرشاً للفكهاشي... ويبرطم عبد التواب وهو يقول:

«وكان لزمته إيه؟»... وتشهق زوجته قائلة: «يوه... هم العيال ملهوش نفس؟» ويصمت على مضض، وجنيهين قسط السمن، ويبرطم قائلاً: إن الناس كلها تأكل النباتي، وتشهق زوجته قائلة:

«يا ندامتي... أنا أدخل بيتي سمن صناعي؟!»

ولا يجد جواباً سوى الأرقام التي تتكاثر، ثم تطير الماهية عن آخرها.

وتتراقص أمام عينيه الأرقام والأسماء في بجاجة غريبة، وهو مغيب يكاد الدم ينبثق من عينيه، وتمتد يده إلى الجنيهاً الثلاثة الباقية ويقول لزوجته في ضيق:

«خدي.. آدي قسط الزفته الجمعية».

وما كادت الست تقيدة تمد يدها إلى النقود حتى سمعته يقول:

«يقطع الجمعيات وعيشتها».

وقالت زوجته لنفسها: «موال كل شهر.. ياخي وانا مالي».

«ده آخر قسط مش كده؟»

وهزت رأسها إيجاباً فقال لها في حدة:

«في ستين داھية.. إياك تجيبي سيرة جمعيات تاني.. فاهمة؟»

والحقيقة أنه ما من شيء يغیظ عبد التواب أفندي سوى حكاية الجمعية هذه، فما تكاد زوجته تخبره بأمر جمعية، حتى تقفز إلى رأسه ألف مشكلة ومشكلة... وينفتح أمامه ألف باب وباب، ويتخيل أن الحياة بعد الجمعية ستصبح نعيماً، فيقدم، وما تكاد الجنيھات تستقر في يده كثيرة، يكاد من فرط إحساسه بها أن يشتري الدنيا كلها، حتى تتبخر وكأنها في يد عفريت دون أن تحل مشكلة أو تسد باباً. وتبقى العيشة بضنكها وقرفها، وتنقص الماهية كل شهر عدة جنيھات، ويطلع هو على جثة زوجته البلاء!!

وهو لا يدري كيف يسيطر عليه الإغراء، فما إن ينتهي من جمعية حتى يلضم في جمعية أخرى، دون أن يشعر، أقسم وألح في القسم عشرات المرات، ولكنه كان يجد نفسه وقد انعرز في جمعية جديدة.

والست تفيدة تعتقد أن هذا الأمر لا يُرضي الله... بل لا يُرضي أحداً على الإطلاق. فما لها هي وهذه المواويل التي تظل تسمعها في صبر طوال عشرة شهور كاملة؟... وكادت تقول له ذلك، ولكنها همست لنفسها أن تخزي الشيطان، وتتهدت وعقدت ذراعها فوق صدرها، ثم تربعت فبلعت ساقاها نصف الكنبة... وأغاظ ذلك زوجها فصرخ:

«مفیش حد فيكم ناعي هم.. طبعاً تتتهدي، على قلبك مراوح».

وانفتح فمها، وهمت بأن تصرخ فيه، فليست هذه الحياة بالتي تطاق، ويجب أن تضع حداً لذلك، والأولاد قد كبروا وليس فيهم من يحتاج إليها، وكادت تنفذ ما يدور بخاطرها عندما قالت لنفسها: «يا بت اخزي الشيطان»... وسمعت كلام نفسها وخزت الشيطان وظلت جامدة كالصخر.

وساد الصمت برهة، ووجدت أنها لا بد وأن تقول شيئاً، فقالت في صوت مستكين:

«بكره تتعدل يابو صابر».

ونظر إليها بجانب عينه الحمراء، وبرطم قائلاً إنها لا تغلح في غير هذا. وعربد غضبها في صدرها، فهي تعمل بلقمتها، ترعاه وتربي أولاده، ورغم هذا لا ينوبها منه كلمة حلوة، بل هو يسقيها كلمات كالمس المنقوع، كلمة وراء كلمة، ولو كانت جبلاً لانهد... وبرطمت داخل شفيتها، وتلاعب لسانها في فلق... لترد عليه وليكن ما يكون.

وبلعت ريقها وزمت شفيتها أكثر كأنها تحجز الكلمات المعرّبة الصاخبة في داخلها، والتي كانت تتزاحم فوق لسانها متوسلة أن تخزي الشيطان وتعقل، فالرجل معذور، والماهية لم يبق منها سوى قروش وبضعة أوراق صغيرة، ويكفيها نفسه في الدنيا، من أجلها ومن أجل العيال... كان الله في عونك. وأخيراً وجدت لسانها يقول:

«أعمل لك فنجان قهوة يا ادلعي؟»

وصمت ولم يرد، والسكوت عند عبد التواب أفندي دائماً علامة الرضاء... والبيت كله قد هبط عليه سكون عميق، والأولاد في الحجرة الأخرى كالكتاكت، يقف صابر في وسطهم كالديك الكبير... وما إن رأى أمه تدلف من باب الحجرة حتى سألتها في لهفة:

«عملتي إيه؟»

«اسكت دلوقتي.. يوه.. هو ده وقته؟»

قالتها في حدة و غضب ثم استدارت نحو سميرة وأمرتها أن تعد فنجانين «قهوة على الريحه»... ولضمت في كلماتها هذه كلمات كثيرة كي تقز سميرة ولا تتكع، فأبوها مزاجه معكر... وبرطم صابر، وصرخت عائشة الصغيرة فسقطت البزازة من فمها، وجاء صوت صابر:

«إيه هو ده، مفيش حاجة اسمها استنى، لازم أدفع المصاريف، مفيش دخول جامعه من غير مصاريف.»

كان واضحاً أن صوته عال، وكادت أمه تغلق الباب حتى لا يصل صوت ولدها إلى أذن الرجل فيغضب ويثور وتفور دماؤه، وقد يحدث له شيء فمن ينفعم حينئذ؟ ولكن صوت صابر الماكر تسرب من الباب في غفلة منها ووصل إلى أذن عبد التواب الذي ثار وصرخ من مكانه:

«ماله البيه؟ مش عاجباه العيشة؟»

وساد الصمت، ولم يسمع رداً، فعرف أن مفعول كلماته قد سرى على الفور، وأحس بشيء من الغبطة عجيب، ولكنه أخذ يبرطم في خشونة ساباً الأولاد الذين هم سبب المصائب.

وما إن عادت زوجته إلى الحجرة، حتى كان غضبه يغلي من جديد... فقد لمحت عيناه الجنيهات الثلاثة وكأنها تخرج له لسانها... فقال لزوجته:

«تعرفي لو جبتي سيرة جمعيات تاني؟!»

«ما سمعت بأه، تنك طيب و..»

«طيب والله، آخر مرة فاهمه؟»

ولم تدر تفيدة ما الذي حدث، وكيف لم توقفها نفسها ككل مرة فلم تخز الشيطان، وكيف اندلع لسانها كاللهب وهي تعدد له ما صنعت من أجله، وكيف باعت ما أمامها وما وراءها... وقال لها: «اخترسي» ولكنها لم تخرس... وظلت تسب وتلعن وتقول إنها راضية بالهم والهم ليس راضياً بها، وإنه لو لا العيال لما بقيت في بيته ساعة.

وغلت دماء عبد التواب، وقال لها «مع السلامة»... ووجدت نفسها تنهض لترتدي ملابسها وتقسم ألا تبيت فيها. وجاء الأولاد... عائشة تحبو بين الأقدام وتصرخ، وصابر يهدئ أباه تارة وأمّه تارة، وسميرة تبكي. والبيت أصبح وكأن ناراً اشتعلت فيه. وكلاهما سادر في صراخه. وفارت القهوة فوق النار وأقسم عبد التواب ألا يبيت فيها هو الآخر. وما كاد صابر يقترب من أبيه حتى هوت على صدغه صفة.

ووجدت الست تفيدة نفسها فجأة تهمس لها بعد طول صمت... «اخص عليكي، مش قادرة تستحملي الرجل؟ شوفي يا كبدي وشة مزروود ازاي؟»

وصرخت بكل صوتها تقاوم الضعف:

«وانا مالي.. اشمعنى انا، هو انا بس اللي كل حاجة فوق راسي؟ مانا شايفة الغلب زيه تمام.. يا ندامه!!».

وهمست لها نفسها: «يا وليه اخزي الشيطان وصلّي ع النبي امال، روجي هاتي شوية بخور».

وصرخت مرة أخرى وهي تزريح سميرة من أمامها وتكمل ارتداء ملابسها:

«بخور على إيه.. حايجسدونا على إيه؟.. ع الهم اللي احنا فيه ولأع الهم اللي احنا فيه؟»

كان واضحًا تمامًا أن أحدًا لا يستمع إلى ما تقوله تقيدة، لا زوجها الذي كان يصرخ، ولا صابر، ولا سميرة، وضاعت صرخات عائشة بين جلبة الأقدام والأصوات المتضاربة وكأنها تتعارك هي الأخرى... «معلش يا نينه والنبي». «حقك عليّ يا بابا». دموع... والأب يصرخ والأم تصرخ. وكل شيء تائر.

وكان لا بد - مهما طال الوقت وحمي وطيس المعركة - أن يخلع عبد التواب أفندي الجاكتة، ثم يفتح قميصه، وبعدها يجلس من أجل العيال، وكان لا بد - أيضًا - أن تجلس تقيدة بجانب زوجها وهي تروح بجريدة أمام وجهها، وأن تخزي الشيطان أخيرًا من أجل العيال.

وسميرة تعد القهوة، وصابر يقف صامتًا وفي عينيه حنان وضيق وثورة، وأشياء كثيرة كانت تختلط وتتفرج ثم تعود فتتضارب معها دقائق قلبه.

وكان لا بد وأن يتم الصلح، وعبد التواب يعلم أنه لن يترك البيت، وتقيدة تفخر بأنها منذ أن تزوجت من عشرين عامًا لم تغضب مرة واحدة، وسميرة تبكي لأنها تريد أن تبكي دون أن تدري لِم، وصابر حائر، وفي رأسه طاحونة، وتأتي القهوة، ويصالح عبد التواب زوجته، وتبكي هي ثم تبتسم، ويقول لها في عتاب:

«بقى كده يا وليه، مش قادرة تستحمليني؟»

وتسقط دمعة وراء أخرى، وتقول تقيدة:

«بعد العمر ده تقوللي: مع السلامة؟»

ويقول: «يا وليه اعقلي». ويقول صابر: «متقصدهش». وتقول سميرة: «ساعة زعل». وترفس عائشة بقدميها الصغيرتين صدر أبيها، وتضحك ثم تقفز كالذودة محتمية بصدر أمها، ويبتسم عبد التواب وهو يقول إنها بنت كلب تحب أمها أكثر... وتطبطب عليها تقيدة وهي تلاعبها وتحضنها وتقول بدلال:

«من اللي بتعمله فيها!».

وفجأة قال صابر في صوت جاد:

«أنا قررت حاجة».

وساد الصمت... ورشف عبد التواب رشفة من فنجان، ونفت دخان سيجارته في هواء الحجر، وشهقت تقيدة وأخذت تغمز ولدها وتشير له أن يصمت فليس هذا وقته.

ولكن صابر استمر في حديثه ويقول:

«أنا قررت أشتغل».

وساد الصمت تمامًا... وبحلق عبد التواب في وجه ولده:

«تشتغل؟!»

«أيوه..».

«ليه؟»

«المصارييف كتير.. وانا.. وانا.. عا.. عارف ان..».

وأحس عبد التواب كأن أحدًا يغمد نصلًا في قلبه فقال:

«طيب اسكت انت.. ربنا يحلها».

«ما هو..».

«اسكت بقول لك.. اسكت..».

كان واضحًا أن عبد التواب أفندي يفكر، وداعبت أصابعه السيجارة قليلاً... وسهم ببصره، وغاضت الحمرة من جبهته... وعادت إلى وجهه تلك السمرة اللامعة الرائعة، وانفرج ما بين حاجبيه، وتتهد، وامتدت يده إلى الوريقات المنتثرة على مسند الكنبه... واندست أصابعه فيها ثم ارتفعت تحمل ورقة صغيرة، مدها نحو ولده وهو يقول:

«روح.. روح انت سينما.. خش سينما..».

وخرج صابر، وخرجت سميرة، وابتسمت تقيدة وهي تقول بصوت ناعم: «ربنا ميحرمهمش منك». وغاص هو في التفكير... ثم جذب النفس الأخير من السيجارة... ونظر إلى زوجته وقال بصوت منخفض:

«إلا الجمعية بتاعة أم حنفي، الجمعية الجديدة، عملتي فيها إيه؟!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خناقة

الليل يزحف... والظلام يهبط... ونور المصباح الشاحب الأصفر المختلط ببقايا ضوء النهار يتسلل من فوق الجدار المتهاوي، فيغمر الخرابة المليئة بالقاذورات والفئران والصراصير والخنافس والسحالي... ويسكنها الأطفال الصغار وجامعو أعقاب السجائر والخطافون والنشالون واللصوص.

والداخل إلى الخرابة، لا بد وأن يجتاز فجوة منخفضة، وأن يتخطى أكوام الزباله وقشر البطيخ والشهد والمنجة... ولا بد وأن تنفذ إلى أنفه رائحتها القوية العفنة، ولا بد أيضًا أن يمر على فلفل، الكلب الأسود الأعرج الذي يمد عينيه يمنة ويسرة وهو قابع في استرخاء ممددًا قدميه الأماميتين، والذي ينهض دائمًا في تكاسل عجوز زهد الدنيا وما فيها ليستقبل أحد ساكني الخرابة بمواء خفيف ليس بينه وبين صوت الكلاب صلة... ثم يتبع الساكن إلى داخل الفجوة، ويلقي نظرة طويلة على المسكن المستكن في ركن الخرابة تحت الجدران العالية الشاهقة الصماء، ويهز ذيله ورأسه... ويموء كأنه يممص في شفقة... ثم يستدير ويعود إلى مكانه وهو يترنح فوق الأكوام والأحجار... وبعدها ينثني ويهبط بنصفه الخلفي ويفرد قدميه الأماميتين، وما تكاد بطنه تلامس الأرض، حتى يهبط برأسه ويوسدها ما بين قدميه في زهد وكسل وغير مبالاة.

وفي داخل الخرابة، وتحت السقف المصنوع من الصفائح القديمة الصدئة وقطع الحصير، والذي شيده فوله ولبه وعبورة وحسن وزلطة وبقية العائلة التي لا عائل لها... كان زلطة وعبورة جالسين وقد انهمكا في اللعب، وأمام كل منها كومة من أعقاب السجائر المقسمة إلى أصناف، منها أبو فله والبحاري واللاكي سترابت!!

واللعب كان قد اشدت وحمي وطيسه... والنهاية تزحف ثم تتراجع منذ العصر، والأمل يداعب كلاً منهما... وتتابع الأدوار، ويرتفع الزهر المصنوع من قشر البرتقال ويهبط متدحرجًا إلى الأرض، وتصحبه طرقة الأصابع كأنها تجلده بالسياط ليطيع... وتتدحرج معه أربع عيون تزحف في محارها وراء ألوانه الصفراء والبيضاء.

وتلمح على وجهيهما الصغيرين لمحات بريئة ساذجة طيبة... ولكنك لا تملك إلا أن تحس قسوة رسمت في عنف على الوجهين خطوط رجولة مصطنعة جاءت في غير أوانها، وفي غير رغبة من أصحابها، وحددت لتصرفاتهما دائرة لا يقضي العرف وأكل العيش وظروف الحياة أن يخرجها عنها... ولكن تصرفاتهما لا تلبث أن تقلت من الحصار... وتهرب من القيد... وتتطلق طفلية بريئة.

وكان شعر زلطة الأصفر قد جمعه القذارة في كتل متماسكة كأنها نبايبت لزجة، وجبهته العريضة قد اختلطت بياضها الشاحب بسمرة خلقتها لفحات الشمس فكونت لونًا رماديًا أغبر علتة أتربة عجن بالعرق، وصنعت خطوطًا وأشكالًا متوازية ومتقاطعة ومتعرجة، كخطوط شق لوح الخشب القديم الباهت... وتتحد لتختلط بالحاجبين اللذين لولا غزارة شعرهما لاختفيا فيها... وتحت الحاجبين عينان واسعتان قلقتان في محجريهما كأنهما بليتان لامعتان مصقولتان تتحركان في حوض زئبق، لا تستقران على حال، يجريان خلف الزهر، ويتعقبان الأعقاب، ويصعدان

إلى وجه عبورة، ثم يهبطان مرة أخرى مع الزهر، ويظلان هكذا لا يتعبان ولا يكلان.

أما عبورة فكان أضخم من زلطة... وجهه عريض كبير كقطعة الحجر التي تصنع مدخلاً للسقيفة، والتي سرقتها الشلة من التنظيم عندما كان يبني رصيفاً للشارع المجاور، ليوهموا البيت أن له باباً... وقد برز أنف عبورة الكبير من هذا الوجه معقوفاً صارماً... تحده من أعلى عينان ضيقتان كعيون الفئران التي تسعى حولهما في أمان وثقة، وصوته أجش خشن كصوت الرجال، يعلو ساباً الزهر إذا خسر، شاتماً زلطة في بذاءة ساخرة إذا كسب.

وكانت الخرابة خاوية فارغة، ليس بها أحد غيرهما، وما كانا يظنان عندما بدأ اللعب أنهما سيمكثان طوال هذا الوقت... ولكن الزهر كان يعاكس، والمكسب يداعبهما، يأتي مع هذا تارة، ثم يخرج لسانه ويفر إلى الآخر... والأعقاب تنتقل، وتفرغ، ويتناثر دخانها على الأرض ويختلط بالأتربة. وهي أيضاً تنقص، فكلاهما يدخلن وكلاهما كييف، واللعب يحتاج إلى مزاج، وصحبة، وإلى إشعال عقب وعقب وأعقاب... وأعصابهما ما عادت تتحمل طول الجلسة، فتوترت، وشدت بقوة خفية غاضبة... تلعن الحظ والبخت والزهر، وتلعن اللعب في سبة قدرة بذينة تنتشر في جو الخرابة وتتألف بذاعتها وقذارتها مع أكوام الزبالة المتناثرة على الأرض، ورائحة قشر البطيخ وبقايا السمك، وتنسجم مع الرائحة النفاذة التي تعودتها أنوف ساكني الخرابة، بل وألفت إليها وسكنت لها.

وتدريجياً، ومع زحف الليل، زحف الغضب والضيق إلى نفسيهما... زحف حثيثاً مستكيناً، ثم تملك وتمطى داخل الصدور الصغيرة، وتخلل الحناجر إلى الأفواه سباباً ولعناً أشد حدة وضيقاً... وتحول اللعب إلى تحد، وإذا التحدي يرفع ويرهف حتى يصبح كحد المدينة التي يحملها عبورة... ثم يتحفز تارة، ويخبو تارة أخرى أمام الحق، ولا يجد منفساً خلال قانون اللعب، ولكنه يظل مرهقاً مستعداً كأنه يد الجراد تنتظر الأرض لتفتطح وتبتتر.

وكلاهما يحس بذلك... يحسه ويضطرب له، والليل يوغل، ولم يعد أحد من العائلة بعد، والصمت يهبط، وضجة الفئران وصراخها وعراكها يشتد وهي تمرح في المكان. وقد يقف أحدها ناظراً إلى الجالسين قبالة بعضهما في ألفة. ثم يمضي منزلقاً سريعاً مرخاً خلال الخرابة الرحبة... وتنقل الوحدة على اللاعبين، ويحس زلطة بوحشة قلقة، ويرفع رأسه إلى السماء ثم يهبط بها إلى الفجوة التي كساها الظلام، وخيوط نور تسربت إليها بعد جهاد خلال الشقوق والأحجار... ثم قال في صوت خافت:

«الجماعة تأخروا إليه؟»

«العب..!».

قالها عبورة باترة قوية دون أن يرفع رأسه عن الأرض... ومد زلطة يده إلى الزهر، وأطبقت أصابعه عليه وعلى حفنة من التراب... ثم هز قبضته هزاً عصبياً عنيفاً، وفرد كفه وهو يلقي به ويطرُق بأصبعيه... وجرت العيون تلحق بالزهر المتدرج... ثم استقرت مع استقراره لحظة، ثم جرت وراء يد زلطة التي امتدت إلى الأعقاب تجذبها نحو كومته.

وما كادت يده تهبط فوق الأعقاب... حتى لحقت بها يد عبورة وقد نفرت في ظهرها عروق كثيرة، وزحفت عينا زلطة إلى أعلا، ثم التقتا بعيني عبورة الحادثين:

«فيه إيه؟»

«الزهر مكسور!».

«فين هو اللي مكسور؟»

«أهو.. إنت اعمى؟»

«متطولش لسانك.. الزهر نايم ومرتاح...».

«ده نايم يا ابن ال...».

وسرعان ما وجد الغضب الكامن المتحفر لنفسه مخرجًا... وتمطى وهو ينفلت خارجًا من سجنه، ورنت صفة مكتومة، وسبة، ولكمة، وآهة، وزمجرة، وحشجة، وتناثر تراب، وعلت سحابة منه، وحميت المعركة وتطورت... ونهض الكلب من مكانه في تناقل... ثم أطل برأسه من الفجوة، وتراجع بعدها ثم عاد إلى استلقائه، وأحس زلطة بوجه عبورة الكبير يقترب من وجهه... وأحس كأن ذلك الوجه كابوس يكاد يكتم أنفاسه... واندلعت في نفسه غضبة وكراهية، وأمسك عقله بخيط جرى وراءه... كان طوال عمره لا يحب عبورة، كان يكرهه ويكره رجولته الخشنة ويحسده عليها، وتمنى لو كان له أنف كبير مثله، وشعر أكثر مثل شعره، وأن له شاربًا خفيفًا يعلو فمه كخط من تراب رمادي، سيصبح غزيرًا بعد أيام، كان يكره صفعاته وركلاته وسبابه، وكانت قبضة عبورة تجذب شعره إلى الخلف في قوة عنيفة، وانتثرت رقبته حتى أحس بها تكاد أن تنقسم... وجاء إلى أذنه صوت عبورة مزمجرًا، ورأى السماء على الأرض، والأرض مكان السماء، والبيت مقلوبًا، وكان يعلم أنه أضعف من عبورة... وأن عبورة سينتصر.

«قول أنا مره..».

ولكن زلطة لم يقلها، كانت الآلام تكاد تقتله، لقد تمنى في لحظة ما أن يخسر ولا يكسب، ولكن بالحق، وهو لا يريد الخسارة بغير حق، وهو أيضًا لا يحب الغش... والزهر لم يكن مكسورًا. والله العظيم لم يكن مكسورًا.

«قول أنا مره!».

وزاد انتشاء رقبته إلى الخلف... وأحس كأن نملاً كثيرًا يجري في حنجرته، وصعدت من صدره آهة تخللت حنجرته ودارت في حلقة ثم في فمه، ولكنها اصطدمت بشفتين مزوموتين في عناد عنيف، فعادت كالصدى إلى الحلق ثم صعدت إلى الأنف وخرجت منه هواء حارًا يكاد يغلي... وجسد عبورة قد برك فوق جسده، وامتدت يده نحو عبورة، وأمسكت بأذنه وتشبثت بها، ثم قال بصوت مرتجف:

«قول أنا مره..».

قالها في غيظ وعناد، وجن جنون عبورة، وانهاالت يده بصفة قوية على الوجه الصغير.. وتشبثت يد زلطة بالأذن، واستجمع كل قواه، وغرز أصابعه في لحم الأذن غرزًا، حتى خال كأن أصابعه قد نفذت منها والتقت ببطن يده... وانتابته نوبة من وحشية قاسية، وجز على أسنانه وجذب الأذن جذبة قوية... وخرج صوت

عبورة لاعناً صاخباً خشناً... وشاع في نفس زلطة سرور خفي... وخرج صوته الناعم متردداً متعثراً:

«قول أنا مره..».

وما كان عبورة يتحمل أكثر من هذا، فالتحم الجسدان، وتشابكت السيقان، وترافقت الأقدام... ورفع عبورة رأسه وهوى بها على رأس زلطة الذي داخ... ولكن طاقة الكراهية كانت تتفاعل وتتوالد وتتضاعف، وازداد إحساسه بأن خلاص الدنيا في قتل عبورة... عبورة هذا الكبير الوجه والأنف، والذي يضرب الجميع، ولا يهاب أحداً... وانهالت لطمه من يد عبورة فوق عينه، فدمعت، وأحس لملمس الدمع براحة تسري من رأسه إلى كل جسده... وأراد أن يبكي، وأحس كأن الدنيا كلها تكرهه كما يكره هو عبورة، وارتخت يده فترك الأذن، وأحس بالدموع تسيل... وتوقف عبورة، وابتسم في بشاعة... وقال بصوته الغليظ الخشن:

«أبوه كده عيط زي النسوان يا مره..».

ولم يرد زلطة... أحس هموداً في جسده، ورأى عبورة ينهض من فوق صدره... وهبت نسمة رطبت وجهه الملتهب، وأحس أنه يريد البكاء. وتحامل، وشعر بشيء ساخن على قدمه، فمد يده ليزيحه... كان لزجاً، وكان أحمر، وكانت هناك زجاجة مغروزة في اللحم... ورفع رأسه إلى عبورة، كان واقفاً منتصباً وهو يدخل ويخرج الدخان من أنفه، وجرفته موجة حارقة من الضيق، وازداد هطول الدموع، وارتعشت يده وهي تجذب الزجاجة، وانبتقت الدماء غزيرة وقد انفجر الجرح وانفتح كبطن قطة داست عليها عربة مسرعة. وكلما هطلت الدموع... تسربت إلى جسده راحة وخور، وزحف على الأرض، وملاً يده بالتراب، ثم وضعه فوق الجرح ليكتم الدماء، واختلطت دماؤه بالأتربة، وصنعت عجينة بشعة اللون سوداء الحمرة، واغترف من التراب ووضع فوق الجرح... ولكن الدماء ظلت تسيل في غزارة، واجتاحته رغبة عارمة، كان يريد أن يبكي، يصرخ، يفعل أي شيء... وتأوه في استكانة ومسكنة، وما لبث أن وجد عبورة يتقدم نحوه... فرفع إليه عينه الدامية، فانحنى هذا... وأزاح يده من فوق الجرح في عنف وهو يقول:

«إوعى إيدك!!».

ونظر إلى الجرح... ثم مد يده إلى الأرض وهبش حفنة من التراب أخذ ينخله، ثم ضغطها فوق الجرح في قوة... وتأوه زلطة، وأحس للآهة بلذة عجيبة. ورأى عبورة يرفع طرف جلبابه ثم يمزق منه شريطاً عري ركبتيه، ورفع القدم الدامي وأخذ يلف الخرقة حوله، وكان الألم يزداد على زلطة، فيحس له لذة غامرة، فاستعذبه. واستعذب الحنان القاسي الذي تدفقت به أفعال عبورة، وأطلق آهة أخرى...

وانفجر يبكي، ودفن وجهه في يده... وما لبث أن سمع عبورة يقول في صوت خفيض:

«ما هو الحق عليك يا زلطة..».

«هو انا عملت لك حاجة..».

«قلت لك الزهر مكسور..».

«وحياة النبي كان نايم..».

«مش احنا اخوات؟».

«هم الاخوات يضربوا بعض يا عبورة..؟».

وانتهى عبورة من عمله... وزحف وجلس بجانب زلطة، وأشعل عقباً به مد يده إليه:
«مانا معايا..».

«والله لانت واخذ..».

ورفع زلطة عينيه الواسعتين الدامعتين إلى وجه عبورة... والتقتا بعينيه، وكان الألم ينشر قدمه نشرًا، ورغبة ملحة تتتابه ليواصل بكاء حارقًا... وانحدرت الدموع سريعة متلاحقة تشق طريقها خلال الأتربة المتركمة على وجهه.

«جرى إيه يا زلطة؟ حد يعيط من اخوه؟!»

وانفجر زلطة كأنما فتحت الكلمات صنبورًا من النشيج والنههة... ومد عبوره يده يربت بها على كتف زلطة في حنان وقد أحس سخونة تسري في رأسه... ويميل على شعره ويقبله وهو يقول بنبرات لينة خفيفة مسكينة:

حقك علي... داحنا اخوات يا زلطة، إحنا لينا غير بعض، هي الأخوية بالدم بس، دي بالعيش والملح...».

وضم كفه ثم رفعها إلى خده ومسح دمعة صنعت طينًا خفيفًا فوق الوجه... واستجمع الكلمات المبعثرة وقال:

«دي مصارين البطن بتتعارك يا زلطة...».

وهذا زلطة، وهذا عبورة، وأشعلا عقبين، ومر الوقت وهما يدخانان في صمت... وفي رأس كل منهما فكرة، ومعنى يستكينان إليه، وعندما مد عبورة يده بعقب آخر إلى زلطة قال في صوت خافت:

«خد يا خويا..».

ولامست أصابع زلطة أطراف أصابع عبورة، وأحس بها ناعمة، فيها حنان انتقض له قلبه، وحلق السكون... ومر الوقت، وجاء بلية، ونظر إلى قدم زلطة الملفوفة، ثم نظر إلى عبورة... وقال بصوت رفيع كفتلة تحاول أن تصبح حبالًا:

«فيه إيه يا رجالة؟!»

وجاءه صوتاهما خافتين:

«ولا حاجة..».

وجلس بجانبهما في سكون... ودلف فلفل، وعوى في وهن، ثم قبع في وسطهم... وتوالت الأجساد الصغيرة القذرة من الفجوة... وتوغل الليل... ومرحت الفئران... واكتمل الجمع. وماءت قطة. ثم قطة... وصرخ فأر... وعاد السكون... وغفت العيون... وترددت الأنفاس، وانتظمت... والليل يزحف... ثم يزحف.

الست هانم

الست توحيدة... توحيدة هانم... داخت الدوخت السبع قبل أن تعثر على خادمة... أشهر طويلة وهي مغروسة في البيت وحدها، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح البلاط وتلمع زجاج الشبايك. كانت لا تستطيع الجلوس لحظة في مكانها. والبيت كبير، والأولاد كثيرون، وطلباتهم لا تنتهي! وكادت تجن، ركبتها الأمراض والعلل، وأصبحت لا تكف عن الشكوى... لا بد من العثور على خادمة بأي ثمن، وبأية طريقة.

لجأت إلى المخدم، فابتسم ابتسامة صفراء وقال:
«نشوف يا ست».

أمرت خادمت الجيران، بالتلميح مرة، وبالتصريح مرة. ولكنهن كن يهربن منها ولا يعدن أبداً!

وفي الشهر ثلاثون يوماً. وفي اليوم أربع وعشرون ساعة. وتوحيدة هانم لم تعد هانم ولا يحزنون، أصبحت أم عيال، تعمل في البيت عشرين ساعة، وتحلم في الأربع الأخرى بالخادمة.

ثم وقعت المعجزة...

«البننت صغيرة، عمرها تسع سنين، أبوها ميت، وأمها غسالة... لقطه!».
وتحمست الست توحيدة وقالت:

«وماله... أعلمها واربيها ولما تكبر أجوزها».

ومصمت أم الفتاة الصغيرة وهي تقول:

«أنا ياختي اسم الله على مقامك محتاجه لجنيه كل شهر».

وشهقت توحيدة هانم، وقالت وهي تضرب على صدرها:

«جنيه؟!!!».

حقاً!!... الجنيه كثير على مثل هذه المفعوصة، فهي لن تستطيع أن تصنع شيئاً. لن تطبخ ولن تغسل ولن تمسح ولن... ولكن الست توحيدة ذكية، وهي بتجربتها مع الخدم تعلم تماماً أن الأمر لا يحتاج لأكثر من شهر ثم ترتاح، وتصبح البننت كالعفريته، ولن تتحرك هي يوماً من مكانها، وستعوض كل الذي فات.

نهايته، كلمة من الوليه وكلمة من الهانم... ووافقت الست - مرغمة - على دفع الجنيه. وأخرجت من صدرها نصفه مقدماً، وقالت وهي تنظر نحو الفتاة المكومة في الركن، ثم تبتسم ابتسامة رياء:

«واسمك إيه يا محروسة?!»

قالت الأم:

«خدامتك توحيدة!».

وكادت الهانم أن تشهق، بل وتصرخ في الولية قائلة... «توحيدة في عينك وعين اللي خلفوك»... ولكنها كظمت غيظها وهي تقول:
«بكرة يتلخبطوا فينا. أنا حاسميها توحه!!».

الأم كانت قد انتهت من الأمر كله. فليكن اسمها توحه أو توحيدة أو حتى عفريته، فقط شيء واحد:

«والنبي يا ست دي يتيمة وغلبانة، ودعوتها تصيب».

وقالت الست توحيدة في سرها: «صابتك عقربة»... ثم دارت الأمر بابتسامة وضحكة. ومر الوقت، ونهضت لتغلق الباب وراء الأم.

وما لبثت أن استدارت نحو مقصوفة الرقبة، وزغرت في عينيها، وهبشت فجأة في أذنها وجرتها أمامها وهي تصرخ في غل:

«اسمك إيه يا بت؟!»

«توحيدة!».

وازداد قرص الأصابع الحديدية على الأذن الصغيرة:

«اسمك حميدة يا بت. حميدة، فاهمه.. اسمك إيه؟»

«توحيدة يا ستي!!».

كانت دموع الصغيرة تنهمر في صمت، وهي تنظر إلى الباب المغلق الذي اختفت وراءه أمها. وما لبثت صرخة أخرى أن دقت في المكان كالرعد:

«حادبك لو قلت لحد كده.. اسمك حميدة، سامعه؟!.. حميدة!!»

«حاضر يا.. ست.. يا ستي».

«اسمك إيه؟!».

«حميدة يا ستي!».

وارتخت أصابع الهانم عن الأذن التي أصبحت في لون الدماء القانية.

وفجأة، وبلا مقدمات، هوت على الوجه الصغير صفة، وعلى وجه الست ارتسمت ابتسامة راضية وهي تقول:

«ده علشان مانتشيش اسمك الجديد... غوري على المطبخ... آل توحيدة آل».

البحر

كان كل شيء يتطوح ويهتز ويتميل، والسفينة تزحف في جوف الليل فوق السطح الهادر، تعلو وتهبط... تميل يمنة، وتميل يسرة، ترتفع إلى أعلى مترنحة، ثم تهوي في اللجة العارمة الغاضبة وترتطم بسطح المياه في صفة حادة، وتلطم الأمواج جوانبها في دوي حاد، ثم ترتد عنها متقننة في زمجرة عنيفة. وقد بدت الأنوار المتناثرة على السطح خافتة ضعيفة وسط الظلام الحالك الرهيب، والسحب في السماء قد تجمعت وحجبت النجوم... فازداد سواد الليل، وبدت السفينة كشبح باهت لا معالم له، يتناثر حولها رذاذ المياه صانعاً طبقة لزجة من الضباب الرقيق، وقد بدا سطحها خالياً تماماً، بينما كان الجرس المعلق في نهايتها يتطوح وتتمايل ذراعه وترتطم بجوانبه في دقات ثقابة غير منتظمة كانت تصنع مع هدير الأمواج وصفير الرياح وحفيف المياه لحناً رتيباً مخيفاً.

وفي الداخل... كان صوت الآلات يُدوي ويطن في رتابة مضغومة، ويتسلل عبر الممرات الضيقة الباهتة الضوء، ويصل إلى الرجال في العنبر الكبير واهناً مكتوماً رتيباً يُثير الأعصاب.

وكان الرجال قد تمددوا فوق الأسيرة الكثيرة المتناثرة في صفوف منتظمة حول العنبر، وقد علق أغلبها بسقفه وتقوس خارجها مع ظهور الرجال الممددين فيها مهدداً إياهم في هزات منتظمة سريعة.

وثمة منضدة مستطيلة مثبتة في الأرض تتوسط المكان، قد جلس عليها رجل اعتمد رأسه إلى كفه، بينما جسده يتميل مع تمايل السفينة، وما لبث الرجل أن تنبه إلى صوت ينبعث من ركن المكان:

«قوم بقى يا جابر.. صلي على النبي امال».

وزام جابر... وامتدت يده تشعل سيجارة، ثم ارتفع ببصره إلى الساعة المعلقة في صدر المكان، بينما استمر الصوت في حديثه الهادئ:

«وأخرتها إيه يعني؟ ما هو من يوم ما جه وهو بالشكل ده!».

ودق جابر فوق المنضدة بقبضته، وقال في صوت حاد غاضب:

«أهو ده اللي ناقص.. أني ينقال لي الكلام ده؟!».

وسرعان ما ارتفعت الأصوات من كل ركن، وأصبح العنبر يطن بالضجيج.

والذي حدث أن الباشريس خليل قال لجابر إنه لا يعرف شيئاً في البحر، قال له ذلك رغم أن جابر قد لف البحار السبعة، ورغم الأعوام العشرة التي قضاها فوق سطح المياه يجوب الدنيا من أقصاها إلى أذناها.

كان الباشريس خليل رجلاً لا يعرف أباه، والرجال لا يعرفون عن حياته شيئاً، ومنذ جاء إلى السفينة ولسانه لا يكف عن الفرقة، ولا يكف عن الحديث، يأكل وهو يتكلم، يشرب وهو يتكلم، ينام وهو يتكلم، ويتكلم وهو يتكلم... «اعمل دي. شيل دي. ادهن دي. ساوي، نصف»... أوامر تلو أوامر، لا يكف ولا يرتاح ولا تغفل عيناه عن شيء، وكأنه آلة لا تكل ولا تمل.

ومنذ أن جاء إلى السفينة، والحياة فيها تسير وكان سياتا تلهب ظهرها، ولولا أن «جابر» خزي الشيطان في ذلك اليوم لحدث ما لا يعرفه أحد.

وتسلل صوت الباشريس من الباب الضيق في سقف العنبر حاداً ثاقباً في حشرجة متموجة، وصمتت أصوات وضحكت أصوات... وعلق رجل، وأطلق آخر سبة بذئئة، والصوت يهدر في أعلى... والخطوات القوية تضرب أرض السفينة في ثقة:

«أه... الشغل شغل، إنتو فاكريين الحكاية لعب، فاكرينها فاوريكة؟ دي مركب، شيل يا بحري دي، أيوه عالمخزن، دي مركب مش فاوريكة..».

ورفع جابر رأسه إلى الباب، وضافت عيناه، وجذب نفساً من سيجارته في ضيق، وقال أحدهم في صوت خافت:

«هو مبينامش؟!».

«ده سكران طينة».

«هو اللي زي ده بيسكر؟!».

وتشاءب رجل... وتمطى آخر، كما تمطت الكلمات في الأفواه، وأخذ السكون يزحف تدريجياً إلى المكان، ولطمات الأمواج تتردد مكتومة في دوي، وكل شيء يتمايل، وجابر في مكانه قد استحال رأسه إلى بركان، وتناثرت الكلمات، وتقاربت عقارب الساعة، واندفعت نسمة من فتحة الباب... ودارت في المكان ونفذت إلى جسم جابر فارتجف، وضم معطفه إلى صدره، وأشعل سيجارة أخرى، ونظر إلى عقارب الساعة مرة ثانية، ثم نهض من مكانه متثاقلاً وأخذ يصعد السلم الصغير وهو يغمغم بكلمات مضغومة.

وسرعان ما ارتفعت أصوات الشخير في العنبر، وهبطت على السلم أقدام محاذرة، وسادت جلبة خافتة فترة، واشتعل عود ثقاب، وتوهجت سيجارة... ثم عاد السكون مرة أخرى وساد تماماً.

وفجأة...

دوت في الظلام صرخة مرتعبة، ساد بعدها الصمت برهة، ثم انبثق صفير حاد متقطع دوي في أرجاء السفينة، ما لبث أن اخترق الأذان، وأطار النوم من العيون، وتساءل رجل في قلق... وهبط آخر من فراشه مسرعاً، وسادت الجلبة، وهبط الرجال من أسرته المعلقة، وخفت صوت الآلات، ثم توقف، والساافرات تدوي، وهرج ومرج، وأقدام تروح وتجيء، وصوت الباشريس ينبعث ثاقباً حاداً، وتمايل السفينة يشند، وصوت لاهث ينطلق من فتحة الباب:

«غريق.. غريق..».

وجرت الأقدام تضرب الأرض في سرعة ولهفة.. وعلت صرخة رعب ثاقبة، وتلاحق الرجال وهم يصعدون السلم، وسطح السفينة أصبح كخالية نحل دائبة، والأضواء الكاشفة أخذت تخترق الظلام وتلتقي بالسط الهادر المعربد، فنتعكس على قمم الأمواج البيضاء وتلمع في الظلام الرهيب.

«مين؟! مين اللي في الميه?!».

«جابر.. جابر سقط من فوق السلم..».

ودوى صوت الباشريس في أرجاء المكان... وحملته الرياح إلى السطح الذي كان يشغى بمن عليه من الرجال، وكان يصرخ في بوق أمسكه بيسراه، يصدر الأوامر، ويصيح في رجل، وينهر آخر، يروح ويجيء، يعمل ويتكلم، والرجال قد تعلقت عيونهم بحلقات الضوء المتناثرة فوق السطح، والأيدي تعمل، وصوت الباشريس يدوي في البوق صارخًا:

«يا جابر.. يا جابر».

ويرتد الصدى مختلطًا بصوت المياه وارتطام الأمواج بجوانب السفينة، ودقات الجرس تساهم في اللحن بدقاتها الرتيبة المتقطعة، ومال قارب على جانب السفينة، وصرخ رجل ينادي جابر، وأخذ القارب يهبط نحو المياه بسرعة يحمل رجالًا ربطوا أجسادهم إلى السفينة بحبال كثيرة، وما كاد يلامس سطح المياه حتى حملته موجة فوق قمتها، ثم انحسرت عنه مرتدة إلى الوراء بسرعة، وغاصت مقدمة القارب في الهوة الناعمة، وزحفت موجة أخرى سريعة وانثنت مقدمتها لتبتلع القارب، ثم تتحسر من جديد لتحمله وتلقي به إلى جانب السفينة... وتحطم.

وبدا الأمر رهيبًا، والرجال يتسلقون الحبال على جوانب السفينة، وتنزل أقدمهم على الجدار الصلد، والأمواج تلاحقهم كالكلاب المسعورة... والظلام حالك حالك.

وأخذ قارب آخر يهبط إلى المياه... واللحن الرهيب ينبعث في هدير متموج يصاحب دقات الجرس وصوت الباشريس... أقدم تجري، وصرخات، ونداءات، وكلمات وهمس... أيد تعمل، وصوت الباشريس يعود من جديد، وصفير حاد، والرجال ينادون ويحلقون في الظلام دون جدوى... وأطواق النجاة تنطلق في الهواء ثم تسقط إلى المياه لتجذبها الحبال من جديد وتصغي الأذان فترة، ويرتد صدى الأصوات واهنًا تحمله الرياح ثم تفتته وتفر به إلى بعيد.

وفجأة... دوت صرخة ثابتة، وارتجفت الأنوار، وزحفت دائرة مضيئة فوق السطح في سرعة، ثم ارتدت مرة أخرى، وسرعان ما تكالبت الأضواء كلها لتلتقي بالقرص المضيء الذي كان رأس جابر يتوسطه فوق الأمواج!

وأمسك الباشريس بطوق نجاة، ودارت ذراعه به دورات سريعة حاذقة، وسرعان ما سبح الطوق في الهواء كأنه قذيفة، وأخذ يهبط فوق رأس جابر تمامًا... وما كاد يرتطم بالسطح، حتى امتدت يد جابر إليه، وانحسرت الموجة حاملة معها الطوق إلى بعيد... واختفى رأس جابر في اللجة، وأطلق رجل شهقة، ودق الجرس دقة، وعاد رأس جابر إلى الظهور من جديد، وانطلقت أطواق كثيرة تسبح في الجو وتتساقط حول الجسد الذي كان يقاوم البرودة القارصة والأمواج.

وما كاد القارب الآخر يلامس المياه حتى توقف كل شيء... ودارت الرعوس نحو الباشريس الذي كان يخلع ملابسه... وفغرت أفواه... وجاء صوت الباشريس:

«موله. بلاش القارب..».

وقال القائد في سرعة:

«حانعمل إيه يا باشريس؟!».

«حانزل بنفسي..».

«إنت مجنون؟!».

وهمس رجل:

«مش معقول!!».

وصرخ القائد:

«متزلزلش الميه..».

«لأ.. حاننزل. القارب الثاني حيغرق كمان..».

«معلش..».

«والراجل يموت؟! دا صاحب عيال..».

كان الباشريس قد خلع ملابسه تمامًا... وبدا جسده وسط الظلام والرياح قويًا... وتناثر شعره الأبيض ثم سقط فوق جبهته العريضة، وارتخت شفته السفلى، وأخذت يداه تعملان وهما تحيطان جسده بحبل رفيع... وصوته لا يكف عن الصياح وإصدار الأوامر، والجميع قد أذهلهم الأمر... ترتجف أجسادهم من البرد، وترتعش الأنوار فوق السطح الهادر، وتجوب عيونهم الأفق المظلم، ثم تعود لتلتقي بالجسد الذي كان ينثني ويستقيم ويعمل ويتحرك ويصدر الأوامر في سرعة وحذق وحنكة:

«خلي بالك يا محمود، خلي النور عليه، مالکش دعوه بيه، ناولني يابني القزاز ه.. قلت له يا خد بق.. عمل زعلان مني..».

كانت العيون حائرة بين الجسد الذي يقاوم المياه، والجسد المنتصب في الظلام... وجاشت النفوس، والتقت العيون في سرعة ثم انخفضت نحو الأرض، والوقت يمضي... والهمس يعلو، والقائد قد ألجمته المفاجأة... وكأن شللاً قد أصاب الجميع... فإذا السكون يهوي فجأة ليشمل كل شيء... وترنحت السفينة، ودق الجرس دقة... وانطلقت صرخة ثانية من وسط المياه... وهوى جسد الباشريس يغوص في الظلام.

ارتفعت السفينة فوق قمة موجة، وفغربت الهوة فاهًا عميقًا، وترنح الجسد الهائل ومال إلى اليمين، ولطمت السفينة موجة من اليسار، وترنحت أجساد الرجال، وتلاعبت الأضواء فوق صفحة المياه، وبدا الأمر فوق سطح السفينة رهيبًا، كان الرجال قد حبسوا أنفاسهم... والظلام لا يزال يطوي جسد الباشريس... وانفصلت دائرة عن الكرة المضئية، وأخذت تسبح فوق السطح باحثة عنه... وساد الصمت تمامًا، وانطلقت صرخة سرعان ما ارتد صداها وذاب في الهواء.

وبرزت من الظلام ذراع تضرب المياه بقسوة وعنف، وأطل رأس الباشريس في الضوء، وحبس الرجال أنفاسهم، كان الرجل يغوص بجسده داخل المياه... ثم يعود إلى الظهور كعملاق، وكان يقترب ويقترب، وصرخ جابر صرخة خافتة وتهوى جسده فوق المياه متصلبًا... وامتدت ذراع الباشريس نحو رأسه... وجز الرجال على أسنانهم، وتململت الأقدام في قلق، وتشبثت الأيدي بالحوارج، وارتعشت الأضواء، ودق الجرس دقة، وهبطت اليد فوق رأس جابر، وانحسرت الموجة، ومادت المياه حاملة الباشريس إلى بعيد... وخفقت القلوب... وغاص الباشريس في المياه من جديد، ثم انبثق رأسه، وانطلقت ذراعه تضربان المياه في سرعة وعناد وقسوة، وأخذ جسده يقترب مرة أخرى ويقترب... وعلت موجة، ودفن الرجل جسده في سفحها ليبرز ذراعه ضاربًا المياه... وكان رأس جابر قد غاص تمامًا عندما هبطت الكف لتقبض عليها في قوة وترفعها إلى الهواء....

وصرخ الرجال في فرح...

وشهق جابر، واندفع الهواء إلى صدره، وامتدت يد الباشريس إلى الحبل الملتف حول وسطه... ثم عادت تحمل الزجاجة، وقبض بأسنانه على الغطاء وبصقه في المياه، ودس الزجاجة في فم جابر الذي أحس بالدفء يسري إلى صدره... ثم أحس كأن دموعًا تكوي عينيه، ففتحهما ببطء، وتسالت إلى أذنيه أصوات وصرخات وصفير ودوي... وبدأت له الأنوار المسلطة عليه بعيدة أخذت تخفت وتختنق، وحجبت قطرات المياه عن عينيه كل شيء فبدأ له كل شيء مائعًا، ثم ساد الظلام تمامًا، وشهق، ودفع المياه بقدميه، وأحس بهما متصلبتين كأنهما قطعان من الصخر، ودق قلبه بعنف فجرت الدماء في عروقه، وتفرقت الأصوات في أذنيه، كانت تعلو وتخفت ثم تختفي، صوت واحد ظل يتردد، يأتي من بعيد بعيد... كان صوتًا أليفاً ظل يتردد دون انقطاع:

«... ما.. ل.. لا.. زم.. تدفى.. حر.. ك.. إيدك.. ده بحر، إنت فاكركه فاوريكة، إجمد يا جدع، أه، إجمد...».

وجذب جابر نفسًا عميقًا، ثم سعل وتنفس ملء صدره، وأخذ الظلام ينقشع تدريجيًا، وبدأت له الأنوار قوية ساطعة، وأحس بدفء لذيذ يسري في كل أعضائه، واستدار برأسه في وهن.

كانت المياه تتساقط من وجه الباشريس وشعره. وبدأ شاربه الأبيض مرتخيًا مبتلًا، والشفتان تتحركان دون انقطاع، والصوت ينبعث من وسط الهدير قويًا صاخبًا... ورفع جابر ذراعه ثم هوى بها على كتف الباشريس، وبدأ الرجلان في الحلقة المضينة وسط ظلام الليل وكل منهما يحتضن الآخر.

ودبت الحياة من جديد في جسد جابر، وأحس بكل شيء، وشمل بعينه الوجه العريض، وجاءه الصوت واضحًا ثاقبًا مصقولًا:

«أه.. كده كويس.. فاكركني بكرهك، إنت اهبل، البحر كده، قاسي، ملوش قلب، آديك شايف، محمود مات من كده، أيوه كان بيلعب، ابني، في ليلة زي دي، كان زيك، زيهم كلهم، مات، غرق قدام عينيّه دول، البحر بلعه، أه، لو كان سمع الكلام، كان زمانه.. ح.. ح.. آه.. ت.. اما.. ل.. ده.. بحر.. قا.. سي.. مالوش.. قل.. ب.. أنا عايز.. أعمل منك راجل.. راجل..».

كان الصوت يتردد مختنقًا، مرتجفًا... وأحس جابر كأن شيئًا يوقظه من أعماق حلم، ونظر إلى الوجه الباكي، ورأى الشفة المرتعشة، وخيل إليه أن في العينين دموعًا... وثقل رأسه، وأخذ يتطوح، والأمواج تهدأ، وكل شيء يتلاعب، وذراعا الباشريس القويتان تحتضنانه، وفتح فمه... وانطلق صوته ضعيفًا وهنًا:

«يا.. با.. شر.. يس..».

«عاوز إيه.. اسكت.. بلاش كلام.. إنت غريق.. هو لعب، الشغل شغل، يا ريته سمع كلامي، ياري.. ته، اسكت.. إنت تعبان..».

«يا.. با.. شر.. يس..».

«اسكت.. شد يا حسن الحبل كويس.. مد إيدك يا بدوي، حضروا البطاطين، والدوا، يا ابني ده بحر، فاهم، ارمي بطانية علينا يا جدع، عارف بحر يعني إيه؟ يعني ما

فيش يأمه ارحميني، فيه موج، وفيه شغل، وفيه..».

وأخذت الكلمات تنساب إلى أذني جابر قوية حلوة لا آخر لها، وجسده يتأرجح في الهواء ثم يرتطم بجانب السفينة، ويختلط الصوت بالهدير المنبعث في قسوة، صرخات ونداءات، ودقات الجرس المتناثرة، وذراع الباشريس القوية تقبض على خصره، ورأسه يدور، ويتقل، وطنين يتسرب إلى أذنيه، والكلمات تبتعد وتبتعد، وخور لذيذ يدب في مفاصله.. فاستسلم، وغاب عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة رجلين

وأخيراً... وبعد كل هذه السنوات، أصبح على مدكور قبطان أن يقود السفينة. ثلاثون عاماً كاملة عاشها فوق الأمواج، وطاف فيها حول الدنيا، وخبر فيها مياه العالم شبراً شبراً، وبحور العالم ومحيطاته موجة موجة، وصارع العواصف عاصفة عاصفة... ورغم هذا، فهو لم يكن قائداً لسفينة قط.

ثم يقولون له اليوم، وبعد هذا العمر الطويل، تسلم السفينة وأقلع بها... فأنت القائد. وأصبح عليه أن يتسلم السفينة، وأن يقلع بها... فهو القائد.

ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يشرب الخمر بلا حساب، يجرع الكأس كأنه قطرة، ويجرع الزجاجة كأنها كأس، يشرب ليلاً، ويشرب نهاراً، ولا يكف عن الشراب، ولا يفيق، ولا يغيب مرة عن الوعي.

ثلاثون عاماً كاملة ومدكور قبطان يعمل كما يشرب، يعمل في الصباح، ويعمل في المساء، يعمل في النهار، ويعمل في الليل، لا يكف عن العمل ولا يكف عن الحركة... يصادق الناس، ويصادق الرياح، ويصادق الأمواج، ويضحك للقمر عندما يطل عليه من السماء، ويعبس في وجه السحب عندما تخفيه عنه... يضاحك هذا، ويعابث ذلك، ويجلس مع البحارة كما يجلس مع القباطنة، ويشرب مع الضباط كما يشرب مع الوقادين... الكل أصدقاؤه، يحب الجميع، ويحبه الجميع، ويشهدون له بأنه بحار من الطراز الأول... ورغم هذا، فهو لم يتسلم في حياته سفينة، ولم يكن في حياته قائداً لمركب.

وتساءل الناس كثيراً عن السبب، وثرثر البحارة في جلساتهم وهم يحكون عنه الحكايات، ويقولون إنه سكير؛ ولذلك لم يقدر سفينة، وإنه لا يفيق؛ ولهذا فهو لا يستطيع أن يتحمل مسئولية!

على أن مدكور قبطان لم يفكر في هذا مع الناس، وإن كان قد فكر فيه مع نفسه. ولم يتحدث في هذا مع أحد، وإن كان قد تحدث فيه مع عبدالباسط.

وعبدالباسط عجوز خفيف الدم... قال الجميع عنه إنه ومدكور قبطان كأنهما فؤلة انقسمت إلى نصفين، أحدهما مدكور، والنصف الآخر عبدالباسط.

وعبدالباسط بحار مخضرم، عمل في الآلات وقاداً سنوات وسنوات، وعمل على السطح نوتياً سنوات وسنوات، وأمسك الدومان دومنجياً سنوات أخرى وسنوات... وجذب الحبال والأشرعة مرات ومرات، وآلاف المرات، ولا يزال يعيث طول النهار في السفينة، ويعمل في كل شيء، ولا يطلب منه أحد أن يعمل شيئاً.

وهو الآن سفرجي.

يقول للناس ساعة انبساط أو ساعة غضب، إنه وعى فوجد نفسه يركب مركباً، وإنه خبر كل شيء في السفن، وعرف مخابئها وأسرار قيادتها، وإنه لو كان في هذا البلد إنصاف، لأصبح اليوم قبطاناً يشار إليه بالبنان... لولا العمر، ولولا السنوات التي حطت فوق رأسه فأشعلته بالشيب، وفوق جلده فجعدته وهدلته، وفوق عينيه فأضعفت نظره. وإنه لو كان قد وعى لنفسه كما يفعل الرجال، لكان اليوم يعيش في

قصر وينفق ببذخ، ويكتنز من الأموال ألوف الجنيهاً وعشرات الألوف... لولا الخيابة وصغر العقل، ولولا الكأس الملعونة التي جعلته يبعثر باليمين ما كسبه باليسار، ويقطع حياته عن أهله، ويعمل بعد طول حياة صاحبة سفرجياً على سفينة.

ورغم هذا فإن عبدالباسط ليس سفرجياً إلا بالاسم فقط، فكل القباطنة أبناءه، وكل هؤلاء الضباط تخرجوا من تحت يديه، كلهم يحبونه وهو يحبهم، لا يفضل أحدهم على الآخر، لا يخدم أحداً، ولا يحمل طبقاً أو صينية... اللهم سوى زجاجة مذكور قبطان والتلج، ولوازم القعدة في الليل... عندما يهدأ العجوز مذكور من دورانه وعبثه وعمله، ويحط جسده السمين العريض فوق فراشه الصغير، وينادي على عبدالباسط، وتصبح الحياة وقتها حلوة. يتهاشم ساعاتها العجوزان. ويميل رأس أحدهما على الآخر. ويحكي كل منهما للآخر. ولا تفرع الكئوس ببعضها، بل تفرع بالشفا، وتفرغ زجاجة، واثنان، وأحياناً ثلاث، وفي بعض الأحيان يطلع عليهما النهار ومذكور يقول لعبدالباسط. «أنا ميهمني يا عبدالباسط ياخويا، أنا مش علوز ابقي كومندان، إنما العدل، مفيش عدل، والإنصاف، مفيش إنصاف».

وقد تكون الزجاجات قد كثر عددها... وليلتها ربما دمعت عينا مذكور قبطان من الألم، وربما دمعت مع عينيه عينا عبدالباسط وهو يواسيه، ويسب الظلم ويقسم إنها لا بد أن تتعدل ذات يوم... وإنه لا بد أن يصبح قائداً لسفينة.

وعبدالباسط مؤمن أشد الإيمان أن القبطان مذكور أحسن قبطان في الدنيا... وأنه قادر على أن يقود أكبر سفن العالم، وأنه لولا البخت، وفي الحقيقة، لولا الكأس، هذه الملعونة التي كانت سبباً في بلواهما، لتغيرت الحال وأصبحت غير الحال، ولكنه الحظ الأسود والبخت النكد.

وعلى كل، فلن يأخذ أحدهما من الدنيا شيئاً، فلن يعيشا قدر ما عاشا، والآتيات أصبحت أقل من الرائحات، وليشربا في صحة مذكور قبطان، وفي صحة عبدالباسط، وليقرعا الكئوس هذه المرة، ولتزرحف على شفاههما ابتسامات واهنة مرة، وليقل كل منهما للآخر إن الصداقة هي كل شيء في الدنيا، وإن الصديق أحسن من الأخ، وأحسن من الأب، وأحسن من الزوجة... وليتقارب قلباهما، ويقسم كل منهما إنه مستعد أن يضحي بحياته في سبيل صاحبه، ولتنتسج الابتسامات الواهنة وتصبح ابتسامات كبيرة تشمل الوجهين والعيون الأربعة... وسيمضي الوقت ساعة وراء ساعة، ويمضي معه العمر الذي مضى أغلبه.

ورغم هذا، فلقد كان الرجلان أول الداهشين لهذا الأمر، وأكثر الناس عجباً، ولكن الدهشة مهما بلغت، فإن الحقيقة دائماً هي الحقيقة...

وكان على مذكور قبطان أن يقود السفينة.

قال عبدالباسط يومها: «ألف نهار ابيض... وألف مبروك»، ومضى في السفينة فرحاً مسروراً يصفق كطفل صغير، يداعب هذا ويعابث ذلك، ويقدم للرجال السجائر والكاسات، ومضى يضحك ويضحك ولا يكف عن الفرحة أو الضحك، فاليوم هو يومه، والدنيا أصبحت «عال»، وكل شيء قد تعدل... وأصبح مذكور قبطان قائداً للسفينة.

ولكن مذكور قبطان لم يضحك، ولم يفرح، ولم يترك حجرته منذ ساعات، ولم يحدث أحداً، ولم يضاحك أحداً، وهز للرجال الذين هنئوه رأسه... وقال هؤلاء عنه

إنه كان شاحب الوجه، صامتاً لا يتكلم؛ وإنه ليس كعادته.. و.. و.. وثار عليهم عبدالباسط، وقال إنهم كذابون، وإنه ليس شاحب الوجه، وليس صامتاً... ثم لعن الناس وألسنة الناس وحديث الناس.

حقاً إن مدكور قبطان لم يغادر حجرته منذ أن علم بالأمر، ومنذ أن عرف أن عليه أن يقلع اليوم، ولكن ليس معنى هذا أنه شاحب... وحقاً إن وجهه مصفر قليلاً، ولكن ذلك من أثر سهرة الأمس التي شربا فيها كثيراً... وحقاً إنه لم يكلم أحداً على غير عادته، ولكنه ليس صامتاً.

صحيح أيضاً أن عبدالباسط دهش من هذا في البداية، ولكنه قال إن ذلك من أثر الفرح، وصحيح أنه حاول أن يجعله يتكلم، لكنه كان مقتضب الحديث، وصحيح أن دهشة عبدالباسط كانت شديدة للغاية. وأنه ساءل نفسه عما اعترى الرجل... ولكن دهشة الرجال كانت أشد عندما سمعوا مدكور قبطان يصرخ في وجه عبدالباسط، بل ويطرده من الحجرة ويقول له بأعلى صوته: «اطلع بره».

وخرج عبدالباسط من الحجرة مذهولاً، وقبع فوق فراشه لا يبرحه، وحاول الرجال أن يكلموه فلم يتكلم، وحاولوا أن يضحكوه فلم يضحك، فقدموا له كأساً وسألوه عما حدث، فقال لهم إنه لم يحدث شيء... فقدموا له كأساً أخرى وسألوه عما حدث فقال لهم: «مصارين البطن بنتعارك»... وقدموا له كأساً ثالثة وسألوه أيضاً عما حدث فسهم وقال شيئاً لم يسمعه... وأخرج أحدهم زجاجة ووضعها أمامه فعب منها... ثم حكى لهم عن الذي حدث.

والذي حدث شيء غريب... سأل عبدالباسط مدكور قبطان عما به. فقال هذا: «ولا حاجة»... وضحك عبدالباسط وقال له: «ولا حاجة ازاي... إنت مش زي عوايدك»... فرد مدكور قبطان: «سييني في حالي»... وقدم له عبدالباسط كأساً وهو يقول في مرح: «يحيا العدل... والنبي انت سيد القباطين»... وزمجر مدكور في جفاف: «قلت لك اسكت يا عبدالباسط». وألح عبدالباسط في عشم: «والنبي مانا ساكت إلا لما تضحك وتفرقش وترقص كمان»... ولكنه لم يضحك ولم يفرقش ولم يرقص، بل صرخ فيه وسبه وقال له: «احترم نفسك»... ثم قال: «اطلع بره!!».

وأقلعت السفينة... وتهادت كالعروس وسط الميناء، ثم انطلقت بكل سرعتها إلى عرض المحيط... وخبث في المياه، وشقت طريقها... وسبحت في الوعاء البلوري الأزرق، وتنسم الرجال الهواء البارد ملء صدورهم، ونظروا إلى المياه الزرقاء العميقة الزرقة، وإلى السماء الصافية المرصعة بنتف السحاب فوق صفحتها اللامعة الرائقة... وتضاحك البعض، وثرثر البعض، وشرب البعض الآخر... ولكن مدكور قبطان لم يتغير، ولم يخرج عن صمته، بل هو لم يترك حجرة القيادة الزجاجية الحوائط ولا دقيقة... ومضت ساعة وساعات، وغربت الشمس... ولما جاء الليل دلف إلى حجرته في صمت، ولم يطلب عبدالباسط، ولم يسأل عنه، ولم يجالسه، ولم يحادثه.

فحادث عبدالباسط نفسه، وحادث الزجاجية، وحادث الرجال، وقال: أهذه هي نتيجة صداقة العمر؟!... تستطيعون أن تقولوا عشر سنوات، أو عشرين، وهو لا يذكر فربما كانت خمساً وعشرين سنة وأكثر... ثم بعد هذا يقول له: «اطلع بره».

وابتسم الرجال وهم ينظرون خلسة بعضهم إلى البعض، وقال له رجل: «معلش... الدنيا مفيهاش أمان»، وهز عبدالباسط رأسه مصدقاً.. وتركهم ومضى، مضى إلى السطح، وتمسح في حجرة مذكور، واقترب من الباب، وسعل بصوت عالٍ علته يسمعه أو يناديه، ولكن الباب ظل مغلقاً، ولم يسمعه مذكور أو يناديه... فهم بأن يقرع الباب، ولكنه عاد من حيث أتى، ووجهه المغضن محتقن... وعقله لا يكاد يصدق.

وفي آخر الليل... بكى، وهطلت الدموع من عينيه كثيرة؛ وأقسم ألا يحدث مذكور بعد ذلك، وألا يحمل له الزجاجاة والكأس، وألا يستمع إليه... وأن يتركه وحيداً كما تركه هو وحيداً. وأخذ بعد ذلك ينشج كطفل صغير، وانكفاً على المنضدة، وظل يبكي في صمت... ثم نام في مكانه.

وفي اليوم التالي، نسي الرجال حكاية عبدالباسط، بل إنهم نسوا عبدالباسط نفسه.

وفي اليوم التالي، نسي عبدالباسط حكايته، ونسي هو الآخر نفسه.

ذلك أنه في اليوم التالي... كانت العاصفة الرهيبية قد هبت!

ولا أحد يدري كيف هبت تلك العاصفة، كانوا يعلمون أنها ستهب بعد ذلك بأسبوع، وكانوا يعلمون أنهم سيجتازون الخليج الرهيب بعد ذلك بساعات، وكانوا أيضاً يعلمون أن الاقتراب منه، وفي تلك العاصفة اللعينة... أمر غير معقول.

وحدث الرجال أنفسهم، وحدث بعضهم البعض، وتساءلوا في دهشة كيف هبت العاصفة؟ وكيف سيعبرون الخليج؟... ثم مضوا يعملون وهم يفكرون ويتساءلون، والسفينة تترنج وتترنج، واستيقظ النائمون، وتحفز المستيقظون، ووقفوا يرقبون الأرض والسماء والأمواج، وينتظرون بقلوب واجفة وصولهم إلى الخليج... الخليج الذي يبتلع له في كل عام سفينة أو سفينتين، والذي يحكي الرجال عنه الأساطير، ويقول العجائز منهم إنه مسكون بالشياطين.

لم يكن أحدهم قد فكر في العاصفة، وإن كان مذكور قبطان قد أمضى يومه وليله يحسب حسابها، ولا فكرة في رأسه غيرها.

... كان واقفاً ساعتها في مكانه من الحجرة الزجاجية، صامتاً لا يتكلم، السجارة مدلاة من بين شفتيه، والكأس تتمايل بين أصابعه، وشعره الأبيض مهدل فوق جبينه، وعينه لا تبرحان الأفق.

وساعة أن رأى بوادى العاصفة من بعيد، أيقن أنه كان على صواب... وأيقن أنه كان على حق عندما هم ألا يقلع بالسفينة وقت أن قالوا له أنت القائد، وعليك أن تقلع بها... وأن يقول لهم إن العاصفة وشيكة الهبوب، وإن اجتياز الخليج أثناءها أمر رهيب. وتردد كثيراً، وساءل نفسه كثيراً وهو ينظر إلى العمود الفضي الذي كان يهبط في مجراه الطويل منكمشاً من البرد... وساءل نفسه كثيراً وهو يرقب المؤشر الذي كان ينوء بحمل الهواء الرهيب القادم من بعيد... ساءل نفسه كثيراً... أيقن أم لا؟... وساءل نفسه هل يستطيع أن يجتاز العاصفة؟ ثم ساءل نفسه عن مصير الرجال، وساءل أيضاً نفسه عما سيقولونه عنه لو أنه تردد في الإقلاع بالسفينة!... ووقتها، سأله عبدالباسط عما به، فصمت، وألح عبدالباسط عليه، فكاد أن يخبره بالأمر، ولكنه خجل، وضاحكه عبدالباسط عندما كانت الحيرة تمزق عقله... فصرخ فيه وسبه وقال له: «احترم نفسك».. ثم قال: «اطلع بره».

ومضى النهار وهو يسائل نفسه، وحن الوقت... وأقلع.

وما إن سبحت السفينة في عرض المحيط، حتى نسي كل شيء عدا تلك الفكرة المجنونة التي كانت تنهش عقله و صدره، نسي نفسه، ونسي طعامه، ونسي حتى شرابه، ونسي عبدالباسط، ولم تذق عيناه طعم النوم... وبقي متحفزاً يأكله القلق، ويأكل هو قلقه، وتمر الدقيقة وراء الدقيقة، وتحمل له الدقائق الخوف، وتحمل له الساعات نذر العاصفة.

... ثم هبت العاصفة.

.. كانت السحب السوداء تزحف من الأفق في جحافل لا نهاية لها، جحافل ثقيلة باردة، تسبقها تلك الطلائع الوحشية من الرياح... وتحملها على ظهرها متقدمة نحو السفينة في سرعة رهيبية، ومالت الرياح إلى سطح المحيط، واقتلعت منه أمواجاً كانت تعلق في الهواء كالجبال، وتصنع قممها زبدًا أبيض كالثلج، وتتقوس سفوحها إلى الداخل وتتقوس... ثم تطبق على السفينة فتلطمها في قسوة وعنف، وتتفتت رذاذًا يتناثر فيملاً الجو، وترتج السفينة وتتمايل تحت قوة الضربات المتلاحقة التي كانت تنهال عليها من كل جانب... والرجال قد تناثروا فوق ظهرها وفي داخلها ينتظرون، والرجل الواقف إلى عجلة الدومان قد بدأت قدماء في الانزلاق مع تمايل السفينة الشديد... ومدكور قبطان لا يكف عن العمل، ولا يكف عن الانثناء فوق الخريطة... ثم البحظة في الأفق.

ومع جحافل السحاب المحملة بالأمطار والثلوج، هبت من الأفق جحافل الظلام تغزو معها الخليج الثائر... وارتفعت السفينة إلى أعلى فوق قمة موجة حملتها فوقها وهي تزمجر وتزحف فوق السطح المربرد الثائر، وسرعان ما انحسرت الموجة وأسرعت تذوب في الخضم الهائل، وهوت السفينة بكل ثقلها إلى أسفل، وهوت معها قلوب الرجال واضطربت، وانزلت قدم الرجل الواقف أمام عجلة الدومان، ومالت ذراعاه، ومالت العجلة، وانحرفت السفينة وهي تهوي... ثم ارتطمت بالسطح الرهيب، وفي نفس اللحظة انقضت عليها موجة غضبي، وأطبقت عليها كأنها تريد افتراسها، واهترت السفينة اهتزازاً شديداً، وأنت جدرانها...

ودوت في داخلها صرخة!

وتصلبت الرعوس، وجحظت العيون وهي تتجه كلها نحو مصدر الصرخة، وأرهفت الأذان، وجاء الصوت من الداخل رهيباً فزعاً:

«المركب انفتحت...!».

وتنبه وقتها عبدالباسط... وضرب جبهته بكفه، وارتجف قلبه، ورأت عيناه الجسد السمين القصير والرأس الأشيب ذا الشعر المهمل فوق الجبهة العريضة وهو يهرول نحو مكان العطب... وأيقن كل شيء... وتلاشى الحزن من نفسه في لحظة، واحتضنت نظراته جسد صديقه، وارتجفت جفون عينيه كأنها تربت على كتفه، ثم هز رأسه في إشفاق وخجل كأنه يقول لصديقه: «حقك عليّ، أنا فهمت..».

وساعتها، كان مدكور ينظر إلى الجرح الطويل في جانب السفينة، وهو ينز مياهاً كانت تتدفق بسرعة، وفكر في أن يعود بالسفينة من حيث أقلعت، واضطرب قلبه، وعوت في رأسه أفكاره السوداء؛ أيعود من حيث أتى ويترك وراءه الأعوام الثلاثين التي قضاها في الانتظار؟... وليقولوا عنه ما يقولون، وليحرموه بعد ذلك، أو ينبذوه،

أو حتى يشنقوه... وانفجرت شفتاه في تردد، وكاد أن يصدر أمره، وكاد أن يرجع بالسفينة، واستدار مهزولاً، ورفع عينيه إلى أعلى، فالتقتا بعيون الرجال الكثيرة المحيطة به... فتوقف، ونكس رأسه، وجز على أسنانه في غيظ وألم... وقرر ألا يعود.

وتحدث رجل، وهمس آخر... وصرخ ثالث وهو يغلق بابًا ضخماً كاد أن يبتتر ذراعه، وهول رجال كثيرون إلى هنا وإلى هناك، وجاعوا بحبال وأشربة، ومراتب، ومضت الدقائق، وظلت المياه تتدفق من جانب السفينة الممزق المفخور كغم وحش يتقيأ حمماً سائلة... ومالت السفينة إلى اليمين، وانحسرت المياه عن أرض العنبر الصغير، وانزلقت قدم رجل، فسقط على الأرض، وارتفعت موجة عاتية، ثم هوت في صفة حادة فوق الجرح الطويل فزاد طويلاً واتساعاً، ومالت إلى اليسار، وتدفقت المياه كالسيل من الفتحة الرهيبة... وحملت معها جسد الرجل الملقى فوق الأرض، وقذفت به إلى الحائط الصلد في وحشية... وارتطم الجسد كله بالحائط، ثم هوى فوق الأرض بلا حراك.

وهول إلى الجسد رجل ورجلان... وهول عبدالباسط نحو صديقه، زاحم هذا، ودفع ذاك، وانحشر بين الأجساد، ثم أصبح وراءه تماماً... وكاد أن يلتصق به، وكاد أن يربت عليه، ثم سمعه يصدر أمراً... واندفع بلا وعي ينفذ أمره.

وعلت المياه داخل العنبر؛ وغاصت فيها الأقدام، والسيقان. وأخذت تغلو وتعلو، وأخذ الرجال يحاولون ويحاولون، وأزت في جوف السفينة أصوات المضخات الهائلة تمتص المياه من العنبر، وزارت الأمواج وهي تلقي إليه أفواجاً أخرى من المياه وأفواجاً.

ومضت الدقائق... ودوت في السفينة صرخة أخرى. كانت الأمواج قد مزقت مكاناً آخر، وتدفقت جيوش المياه إلى السفينة دون عائق، وأخذت تسبح وتتسلل إلى كل مكان فيها، كانت تتسرب من الأبواب والفتحات والشقوق، وأخذت تغمر كل شيء، وأغلق الرجال أبواباً وأبواباً، ثم أغلقوا كل الأبواب... دون جدوى!

كانت السفينة تنرنح وتتمايل في شدة، وكانت الأمواج العاتية تزداد عنواً وتجبراً، والرياح تهب سريعة مجنونة، والسحب أخذت هي الأخرى تعتصر نفسها في غيظ وتلقي إلى المحيط بأفواج تلو أفواج من الأمطار وحببات الثلج التي أخذت تقفز هنا وهناك وتتطاير في الجو، وتذوب في المياه، والسفينة وسط كل هذا تنهال عليها الضربات من كل جانب، فتتأرجح وتميل إلى الأمام، وتغوص مقدمتها في المياه، وتتقض عليها الأمواج، موجة تلو موجة... وتزحف لتغطي السطح، ثم لتضرب حوائط الحجرة الزجاجية بلا شفقة.

كانت العاصفة مجنونة!

وكان الرجال أكثر جنوناً...

وكانت المياه تتسرب إلى الداخل...

وكانت السفينة تغوص في اليم...

ومضت ساعة... ساعة واحدة.

والعاصفة تزداد عنفاً، والسفينة تزداد ضعفاً، ومدكور يزداد يقظةً، عيناه تنفذان إلى كل مكان، وعقله يعمل، ويدها تعملان... يهرول إلى داخل السفينة تارة، ويحكم إغلاق الأبواب بنفسه، ويدير المضخات بأقصى سرعتها، ويتوسل إليها في همس أن تمتص المياه وتمتصها، ثم يهرول إلى السطح تارة، ويرقب العاصفة في ألم وتحد، ويهرول إلى الحجرة الزجاجية تارة ثالثة... وينكفي فوق البوصلة، وتمتد ذراعه إلى الدومان... والسفينة تترنح وتترنح وتتلقى الضربات.

ووهنت الأذرع المفتولة... ودوت في الداخل صرخة ثالثة!

وعصر الذعر قلوب الرجال...

كانت السفينة تغوص في اللجة العارمة بسرعة رهيبية...

وثقبت الأذان استغاثة رجل اقتلعتة موجة وحملته في جوفها وهي تزغرد في وحشية، وضاع صوت الرجل وسط الظلام والهول.

ثم دوت صرخة فزع... «المركب بتغرق»!!

كانت السفينة قد مالت نحو اليمين ميلاً شديداً وقد حاذى سطحها سطح المياه وأخذت الأمواج تغطيها، وسرى الذعر إلى نفوس الرجال، كل الرجال. فحمل أحدهم طوقاً للنجاة وقفز... وانذبت في قلب مدكور قبطان لوعة حارقة، وصرخ فيه أن يعود، وتلاه رجل آخر، وصرخ العجوز مرة ثانية، واندفع فوج من الرجال نحو قارب النجاة... وسرعان ما كان القارب يسبح بهم وسط الظلام والعاصفة... وعصر الألم قلب العجوز، واندفع نحو الرجال الفزعين، يمنع هذا، ويتشبث بذلك، ويقول في لهفة: «المركب مش حاتغرق...»، راح، وجاء، هدد، وحایل، وتوسل، ورجل يقفز وراء آخر، وقوارب النجاة تلقى وسط الأمواج فتحملها هذه إلى بعيد... وهو يصرخ، وعيناه قد جحظتا، وذراعه قد تشنجتا إلى الأمام... وهو واقف عند قمة سلم صغير، تحمل الرياح صرخاته وتبتعد بها دون أن يسمعه أحد، وبح صوته من الصراخ، واستدار مترنحاً ودلف إلى الغرفة الزجاجية... وكاد أن يصعق.

كانت الحجرة خالية تماماً...!!

وتنبه... كان دوي الآلات قد توقف. وساد السفينة صمت رهيب، وكانت الأمواج تتقاذفها وتحملها مزغردة وسط العاصفة التي كانت تزار في الخارج.. واستدار نحو الباب، ونظر في جوف الظلام، وبانت له أشباح الرجال وهي تذوب وتختفي، وقفزت إلى ذهنه في لحظة، ثلاثون عاماً طويلة، وتداخل لحم وجهه، واستند بظهره إلى الحائط، وتمايل بشدة مع تمايل السفينة، وصعدت الدموع إلى عينيه، ثم انزلت فوق وجنتيه واختلطت برذاذ المياه... وامتدت ذراعه إلى الأمام... وكان يتوسل:

«ارجعوا.. ارجعوا.. المركب مش حاتغرق، ارجعوا، ارجعوا، أنا قبطان كويس، والنبي أنا قبطان كويس...».

ولطمت موجة جبارة جانب السفينة، فارتجت في عنف، وسقط فوق الأرض... وسكن لحظة، مجرد لحظة، هب بعدها كالمجنون، ودلف إلى الحجرة الزجاجية... ونظر إلى عجلة الدومان التي كانت تدور يمناً ويسرة بلا رابط، وملاً الغيظ قلبه، وضافت عيناه، وهجم على العجلة، وأمسكها بكلتا يديه، وتشبث بها في قوة، وصرخ بكل قواه:

«المركب مش حاتغرق، مش حاتغرق...».

وامتدت يده إلى ذراع الآلات، وحركه في عنف كأنه يستجدي الآلة الصماء أن تدور، وترك الذراع، وراح يذرع الحجرة. كان وحيداً، وكان يضرب جبهته بكفه، وينظر في غيظ إلى الأمواج في الخارج، وجسده يهتز ويترنح كأنه شرب ألف زجاجة، ووعت الأفكار في رأسه، وعلت الضجة تطبل في كيانه، وعلا صوت الآلات ووصل إلى أذنيه... وتوقف.

ظن أنه يحلم...

وجاء الصوت من جوف السفينة مضغوئاً في دوي مكتوم.

فبخلق في الظلام غير مصدق.

واستمر الصوت، واستقامت السفينة قليلاً.

وصرخ...

وهفت في رأسه فكرة...

كانت مجرد فكرة قفز بعدها كالمجنون نحو التليفون المعلق على الحائط، ورفع السماعه وأصقها بأذنه، ثم امتدت يده تدير الذراع القصيرة... وجاءه الصوت عبر الأسلاك:

«أيوه.. مدكور قبطان؟».

«عبدالباسط؟!.. عبدالباسط?!».

«أيوه يا قبطان..».

وارتجفت كل خلية في جسده، وغامت عيناه، وعاد يصرخ من جديد:

«انت مجنون، اطلع يا عبدالباسط، اطلع، المركب بتغرق، اطلع يا عب...».

وقاطعه الصوت هادئاً:

«المركب مش حاتغرق يا قبطان، مش حاتغرق. أنا قفلت الأبواب كلها، الميه بتخش دلوقت بسيط قوي، وشغلت الظلمبات كلها.. ويتسحب جامد، والماكينات شغالة... وعندنا سولار كفاية.. و.. و..».

«عبدالباسط. انت زعلان مني؟!..».

«لأ...».

«عبدالباسط.. حقك علي، أصل أنا كنت خايف من ال...».

«يا قبطان عيب.. داحنا إخوات..».

«عبدالباسط.. ان.. ت.. حا.. تغر.. ق.. عب.. ال..».

«مش عيب تعيط يا قبطان?!».

«عبدالباسط، مش أنا قبطان كويس?!».

«إنت أحسن قبطان في الدنيا..».

«وحامشي المركب?!».

«أيوه...».

«وحانوصل؟!».

«لوحدينا وحياة من جمعنا سوا...».

وارتجت السفينة... وسقط مدكور فوق الأرض، وكانت الابتسامة تعلق وجهه وهو ينهض ويختطف حبلاً، ويربط جسده إلى عمود طويل... ويمسك بالعجلة المترنحة، وتستقيم السفينة، وتترقرق دموع في عينيه، وتمتد يده إلى ذراع الآلات، ويطلب، ويلبي عبدالباسط، والعاصفة في الخارج قد ازداد جنونها... وعوت الريح أكثر، وزمجرت، وهبت الأمواج كالوحوش تنقض على السفينة من كل جانب... وتشبثت يدها بعجلة الدومان... ولطمت موجة السفينة، ثم ارتفعت أخرى ولطمتها، فاهتزت، وتماليت، وتكاثفت السحب، وازداد هطول الأمطار...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومضت الدقائق...

وصنعت الدقائق ساعة... وساعتين...

ومضت الساعات، فأشرق الصباح...

وبزغت من الأفق سفينة ينطلق دخانها في الهواء، وكانت تسبح فوق السطح الرائق الهادئ، وفوقها كان الرجال يعملون في نشاط ومرح عندما أطلق أحدهم صيحة... والتفتت العيون... والتقطت صورة شبح جاثم على سطح المحيط بلا حراك.

وأصدر القائد أوامره، ودارت السفينة متجهة نحو الشبح... وهبط قارب يحمل رجالاً، وأطلقت إشارات وصيحات، ومضت دقائق، ومضت ثلاثون دقيقة... وستون.

وامتدت يد قائد السفينة إلى ورقة والتقطت أصابعه قلمًا، ثم أخذ يكتب، وتسلمت الورقة يد، وهرولت قدمان، وامتدت اليد بالورقة فتسلمتها يد أخرى، وسقطت عليها عينان، وسرعان ما أخذت أصابع اليد تعمل على زر صغير في حركات سريعة، ودقات متقطعة، وسرت الدقات في صاري السفينة الممتد نحو السماء، وانطلقت منه في موجات سريعة، وسبحت الموجات تدور حول الأرض، والتقطت آذان صفير الموجات... وسرعان ما ترجمتها إلى كلمات.

«عثرنا على نفر تيتي. مصابة بعطب شديد. الأمل كبير في سحبها إلى ميناء قريب. القائد كان مربوطاً إلى عمود إلى عجلة الدومان. مصاب بشظية من الزجاج اخترقت القلب تماماً. يبدو أنها من زجاج حجرة القيادة المحطم بفعل العاصفة. على السطح عثرنا على وقاد في حالة إنهاك شديد. يبدو أنه كان في حجرة الآلات. جار إسعافه. يهذي باسم مدكور قبطان. وضع تحت العلاج مباشرة. الآلات متوقفة منذ فترة وجيزة، السفينة خالية تماماً من الرجال. أدينا التحية لجثة القائد. محفوظة بثلاجة السفينة. نرجو الإفادة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطيبي العزيز زكي أفندي

السيد محمد إسماعيل صابر رجل معتدل في كل شيء، وهو مثلي ومثلك، مؤمن وموحد بالله، يحيا حياته في هدوء، ويرعى في تصرفاته أحكام الدين والمجتمع. لا يطلب من الدنيا سوى الستر، ويؤمن تمامًا بالحكمة القائلة إن حب الناس من حب الله... وهو حقًا يحب الله ويسعى لحبه ما وسعه السعي إلى ذلك، يسترضيه آناء الليل وأطراف النهار، ويؤدي فروض دينه، ويصلي كل وقت في وقته... وقد يفوته فرض أو اثنان، ويصبح في عنقه دين، سرعان ما يؤديه بفوائده من الركعات الصالحات طالبًا الصفح والغفران.

وهو مثلي ومثلك قانع بما قسم له، يؤمن بأن بعضنا فوق بعض درجات وطبقات، وأن العين لا تعلق على الحاجب... فعرف قدر نفسه، وعرف أنه موظف في الدرجة السابعة بعد خدمة تسع سنوات في دواوين الحكومة... ولقد سعي جهده حتى علم أنه لم يبق أمامه سوى ألف وستمائة وخمسة وسبعين موظفًا حتى يأتي دوره وينال الدرجة السادسة!!

على أن مرتبه - وإن كان ضئيلاً - فإنه كان يكفيه ويزيد منه ما استطاع أن يدخر به خمسين جنيهاً كاملة، يضعها له أبوه في مكان أمين لا يعلم زكي عنه شيئاً!

وزكي لا يدخن، ولا يسهر بعد العاشرة مساءً بحال من الأحوال، فصحته عنده غالية، وهو مثلي ومثلك في هذا أيضًا، يؤمن بأن الصحة هي عماد الحياة، وأن السهر والعبث مضر بها.

أقصى ما كان يفعله زكي عندما كان يريد الترويح عن نفسه، أن يتمشى قليلاً على النيل مقرقراً اللب والترمس، وقد يفجر فيشتري زجاجة كوكاكولا!

وكان زكي ابنًا بارًا مطيعًا، وقد لا يكون في ذلك مثلي أو مثلك! ما من مرة في حياته رفض طلبًا لأمه أو أبيه، وما من مرة صنع شيئًا دون أن يستأذنها... عندما قال له أبوه: «شرب السجائر مضر بالصحة»، لم يقرب في حياته سيجارة، ومنذ تسع سنوات قال له أبوه عندما عين في القاهرة: «خلي بالك يا زكي من الحرام، مفيش في الدنيا أوحش من الحرام». وهز زكي يومها رأسه... وفعلاً، لم يقرب الحرام.

لذلك... فعندما قالت له أمه: «مش ناوي تتجوز بأه يا ابني؟!». «... رفع زكي حاجبيه دهشة، وتلعثم واضطرب قلبه بشدة، وزاغت نظراته، وابتسم في خجل كعذراء... ورغم أنه كان في السادسة والعشرين وقتها، فإنه لم يفكر في موضوع كهذا إطلاقاً... بل لم يخطر بباله أنه سيتزوج ذات يوم... وقد يبدو ذلك غريبًا، ولكن كيف يفكر زكي في أمر لم يفتحه فيه أحد؟!»

حقًا قد يكون خياله قد شطح يومًا هنا أو هناك، ولكنه كان دائمًا ينسى تلك الشطحات، وكانت تكفي آية صغيرة ينتم بها لسانه وهو يدفن رأسه في الوسادة، لكي تختفي تلك الخيالات من حياته تمامًا.

وكل الأبناء الطيبين المطيعين، عندما أرسل له أبوه خطابًا يقول له فيه:

«ولدنا العزيز زكي أفندي... تحية طيبة من عند الله العلي القدير وبعد... مرادنا وأملنا أنا والست والدتك، أن تحضر إلينا يوم الخميس القادم لتري العروسة التي اخترتها لك الست والدتك بمعرفتها الخاصة وبعد المعاينة والتأكد من أنها بنت حلال، وإنا لمنتظرينكم بفارغ الصبر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

«أبوك محمد إسماعيل صابر»

اعتبر زكي هذا الخطاب أمراً واجب التنفيذ. فشد رحاله يوم الخميس بلا تفكير... وليلتها رأى العروسة لأول مرة في حياته. واضطرب قلبه كثيراً يومها وتلعثم، ولم يستطع أن يرفع إليها عينيه في البداية ولا في النهاية. واحمر وجهه واضطرب كثيراً عندما ربتت حماته على كتفه وقالت عنه إنه يشبه القمر... ومر الوقت غريباً كأنه حلم. وكادت كوبة الشربات التي قدمتها له العروس أن تتدلق عليه لولا ستر ربنا...

المهم أن زكي خرج يومها وكأنه لم يدخل، وعندما سأله أبوه عن رأيه في العروسة ابتسم وتلعثم وتمتم:

«أمرك... اللي تقوله ماشي»... وانتهى الأمر عند صاحب الأمر الذي هو والده.

وفي الأسبوع التالي مكث عشر دقائق كاملة، مرت كأنها عشر سنوات، وهو يحاول إدخال الدبلة في إصبع زينات، وإلباسها «الإسورة» الذهبية التي اشترتها أمه بعشرين جنيهاً كاملة حسب الاتفاق على الشبكة، والتي خصمها أبوه من الخمسين جنيهاً التي له عنده... وأضحك عليه ليلتها الجميع، وضحك هو كثيراً على خيبته... والغريب، الذي تعجب له فيما بعد، أن زينات أدخلت الدبلة في إصبعه بسهولة، ولم تستغرق سوى جزء صغير من الدقيقة!

ومنذ ذلك اليوم وزكي سعيد حقاً... أصبح يسافر كل يوم خميس إلى البلدة ليزور زينات، كان ذلك في البداية، ولكن أمه في الخميس الرابع زامت وهي تقول له: «على إيه يا بني المصاريف دي كلها.. كفاية كل شهر مرة»... وهز زكي رأسه واقنتع برأي أمه... ولكن أبوه بعد الشهر الثاني قال له: «مفيش لزوم تيجي غير في المواسم»... وطبعاً كان أبوه على حق!!

وقد يكون ذلك قد ضايق زكي بعض الشيء، قد يكون قد حرك في صدره كوامن المعصية وارتكاب الكبيرة بمخالفة الوالدين.

ولكن كل ذلك كان كفقاعات صغيرة لم تلبث أن فجرتها ريح الإخلاص، فذابت في زوابع إيمانه وقلبه النقي.

ولكن أباه لم يمنعه من التفكير في زينات... وكان التفكير نافذة لذيذة حلوة، أطل منها على عالم غريب... عالم جعله لأول مرة يفكر في الحب.

ورغم أن زكي لم ير زينات سوى ست أو سبع مرات، ورغم أنه لم يجلس معها منفرداً ولا مرة، فإنه أحبها فعلاً بكل قلبه ووجدانه.

والحقيقة أن حياته منذ أن خطب زينات، انقلبت رأساً على عقب، ذلك أنه وجد نفسه فجأة موفور النشاط والحيوية، أصبح لا ينام قبل منتصف الليل، وإن كان يأوي إلى الفراش في العاشرة، على الأكثر... والواقع أنه لم يدر تماماً ما الذي كان يفكر فيه، كان يتخيل زينات وحديثه معها وحديثها معه، وصوتها الرنان ذا البحة التي تهز

أوتار الركب... ذلك الصوت الذي كان ينفذ إلى قلبه، لم يفارقه إطلاقاً... وطالما تصورها فاتتة رائعة الحسن، طالما تخيل وجسّد وصنع وخلق أشياء وأشياء، كانت كلها تبدو تافهة وعاجزة عندما يجلس مع زينات.

وكان للأمر الذي صدر له من أبيه بالأ ييسافر إلا في المواسم أشد الأثر، فلقد وجد نفسه ذات يوم وقد تألبت عليه أفكاره، يقدم على مغامرة جنونية، وجد نفسه يكتب لها خطاباً... ظل يكتب فيه ست ساعات كاملة... وفي النهاية رأى أنه لم يكتب شيئاً على الإطلاق!

كان كلما كتب شيئاً بدا له تافهًا لا قيمة له... كتب لها يا حبيبتي ونور عيني ومهجة فؤادي، ولكنها لم تعجبه ووجد أنها كلمات مبتذلة... وبعد ذلك لم يستطع أن يخط كلمة، لم يكن يدري ماذا يقول لها، بل ماذا يريد أن يقول لها بالضبط! وأضناه الأمر طويلاً، وفكر فيه أيامًا، حتى وجد الحل فجأة ودون مقدمات.

ولا يدري ما الذي جعله يقول لمحسن زميله ما قاله في ذلك الصباح، لم يكن له أصدقاء... فلقد كان يعلم أن الوحدة خير من جليس السوء، وهو قد اكتشف منذ زمن طويل أن كل الجلساء جلساء سوء. ولكنه في ذلك اليوم كان يشعر بأن الأمر أكبر من أن يحتمله وحده، وبلا تفكير، وجد نفسه يحكي لمحسن قصة الخطاب الذي يؤرقه... واكتشف زكي لأول مرة منذ سنوات، أن محسن شهيم، وأنه رجل ولا كل الرجال. ودهش وهو يرى زميله يجلس ببساطة ويكتب خطاباً طويلاً عريضاً قدمه لزكي وهو يقول: «خذ يا عم حلال عليك...». وكان زكي يعلم أن هذا حلال عليه حقًا، أليست زينات خطيبته؟!!

وفي فورة حماسه وانفعاله... وضع فوق الخطاب ورقة البوستة، وعندما ألقاه في صندوق البريد، شعر لأول مرة من زمن طويل بالراحة تغزو كيانه كله. ولكنه ليلتها لم يستطع النوم إطلاقاً، فلقد كان عليه أن يعد الساعات والدقائق في انتظار الرد.

وبعد ثلاثة أيام وصله خطاب من زينات تقول فيه: «خطيبي العزيز الأستاذ زكي أفندي محمد... دام لنا. بعد التحية والسلام والسؤال عن صحتكم الغالية، أخبركم بأنه قد وصلني عزيز خطابكم، وأحمد الله على سلامتكم وصحتكم الغالية، وبعد... فإنني أرجو منك ألا ترسل لي خطابات بهذا الشكل لأجل أن بابا حمش وكذلك ماما، وأحمد الله أنني تسلمت الخطاب من البوسطجي ولم يكن أحد في البيت، وختامًا سلامًا ويرعاكم الله من كل سوء... خطيبتكم المخلصة». «زينات أحمد علي».

ولم يعرف زكي ما الذي يفعله حقًا عندما وصله الخطاب... كان سروره كبيرًا حتى إن أصابعه كانت ترتعد وهو يفيض الغلاف... وأخذت عيناه تلتهمان الكلمات التهامًا، ولكنه لم يفهم شيئاً في البداية، ولما أخذت نفسه تهدأ رويدًا رويدًا، قرأ الخطاب مرة أخرى، وثالثة ورابعة... وعاشرة، وانتابته حيرة رهيبية، ولكنه عاد فابتسم في رضاء، فلقد اتضح له أن أمه عرفت كيف تختار له بنتًا مؤدبة وابنة ناس طبيين حقًا، ولذلك لم تقبل منه هذا الغزل الذي كتب لها.

وما كاد يصل إلى هذا التفسير حتى أحس راحة غريبة للغاية، ونام ليلتها ملء جفونه.

ولكنه في الصباح وجد نفسه أمام مشكلة محيرة، ذلك أنه أراد أن يكتب لها خطابًا آخر... الخاطر العريبيد أخذ بمجامع قلبه، والمغامرة مهما ارتجفت لها القلوب لذيدة... وأمسك زكي القلم وكتب... «خطيبتنا العزيزة الأنسة المبجلة زينات هانم أحمد علي، تحية وسلامًا من عند الله العلي القدير وبعد...» وتوقف القلم في يده، وعبثًا حاول زكي أن يخط كلمة بعد ذلك، وانتابه الضيق، ولم يجد مفردًا في النهاية من أن يلتجئ إلى محسن من جديد.

وعندما أنب محسن على ما كتبه في الخطاب السابق، ضحك هذا منه وأفهمه أن هذه أمور بنات، وأنها لا تعني حقًا ما تقول، وأنه لا يجب أن يتراجع أو يتوقف عن إرسال الخطابات... وقال محسن في النهاية:

«يا أخي هي مش خطيبتك؟».

وقال زكي مؤمنًا:

«آه...».

«ومش حاتبقى مراتك بسنة الله ورسوله؟».

ورد زكي بحماس:

«آه».

«طيب خلاص فيها إيه بقى! اسمع كلامي يا عبيط... اسأل مجرب».

ثلاثة أيام وهو واقع في هذه الحيرة، ثلاثة أيام لا يكاد ينام أو يأكل أو يشرب، امتنته المشكلة تمامًا... ولم يجروا على أن يفتح أحدًا... وأخيرًا سمع كلام محسن وذهب إليه يطلب معونته.

المهم أن محسن كتب له خطابًا آخر أشد غرامًا من الأول، ورغم أن الخطاب قد أرضاه حقًا، فإنه تضايق مما فيه من كلام لا يصح أن يعرفه سوى زوج وزوجته... ولكنه عندما ناقش الأمر، وجد أنه من الممكن أن يحدث هذا ما دام أن نيته طيبة وسليمة... أليست الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى!؟

الغريب الذي جعله - ولأول مرة في حياته - يرقص طربًا، أن زينات أرسلت له ردًا تقول فيه... «ما دمت مصممًا على أن ترسل هذه الخطابات فلا ترسلها إلى البيت، بل أرسلها إلى صديقتي وأختي الوفية سهام السيد عبد الله المدرسة بمدرسة المعلمة الابتدائية..».

وكانت مغامرة لذيدة حقًا، وكاد يطير من الفرح وهو يقبل محسن ويخبره بالأمر كله، وابتسم له محسن يومها وقال: «مش قلت لك...».

زكي بعد هذا كان في غاية السعادة... أصبح محسن يكتب كل يوم خطابًا، يضع عليه زكي ورقة البوستة ويرسلها باسم «الآنسة المحترمة المبجلة سهام السيد عبد الله المدرسة بمدرسة المعلمة الابتدائية... ومنها ليد الآنسة زينات..».

ومرت الأيام كالعسل، كل يوم يحمل سعادة جديدة، ويوم أن كتب محسن في بداية أحد الخطابات «حبيبتي زوزو»، رفض زكي أن يصل الأمر إلى هذا الحد الفاحش من التدلليل والإباحية... ولكن نظرة واحدة من عيني محسن الماكرتين أقتنعه بأن يوغل في المغامرة حتى آخرها... ولكنه عندما تسلم خطابها التالي وقرأ فيه... «لما

أنت بتكتب كلام بالشكل ده يا عفريت، آمال عامل نفسك خام ليه... يا لهوي من الرجالة...»، عندما قرأت تلك الكلمات، بلغت سعادته القمة، وكاد من فرط سروره أن يأكل الخطاب أكلاً، وبالذات كلمة يا عفريت اللذيذة هذه... وزادت سعادته عندما قرأ في نهاية الخطاب، «حبيبتيك المخلصة إلى الأبد.. زوزو..»، وكان ذلك فوق كل ما تصور من أحلام، وظل يحتضن الخطاب طيلة اليوم.. ونام وهو يضمه إلى صدره.

ومرت الأيام كثيرة، ما إن يتسلم خطابها ويقرأه حتى يعطيه لمحسن ليرد عليه ردًا مناسباً... وبدأ يعيش حياة أخرى، حياة حافلة بالمباهج والملذات، ولكنها على أية حال مباهج وملذات لم تتعد ذهنه وخياله وجدران رأسه الأربع.

ورغم أن زكي أفندي محمد كان مؤمناً بالقضاء والقدر، فإنه كاد أن يجن عندما انقطعت فجأة خطابات زينات، وأصبح يستكتب محسن كل يوم خطاباً، وفي أحيان كثيرة خطابين... وضايقه أن محسن لم يعد يرحب بالفكرة، وأصبح يتناقل ويتعلل، ولكنه كان يلح عليه ساعات وساعات حتى يسترضيه.

وكاد أن يجن أكثر عندما وصله خطاب من والده يقول له فيه: «ولدنا العزيز زكي أفندي، تحية مباركة من عند الله العلي القدير وبعد... نفيديكم علماً بأننا نحمل لكم أخباراً لا تسر عدو ولا حبيب بخصوص خطيبتيكم السابقة زينات وأهلها، ونرجو منكم الحضور يوم الخميس والسلام ختام...».

«أبوك محمد إسماعيل صابر».

وطار عقل زكي... ووقع في حيرة أليمة ألزمته الصلاة حتى جاء يوم الخميس، وطار إلى البلد.

ورغم أنه عاد في اليوم التالي إلى القاهرة، وقد خلع الدبلة واسترد الشبكة. فإنه لم يستطع أن يفهم سبب ما حدث... والذي لم يكن له فيه يد.

وما إن سمع ثورة أبيه وأمه، حتى افتتح بأن زينات لا تصلح... وما إن قال له أبوه إن أهل زينات طلبوا تأجيل الزفاف وعقد القران عن الموعد الذي حدد من قبل، والذي لم يكن زكي يعلم عنه شيئاً... وإن والده أصر على أن يعقد القران في الموعد المحدد بالضبط، وإن أهل البنات تمسكوا ورفضوا، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، ودخلت البنات مقصوفة الرقبة وخلعت الدبلة من إصبعها و«الإسورة» الذهبية من معصمها ووضعتهما أمام الرجل وهي تقول:

«بصراحة دي حجة... أنا مش عاوزة ابنك».

ما إن سمع زكي كل هذا، وما إن وصل أبوه إلى هذا الحد من الحديث، حتى كانت دهشته قد بلغت أقصاها... وما كاد يفتح فمه حتى أغلقه من جديد... فلقد كان والداه يتناقشان في أمر العروسة الجديدة، كان أبوه يقترح أن يزوجه من فاطمة ابنة الحاج سيد، وكانت أمه تصر على أن سميحة ابنة الست جمالات أحسن وأفضل ألف مرة... وعندما سألاه أيهما يختار، نهض من مكانه وهو يقول:

«اللي تختاروه انتم!».

وقد ظل زكي فترة طويلة متأثراً بما حدث، ولكنه كان - والحق يقال - مؤمناً أشد الإيمان، والمؤمن يعلم أن كل شيء قسمة ونصيب... وسرعان ما طردت الآيات والركعات حزنه، وعاد إليه إيمانه واطمئنانه، خاصة عندما رأى سميحة خطيبته

الجديدة، وتخيلها، ووجدها أعلى من خياله، وأحبها، وذهب إليها كل خميس، ثم كل أول شهر، ثم انقطع للذهاب في المواسم فقط... وقد أخذ خياله يعربد أخيراً، وفكر في المغامرة... وأمسك القلم ليكتب لها خطاباً.

ولقد اشتد إيمانه بالقسمة والنصيب عندما رأى محسن ذات يوم يسير في الطريق وقد تعلقت زينات بذراعه... وانتابته وقتها رعدة سرت في كل جسده، ثم دهشة بالغة... وذهل وهو يبخلق فيهما للحظات... ولكنه سرعان ما عاد إلى نفسه - كأني مؤمن شديد الإيمان - ومصمص بشفتيه عجباً لتصاريف القدر... وهمس لنفسه وهو يمضي في طريقه مطمئن النفس راضي البال:

«يا سلام... إيش جاب لجاب... صحيح، كل شيء قسمة ونصيب!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمة

لَعَلَّ الراديو وغنى ورقص وتحدث وأذن العصر والمغرب والعشاء ثم قرأ قرآنًا، وراح حسن الجرسون مئات المرات وجاء مئات المرات، وخرج من المقهى عشرات ودخل إليها عشرات، وفتحت طاولة وأغلقت أخرى، وأزيح كرسي ووقع آخر، وصرخ زبون، ونادى حسن بصوت كالجرس الذي لا يصدأ... طوال اليوم وهو ينادي وينادي، من الصباح حتى منتصف الليل، وكل شيء كما هو... الحياة في مقهى «العهد الجديد» تسير، والماركات حمراء وخضراء وصفراء تطرقع وترن فوق الرخام، ويد المعلم عبداللطيف تمتد وتلقي بها في الثقب المستطيل الذي يتوسط البنك الجالس هو وراءه... والدنيا تدور، الشمس تدور من الشرق إلى الغرب، والأرض تدور حولها، ووابور الجاز يدور دون انقطاع، والماء المغلي يدور في الأكواب على الزبائن مصبوغًا بالشاي والقرفة والجنزبيل واللبن أيضًا، والجوزة تقرقع، والشيشة هي الأخرى تقرقع، والمعلم غائب عن هذا كله، غائب تمامًا عن كل شيء.

ولو عرف الناس المجتمعون في مقهاه والذين ينادونه باحترام كبير قائلين له: «يا معلم»، ولو عرف الصنایعية الذين يعملون عنده والذين بيده قطع عيشهم أو وصله، لو عرف الناس ما الذي يشغله ويبعده عن الدنيا... لضحكوا عليه.

والمعلم يعرف هذا تمامًا... ولذلك فقد ألقى فوق وجهه تكشيرة تبعد عنه المتطلعين إليه من الزبائن والأصدقاء، ولكن سرعان ما أصبحت التكشيرة حقيقية، والغم والغضب جدًّا في جد، ليس فيه اصطناع ولا تصنع.

سمع حسن الجرسون يقول للزبائن إن المعلم غضبان، وإنه طرد ابنه زكي منذ العصر وأمره بأن يذهب إلى البيت، ولا يدري أحد السبب، وسمع أيضًا الزبائن يعلقون بصوت مسموع أن كل العيال على هذا الحال، وآخرون سبوا العيال وقلة أدبهم، وقالوا إن الرجل لا يجب أن يحرق دمه بهذا الشكل.

الجرنال في يده محشواً بالكلمات، والكلمات كثيرة كثيرة كأنها النمل، تنتشر هنا وهناك فوق الصفحات الكبيرة الواسعة، تحمل معاني وتحدث عن أشياء يتمنى المعلم عبداللطيف أن يعرفها.

تنهد وطلب شايًا، ثم زفر وطلب بعده جوزة، ثم سعل وطلب قهوة سادة، وجلس يبخلق في الورقة الصغيرة البيضاء التي أخفاها عن الناس وراء الجرنال... ويفلت الزمام منه مرة، وتتحرك شفاته في بطن، وتفتح ثم تنطبق ثم تتسع... وعيناه تخترقانها في غيظ وشغف واضطراب، ثم ينتبه فجأة، وترتفع عيناه لتجولا في المقهى وتتفحصا الوجوه، ويعود بهما من جديد، مضطربًا حائرًا يبخلق في كلمة، كلمة واحدة تمنى لو لم يكن لها وجود.

سب الأمية ومحو الأمية واليوم الذي صغر فيه عقله إلى هذا الحد.

والحكاية لا يريد المعلم عبداللطيف أن يذكرها، فهي لعب عيال في لعب عيال، وأخذ يردد بين الحين والحين وبينه وبين نفسه: «بعد ما شاب ودوه الكتاب!!».

لا يريد أن يذكر شيئاً لا يريد أن يذكر أنها طلعت في رأسه فجأة وبلا مقدمات، فذهب إلى المدرسة، ووجد هناك رجالاً كباراً مثله، ووجد أسطوانات يملأون العين، وكلهم جالسون في «نحو الأمية»، تلاحق عيونهم الخطوط التي كان يرسمها الأفندي فوق السبورة السوداء بالطباشير الأبيض، ثم تعلق أصواتهم الخشنة الغليظة، وتهتز شواربهم الكثة الرمادية وهم يرددون كالعيال وراء الأفندي... ألف... ب... ت... ث... في نغمات ممطوطة طويلة لذيذة.

كتم يومها المعلم عبداللطيف ضحكة ملأت صدره وتمددت فيه بقوة، وانتفخ وجهه الأحمر، وتقلصت شفتاه، ودمعت عيناه وهو يرقب الوجوه من حوله كبيرة وعجوزة، وقد اكتست بالجد، وأخذت الحناجر الغليظة تردد الحروف وراء الأفندي العيل.

ضحك يومها المعلم عبداللطيف، ولكنه أحس سروراً غريباً، سروراً تحول إلى شغف، ثم حماس وارتفع صوته فوق كل الأصوات، وانتبهت عيناه لكل حرف ولم تفته حصة واحدة... بل تحمس وعزم الأفندي مرة على الشاي، واحترمه تماماً وقدم له الشاي بنفسه في فنجان لا في كوب، وقام بالواجب خير قيام، وأخذ يردد... من علمني حرفاً صرت له عبداً.

وما لنا نحن وهذا الكلام الفارغ. الحق ليس على أحد، الحق عليه هو الذي ترك لعقله الصغير العنان وذهب ليتعلم القراءة والكتابة... وماذا سيفعل بها؟! الحق عليه هو الذي سمع كلامهم عندما قالوا له:

«روح يا معلم نحو الأمية، ومش حاتخس حاجة».

وعوج المعلم الطربوش وليس القفطان الجوخ المعتمر، ومسح الحذاء حتى أصبح كالمرآية وذهب ساخرًا، وخرج شغوفاً.

الولد زكي ابنه فك الخط منذ عامين... يروح إلى المدرسة ويجيء وهو محمل بالكتب، وجاءت شهادته ليس بها ولا كحكة حمراء، والولد نبيه ويفهمها وهي طائفة. فهو لم يأت بشيء من الخارج، وابن الوز عوام كما يقولون.

ولكن هذا غير مهم... المهم هو ما حدث في عصر ذلك اليوم، بل وقبل ذلك اليوم أيضاً، وهو لا يزال غاضباً من قلة أدب هذا الولد، وهو يقسم بينه وبين نفسه أن يخرج من المدرسة، وأن يلقي به في المقهي ليتمرمط ويدوخ الدوخات السبع التي داخها هو حتى استطاع أن يكون له ذلك الحق الصغير الذي يضمن له لقمة العيش، وهو كل رأس ماله في الدنيا.

بعد ما شاب ذهبوا به إلى الكتاب. وهو الذي عليه الحق ولا أحد غيره، هو المحقوق من طقطع لسلام عليكم وليس في الدنيا أحد محقوق غيره.

لا يريد أن يتذكر شيئاً، فكل شيء راح لحاله حتى «أ... ب... ت» التي حفظها وتعب فيها، وسهر الليل عليها حتى صمها عن ظهر قلب، حتى هذه راحت لحالها وهي لعبة وانقضت... وحتى الخط الذي فكه بعد ذلك، والكلمات الكبيرة المزركشة في الكتاب الذي اشتراه منذ شهور، وقرأ فيه، زرع، رزق، درس، وكلمات كثيرة أخرى ولعب عيال لا أول له ولا آخر.

طلب المعلم شيئاً جديداً وشربه، وطلب صندوق سجائر، واستغرب حسن الجرسون لأنه لا يدخن، وصرخ هو فيه أن ينفذ طلبه دون استغراب، ودارت عيناه ووقعنا فوق الورقة الصغيرة البيضاء التي تحوي سبب الغم كله، وتبليت عيناه، وعادتا تسبحان فوق صفحة الجرنال التي تحوي كلمات كجيوش النمل مرصوفة في طوابير وراء طوابير لا أول لها ولا آخر.

كلمة... كلمة بنت ستين كلب، تدوخه وهو الذي طلع الأول على الفصل كله؟... الفصل الذي يضم أربعين شحطاً عمر أصغرهم ثلاثون عاماً!... كلمة كهذه تدوخه وهو الذي قال له الأفندي: «شاطر يا معلم عبداللطيف».

ويومها ازداد سروره إلى حد كبير، تماماً كالعيل الصغير عندما يقول له الأفندي إنه شاطر، يومها اختلس النظر إلى كتب ابنه لأول مرة في حياته، ثم انتفخ ووضع ساقاً فوق ساق وقال بوقار:

«عامل إيه يا واد في المدرسة؟».

فقال الولد على الفور:

«وانت عامل إيه يا بابا؟!».

وصمت عبداللطيف تماماً، ورغم أنه أحس بالغضب يغزو رأسه، فإنه صهين وقال ببرود وتؤدة وكأنما الأمر لا يعنيه:

«طلعت الأول...».

فرد الولد بهدوء أكثر:

«وأنا كمان!».

الحق عليه هو الذي صغر بعقله وتحمل كل هذا واستمر يذهب إلى المدرسة، ولكنه والحق يقال كان يحس انبساطاً وفخراً كلما تقدم وقرأ كلمات جديدة... وكلما وقف أيضاً في وسط الفصل يقرأ... «ذهب محمد إلى الحقل»... أو أخرجه الأفندي ليكتب على السبورة، لقد كان أشطرهم جميعاً، وكانوا هم يحسدونه، ويقولون إن الأفندي يجلس عنده في المقهى، ولكنهم رجال شابوا وخطر فوا، فلم يعبأ بهم وانكب على دروسه، لقد كانوا يغتاظون منه لأنهم كانوا يخطئون كثيراً، وكان هو يرفع إصبعه الغليظ الخشن ويقول في سرعة: «أنا يا أفندي».

لعب عيال... لا يخرج الأمر عن هذا إطلاقاً. ولن يذهب عبداللطيف بعد اليوم إلى المدرسة، ولن يجهد عينيه ولن يجعل نفسه سخرية ابنه... بل سيخرجه من المدرسة ويلقي به في السوق ليصبح رجلاً وينفع نفسه.

والحكاية بسيطة للغاية...

الولد جاء عصر اليوم إلى المقهى وأمسك بالجرنال الذي كان المعلم يشتريه كل يوم منذ أن طلع الأول على الفصل. وحكاية الجرنال هذه أيضاً حكاية سخيفة، لقد كان عبداللطيف يحمله معه في غدواته وروحاته، وكان أحياناً يحاول أن يقرأ فيه، ويعاقر، وتسره الكلمات الكبيرة المكتوبة بالأحمر، وتضايقه الكلمات الصغيرة كالنمنمة، ولكنه كان يقرأ كلمة ويترك أخرى وينط ثلاثة، وكله تمرين ومذاكرة... حقاً كان البعض يتغامز عليه ويقولون له: «إيه الأخبار»، ولكنه كان يعلم أنهم يغيرون منه، فكان يشير إلى الراديو ويقول لهم:

«جهلة وطرش كمان، ما عندكم راديو..».

وهو على استعداد أن يتحمل هؤلاء، ولكنه ليس على استعداد أن يتحمل قلة أدب ابنه عليه. لا. لن يحدث هذا!

والذي حدث أن المعلم عبداللطيف سأل ابنه عما يفعله في المدرسة وقال له:

«خذتو لحد فين في العربي؟».

فابتسم ابن الكلب بسخرية وقال له شيئاً لم يفهمه، ولكنه هز رأسه ببطء ووقار المعلم الخبير وقال:

«بس؟!».

وأمسك الولد بعدها بورقة بيضاء وسحب القلم من الدرج، ثم كتب شيئاً وهو يبتسم في سخرية وقلة أدب، وقدمها لأبيه وهو يقول:

«تعرف تقرا دي يا بابا؟».

نظر المعلم إلى الورقة، ورأى طابوراً طويلاً من الحروف، كل منها يمسك بذيل الآخر كالعيال الذين يلعبون في الحارة «يا بابور الساعة انتاشر». ولكنه نطق الحرف الأول، ثم نطق الثاني، ثم توقف ولضم الحرفين ببعض وقفز بسرعة إلى الحرف الثالث حتى لا ينسى، وكاد أن ينغمر تماماً في المذاكرة وينسى ابنه لولا أنه سمع ضحكته التي كان يحاول أن يكتمها بكفه... واشتعل الغضب فجأة في صدره، وفارت دماؤه، وقفز إلى ذهنه القديم والجديد، وانطلق الشرر من عينيه والسباب من فمه:

«انت بتمتحي يا واد؟».

وحصل بعدها ما حصل، وجرى الولد إلى البيت خائفاً مذعوراً، وجلس المعلم عبداللطيف ينظر إلى الكلمة السخيفة في غضب، فقد كانت طويلة كقطار السكة الحديد حقاً.

والليل يوغل، والراديو لا يزال يلعلع، وصوت الطاولة بدا ضعيفاً، والجوزة لم تعد تكرر ولا تفرقع، وحسن الجرسون ينادي ببطء وبلا حماس، وبدأ كل شيء يهدم وينهج ويتناهب، حتى الراديو كان وكأنه أحس بالتعب قبل الموعد، فجمع حفنة من الأغاني ووضعها كلها في الماكينة لتدور وتسرع وتدوش الدماغ.

ودقت الساعة، وقال حسن: «نشطب يا معلم؟»... وأفاق عبداللطيف ثم هز رأسه وعاد إلى الكلمة الملعونة من جديد.

وأحس بالغیظ يملؤه، وقرأ الحرف الأول، ثم خطر له خاطر... فأخرج كراسة الواجب من درج البنك الصغير الجالس إليه، ثم امتدت يده تحمل القلم وتبلله بطرف لسانه، وفرد الكراسة أمامه، وعوج رأسه إلى اليسار، ثم استعدّل عند أول الصفحة، وكتب الحرف الأول كبيراً واضحاً، وردده في سره: «قاف فتحة قا...»، ثم نطق: «قا».

وعندما كتب الحرف الثاني، كانت الأنوار في الخارج قد انطفأت، والمقهى قد خلا تماماً من الرجال، والمقاعد قد تكدست كلها فوق بعضها، والوابور قد كف عن

الزن، والراديو صمت تمامًا، وصفير حاد في أذنيه يواصل موكب الضجة الذي استمر طوال اليوم.

وترك المعلم عبداللطيف المقهى وراء ظهره، وفي يده الكراسية والورقة والجريدة، وقد أطبقت أصابعه عليها جيدًا، وصدرة يضيق ويغلي بما فيه، ويقترّب من عمود النور، ويفرد الورقة الصغيرة بأصابعه، ثم يزّم شفّتيه، ويطوي الورقة ويعاود السير من جديد.

وعندما وصل إلى البيت، كان الليل قد انتصف منذ برهة، وكان قد صمم على أمر ما... ورأى زوجته تجلس منكمشة كالكرنبية، عيناها تتضرعان إليه ألف تضرع وتضرع، وهمست له بالتحية فلم يرد عليها، ودف إلى حجرة النوم وجلس على مقعد بجوار الفرش، وكانت هي في ذيله تحمل المصباح الصغير الذي اسود عنق زجاجته، ثم وضعت فوق البوريه ذي المرأة الكبيرة وقالت بصوت منكسر:

«أحضر لك العشا يا أبو زكي؟».

كان أبو زكي يفكر في حيلة ينفذ بها ما يريد، فتنحى ثم قال بصوت صارم وقد اكتسى وجهه بقناع غاضب:

«هم العيال نامو؟!».

«والنبي يا خويا من بدري، ده حتى زكي فضل يعيط لما اتفلق، ياخويا هو مقصدوش».

وبدأ المعلم ينفذ خطته، فصوب إليها نظرة نارية وقال في اقتضاب:

«هاتي الطبلية هنا وسيبيني أعمل الحساب...».

استدارت أم زكي وخرجت، بينما كان المعلم يستعد للنزال. أخرج من جيبه كيس النقود، وجلس فوق الشلثة بعد أن دس تحتها الكراسية والورقة والقلم، وخلع طربوشه، وألقى بالحذاء تحت الفراش، وشمر أكمامه، وعادت زوجته ووضعّت الطبلية أمامه، فألقى فوقها بكيس النقود وأخرج منه بضعة جنيّهات... وقالت أم زكي:

«أعمل لك شاي؟».

«لأ...».

قالها في صوت حاد، وخرجت المرأة بعد أن أغلقت الباب وراءها، وسرعان ما أزاح عبداللطيف النقود من أمامه، وامتدت يده تحت الشلثة، وأخرج الكراسية، ثم هبط بالمصباح ووضع أمامه، وضيق عينيه في تحد، ونظر إلى الكلمة الطويلة الملتوية كالثعبان... واضطرب قلبه.

همس بعدها قائلاً وهو يفتح الكراسية وينظر إلى الحرفين المكتوبين بخطه، كبيرين جميلين... أجمل من خط ابنه بكثير:

«قاف فتحة قا، سين فتحة سا.. قاسا...».

ثم نظر إلى الكلمة وأخذ يكتب الحرف الثالث ويحسن فيه ويلضمه في سابقه وهو يردد: «قاسا، قاسا»، ثم توقف وقال مسرعاً:

«طا فتحة طا... قاسا...».

وما كاد المعلم ينطق الحروف الثلاثة ملضومة، حتى أحس كأن هناك شيئاً في الورقة الملقاة أمامه، فانحنى نحوها وقد غرق في تفكيره، لا بد أنه نسي شيئاً هاماً.

خيل إليه بعد فترة أن الكلمة تخرج له لسانها، وازداد غيظه، ونظر إليها بتحد، وأشعل سيجارة ونفث دخانها، ثم انكب من جديد يكتب الكلمة من الأول وهو يفكر في عمق، لا بد أن هناك شيئاً ما.

وامتدت يده إلى درج البوريه، وأخرج الكتاب الذي يذاكر فيه، ثم أخذ يتصفح صفحة وراء أخرى عله يجد فيه شيئاً يعينه، ومضت الصفحات التي ذكرها لينة حلوة طيبة، ثم بدأ الأمر يتعقد شيئاً فشيئاً، وأخذت الكلمات تصبح نظيفة رائقة بعد أن كانت ضخمة مزركشة... وفجأة، خبط بكفه فوق جبهته وابتسم.

بعد فترة كان المعلم عبداللطيف ينطق الحروف من جديد:

«قاسا، قوسو، قي سي، ق س، قسط...».

والوقت يمر، وهو غارق تماماً، وذباله المصباح تخبو، وصندوق السجائر قد أصبح فارغاً، وضوء النهار يتسرب. وعيناه مفتوحتان، وذهنه أصبح وكأنه قد طلي بمعدن براق، وجسده كله في نشوة وتعب، وفي عقله عمليات غريبة معقدة لم يكن يحلم بها، وأخذ يكتب أمامه علامات التشكيل، الفتحة والضمة والكسرة والشدة والسكون، ثم أخذ يجرب، ينطق ويكتب ويفكر يقوده إلهام غريب ونغم للكلمة لا يدري مصدره... والكلمة تتكسر حروفها تحت ضربات ذهنه حرفاً وراء حرف، وعندما نطق المعلم:

«قسطنطين».

أحس بنشوة غريبة، وصفق بيديه كالطفل المرح حتى إنه قال «هيه»، وبرز رأس زوجته من فرجة الباب الذي انفتح دون أن يشعر، وقالت في هدوء:

«عاوز حاجة يابو زكي؟».

«أيوه... اعلمي شاي».

اضطجع إلى الخلف ووجهه كله يبتسم، وصدره ينتفس في ارتياح، ولعن الخواجة قسطنطين صاحب الجراج المجاور للمقهى، وهزته النشوة وهو ينظر إلى الحرفين الباقيين بجبروت، وذباله المصباح تخبو رويداً رويداً، ورأسه عار ملقى إلى أمام، ولكنه هذه المرة لم يحتج إلى جهد... وصرخ فجأة كمن عثر على كنز:

«قسطنطينية».

لا يدري المعلم عبداللطيف متى وأين سمع بهذا الاسم، ولكنه كان موقناً تماماً بأن هناك بلداً اسمه القسطنطينية، لم يكن يعنيه شيء من هذا، وهز كتفيه ولعن للبلد أباه، ثم نهض من مكانه وتمطى واستمع في نشوة إلى طقطقة عظامه، واتجه نحو الباب.

كانت أم زكي مكومة فوق الكنبه وأمامها إناء الشاي فوق النار، وما إن أحست بزوجها حتى قالت بروتينية:

«أحضر لك العشا يا دلعدى؟».

«قسطنطينية يا ولية».

نطقها بسرعة وبنغمة موسيقية، ثم دلف إلى حجرة العيال بعد إن حمل المصباح في يده، واستلقى الضوء فوق الأجساد الصغيرة المتراسة بجوار بعضها، ولمحت عيناه كتب ابنه المكومة فوق منضدة صغيرة، وتبخر قسمه فجأة، وهمس وهو يستشعر دفء الحجرة وأنفاس أولاده.

«والله لأعلمكم كلكم...».

امتدت ذراعه نحو ولده وأخذ يدفعه ببطء ورفق، ورفع زكي عينيه النائمتين إلى وجه والده، وانكمش إلى الوراء، وهمهم في خوف، بينما كان عبداللطيف ينتصب أمامه منتفخ الصدر، مرفوع الرأس، ثم ألقى إليه بالورقة في استهتار، وقال وهو يبتسم ويستدير إلى الخارج وكأن الأمر لا يعنيه:

«قسطنطينية يا وله...».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان زمان

في «قهوة عطا» كانوا جالسين... وعلى الباب، كان يجلس «عم عمر». كان الليل يزحف، وحرارة النهار تذوب في النسيمات التي أخذت تهب من الحقول. من الرجال من كان يقبض على جوزة وهو يجذب منها أنفاسًا متتابعة. ومنهم من كان يستند إلى الحائط، وقد فرد ساقيه حتى لكانما يريد أن يمدهما إلى ما لا نهاية! كانوا جميعًا فرحين مسرورين، علامات الرضا ارتاحت على وجوههم السمراء، وعقولهم أخذت تجتر أسماء غريبة لبلاد غريبة، بلاد كالهند ويوغوسلافيا... ولولا الراديو البطارية الذي اشتراه زوج «البننت عطا» من البندر. لما تمتعوا هذه المتعة، ولما انفتحت لهم هذه الطاقة التي تطل على الجنة. إلا «عم عمر».

كان الرجل يلمح على وجوههم تلك الفرحة، فيتململ في جلسته وهو يسب عطا والأولاد، وزوج عطا القفا الذي لا يريد أن يقول له: «فيه إيه؟!». كانوا جميعًا ملتفين حول الراديو، يهللون ويصفقون ويصرخون ويرقصون أيضًا. وكانت الدنيا كلها تكاد ترقص من حولهم. وقد سألهم «عم عمر» عن سبب الفرحة. وقالوا له. ولكنه رغم هذا لم يعرف «فيه إيه?!».

وعم عمر تعدى المائة والعشرين وزيادة. ولقد كانت له أيام وحكايات... حكايات عن عرابي وأفندينا، وناس كثيرين وأحداث أكثر من الناس، كان يقصها على العيال الكبار الذين أصبحوا عمدًا ومشايخ وأفندية أيضًا. جعلته لم تكن تفرغ... ولكنه منذ مدة لم يعد يتحدث، منذ أن أصبحت أذناه لا تسمعان ولا بالزعيق.

وما كان الصمم ليهمَّ عم عمر، وما أحس بطلوله. فلقد أتاه تدريجيًا. ثم ساد الصمت من حوله. ولم يعد يسمع. وحلت الإشارات محل الكلمات والأصوات. فلم يغضب أو يتحسر أو يهتم. كان يفهم كل ما يريدون قوله له، وكانهم كانوا يتحدثون إلى قلبه. فكلهم أولاده، وأولاد أولاده، قد التصق كبيرهم وصغيرهم بقلبه. والتصق هو بقلوبهم يمثل لهم أصلهم وعرقهم وأرضهم السوداء.

وقد أوحشتهم حكايات عم عمر. طالما زعقوا في أذنيه، وصرخوا فيهما يطلبون منه أن يحكي لهم حكاية. ولكنه كان يتحدث عن أي شيء. ويقول لهم كل شيء. إلا الحكايات. ومرة الأيام فنسوا جلسات الليل، وصوته الخفيض وهو يقص عليهم أشياء وأشياء. ويحكي لهم عن آبائهم وأجدادهم. نسوا كل هذا وإن لم ينسه عم عمر.

فجأة... لم يعودوا يطلبون منه أن يقص عليهم الحكايات، ومنذ أن تخطى القرن الأول من عمره، ومنذ أن هبطت على أذنيه تلك السحابة الثقيلة فعزلته عن الدنيا، ومنذ أن أحس بتلك الوحدة العميقة... منذ ذلك الوقت، خلق لنفسه عالمًا خاصًا، وحكايات وأشخاصًا ودنيا. وأخذ يسمع بعينه.

ولم يتعب أبدًا في معرفة شيء، أو رؤية كلمة تخرج من فم، حتى عندما كان الرجال يسمعون الراديو قبل تلك الليلة، كان يعرف - دون أن يقترب فم من أذنه - كل ما يقوله الراديو.

إلا الليلة.

كاد أن يجن... لم يسمع شيئاً مما قالوه له وكأن عينيه قد أصيبتا بالصمم!!
رأى الأفواه تصرخ، وعرف أنها تصرخ. ورأى الأكف تصفق، وعرف أنها
تصفق. وسمع بعينيه الهلولة والهيصة، فسأل العيال:
«فيه إيه يا ولاد؟!».

ولم يفهم.

ويصمت... وتظهر الكآبة علي وجهه المعروف المغضن، ذلك الوجه الذي انكمش
جلده وتداخل، وصنع خطوطا كثيرة متشابكة ومتعارضة، تروح وتجيء على
صدغيه وجبهته وتحت عينيه وذقنه. فتصنع الخطوط خليطاً عجيباً من السمرة التي
تزداد في أعماقها حتى لتصبح سواداً، وتخف في أسطحها حتى تصبح كلون الليل
في منتصف الشهر العربي.

ويعود عم عمر بعينيه إلى الجمع الصاخب الذي هدأ وصمت وبان على وجوه
أصحابه الاهتمام الشديد، وقد التقوا حول الراديو الذي كان يتحدث.
«فيه إيه يا ولاد؟!».

ولم يرد عليه أحد في البداية، وكأنهم قد أصيبوا بالصمم هم أيضاً، وكأن يداً سحرية
تجذب آذانهم إلى الراديو فتلتصق به أو تميل إليه. ولم يعد يطيق. وغلى في صدره
الغضب. وصرخ بأعلى صوته في زمجرة عاتية:
«فيه إيه يا ولاد المراكيب؟!».

وشوح له الواد قطب. ورأى الواد عطية يصرخ فيه. والتفتت إليه الرعوس برهة ثم
جذبتها اليد السحرية من آذانها فمالت نحو الراديو من جديد.
وتضايق العجوز واغتم، وكاد يبكي.

«يا ولاد فيه إيه؟!».

قالها بتوسل ورجاء.

«يا بت يا عطا!».

وجاءت عطا. ووقفت أمامه. ورأى فيها المفغور، ولسانها وهو يتردد بين صدغياها،
وأحس أن الزغرودة التي كانت تطلقها تكاد تقتلع قلبه من جذوره العريقة. كانت
عطا تضحك وتزغرد، ويضحك كل جسدها ويزغرد وسطها في رقصات مرحة.
ولم يفهم شيئاً.

«فيه إيا يا بت؟!».

وألصقت عطا فمها بأذنه الكبيرة، وصرخت، وأحس عم عمر بأنفاسها. وأحس
بشفتيها تكادان تلتصقان بأذنه. ولكنه لم يسمع شيئاً.

«يا بت زعقي!».

فصرخت أكثر حتى اهتزت أذنه مع ذبذبات صوتها دون فائدة. فأدار لها أذنه
الأخرى، وهو يعلم، وهي تعلم، أنه لن يسمع. ولكنه كان يريد أن يسمع. أحب السمع
فقط في هذه اللحظة. وافتقده. أحبه وتمناه مرة واحدة فقط.

وبلغ شوقه أقصاه. وتحرق إلى معرفة السبب. وجال بعينه في المكان وفوق الوجوه وكأنه يتوسل. وانقض عليه شعور مباغت بالضياح والوحدة. وأحس بفراغ كبير يحيط به. وحدة وفراغ ما أحس بهما من قبل.

كان الجميع في واد. وهو في واد آخر. واد عميق، في قاع هوة أحس فيها بالفناء.

«يا ولاد.. يا ولاد نفسي أعرف!».

كان صوته ضعيفاً مرتجفاً، وكانت شفاته تتمتان في توسل:

«يا ولاد.. يا ولاد عرفوني.. دانا أبوكم».

رسموا له على الأرض، وحفروا بالعصي، وأشاروا إلى القنوات، ثم إلى المصرف، ولكن... ماذا يعني كل هذا؟!!

«اخص عليكم.. عرفوني!».

وكاد أن يجن، صمت رهيب يحيط به. الأقدام تتحرك فلا يسمع لها صوتاً. والمقاعد تسقط، والمناضد تزحف بها الأيدي، والأكف تلتقي، والأفواه تتحدث. ولكنها كلها كانت خرساء... لا تتطرق، لا حياة فيها، وكانت مليئة بالحياة حتى الأمس فقط.

وهو في رؤيته للصراخ والزعيق وزغاريد البت عطا، يحس كأن جداراً سميكاً قد فصله عنهم وعن الحياة كلها. وشمله إحساس بالسكون التام الهامد. سكون فيه خمود وفناء كالذي في القبور. وأخذت عيناه تدوران في المكان، وفي الوجوه. وتتعلقان بالشفاه. وفي رأسه بركان، وفي أذنيه ثورة، ثورة هائلة تعافر وتحاول أن تحطم حواجز الصمت الكئيب دون جدوى.

وأخذت الحقيقة تطفو إلى رأسه، حقيقة كانت راسبة في أعماقه. ما نظر إليها ذات يوم نظرة ضيق... أحس عم لأول مرة أنه أصم. أطرش. لا يسمع. فارتجف ارتجافة خوف، وهمس كمن يحدث نفسه:

«فيه إيه يا ولاد؟!».

وتوغل الليل... وشحب نور الكلوب في المقهى. وكان القمر يطل من السماء زاهياً رائقاً. والرجال كانوا قد جلسوا أمام الباب على الأرض وعلى حصير جاءت به عطا من الداخل.

رأهم يسمرون ويتحدثون وقد بان على وجوههم ارتياحة غريبة. وقد غابوا في أحاديثهم عنه. خيل إليه أنهم نسوه. لم يطلب له أحدهم شيئاً. ولم يعزم عليه أحدهم بنفس من الجوزة... وأخذت عيناه تتابعان الحديث في قلق، كانتا كعيني صقر تتربصان لتقتنص شيئاً. وذهب الواد فرج، ثم عاد وفي يده كتاب. وذهب الواد حسين، وعاد وفي يده كتاب آخر... وأخذت الأيدي تتناقل الكتابين. كتاب وراء الآخر. والعيون تبحلق في الصفحات، والأفواه تتحدث. والأصابع تشير والحماس يكسو الوجوه. والضحكات تتردد... وأشرأب عم عمر برقبته، وأطل على الكتاب. ولم ير شيئاً... وهمس:

«يا واد يا فرج!».

ورد فرج. ولم يسمع عم عمر. وانتقل الكتاب من يد إلى يد. ومن رجل إلى آخر.

«بتتفرجوا على إيه يا ولاد؟!».

وناوله أحدهم الكتاب. وأشار إلى صورة. وقربها العجوز من عينيه.
«إيه ده؟!».

وردوا عليه. ولم يسمع.

«إيه ده؟!».

وزعقوا في أذنيه. ولم يسمع.

وبحلق في الصورة. وانقبض قلبه. وتشبثت يده بالكتاب. في الصورة شيء مر بحياته فقربها إلى عينيه أكثر. وامتدت يد لتأخذ منه الكتاب. ولكن أصابعه كانت وكأنها منغرزة في أوراقه. كان عم عمر غارقاً. وكان يحس كأن أصابع طويلة، طويلة جداً، ذات مخالب قاسية تتغرز في أعماقه. وتمتد إلى بعيد. إلى الماضي السحيق. وأخذت تقتلع شيئاً. كانت وكأنها تخلع ضلعاً من صدره. وارتجف، وما درى أحد سر ارتجافه. واضطرب. وما درى أحد سر اضطرابه.

«ما لك يايا عمر؟».

«دا عيان يا ولاد!».

«الراجل بيرتعش..».

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

«أبا عمر!».

كانت الأصابع تتوغل وتتوغل، وتندس بين حنايا الأيام والليالي والسنين الطويلة. كانت الصورة قد بدأت تتضح، وصدره قد التهب بالانفعال. وهو قد غاص في الماضي السحيق الذي أخذت المخالب تخرج به إلى نور الوعي. وتأوه. كان يتألم. وكان يشعر كأن الظلام ينقشع تدريجياً... وهذا الشيء. هذا الشيء على لسانه. هذا الماضي البعيد يظهر وتكسوه ضياء شاحبة، ضياء تخترق أكفان الظلام الدامس الذي دفنته وطمسته الأيام والطين والزرع والقلع والحفر.

«آه يا ولاد... افكرت، افكرت يا ولاد، الفحت».

«فحت إيه يايا عمر؟!».

«الفحت... الفحت والخواجات!».

«الراجل بيخطر. ما لك يايا عمر؟».

«الفحت.. والرملة.. والميه».

«لا حول ولا قوة... الراجل بيخطر».

«الخواجة الكبير.. وأفندينا».

وهبط على الجميع صمت وسكون كانا كغلالة رقيقة أخذت تهتز مع أنفاسهم المنبهرة. واقترب منه في ببطء بعض الأولاد الأفندية، كانوا وكأنهم يقتربون من شيء ثمين غال. وقال أحدهم:

«أفندينا ما له يايا عمر؟!».

«الجننا.. الجننا يا ولاد.. هي.. عرفتها.. مسكتها.. الجننا.. جناة السويس!».

ووجم الرجال وسيطر الصمت عليهم. وهمس أحدهم:

«أنت توعى لها يابا عمر؟!».

زحفت انبساطات وتقلصات شملت تجاعيد الوجه المغضن، وتجمعت الأنظار كلها فوق هذا الوجه. وكان عم عمر قد ألصق ظهره إلى الحائط. وأسند رأسه إليه. وبده قد ارتخت بالكتاب وتركته يهوي إلى الأرض. وأخذت أساريه تسرح وترتخي. ولاحت ابتسامة راضية على الشفتين الرقيقتين، وانفرجتا قليلاً لتظهر وراءهما لثة يخترقها لسان يدور حول الشفاه الجافة بيللهما، فتلمع في ضوء القمر كخطين رفيعين يعلوان الذفن الأسمر المجعد.

«يا ياولاد... ده كان زمان... زمان خالص».

قال أحدهم وكأنه يصلي:

«أبا عمر...».

«طين. ورملة. وخواجه اسمه. اسمه على لساني. أه. اسمه دسيس وعساكر وكرابيج. وتراب. دي غويطة. غويطة جوي. غويطة خالص. والميه مالحة. مالحة. مالحة. وبتجري. وتاخذ الرجال معاها. وتاكلهم. وفي الرديم اندفنوا كثير».

وصمت عم عمر. والتقط أنفاسه التي أخذت تهدأ، وكان الرجال واجمين أمامه، كأنهم في معبد يستمعون إلى كاهنه. ويخرج صوته مرة أخرى عميقاً أشد العمق. خفيضاً كأنه الهمس:

«بترقصوا ليه؟ بتزغرتوا ليه؟. ما لكم ومالها؟ دي كانت محزنة ياولاد. فرحانين على إيه؟ اسألوني أنا أحكي لكم».

وصمت مرة أخرى. وساد السكون.

«أه يا ولاد. أه يا ولاد. الجنا. في السويس. الكرابيج السوداء الطويلة قطعت جنتنا. والميه العكرة سمت رجاله كثير. كان لازمته إيه بس. والخواجات. وبعدها جت ملكة خواجهيه. والخلق كانوا زي الحسا اللي في الرملة واكثر. إيه اللي فكركم؟ وإيه اللي عرفكم؟! أي ياما قاسيت من الضرب والذلة. ياما شفت أيام سوده وليالي كحلي. أي عارف كل حاجة. كنتم لسه في عالم الغيب. أه من اللي شفناه وقاسيناه... لو... حد... من... كم... كا... ن... شا... شا... ف».

كان عم عمر يبكي، وصوته يصل إلى الأذان مغرورفاً بالألم المر، مرتجفاً كورقة على فرع شجرة في الخريف. وأحس كل منهم أن آلام الرجل تتسرب إلى جسده فتهصره هصرًا لا رحمة فيه. ودموع العجوز تترقرق في عينيه، وتلمع في ضوء القمر، ثم تسيل في بظء وهدوء، وتصعد وتهبط مع الأخاديد التي صنعها الزمن في وجهه. وقد تتجمع في جرح التأم منذ زمن بعيد، وقد تصنع بحيرة صغيرة في أعماق أحد الندوب، ولكنها كانت تفيض وتتحدر مرة أخرى، وتزلق دمعة وراء دمعة، في طابور طويل، وكأنها جنود تسير في جنازة الذكريات السود.

ونظرات عم عمر أصبحت تائهة. كان الرجل يرى الوجوه من خلف غلالة الدمع فلا يفسرها. الرعوس متقاربة متقاربة، تكثر وتكثر وتتوالد، والجميع يجلسون في صمت دون أن ينبس أحدهم بكلمة.

ويعود عم عمر إلى الحديث من جديد، ويدغدغ صوته أجسادهم ويخدرها، ويملاً نفوسهم بالمشاعر والأحاسيس، ويحملهم في بساطة في حلم عبر التاريخ.

رأوا ليلتها حكايات عرابي أشد واقعية، وأشد ألمًا ونخسًا في القلوب. وأصبح الماضي حيًا، أصبح الماضي يمشي ويصرخ:

«تعذبنا قوي يا ولاد!».

ثم صمت عم عمر. وطال صمته.

«أبا عمر... أبا عمر!».

«مالكم ومالها... فرحانين على إيه... ده كان جتل... جتل والله يا ولاد... بالحزمة... لكن جولوا لي... مالها؟!... مالها جناة السويس؟!».

وهبت الأصوات فجأة... كانت كأنها تنتقم وتثأر. ولاحت له الإشارات، وتطوعت أكثر من يدين. وهزت الرعوس. وفتحت الأفواه، ولعبت الألسن.

وكان دمع الرجل قد أذاب الحاجز الذي وضع بينه وبين العالم.. وفهم عم عمر.

وفغرفاه وعينييه. وساد الصمت من جديد، بدا وكأنه يفكر في مشكلة عويصة، وأخذت الدموع تجف من فوق وجهه، وتتطاير مع نسيمات الليل. ويعود صوته من جديد. فتكف الأصوات التي كانت قد بدأت تثرثر. كان صوته لينًا رائقًا. وكان مستقيمًا مترابط الكلمات. وانتظمت أنفاسه. وظل عم عمر يحكي ويحكي ويحكي. يبتسم تارة في مرارة. ويضحك تارة للألم. ودارت أكواب الشاي. وشرب عم عمر. ودارت الجوزة. ودخن عم عمر. وحلا القمر والحديث.

غير أن عم عمر توقف فجأة عن الحديث، وبهلق في الوجوه... ثم قال في غضب:

«انتو يا ولاد بتضحكوا علي. بتقولوا إن الجنا بقت بتاعتنا.. أما غريبة. أمال هي كانت بتاعة مين؟!».

الصدیقتان

منذ الیوم الذی التحقت فیه فردوس بالخدمة فی بیت سهیر، نمت بینهما صداقة وطیبة، وتآلفت روحاهما، واطمأنت کل منهما للأخری کل الاطمئنان، وأحبت کل منهما الأخری حباً جمّاً.

وفردوس رغم هذه الصداقة الوطیبة... ورغم تعلق سهیر بها، ورغم أن سیدتها الصغیرة أشركتها معها فی لعبها وألعابها، وأشركتها حتی فی کراسات مدرستها الصغیرة الملیئة بالرسوم والکلمات وأنصاف الکلمات والحروف الکیبيرة... ورغم أنها أشركتها معها فی حجرتها، وأفردت لها مکاناً بجوار فراشها الصغیر... رغم کل هذا، فإن فردوس كانت تقوم بعملها علی خیر وجه... كانت تعمل منذ الصباح وطول الیوم حتی یوغل اللیل... كانت نشطة ذکیة لا تهدأ، ولا تتعب، ولا تکل، ولا تدع صدیقتها فی حاجة إلى شیء.

إذا أرادت سهیر شیئاً فعلته فردوس قبل أن تطلبه، وإذا احتاجت لشیء، قامت به فردوس من تلقاء نفسها وكأنها تقرأ أفكارها.

وکلما مرت الأيام، تعلقت سهیر بفردوس تعلقاً شديداً... وأصبحت لا تنام إلا إذا سامرتها فردوس، ولا تأکل إلا إذا قدمت لها فردوس طعامها، ولا تدخل الحمام إلا إذا شاركتها فردوس فیه... ولا تذوق فاکهة أو حلوی إلا إذا رأته فردوس وفی یدها نصیبها منها.

وأحبت فردوس سهیر، أحبها حب عبادة، وأصبحت الحیاة فی خیالها الحاد عالمًا لیس فیه سوى سهیر.

ولذلك... فیوم عید میلاد سهیر، كانت فردوس أكثر الجمیع سعادة، وأكثرهم اضطراباً وفرحاً، وأكثرهم نشاطاً.

ولیلتها لم تتم فردوس.

كان قلبها الصغیر یخفق فی انفعال شدید، وسرت فی جسدها رعدة نشطة، ولكنها حارت فیما ستقوله، وفیما ستفعله، ولما سألت سیدتها الکیبيرة قالت لها أم سهیر وهي تضحك فی مرح:

«قولي لها کل سنة وانت طیبة.. وعقبال میت سنة».

وكانت فردوس تعرف کیف تقول «کل سنة وانت طیبة»، ولكنها نسیت فی البداية «عقبال میت سنة»... ثم تذكرتها، ثم ظلت ترددها طوال الیوم، ثم أخذت ترددها فی سرها دون توقف... رددتها وهي تغسل الأطباق، ورددتها وهي تکنس الأرض، ورددتها وهي تنظف حذاء سیدتها وحذاء سیدها وحذاء صدیقتها الصغیرة... ثم رددتها وهي تأکل، وأخذت ترددها بعد أن نام الجمیع، وألقت بجسدها الصغیر فوق فرشتها المکونة من لحاف قديم ووسادة وغطاء یقیها البرد... وكان جسدها مکوراً فوق الأرض بجوار سریر سهیر، وعیناها مفتوحتان، ونظراتها معلقة بالظلام العمیق الذی كان یسود الحجرة، وأذناها تتسمعان أنفاس سیدتها الصغیرة وهي تتردد فی سکون اللیل، وشفتهاها تتمتان بلا توقف:

«كل سنة وانت طيبة يا ستي سهير.. وعقبال ميت سنة».

كانت تريد أن تكون أول من يقولها... ولذلك قاومت النوم، وقاومت جفניה وهما يتقلان ويسقطان فوق عينيها... وكانت تنتظر طلوع النهار.

ولكن النوم انتصر عليها...

وحملتها الأحلام متهادية... ثم هبطت بها في حفل بهيج، كان حفلاً صاخباً زاهياً حلواً... زينات وموسيقى وضحكات وناس... ناس كثيرون، أشكال وألوان... ورأت في المنام أمها مع الناس تلبس فستاناً فاقع اللون، وفي قدميها حذاء لامع جميل، وفي يدها حقيبة يد مليئة بالنقود... نقود فضية براقّة، كانت تتلأل وتضوي فتخطف الأبصار... وفتحت أمها حقيبتها وغرفت من النقود الفضية البراقّة وأعطتها... وأخذت فردوس تملأ جيوبها، وكان فستانها مليئاً بالجيوب، جيوب كثيرة كثيرة امتلأت وفاضت... فملأت حقيبة يدها الصغيرة، حقيبة كتاك التي تملكها سهير تمامًا، واملأت الحقيبة هي الأخرى... وفاضت، فتركت أمها وعدت تسابق الريح وتبحث عن سهير حتى وجدتها، ورأتها جميلة جميلة، صغيرة رقيقة... فأخذت تغترف من النقود الفضية وتعطيها، وضحكت سهير، وضحكت هي معها، وضحك الناس... ألوان وألوان، وموسيقى وبهجة... ونادت سيدتها على سهير، فسارت بجوار صديقتها... ثم امتدت يد... يد خشنة هائلة ضخمة... وجذبتها بعيداً عن صديقتها، فصرخت، ولم تسمعها سهير ومضت فرحة نحو أمها التي كانت تبتسم لها، وصرخت فردوس ثانية، صرخت بكل صوتها، ولكن صوتها اختنق وضاع ثم تلاشى، وابتعدت عنها سهير... وابتعدت... وابتعدت، وصرخت هي... وصرخت... وصرخت، ثم همت جالسة في مكانها وقلبها مضطرب يدق في عنف، ودموعها تسيل على وجنتيها، والعرق البارد يغرق جسدها.

كان الظلام حالكاً في الحجرة... وكانت أنفاس سهير تتردد في هدوء وانتظام، وكانت فردوس ترتجف بشدة، وذراعها النحيلتان مضمومتان إلى صدرها، ودموعها تنهمر بلا انقطاع، ورأسها ثقيل ثقيل، وخرن عنيف يتسرب إلى جسدها الضئيل، فأمالت رأسها ووضعته فوق الوسادة... وراحت في سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكنها استيقظت مبكرة.

وعندما استيقظت كان النور قد تسلل إلى الحجرة خافتاً شاحباً، وكانت متعبة مكدودة، ودارت ببصرها في الحجرة، ووقعت عيناها على جسد صديقتها الممدد في الفراش الصغير، وكانت سهير قد ألقّت غطاءها عن جسدها كالعادة وعرت ساقيها الناصعتين البضتين... فنهضت فردوس على عجل، ودثرت سهير بالغطاء من جديد، وانطلقت خارج الحجرة...

ومر الوقت بطيئاً.

كانت الصغيرة قد نفضت عن عينيها وجسدها غبار النوم، وراح حلمها البغيض في طيات النسيان العميق، وأخذت تردد من جديد ما كان عليها أن تقوله في ذلك الصباح... وكانت تعمل في المطبخ عندما صك سمعها صوت صديقتها الرقيق، فهرولت لا تلوي على شيء، وقلبها يضطرب في صدرها بعنف، واندفعت إلى

الحجرة كالسهم، وهمت أن تلقي تحيتها عندما اصطدمت عيناها بسيدتها وسيدها وهما يضحكان سهير ويلاعبانها... وتوقفت فجأة، واضطربت أنفاسها، وترددت برهة، وعم السكون... وتحولت إليها العيون في بشر.. ثم.. ثم قالتها:

«كل سنة وانت طيبة يا ستي سهير.. وعقبال ميت سنة!».. قالتها دفعة واحدة دون أن تتوقف، وابتسم سيدها، وابتسمت سيدتها... وقالت لها سهير:
«وانت طيبة يا فلدوس».

كم تحبها...

كم تحبها عندما تقول لها «يا فلدوس» فهي لا تزال صغيرة لا تعرف كيف تنطق اسمها صحيحًا وتقول «فردوس».

ومضت الساعات...

وعلقت الزينات...

ومضى النهار...

كان الجميع في فرح... والبيت كله قد انتابته حمى لذيدة من السعادة، سعادة كانت تغمر كل شيء فيه، وكانت فردوس أكثر الجميع سعادة، لم تذهب صديقتها يومها إلى المدرسة، وبقيت معها، وشاركتها في العمل، وجهزت معها حجرة المائدة، تلك المائدة الطويلة التي كانت فردوس تسيّر بجوارها وتدور حولها خطوات وخطوات حتى تنظف سطحها.

وحفلت المائدة بالحلوى... أشكال وألوان، أشكال عدة وألوان زاهية، ورائحة تنبعث منها فيسيل لها لعاب فردوس، بل جعلتها تهم بأن تغترف بإصبعها الصغير قطعة طرية بيضاء، ثم تضعها فوق لسانها وتوقف جريان لعابها، ولكنها تذكرت النار التي حدثتها عنها سيدتها، والتي سنشوي جسد السارق يوم القيامة... ولن تسرق فردوس، وهي لم تسرق أبدًا، ثم هي تخاف النار وترتعب منها... وانكمش أصبعها فجأة والتوى داخل كفها، وارتد ذراعها إلى بعيد، وظلت ترقب تلال الحلوى من بعيد.

وعندما ارتدت سهير فستانها الجديد، وحذاءها الجديد، وأمسكت في يدها حقيبتها الصغيرة الجديدة... ارتدت فردوس فوطة صدرها البيضاء الناصعة، ثم دست قدميها في حذاء سهير القديم، وبدت وقتها حلوة، واختلست النظر إلى المرأة لبرهة، مجرد برهة، مرت فيها بكفها الصغير على شعرها الذي مشطته لها سيدتها... ثم ابتسمت عندما ظهرت سهير بجوارها في المرأة... وتضاحكت الصديقتان في سعادة ومرح.

وتوافد الضيوف...

أطفال كثيرون كثيرون، كانوا جميعًا يضحكون ويلعبون ويصرخون ويقبلون سهير ويقولون لها «كل سنة وانت طيبة يا سوسو»... ورجال ونساء... كانوا يرفعون سهير بين أذرعهم ويقبلونها ثم يقدمون لها الهدايا، هدايا كثيرة، ولعب حلوة بهيجة، ورقص قلب فردوس من الفرحة، فليسوف تشارك سيدتها فيها بعد انصراف الضيوف... باكر... وبعد باكر... وطول العمر... وغمرتها السعادة، وأخذت تلبّي طلب هذا وتجري نحو تلك. وتحمل أكواب الماء وفناجين القهوة، وتروح وتجيء

ولا تهمد، وتمتص كل ما يحدث دون أن تفوتها ضحكة أو حتى ابتسامة... وكانت
تضحك مع الضاحكين... وتبتسم مع المبتسمين.

ثم أضيئت الشموع...

وأطفئت الأنوار...

وهلل الجميع وصفقوا...

وهللت فردوس وصفقت، وانتابتها رعدة عنيفة، وتشابكت أصابعها في انفعال
واقشعر بدنهما... فانكمشت في ركنها... وسبحت الحجرة في الضوء، ودوت
الضحكات والتهاني، وقال الجميع: «كل سنة وانت طيبة يا سوسو...»، وقالت
فردوس: «كل سنة وانت طيبة يا ست سوسو...»، ولكن سهير لم تسمعها، فقالتها
مرة أخرى، ولم تسمعها سهير... فزاحمت السيقان الطويلة الطويلة، ومدت يدها
فجذبت ذيل فستان صديقتها، والتقت إليها سهير، وانفجرت السيقان الطويلة توسع
لها مكاناً في دهشة. وفي لحظة... جالت فردوس بعينها على كل العيون التي
انصبت فوقها من عل... فأصابتها رعدة، وسرت البرودة في جسدها، وتلعثمت...
وتلججت... وحاولت أن تنطق، حاولت جاهدة أن تقول شيئاً... دون جدوى.

فولت الأدبار... وهربت خارج الحجرة.

وسرعان ما علت الضجة من جديد، ووزعت الحلوى، وملئت بها الأفواه، وقالت
سهير لأمها:

«وفلدوس يا ماما.. وفلدوس».

وقالت لها أمها وهي تقدم لها طبقاً مليئاً:

«بعدين يا سوسو، بعدين».

وعندما قالت لها أمها: «عاوزه شاي يا سوسو؟» قالت سهير في قلق:

«ومناب فلدوس يا ماما.. ومناب فلدوس؟!».

وهمست أمها في أذنها:

«بعدين يا حبيبتي.. بعد الضيوف».

وعندما رأت سهير الأفواه الكثيرة تلتهم الحلوى فتختفي تلالها من فوق المائدة،
جذبت ذراع أمها وهي تقول بقلق:

«وفلدوس يا ماما.. فلدوس مخدثش».

وكانت فردوس ساعتها سعيدة، سعيدة للغاية، عيناها تلتهمان الوجوه في دهشة،
ولعابها يسيل في فمها المطبق فتحس له بمذاق الشهد... وكانت تضحك ملء قلبها
عندما سمعت سهير تتأديها.

كانت صديقتها تمد لها يدها بقطعة كبيرة من الحلوى وهي تقول في فرح: «خدي يا
فلدوس منابك..»، ولم تتردد فردوس، واندفعت تمد يدها إلى صديقتها، وما كادت
أصابعها تلمس قطعة الحلوى حتى سمعت صوت سيدتها الكبيرة:

«ميه يا فردوس.. هاتي ميه!».

وانطلقت فردوس بلا وعي تحضر المياه... وعندما عادت كانت سهير قد نسيتها!!

وأحزنها هذا لفترة... ولكنها كانت فترة وجيزة غرقت بعدها بين أقدام الضيوف...
تأبى طلب هذا، وتسرع إلى ذلك، وتحمل المياه وتصنع القهوة... ولا تكف عن
العمل.

وأجهز الضيوف على الطعام كله.

ذلك أن فردوس عندما انصرفوا، نظرت إلى المائدة فلم تجد أثرًا لشيء، كانت تلال
الحلوى قد اختفت، وكانت الأطباق ملقاة في إهمال... فارغة.
وسرعان ما نشطت للعمل.

وأخذت سيدتها تجمع الفتات في طبق واحد، وسرعان ما تسلقت فردوس المقعد
الصغير أمام حوض المطبخ، وفتحت الصنبور... وبدأت العمل في نشاط وحنكة...
وأكوام الأطباق القذرة تتناقص، ثم تصف في الناحية الأخرى نظيفة لامعة.

كانت فردوس غارقة في العمل... وكانت الدقائق تمضي وتحمل لها في ذهنها ذكرى
الحفل الجميل... ولكنها عندما انتهت من عملها... كان الظلام يسود البيت كله...
وكان الجميع قد ناموا.

تسللت فردوس إلى الخارج... وأحست فجأة بالسكون عميقًا عميقًا، فوقت حائرة، لا
تدري ماذا تفعل... كانت حيرتها شديدة، ودهشتها أشد من حيرتها... وتحركت في
النهاية قدمها الصغيرتان... وعادت إلى المطبخ من جديد.

وجالت عيناها في المكان... وعندما اطمأنت إلى أن كل شيء في مكانه، امتدت يدها
إلى طبق الفتات، وضمتها إلى صدرها في رفق... ثم زحفت إلى ركن المكان
وتكورت فوق الأرض العارية... وأخذت تلتهم ما فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم تشعر فردوس وهي في جلستها تلك بالشبح الصغير الذي كان يتسلل في الظلام
في خفة القط.

كانت سهير تخترق البيت حافية القدمين، وكانت في لهفة من أمرها تسرع إلى
حجرة المائدة دون أن تتحسس طريقها المظلم... وتسللت إلى الحجرة، ودارت حول
المائدة الطويلة، وتفادت مقعدًا... ومقعدين، ثم توقفت أمام الدولاب، وركعت على
ركبتيها العاريتين... وامتدت يدها في الظلام تبحث عن شيء... وسرعان ما عثرت
أصابعها على الكنز المخبوء... فأطبقت عليه، وضمتها إلى صدرها بحنان، وعادت
تتسلل من الحجرة واتجهت إلى المطبخ.

رفعت فردوس عينيها دهشتين وقد انتابها اضطراب مفاجئ عندما رأت صديقتها،
وتقدمت منها سهير في سرعة، وقبعت بجوارها، والتصقت بها، وانكمش جسداهما
الصغيران، ووضعت سهير قطعة هائلة من الحلوى في طبق الفتات أمام فردوس
وهي تقول:

«خدي يا فلدوس.. أنا خبيت لك منابك!».

ودهشت فردوس لبرهة، مجرد برهة، ثم ابتسمت، ثم امتدت أصابعها فانغرزت في
قطعة الحلوى بشهية، وسرعان ما أخذت تلتهم منها في سرعة وكأنها تخاف أن
يختطفها منها أحد... ونظرت كلتا الصديقتين إلى بعضهما... وتلاقت عيونهما في
سعادة... ثم انفجرتا في الضحك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحلة

كان اليوم من أوله قائمًا، لا رزق فيه ولا قرش. السحب السوداء قد تجمعت وصنعت ستارًا كثيفًا ظلل الدنيا بلون غامق كئيب، وبين الحين والآخر، كانت ذرات المطر تتساقط فتغسل حجارة الرصيف السوداء العريضة. وتهب الرياح فيتطوح كل شيء ويهتز. وسطح المياه يتلاعب بالقوارب الخالية المتراصة في طابور طويل هامد لا حياة فيه، تترنح صواريخها العالية في الهواء، وتحتك جوانبها في أزيز متقطع كأنه أنين.

وبدا الرصيف خاليًا من الرجال تمامًا. وثمة أصوات تتبعث من داخل المقهى القابع في ركن المكان... حيث تناثر الرجال حول الموائد الخشبية الحائلة اللون، وأخذوا يثرثرون بكلمات ممطوطة متكاسلة، تخرج من أفواههم لتذوب وسط الكسل الدافئ الذي غلف كل شيء.

ثمة رجلان هنا، وثلاثة هناك، وجماعة قد التقت حول أكواب الشاي والقرفة الساخنة، والدخان يتصاعد من الأنوف والأفواه وأطراف السجائر وأحجار الجوزة... والكلمات تتناثر هنا وهناك، ويتنقل الحديث من فم إلى أذن، ومن منضدة إلى أخرى... وزعق رجل، ورد عليه آخر، وفتح الصامتون أفواههم، وبهلق الذي كان النوم قد أغلق جفنيه، وانتفض الكسل ثم ذاب تمامًا وسط ضجة النقاش الذي احتدم فجأة فبعث الحياة في المكان. وبدا الأمر وكأن هناك خيطًا يلضم الكلمات كلمة وراء كلمة، وإذا الجميع يتحدثون فيما جرى ذلك الصباح.

والحقيقة - رغم احتدام النقاش وانقسام الرجال إلى معسكرين - أن أحدًا منهم لم يكن يدري ما الذي حدث على وجه الدقة، كل ما يعرفونه أن عم عطية تائر مغتاض... وأن رومه قال له:

«إنت متقدرش تجدف لحد رصيف المورس!».

وسألوا سلامة الجرسون، وقال سلامة إن الأمر بدأ مزاحًا في مزاح... ثم انقلب إلى جد ولا يدري كيف، وإن عم عطية كان يشرب شاي الاضطباحة مع رومه في أمان الله، وفجأة، رآه تائرًا هائجًا يسب آباء رومه وأجداده والذين خلفوه.

وبدا الأمر للرجال ماسخًا لا طعم له... إن رومه يعرفه الجميع ويعرفون قلة أدبه ولسانه الطويل. وعم عطية رجل عجوز تجاوز السبعين، خلقه ضيق، ولا يحتمل أن يعارضه أحد في رأي، أو يقول له أحد «بم».

قال البعض إن رومه عليه الحق، وإنه غلطان. وقال البعض الآخر في استهانة: «وفيه إيه يعني؟!»... وانبعث صوت عم عطية - وكان حاضرًا - من ركن المقهى يسب الجميع ويلعن للجميع آباءهم. وبدا الغضب واضحًا على وجه العجوز، بدا في عينيه الحمرالوين وعروق رقبتة البارزة، وارتعاشة كفه التي كان يطوحها في وجوههم منذرًا محذرًا، ثم يدق بها فوق ركبتة وكان شياطين الأرض قد ركبتة وهو يقول:

«آني منقدرش نروح للمورس تجديف؟!... آني يا ولاد الكلاب.. آني؟!».

ثم يصمت ملياً، ويعود ليضرب كفا بكف في قوة كأنه يصفع بها أحداً... ثم يستنرد في حرقة:

«والله زمن أغبر يا قواربية... معادش في البلد رجاله!».

وقال رجل بصوت هادئ يحاول أن يهدئ به ثورة عم عطية:

«معلش يابا عطية.. الطيب أحسن..».

ولكن رجلاً آخر أبى إلا أن يتقرج على ثورة عم عطية، فغمز جاره بعينيه ولكزه بكوعه وصاح وهو يداري وجهه:

«هو يعني رومه كفر؟!.. والا يعني رومه كفر؟!».

وازدادت ثورة عم عطية... وهم العجوز واقفاً وأخذ يصيح في الرجال في هستريه أذهلتهم. ووقتها فقط. أحسوا أنه غضبان حقاً، وأن الأمر بالنسبة إليه لم يكن هيناً. فنهض الرئيس زيد من مكانه متجهاً إليه... وربت على كتفه في حنان وقال:

«حقك علي أنا يابا عطية... امسحها في انا».

وجلس عم عطية فوق المقعد، وزفر في غيظ. وعاد الرئيس زيد يسأله في حنان:

«نجيب لك واحد شاي يا معلمي؟».

وقال عم عطية في صوت مختنق:

«بعد العمر ده كله يا زيد؟!.. أي يا زيد، مش عيب برضه.. أي منقدرش نروح المورس تجديف؟!.. بعد ال... ع...».

واختنق صوت العجوز، وارتعشت كلماته فوق لسانه... وحط السكون على المكان فابتلعه، حتى كركرة الجوزه كفت، واستدارت كل الرؤوس نحو الجسد الذي قبع في ركن المقهى وقد دفن رأسه في كفيه... وأخيراً جاء صوت الرئيس زيد:

«أبا عطية.. وحد الله امال، رومه زي ابنك برضه!».

وسرعان ما ارتفعت الأصوات وكأنها تطارد الصمت بلا هوادة... وتحمس رجل وسب رومه ولعنه، ونهض آخر وقبل رأس عم عطية. ودلف رومه من باب المقهى وهو يدثر رأسه بشال صوفي، والتفتت إليه كل الوجوه، وغمزت له أكثر من عين، وسبه رجل عجوز، وتشابكت الكلمات، وساد الهرج... وعم عطية صامت لا يتحدث. ترتجف السيارة التي قدمها له أحدهم بين أصبعيه... وتتسرب عيناه خلال الزجاج إلى حيث الرصيف الخالي الممتد، والقوارب المترنحة الفارغة، والمياه المتلاعبة، وتدور عيناه وتدفان إلى الداخل، وتسقطان فوق وجوه الرجال... وكل شيء يبدو باهتاً لا لون له. وفي عقله دوامات تدور وتدور. وأنفاسه تتردد في صعوبة، وثقل مخيف يجثم فوق صدره... وجاء رومه وقبل رأسه واحتضنه وقال له: «حقك علي»... وكانت أفكاره في تلك اللحظة قد وجدت بؤرتها فتركزت حولها، وانبتق من عينيه بريق خاطف، وتصلبت ملامحه وهو يردد:

«معلش.. معلش.. ربك يسترها!».

ونهض على الفور من مكانه... وتابع الرجال جسده النحيل وهو يغادر المقهى إلى الرصيف، وعبثت الرياح بملابسه، وكادت تتلاعب بجسده... كانت كتل السحاب قد تمزقت وتفتتت فوق صفحة السماء. وأطلت الشمس بقرصها الدافئ وألقت إلى

الأرض بشعاع واهن. وسار عم عطية إلى حيث تكوم بجوار الحائط، واعتمد رأسه بين كفيه. وأخذت عيناه تحمقان في سطح المياه المتلاعب، ثم ترتفعان إلى حيث كان يبدو له ظل رصيف المورس وقد نهض وسط المياه كعملاق أسود ضخم... وعربدت الخواطر في رأسه، ثم انزاحت وتركت وراءها خاطرًا عربيًا ظل يكبر ويكبر ويضغط على رأس العجوز حتى كاد ينفجر.

ساعة وراء ساعة، وعم عطية لا يبرح مكانه، تفر منه عيناه رغماً عنه إلى ظل الرصيف، والرياح تشتد ويعلو صفيها وزئيرها... والجو أصبح رهيباً، والأمواج تكاثرت وتلاحقت قممها الحادة فبدت كأسنان وحش أسطوري.

وكان عم عطية يتعذب.

وكان أكثر ما يعذبه هو ذلك الخوف الذي كان يتسرب إلى قلبه كلما خطر له ذلك الخاطر، وأخذت عيناه الضيقتان الخبيرتان تجوبان السماء وتزلقان إلى المياه وترقبان الأمواج. وما إن يملك منه خاطره، ويهم من مكانه حتى يشعر وكأن قيلاً يشده إلى الأرض.

ويلح عليه الخوف عربيًا قاهرًا، حاول أن يقنع نفسه بأن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا. وحاول أن يقنع نفسه بأن رومه قال له «حقك علي». وحاول أيضًا أن يقنع نفسه بأن الرجال يعرفونه ويعرفون مقدرته ومكانته... ولكن الخاطر الرهيب كان دائمًا أقوى منه. كان يتمطى ويكبر ويسيطر على مشاعره وينهشه بلا رحمة. وكان الأمر يبدو مستحيلًا في جو كهذا.

وعندما مالت الشمس نحو الغرب. وأخذ ضوء النهار يشحب... كانت رأس عم عطية تغلي كبركان. وكان يدخن ويزمجر ويتهد، ويتحسس ذراعيه بكفيه، ويزم شفثيه في قوة... ثم انفجر الخاطر... وبرقت عيناه. وزفر كأن حملاً ثقيلًا قد انزاح من فوق صدره. وتطلع إلى صف القوارب أمامه.

ونهض.

وخطا إلى الأمام خطوة.

وارتعشت ساقاه. وأحس بقدميه ضخمتين كبيرتين وقد سرى فيهما التتميل. ثم أخذت الحرارة تدب في أوصاله. وخطا خطوة أخرى. وأخذت قدماه تضربان الأرض، خطوة وراء خطوة، والمقهى يبتعد من ورائه، والقوارب تفر من جانبه، ثم توقف أمام قاربه.

وعندما انحنى ليفك الحبل الذي يربط قاربه بالرصيف، عوت الريح ودفعته بشدة، فمال جسده وترنح، وتمائل القارب وترنح. ومد العجوز قدميه إليه، ثم قفز.

وامتدت يده إلى المجدافين الراقدين في قاع القارب، وأخذتا تعملان في سرعة... وما هي إلا برهة وجيزة، حتى كان القارب ينزلق على سطح المياه الواسع الممتد إلى بعيد.

وبدأت الرحلة.

دق قلبه بعنف، وتدفقت الدماء في عروقه، وانبهرت أنفاسه، وسهمت عيناه برهة، وتمائل قارب كبير كان يمر بجانبه، وتطوح الصاري فرسمت نهايته المدببة خطوطاً متشابكة في السماء، وتقلص قلبه فترة، ثم نبض نبضة قوية، واستوت يده

فانفرد المجدافان على جانبي القارب كجناحين عاربيين بلا ريش، ودارا في الهواء بنظام تحكمت فيه كفاه الخبيرتان، ثم هبطا في وقت واحد نحو سطح المياه وغاصا فيه. ثم ارتقعا من جديد وقطرات المياه تنزلق منهما في نغمة متألقة منسقة دفعت بالدفء إلى قلبه... وأخذ جسده يميل إلى الخلف فيندفع القارب ثم يعتدل ويدور المجدافان في الهواء، ويميل جسده مرة أخرى، ويضرب المجدافان سطح المياه... والقارب ينزلق في يسر، وذراعه قد سرت فيهما رعدات خفيفة لذيدة... وانتشت نفسه وأخذ يعمل بكل قواه.

كان الصمت يسود كل شيء، والقارب أخذ يترنح في سيره فوق الأمواج الصغيرة وقد بدت ككتبان متتالية لا نهاية لها، وعندما استدار ليوافه صفحة الميناء المتسعة المترامية، كانت الرياح تندفع في قوة قاهرة، وقد بدا له صف القوارب في ضوء الأصيل كأشباح تتلاعب في الفضاء، والضوء قد انبعث من المقهى شاحباً. وقرص الشمس يغوص في الأفق... والقارب ينزلق فوق المياه كأنه يعرف الطريق.

كان الرجال في ذلك الوقت غارقين في ثرثرتهم وكسلهم... وأوراق اللعب تصفع أسطح المناضد صفعات متتالية حادة، والضحكات تختلط بالكلمات، ورجال أغمضت عيونهم وراحوا يغطون في نوم قلق، وآخرون قد تحلقوا حول إحدى المناضد وأخذوا يثرثرون، وصوت الراديو ينطلق فيحدث مع الأصوات نشازاً هادراً، وضوء المصباح بدا خافتاً ضعيفاً وسط الدخان الكثيف السابح في جو المكان.

وفجأة... مزقت السكون صرخة حادة.

وتوقف كل شيء تماماً. الأيدي والألسنة والعيون والرءوس وأصوات الجوزة. وصمت الراديو دون أن يمسه أحد. ثم اندفع رجل من الباب وقد تهدلت لآسته وبان على وجهه الذعر:

«عم عطية.. عم عطية...».

تعلقت العيون بوجه الرجل المذعور، وأصبعه التي كانت تشير عبر الزجاج إلى حيث كان القارب يترنح ويتميل والرياح تتلاعب به. وسرعان ما اندفع الرجال إلى الرصيف تلفح وجوههم برودة الهواء الرطب اللزج، وانطلقت أقدامهم تنهب المكان في سرعة، وعيونهم تمسح الصفحة الهادرة اللامعة تحت الضوء الأحمر الذي تركته الشمس وراءها بعد أن غاصت تماماً... وجاء صوت خفيض من وسط الرجال:

«الريح جامد.. مش حايوصل!».

وصرخ آخر بكل قواه ينادي عم عطية، وتكلم ثالث، وصرخ رابع، وامتأ الفضاء بالصيحات التي كانت تتمدد وتتمدد كأنها حبال تسبح في الهواء ثم تنهوى حول القارب الذي كان يبتعد في بطء حاملاً عم عطية.

كانت أنفاس العجوز قد بدأت تتردد بصعوبة، وأحس بقطرات عرق تنبثق فوق جبهته، وعيناه كانتا تدوران في كل مكان، والمجدافان يرتفعان في الهواء ثم يدوران دورة ويهبطان إلى المياه ويغوصان فيها. وتبرز عروق رقبتة غليظة ممثلة، والرياح الباردة تلفح وجهه في قسوة، وتتفد من فتحتي أنفه المتسعيتين... ثم وهنت ذراعه، وتطوح المجدافان بلا نظام، هبط أحدهما إلى المياه واستلقى الآخر فوق

سطحها كخرقة مهملة. ومقدمة القارب تتحرف عن طريقها... والأصوات والصيحات والنداءات تملأ المكان من حوله... ويلتفت هو إلى الوراى ويرى شبح الرصيف هائلاً، ويرن في قلبه دبيب ذهبي صدادح، وتتمتم شفاته المرتجفتان:
«الرصي.. ف.. حا.. نو.. صل..».

وكان قوة هائلة قد نفخت في ذراعيه، فإذا المجدافان يتوازيان ويشقان سطح المياه في قوة، والرياح تزمجر، وطرف القارب يميل نحو اتجاهه الصحيح، ويعتدل القارب، ثم يدور ببطء شديد... ثم تتجه مقدمته نحو الرصيف تماماً.
والأصوات تعلو وتقترب:
«يا با... عطيا ااا».

يتردد صداها في أرجاء الميناء الساكن، وتسبح مع الرياح فتحملها إلى كل مكان، ثم تخترق أذنيه الكبيرتين، وتتردد أنفاسه لاهثة متقطعة:
«حا.. نو.. صل.. أنا.. بند.. جد.. ف.. لسه.. لسه.. بعافيتي.. حا.. حا..».

وتحمل إليه الرياح رذاذاً بارداً كالثج، وتضرب وجهه، ويده لا تكفان عن العمل وقد أحس فيهما دبيب الخور، والرصيف يقترب، وعيناه تغشاهما طبقة ندية، والقارب يتحرك في ببطء.

وذاب احمرار الشمس في المياه، فاكتست الدنيا بضوء رمادي خافت، وصفحة السماء أصبحت صافية لامعة، ولا شيء حوله سوى السكون تقطعه أصوات المجدافين وحفيف الرياح، والنداءات قد كفت، وتباعدت. وذراعاه تخوران، وثمة تقلصات حادة يحس بها تمزق صدره، ويسعل، فنكتم شفاته سعلته لترتد إلى صدره كسكين حامية، والرصيف يقترب ويقترب، وبانت حجارته العالية العريضة الصفراء، وظهر له الفنار الصغير يقبع كالطفل فوق مقدمته... ورأت عيناه كل شيء... الحشائش الخضراء اللزجة وهي تتموج فوق سطح المياه ملتصقة بحجارة الرصيف. والرياح تدفع بالقارب، وذراعاه تعملان، والأصوات تقترب من جديد... وضربات المجدافين الكثيرة تمزق السكون وتبدده... ونظر، فإذا القوارب متناثرة كثيرة كثيرة، ونظر وراءه فإذا حجارة الرصيف الشامخة تقترب منه عالية كبيرة صلدة، وذراعاه أصبحتا لا تقويان على العمل، وجاءت إليه الأصوات متوسلة... وغازه ذلك. فترك المجدافين ونهض في مكانه، وترنح جسده وسط القارب، وصرخ بكل قواه:

«آني منقدرش يا اولاد الكلب... الرصيف أهه.. حانوصل.. حا.. نو.. صل..».

واختنقت الكلمات في حلقه، وقفزت إلى عينيه الدموع، وعاد إلى مكانه في عصبية. وشهق في ألم وهو يكتم دمة، وامتدت يدها مترجفتين إلى المجدافين وأخذ يعمل بكل قواه.

كان الهواء يندفع من جانب الرصيف بسرعة وقوة، والقارب أخذ يتمايل مع مد المياه وجزرها بالقرب من حافة الرصيف صانعة تلك الأمواج الواسعة الكبيرة... وانتشر الألم في ذراعي العجوز رهيباً. وامتد منهما إلى كتفيه، وأحس بكفيه تتقلصان ولا تقويان على العمل. وخارت قواه تماماً.

كانت المسافة قريبة وصدرة تمزقه سعالات سريعة جافة، وأحس كأن قبضة هائلة تنغرز أظافرها في صدره وتتهش قلبه بلا رحمة. وتردد صوته ضعيفاً يهمس في رجاء: «يا معين!». ونظر وراءه، ثمة خطوة، خطوة واحدة... وانغمس طرفاً المجدافين في الماء، ثم انزلقا في وهن وتعب وطفيا على السطح، وأحس الرجل أن جسده كله يخور، وشعر برغبة في أن ينام. كان القارب يترنح بلا حول ولا طول. والرصيف قريب قريب... والأصوات تقترب. وهي خطوة. واندفعت الدموع إلى عينيه، وسقطت فوق وجهه واختلطت برذاذ المياه وجز على أسنانه في غيظ، وبدأ صدره يجيش، ويشهق، ويهوي بالمجدافين إلى المياه، ويطلق من أعماقه صرخة... «يارب...».

وهوت من عينيه دمعتان، ثم دمعة، وشدد على المجدافين قبضتيه الواهنتين... وتمتم في حرقة:

«لا.. لازم.. لازم.. لا..».

وتحرك القارب في بطء شديد، وانزلق فوق السطح، وانحسرت عن الرصيف موجة أخرى فحملته، وسبح القارب معها في يسر... وما إن ارتطمت مقدمته بالرصيف في دقة مكتومة، حتى دق قلبه دقة عنيفة. واندفع الدمع يغرق عينيه، وتحولت أنفاسه إلى شهقات باكية، وترنح جسده وهو يستدير ويخطو داخل القارب نحو الرصيف.

ومن خلال غلالة الدمع التي غطت عينيه، ترقرقت الحجارة الداكنة الملساء، وامتدت أصابعه المرتجفة تتحسسها، وترنح القارب، وتسرب شبح ابتسامة إلى الوجه المغضن، وعلت الأصوات وهي تقترب وتقترب، وما إن تشبثت كفاه بالحجارة... حتى انهمرت الدموع تغرق وجهه... ودفن رأسه بين ذراعيه، وأجهش للبكاء كطفل صغير.

الناس

... وأصبح عليه أن يقف أمام الناس. كانوا كثيرين منثورين كحبات الرمل، رءوسهم متجاورة، وعيونهم مبلقة، وأكفهم مرتخية... أكفهم التي تستطيع أن تصعد به إلى السماء، أو تهوي به إلى الأرض. دق قلبه دقة عنيفة شديدة كاد يتطاير بعدها أشلاء، ثم دق دقات سريعة متلاحقة، وبردت أطرافه. وارتعشت أنفاسه، وغامت عيناه... وكان عليه أن يغني.

وتصاعدت سحب الدخان من الأفواه تتلوى كأجساد شياطين. ثم انعقدت فوق الرءوس... وجمرات السجائر تروح وتجيء كالشهب، تهوي ثم ترتفع لتتوهج، ثم تهوي من جديد... واختلط الضوء بالظلام. وصراخ الأطفال بحديث الكبار، وضحكت امرأة ضحكة عالية. واستدارت نحوها رءوس. وزاد دوي الأصوات والهمهمة... وكانوا جميعاً في فرحة. وكانت هذه حفلة... وكان عليه أن يغني.

تماماً كما غنى في المرات السابقة. كانوا فيها يضحكون ويقهقهون ويتحدثون ويقزقزون اللب ويشربون شايًا وقهوة وأشياء مثلجة، ويذوب صوته في أصواتهم وشفطاتهم وقزقتهم... وتنطلق فجأة صرخة طفل يبكي لتبتر صوته. ويضح الناس بالضحك. ويغرق جسده العرق... ولا يعبرونه اهتماماً. كانوا ككل مرة وقف أمامهم فيها. ولكنه لم يكن ككل مرة وقف فيها أمامهم. كان هذه المرة متعباً مكودداً. يحمل في قلبه غصة. وصدرة ينوء بما فيه من مرارة... وكان قد أيقن أنه لا يصلح. وأنه فاشل.

قالوا له لا تبيس. قال: الناس لا يريدونني. قالوا له أنت فنان. قال: الناس تقول مهرج.

الستار مسدول، والناس من ورائه ينتظرون... والدقائق تجري وتسرع. وكان عليه أن يبدع. وكاد أن يرجع، يعود من حيث أتى... يدفن نفسه في صوته، ويغرق حياته في لحنه.

كيف غنى؟... ولم غنى؟

طالما غنى، وطالما لحن وطالما قال أصدقاؤه «الله»... وكثيراً ما قالوا له «غنى»... فغنى وغنى وغنى... وأصبحت حياته أحياناً. وامتصت الألحان عمره. وذاب عمره في الأنغام.

وترك كل شيء ليغني. فر من أمه وأبيه. وبكت أمه. وثار أبوه... وقال قليلون سوف ينجح. وقال كثيرون بل سيفشل، وآخرون قالوا مجنون. فقال للجميع «ولو!!»... قالوا له: الطريق شاق. قال: أعلم هذا. قالوا: ستفشل. قال: يومها سأعود.

وفي تلك الليلة، كان قد قرر أن يعود... الستار مسدول، والناس من ورائه ينتظرون... والفرقة تدخل المسرح، وفي وسطها عجوز أشيب، فنان مدرب، أخذ يصلح الأوتار وهو يبتسم له من بعيد ويقول بحنان:

«ازيك يا أستاذ».

لم يدر كيف كانت ابتسامته، ولكنه أراد أن يبتسم، والذي حدث أن وجه العجوز غمرته ضحكة أنيسة، وقال بصوت مرح:

«انت خايف والا إيه؟!».

واقترب هو منه، كانت أنفاسه منبهرة، وكان يكاد يبكي، وصدرة كان يغلي، وعيناه ينبثق منهما وهج، وقال في همس:

«عاوز الحق. خايف قوي..».

«ولا يهملك..».

ومد إليه أصابع مرتعشة، وقال في سرعة: «معاك ولعة؟!..».

ورفع العجوز عينين دهشتين وقال بعجب: «سيجارة؟ الستارة حاتترفع..».

«معلش..».

وقال أحدهم ساخرًا: «مالك يا أستاذ؟».

لم يرد على الصوت الذي لم يعرف صاحبه، وخطا إلى بعيد وهو يجذب أنفاسًا شرهة. خطا خطوات، وزفر، وعصر السيجارة بين أصابعه، ثم سحقها بقدمه.

ودقت الدقة الأولى... ودق قلب بعنف، وأخذ يضرب بنبضاته جدران صدره، والتفت إلى الخلف، كان الجميع قد أخذوا أماكنهم، والآلات ذات الأوتار بين أيديهم، وكلهم يبتسمون في ثقة ومرح...

ودقت الدقة الثانية... وسمع صوتًا يقول: «يأالله يا أستاذ»، ولم يعرف صاحب الصوت، ولكنه استدار وخطا نحو المسرح، والستار لا يزال مسدلًا، وركبتاه وهنتا وارتجفتا.

ودقت الدقة الثالثة... وتحرك الستار، وصافت عيناه مئات الوجوه، متجاوزة متجاوزة، ومئات العيون، مبلقة مبلقة، وسقط قلبه إلى قدميه.

هدأت الضجة قليلاً، وأطفئت الأنوار، وصفق رجل بملل، وصفق آخر مدة ثم عدل، وانصبت عليه كل العيون، عيون براقعة، تلمع في الظلام، وبدأت الهمهمات من جديد، أخذت تملو وتتكثف وتختلط في أذنيه بصوت اللحن في بدايته متناثرًا غير منتظم، ثم انتظم اللحن، ولم ينتظم صوت الناس.

وكان عليه أن يغني.

خيل إليه في لحظة أن يتركهم ويهرب، يجري، يفر، يعود من حيث أتى، ولكنها كانت مجرد فكرة... ثم خيل إليه في اللحظة التالية أن يقول للناس: «في عرضكم اسمعوني»... ولكنها أيضًا كانت مجرد فكرة، وفي اللحظة التي تلت هذه خيل إليه أن يصرخ فيهم وأن يسبهم ويلعن لهم أدواقهم البليدة وقلوبهم المتحجرة، وأن يقول لهم أنتم قساة، ولكنها هي الأخرى كانت مجرد فكرة.

وماج اللحن، وسبحت أنغامه في جو المكان، وانتهى المقطع الأول، وكان عليه أن يبدأ... ولكنه لم يبدأ.

والناس سادرون في أحاديثهم... تميل رءوسهم على بعض، ولا تنتزح عيونهم عنه، وقهقهه رجل ولم يقل له أحد «هس». وأن صدره بما فيه، وكاد يصرخ من الغيظ والألم، عندما صرخ أحدهم ساخرًا:

«الله يا أستاذ.. كمان والنبى!».

وضجت الحناجر بالضحك، وضاع اللحن وسط عاصفة القهقهة، ولم يخرج صوته، واحتبس في حلقه، وكاد أن ينفجر رأسه.

وعاد اللحن من جديد... وخرج صوته، وتعثر وضاع وسط زحام الثرثرة التي ملأت الجو، ولكنه استمر يغني، وقال: «أه...» وكأنه يقطع من اللحن قطعة من قلبه، وانبثق من الظلام صوت يقول:
«جنتك أوه...».

وضحك الناس...

وتوقف هو عن الغناء، وصعدت إلى عينيه دموع كثيرة. دموع غيظ يغلي في صدره حتى كاد أن يحرقه، وأراد أن يصرخ فيهم حقاً، هؤلاء الوحوش... ولكنه ما كاد يفتح فمه، حتى سمع صوتاً أتياً من خلفه... كان صوتاً حائياً رقيقاً:
«مالك يا أستاذ.. ما تغني!».

وعندما نظر وراءه، التقت عيناه بعيني العجوز... كانتا تضحكان وتبتسمان في سماحة، وكانت الأصابع الماهرة تلعب على الأوتار بحذق... وهمس من بين شفثيه في مرارة:

«أغني؟.. أغني لمين يا أستاذ؟!».

«غني لنا، غني لنفسك انت، مالك ومالهم، غني، غني...».

كان الصوت حنوناً، وكان هادئاً قوياً مستقيماً، وأحس في لحظة بدفء يغمر أوصاله. وقال لنفسه دون أن يفتح شفثيه: «أغني لنفسى؟!».

وفي لحظة كان قد قرر أن يغني لنفسه.

وبدأ اللحن... ولم ينظر إلى الوجوه الكثيرة الساخرة، وأغمض عينيه. وتردد. تردد كثيراً، وكاد أن يعدل، ولكن اللحن كان يسري عالياً متدفقاً. اختلط في صدره بفورة تحد، وذاب اللحن في آلامه، وذابت آلامه في اللحن، وتحنح، وأحس وهو يرى الظلام من وراء جفونه كأنه في حجرة مغلقة، ولم يعد للناس وجود، ولم يعد للعالم وجود، وحلق قلبه المضطرب ورررف، ثم استقر وانتظمت دقاته، وعندما خرج صوته، اكتملت في نفسه النشوة، وتصلبت ذراعاه، وتقلصت أصابعه، وجسده كله كان كأنه مشدود إلى حبال كأوتار آلة من السماء، وغنى، غنى بقلبه، وسكب في اللحن كل دمائه التي كانت تنزلق في عروقه في سرعة... وغاب، غاب تماماً عن كل شيء، عن الدنيا، عن أهله الذين سخروا منه، عن أصدقائه الذين شجعوه. فر بكلية إلى النغم الذي كان ينساب ليغلف كل أحاسيسه، وغنى، وأطاع اللحن، وأطاعه اللحن، فتح عينيه ولم ير أحداً، وأغمض عينيه ولم ير شيئاً، لا ظلام، ولا نور... ثمة ضوء هادئ هادئ، وسكون عميق عميق، وسكينة هادئة ناعمة، وصوته ينساب منغماً متنثياً ومستقيماً، يعلو ويترنح ويميل وينتفض... وأحس كأن جسده كله يغني، يداه تغنيان، ورأسه يغني، وجفناه يوقعان مع اللحن.

كان يتمرغ في أحضان شيء يغمسه غمساً، لا هو بالمبتسم ولا هو بالضاحك، بل ثمة بشر يفيض على وجهه... والوقت يمضي، وهو غارق... غارق تماماً، تائه وكأنه يسبح فوق السحاب.

ثم طأوع اللحن، ولم يكن يريد أن يطأوعه، ومال معه، وارتفع في رفق، ثم هداً في
لين، ثم انخفض وهمس... وانتهى اللحن. وانتهت الأغنية.
وأفاق..

وكاد أن يستدير ليمضي، ولكنه توقف فجأة، فقد أحس وكأن السماء تمطر تصفيقاً،
فتح عينيه المفتحتين، ودار إلى الناس... كانت الأكف ملتهبة، والأيدي تلوح،
والأصوات تكاد تخلعه من مكانه، ولم يصدق، ونظر وراءه والتقت نظراته
بابتسامة على الوجه العجوز، ثم انحدرت إلى حيث كانت الأصابع العبقريّة ساكنة
فوق الأوتار... والأصوات من حوله تدوي، والناس يقولون: «أعد.. أعد.. أعد»،
وكاد يتساءل، لمن يصفقون؟! واستدار إلى الوجه العجوز من جديد، ولكن العينين
الهادئتين أوامتا إلى الناس، فاستدار طائعاً، وانحنى، ثم استقام، واخترق التصفيق
أذنيه كأحلى ما سمع من نغم، وطفرت إلى عينيه دموع ترقرت فيهما قليلاً، ثم
انحدرت في بطاء وتركها تبلل وجنتيه...

وبداً لحن جديد... وأغمض عينيه، وأخذ يغني.

إلى تلك السنوات

العامرة بالأمل.. إلى الستينيات

«صالح مرسي»

حب للبيع

- 1 -

ساعات الأستاذ فهيم، هي ساعة استيقاظه من النوم... وأسعد لحظات هذه الساعة، هي آخرها.. عندما ينتهي من غسل وجهه، وتصفيف شعره، وتناول إفطاره، وشرب فنجان قهوته..

في تلك اللحظات يقف أمام المرأة، وينظر إلى تقاطيعه النبيلة، ويحملك في نظرتة الحنونة بشغف، ويسوي شاربه الأنيق، ويمر بسبابته فوق حاجبيه من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين.. كان - في تلك اللحظات - يبدو جميلاً للغاية، حبيباً لكل عين تراه.. وأكثر العيون حباً لوجهه هما عيناه!

وينطلق فهيم من بيته بعد أن يلعب ابنته «صفاء» ويضحكها، ويقبل زوجته «هناء» ويناغيا بكلمة أو كلمتين.. ينطلق وقد فاض قلبه بالحب، ليستقبل الناس وعلى لسانه تلك الكلمات التي ظل طوال عمره يطهها من عجين الإخلاص والمودة والوفاء.

الناس هم دائماً شغله الشاغل.. لم يفكر مرة في نفسه قدر تفكيره في واحد من أصدقائه أو زملائه أو رؤسائه.. هو لا يفكر - أبداً - إلا إذا غادر البيت، وسار في الشارع الطويل على مهل - ولا يسير فهيم إلا على مهل - يهز رأسه يمناً ويسرة في دلال فطري، ويرفع قدمه كأوزة تتبختر، ويضعها بخفة حمامة تحط على الأرض.

في تلك الساعة، كان فهيم يفكر في الناس.. فيمن عليه أن يقابل أولاً، ثم من يقابل ثانياً، ومن يرجئ مقابلته، ومن يفاجئه بزيارته.. ولا يفكر الأستاذ فهيم في نفسه إطلاقاً!

على أن الأمر في ذلك الصباح المشرق كان محيراً.. فما إن خطا فهيم في الشارع خطوة حتى توقف.. كان أمامه طريقان عليه أن يسلك أحدهما.. طريق في الشرق، وآخر في الغرب.. وكيف يختار الإنسان بين نقيضين كلاهما حبيب إلى قلبه؟!!

لم يكن في الأمر مغنم شخصي، ذلك أن الناس كلهم عنده سواسية.. وهو يعرف كيف يحبهم أجمعين.. وكيف يقبل عيوبهم بنفس القلب الذي يستقبل به محاسنهم.

ورغم أن سعيد بك - طريق الغرب - به ما به من عيوب، فإنه إنسان يعرف كيف يقابل الناس، وكيف يحتفي بهم وينفعهم، وكيف يأخذهم على راحتهم.. لذلك، قرر فهيم أن يسلك طريق الغرب، وأن يقابل سعيد بك.. وبالتالي، كان عليه بعد أن قرر ذلك، أن يقول لنفسه إنه لا بد مما ليس منه بُد، لا بد من تأجيل مقابلته لعثمان بك مدير الشركة المنافسة لشركة سعيد.

- 2 -

فهيم يعلم تماماً في أي مكان يضع قدمه، وعلى أي جدار يستند.. فهو بفطنته وحبته لهؤلاء الناس، يعرف أن سعيد عبد المتجلي - مثلاً - لا يشغل رأسه إلا بنفسه.. ففي المرة الأولى التي زاره فيها - للتعرف لا للعمل - استطاع أن يحصي في أول دقيقة،

ثلاث مرات قال الرجل فيها «أنا..»، وفي الدقيقة الثانية أحصى فهم أربع مرات.. وما إن نهض - دون أن يفوه بكلمة كعادته - حتى كان عدد «الأنات» قد تضاعف وتضاعف، ولم يعد الإحصاء في حد ذاته بالأمر المهم.. كان المهم أن يضع فهم في ذهنه، وأمام خاتمة سعيد بك عبد المتجلي مدير شركة المعاملات التجارية، كلمة «الرجل الأنا».

وأصبح الأمر بعد ذلك في منتهى البساطة..

فلكي تحب الناس حقيقة، فعليك أن تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به.. وأنت لا بد أنك تحب أن يعاملك الناس بما يرضيك ويشبع رغباتك.. لذلك، فعندما زار فهم سعيد بك في المرة الثانية، حرص على أن يرضي رغبة الرجل الوحيدة، فلم يكف عن ترديد «سيادتك، مشاريعك، حضرتك، أعمالك..» وأي كلمة لا تنتهي بكاف، أغفلها قاموس لغة الأستاذ فهم تمامًا في حضرة سعيد بك.

وجاء الحب بما كان منتظرًا منه..

فبعد مقلبتين فقط، استطاع فهم أن يحقق لشركته صفقات لم يحلم بها واحد ممن في مثل مركزه.

على أن الأمر - في ذلك الصباح المشرق - كان مختلفًا، فالصفقة التي كان فهم يسعى لإتمامها، صفقة هائلة... وكان عليه - هو - أن يتحدث هذه المرة، وكان على حديثه أن يكون سلسًا منطقيًا ينفذ إلى قلب الرجل مباشرة.. ولم يكن هذا بالأمر الصعب، فبعد أن شرب فنجان القهوة، ودخن نصف السيجارة، راح يتحدث بهدوء، ويبتسم في نبل، ويسير في الطريق المستقيم نحو قلب الرجل، متعكزًا على «سيادتك وأعمالك..» التي راحت جدران الحجرة الفاخرة ترددها بين كل كلمة وأخرى.. ومضت الدقائق، ووقع سعيد عقد الصفقة الابتدائي.. وغادره فهم وهو أشد ما يكون سعادة ورضًا عن نفسه.

- 3 -

الشيء الذي قلل من سعادة فهم ورضاه عن نفسه، هو مقابلته لعثمان بك مدير الشركة المنافسة.. كان ذلك مصادفة وهو يعبر الطريق، لمح الرجل وهو في سيارته الصغيرة المتواضعة، فنادى عليه.. وكان على فهم - بحبه الشديد لكل الناس، وحرصه الأشد على أحاسيسهم ومشاعرهم ومصالحهم الخاصة - أن يقابل الترحيب بالترحيب، والتحية بالتحية، والابتسامة بضحكة كبيرة تصدر من أعماق الحلق!

فهم يعلم ما بين الرجلين من صداقة وعداء فهما لايفترقان في المساء، حتى إذا طلع الصبح، اسئل كل منهما لسانه مسفها الآخر وأعماله، وهو يعلم أيضًا مقدار ما بينهما من تناقض.. ذلك أن عثمان بك عبد السلام - على النقيض من سعيد - حذر كل الحذر، لم يسمعه أحد يقول «أنا..».. وهو - وهذا هو الغريب - يحب الحق، ويقف مع المظلوم، فلا بد أن يحب فهم الحق في حضرة عثمان، وأن يقول إنه أسمي فضيلة، والتمسك به أعظم خصال الرجال.

وبالرغم من مضي شهور طويلة منذ زار فهم عثمان - للتعرف لا للعمل - فإن هذا لم يوقع معه عقدًا، أو يعهد إليه بعمل.. ولم يمنع هذا التصرف (فهم) من زيارته

أسبوعًا واحدًا.. فهو يؤمن دائمًا، أن الود بين الناس، نار تذيب جليد مقاومتهم.
لكن الغريب - الغريب جدًا - أن مقاومة عثمان لم تذب إلا في ذلك الصباح المشرق
- أي مازق هذا؟ - حمله الرجل في سيارته وطار به إلى مقر الشركة.. وبعد ثوان،
وقبل أن يطلب فنجان قهوة أو يقول كلمة تحية، دخل في الموضوع مباشرة، وقدم
عرصًا للصفقة - نفس الصفقة - ووقع عقدًا ابتدائيًا.. وقدمه لفهيم.

زيادة الخير خيرين.. وعقدين أفضل من عقد واحد.. ولا يزال فهيم يملك ناصية
الأمر.. توقيع مدير القسم على أحد العقدين يجعله ساريًا، ويبطل مفعول الآخر.
ولكن كيف يختار الإنسان بين نقيضين كلاهما حبيب إلى قلبه؟! أأ مصالح عثمان
تتعارض مع مصالح سعيد، وكلاهما في جيب سترته الداخلي، فكيف يوفق بينهما،
وكيف يحتفظ بكليهما؟!

- 4 -

كان على فهيم بعد ذلك أن يذهب إلى عمله.. وعليه أن يقابل أناسًا متطاحنين
متباذنين متشائمين.. أكثر ما يسعده في مثل هذه الأوقات هو مراقبته إياهم.. فهو
يحبهم بدرجة واحدة، أكثرهم قربًا إلى قلبه هو نبيل المجنون - فهكذا يسميه -
باندفاعه وحيويته وسرعته وخفته وعدم حذره، يكره فيه - دون أن يذكر له ذلك -
عدم كياسته، وتهمه التي كان يلقيها في وجه الناس جُزافًا، وربما كان على حق..
ولكن، من منا بلا عيوب؟

رأى نبيل - في ذلك الصباح المشرق - مهمومًا.. ابتسم في وجهه بكل ما يحمله قلبه
من حب، ثم سأله عما به.. فقال نبيل: «ولا حاجة!» ولاذ فهيم بالصمت، الإلاح
على نبيل سبيل إلى عناده، وتجاهله أحسن وسيلة لابتزاز ما يفور في صدره..
وصدق ظن فهيم، فما إن مضت دقائق، حتى اندفع نبيل يشكو له المدير..
وهنا نقطة الضعف في حياة الأستاذ فهيم.

ذلك أن مديرهم رجل غريب، بغزالة كما يقولون.. يوم عابس، ويوم ضاحك.. وكان
فهيم يكره عبوس المدير إلى حد المقت، ويحب ابتسامته إلى حد الوله.. وكان يعلم
أن نبيل يحب المدير بعبوسه وابتسامته.. أليس مجنونًا!

حكى نبيل قصة خلافه مع المدير.. وأيقن فهيم منذ الوهلة الأولى أن المدير هو
المخطئ.. ولكن من الأقوى، المدير أم نبيل!؟

وجه فهيم لنفسه هذا السؤال.. وكان الجواب حاضرًا.. فاندفع - من أجل مصلحة نبيل
فقط - يسفه كل ما فعله، حقًا إن نبيل على صواب، صحيح أن الحق بجانبه، ولكن
كيف تعلق العين على الحاجب؟.. و.. «يا نبيل ما تيقاش مجنون، إنت غلطان!»..
قال ذلك ونهض قبل أن يسمع منه ألف اتهام واتهام.. وكانت وجهته مكتب المدير.
تمتم: «يارب استر».. ثم دخل.

- 5 -

أهم شيء لديه أن تبقى علاقته بكل الناس طيبة.. الحب الحقيقي هو الذي يربطك
بكل مخلوق، وحب فهيم حقيقي.. والمدير كان في حالة غضب يرثى لها، كان ثائرًا

مهتاجًا مقطب الوجه.. ورغم ابتسامه فهيم التي حملها كل حبه، فإن الرجل لم يبتسم، قال: «اقعد يا فهيم، أنا عاوزك!».

سبح فهيم في هواء الحجرة على أطراف أصابعه.. ثم حط في خفة فوق مقعد بعيد.. وما إن هم المدير بالحديث حتى قال فهيم وهو يفرك كفيه في ولاء، وصوته يرق ويلين حتى يصبح كالهمس: «بس ما تزعلش نفسك يا سعادة البيه.. نبيل حكى لي الحكاية كلها، وأنا قلت له إنه غلطان!».

لمح فهيم الدهشة تأخذ طريقها إلى وجه المدير، وكان - بحبه الشديد لكل الناس - يعرفه تمامًا، ويعرف أنه كثيرًا ما يراجع نفسه، ويضع كل شيء في مكانه، ويعيد الحق إلى نصابه.. وكانت دهشة المدير علامة مأزق انزلت إليه قدم فهيم دون وعي، فسرعان ما عمل ذهنه، وسرعان ما وجد الحل.

فمهما كان الأمر، فنبييل هو المرءوس والديمقراطية في العمل لها حدود.. حقًا إن سيادة المدير لم ينتبه في لحظة انشغال إلى أن الخطأ صدر عنه، حقًا إنه - لكثرة مشاغله - لم ينتبه إليه، لكن واجب نبيل هو إطاعة الأمر في هدوء، ثم الرجوع إلى المدير بعد ذلك.. ولو فعل، لما حدث ما حدث!

عين الحب التي هي عين فهيم كانت ترقب بفخر تغير وجه المدير من التقطيب إلى الانبساط.. وعين الحب التي هي عين فهيم أيضًا كانت ترى أن نبيل سوف يخطئ بجنونه أكثر.. لذلك، فما إن طلب منه المدير أن يستدعي زميله لينهي معه الأمر، حتى قال في حب صادق: «خلي عنك وعنه، هوه دلوقت متترفز، أعمل انا الشغل النهارده!».

وكان كلامه معقولاً.. فوافق المدير على الفور.. وأعطاه - لفرط راحته - ثقته.. فعندما قدم له عقدي سعيد وعثمان، قال وهو يقلب أوراقًا أخرى: «اتصرف انت وهاتهم لي على التوقيع!».

وجن جنون نبيل!

ما إن رأى (فهيم) يقوم بالعمل حتى صرخ كالمذبوح: «ما دام أعطاك الشغل يبقى مش عاوزني!».. ولم يكن من الضروري أن يقص عليه ما حدث بالداخل.. لكنه كان من الضروري أن يقول له بعشم: «إنت مجنون يا بني، إ عقل شويه».. وازداد جنون نبيل، فكتب استقالته - بكل اندفاع - وأرسلها مع فراش - أية إهانة - إلى المدير.. وخرج.

- 6 -

كان من الممكن أن ينتهي اليوم عند هذا الحد.. كان من الممكن أن يستمع فهيم - بحب - إلى الذين يكرهون نبيل وهم يسلقونه بألسنتهم، فلا يزيد على أن يبتسم قائلاً: «أصله مجنون..» وقائلاً لنفسه: «هم أحرار، يكرهوه زي ما هم عاوزين، هو فيه حد من غير عيوب؟!». وكان من الممكن أن ينتهي اليوم عند سماعه لأصدقاء نبيل وهم يلعنون المدير، ويدافعون عن نبيل بحرارة فيقول لهم مبتسمًا: «أنا قلت للمدير كل الكلام ده».. ويقول لنفسه: «هم أحرار، يقولوا كل اللي عاوزين يقولوه.. أصلهم مجانيين!».

كان من الممكن أن ينتهي اليوم عند هذا أو ذاك.. لكن فهيم تذكر فجأة أن المدير لا بد يعاني من إهانة نبيل، لا بد أنه يغلي بالغضب لأن هذا أرسل استقالته مع فراش.. وعين الحب ساهرة، كذلك عين فهيم.. نهض على الفور، ونقر في خفة على الباب، ثم دلف إلى حجرة المدير طائرًا على أطراف أصابعه.. و.. «سيدتك مش لازم تزعل، إنت عارف نبيل كويس، أنا متأكد إنه لايمكن يقصد العمل الفطيع إلیي أقدم عليه، نبيل عاقل.. بس هو اللي مجنون!.. أنا مش مصدق نفسي، إزاي يعمل كده؟!».

وصمت فهيم قائلاً، ويتمزق قلبه لمنظر المدير وهو يتألم ثم يقول في حنان: «على فكرة يا بيه، أنا وجدت غلطة في الكشوفات - وكان يعلم أنها سبب المشكلة - ولكن هل تجرح عين الحب إنساناً بنظره؟ - وأنا تلافيت الخطأ.. وفيه كمان..».

راح فهيم يتحدث بكل قلبه وكل حبه للرجل المسكين الذي يغلي بالغضب وراء مكتبه.. وكان يسير في الطريق إلى قلبه مباشرة.. لكنه - أبداً - لم يظن في يوم ما أن الطريق قصير إلى هذا الحد.. فقد فوجئ بالمدير يعهد إليه بكل مسؤوليات نبيل، ويشكره - وقد قوى هذا إيمانه بالحب - بل، ويخبره أنه طلب له علاوة.. ووصل إيمان فهيم بالحب إلى ذروته!

- 7 -

لا يعرف السعادة إلا من ذاق طعم الحب.. وكان فهيم سعيداً غاية السعادة وهو جالس إلى مكتبه، عندما فوجئ بورقتين أمامه.. وضعهما متجاورتين، وأسند ظهره إلى المقعد، وغرق في التفكير..

إحدى الورقتين عليها إمضاء سعيد بك، والأخرى عليها إمضاء عثمان بك.. وعليه أن يخرب بيت أحدهما.. أو على الأقل، يضيع عليه صفقة هائلة.. فماذا يفعل؟! لم يكن أمامه سوى الحب..

أزاح الورقتين من أمامه.. وأزاح المستندات والتقارير، وراح يفكر في عنف ويجيب في صدق!

عثمان بك رجل دغري.. يعرف كيف يوقف كل إنسان عند حده، ويعرف كيف ينسب الفضل لأصحابه.. هذه أولى خصاله..

وامتدت يد فهيم إلى التليفون، رفع السماعة، وأدار القرص.. وسرعان ما سرى إليه صوت عثمان.. كان صوتاً هادئاً واثقاً: «طبعاً يا فهيم العملية لازم تكون من نصيبنا، إحنا - على ما أعتقد - قدمنا شروط ممتازة - وكان هذا حق - وشركتنا في حاجة إلى مساندة ومساعدة لأننا لازلنا جداد في السوق.. وعموماً أنا واثق من ذمتك.. السلام عليكم».

وابتسم فهيم.. وأدار القرص دون أن يضع السماعة.. وسرعان ما جاء إليه صوت سعيد «أنا عارف انك زكي يا فهيم بيه - بيه؟! - وانا عارف ومتأكد.. إنك فاهم كويس إن مصلحتك في الوقوف بجوارنا، إحنا شركة قوية ولنا فروع في كل مكان.. آه على فكرة.. إنت حاتسهر فين الليلة؟!»

ارتجف فهيم.. وابتسم غير مصدق لو لم يحب هذا الرجل، رغم كل عيوبه، لما وانتته الفرصة - فرصة العمر - بهذه السرعة.. إنه يدعو للسهر، سيقفز فجأة من مجرد موظف إلى مركز المديرين.. ولن يكون الطريق طويلاً بعد ذلك.. مرت صفاء وهناء بذهنه بسرعة، ثم طواهما صوت الرجل وهو يهدر عبر سماعة التليفون: «أنا كنت سهران امبارح مع جوز بنت مدير عام شركتكم، المدير العام مش مدير القسم.. وانا اتكلمت عنك كثير، صحيح أنا ماقلتلكش الصبح، لأنى انا ما احبش اتكلم عن نفسي كثير، إنما انا قلت مافيه الكفاية.. ثم انا منتظر ك الليلة إوعى تتأخر.. أنا..».

بلا تفكير.. وقعت عين الحب على ورقة سعيد!

- 8 -

لكي تحب الناس كما يجب، فلا تتركهم وقت المحنة..

وفهيم يحب عثمان كما يجب؛ لذلك سارع في المساء قبل أن يذهب إلى سعيد لزيارة عثمان.. وبلسان الحب تكلم.. قال لعثمان كل ما استطاع لسانه المحب أن يقول.. وفهيم موظف.. مجرد موظف.. والكلمة الأخيرة للمدير.. وعلى عثمان أن ينتظر، فالفرص كثيرة، وفهيم - على أي الأحوال - في الخدمة.

وانتهى اليوم في محل عام.. سعيد بك بجلالة قدره على يمين فهيم، وفهيم على يساره - بجوار القلب - والجو مليء بالحياة والصخب، وكأس وراء كأس، وضحك سعيد من عثمان وسخر منه، وضحك معه فهيم وسخر.. فهذه ساعة انبساط، والدنيا هموم.. وليفرج كل منا عن همه!

وانتهت السهرة.. وركب فهيم سيارة سعيد الفاخرة، وودعه - أمام بيته - في حب، وواعده في حب.. وما كادت السيارة تتطلق، وما كاد فهيم يدلف إلى باب العمارة، حتى برز من الظلام شبح.. واضطرب فهيم، كان نبيل يرتجف من البرد عندما تقدم إليه وهو يقول:

«إنت كنت فين يا أخي، أنا منتظر ك من اربع ساعات».. ورغم أن فهيم علم على الفور سر انتظار نبيل، فإنه في لهفة وحب: «خير يا نبيل»!؟

وكان خيراً.. نبيل نادم - مجنون! - يريد العودة إلى العمل..

احتار فهيم.. كان يعلم أن نبيل لن يجد له مكاناً في الشركة.. فقد انتهى أمره، وقبلت الاستقالة. ولكن لا بد من الوصول إلى حل، لا بد أن يجد حلاً، حتى لو أصبح نبيل مرعوساً له.. إنهما صديقان، والأصدقاء أحياناً، وليس بين الأحياء رئيس أو مرعوس..

قال فهيم ضاحكاً: «ودي حكاية يا شيخ.. تعالى بكره.. دا الراجل بتاعنا طيب قوي»!

- 9 -

وعندما فتح فهيم باب شقته، وأطل على الظلام في الداخل.. ولفته أنفاس صفاء وهناء الدافئة المنتشرة كالعطر في أرجاء المكان.. كان يحس بمنتهى الرضاء عن

نفسه.. وكان يبتسم في سعادة حقيقية وهو يدلف إلى حجرته الصغيرة في هدوء..
أضاء النور.. وراح يبذل ملبسه وهو يدندن..

لكنه، وقبل أن يأوي إلى الفراش. اتجه نحو المرأة.. لم يكن من عادته أن ينظر في
المرأة أثناء الليل، لكنه لفرط سعادته، ذهب إليها وقلبه يرقص بالحب والسعادة
والنشوة معاً.. على شفثيه ابتسامة واسعة أراد أن يستقبل بها وجهه الجميل.. خطوة
وأخرى.. ووقف أمام المرأة.. واضطرب..

في العينين احمرار كأنه لهب.. في الشفتين انطباق لا تتم.. وكأن بينهما أنياباً، في
الجبهة تقطيب شريير.. في الذقن حدة غير عادية، حتى الأنف الجميل كان يفح هواء
ساخنًا، كأنه نار..

لم يذعر فهيم ولم يخف.. كل ما حدث أنه لم يصدق عينيه.. همس وهو يستدير
مبتعداً عن المرأة: «ياه.. دانا باين عليّ سكران خالص»!.. وخطا نحو الفراش..
وأطفأ النور.. ونام مرتاح الضمير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرجل و الحصان

- 1 -

لا يدري أحد لماذا توقف الحصان فجأة عن المسير.. لم يكن المطر هو السبب فقد كان يتساقط منذ نصف ساعة أو يزيد... ولم يكن المطر غزيراً، بل كان رذاذاً ربيعياً دافئ القطرات..

وعندما توقف الحصان فجأة عن السير صاح به الرجل كمن يتيقظ من النوم لتوه: «شي...»... قالها ممطوطة رتيبة النغم، لكن الحصان لم يستجب للنداء، ظل واقفاً مكانه وقد تدلى رأسه وسكنت حركته تماماً.. وهز الرجل يده بالسوط وهو يعاود الصياح من جديد: «شي!».. ثم رفع رأسه إلى السماء وراح يرقب قطرات الرذاذ المتساقطة، وتحركت يده بالسوط نحو ظهر الحصان: «شي يابن المديوبه!».. قالها وانتظر لثوان لكن الحصان لم يتحرك، ولم يبد عليه أنه ينوي الحركة.. فتامل الرجل في جلسته ونظر إلى الخلف.. إلى قضبان الحديد الطويلة التي كانت تجثم فوق ظهر العربة.. وهوى بالسوط مرة أخرى على ظهر الحصان، فهز هذا ذيله كمن يطرد عن جسده ذبابة.. وظل رأسه مدلى، وبدا أنه أغمض عينيه وراح في سبات عميق!!

في تلك الساعة من اليوم، كانت السيارات التي تمر بالطريق عادة تكاد تتعدم.. كان الطريق خالياً لامعاً تتفرق على صفحته خيالات الأشجار والأعمدة والعمارات القريبة، لذلك.. كان لا بد للرجل أن يلحظ تلك السيارة الآتية من بعيد، والتي مرقت بجواره مسرعة وهي تنتثر من حولها رذاذاً يحمل تراب الشارع في مائه.. وكان الرجل يهبط ساعتها من مكانه فأصابه الرذاذ.. رغم أن لون جلبابه لم يكن غريباً على لون الشارع، ورغم أن رذاذ السيارة لم يزد من ابتلال قدميه الحافيتين أو ذيل جلبابه المبتل، فإنه لاحق السيارة بسيل من الشتائم المقذعة وهو يلاحقها بنظرات شديدة الغضب.

وبالرغم من أن الرجل كان يصرخ بجوار أذن الحصان بشتائمه، وبالرغم من أن صوته كان يكفي لإيقاظ جبل نائم، فإن الحصان لم يتحرك.

واختفت السيارة في منعطف بعيد، فاشتد غيظ الرجل، والتفت نحو الحصان وكشر عن أنياب شديدة الاصرار، وهوى بكفه فوق عنق الحصان وهو يصيح: «كله منك يابن المديوبه.. شي.. شي!!»..

لكن الحصان لم يتحرك ولم يرفع رأسه إلا عندما جذب الرجل اللجام وراح يحاول دفعه إلى السير.. وتلاحقت شتائم الرجل وسبابه.. ثم ترك اللجام وجمع أطراف ثوبه في فمه وخبط كفا بكف وهو يصيح: «ما انت لسه طافح من شوية.. عايز ايه تاني؟!»..

ولم يرد الحصان.. وعاد رأسه يتدلى من جديد، وبدا أنه أغمض عينيه وراح مرة أخرى في سبات عميق.

وسار الرجل حول العربة وفحص عجلاتها الأربع.. وتأكد من قوة الحبال التي تربط الحديد بالعربة.. ورمق حصاة صغيرة أمام إحدى العجلات، ولم يصدق أنها السبب في توقف العربة، فأكمل دورته حولها وأصبح على الجانب الآخر للحصان، وكان يبدو أنه يحدث نفسه عندما قال: «وبعدها لك بقي؟!.. ما تقول يا مسا خلينا نخلص!!».

ولم يتحرك الحصان.. ولم يجب!

ربت الرجل على ظهره بكف حانية، ومسح عنقه الطويل وأخذ يتحسس.. عندها فقط، هز الحصان رأسه ونفر بأنفه في صوت مسموع، ثم ضرب الأرض بحافره.
«المخزن حايقفل.. نوذي الداھية دي فين؟!».

وهم الحصان برأسه كمن يتأهب للسير، وبذل جهداً تقلصت له عضلات جسده كله ولمعت تحت أضواء المصابيح التي كان نورها يزداد لحظة بعد لحظة داخل ستارة الرذاذ الشفافة.. وتقلصت ساقا الحصان الخلفيتان، ومال جسد الرجل إلى الأمام وهو يجذب اللجام بكل قواه، لكن العربة لم تتحرك.. وعاد الحصان إلى وقفته الأولى من جديد، وعندما ترك الرجل اللجام، تدلى الرأس، وسكنت حركة الحصان تماماً!

كان الرجل يسير وما زال طرف ثوبه بين أسنانه وساقاه عاريتين، وصل إلى نهاية العربة وحرك الحصاة بعيداً عن العجلة، ثم نظر إليها قليلاً وأمسكها بأصبع قدمه اليمنى وطوح بها إلى بعيد.. وتوقفت في تلك اللحظة بجوار الرجل سيارة أنيقة..
«تلزم خدمة يا عربجي?!».

وكان الصوت رقيقاً ناعماً كأنه يصدر عن آلة موسيقية.. ورغم حلاوة الصوت وجمال الوجه الذي كان يطل على الرجل من نافذة السيارة الأنيقة، فإن أعصاب الرجل ثارت، فطلب من الفتاة خدمة فاحشة.. بصق الكلمات في وجهها بغل فتعالت ضحكة الفتاة مغلفة بضحكات أخرى تتصاعد من الداخل في نغم متناسق.. وعلا صوت السيارة وصرخت عجلاتها وهي تتدفع كالصاروخ مبتعدة، يلاحقها سباب الرجل كمدفع سريع الطلقات..

- 2 -

كان الحصان مازال ساكناً في وقفته، فصاح الرجل فيه وهو يهوي عليه بكفيه في غيظ شديد:

«عاجبك كده يا بن المديوبة؟... شي... بقولك شي!».

ثم وقف كلاهما تجاه الآخر.. كان الرجل ينظر إلى الحصان في حيرة..

لكن الحصان لم يكن ينظر إليه، كان رأسه قد عاد يتدلى، وعضلاته قد ارتخت، وحلت محلها نتوءات عظامه..

لم يكن الحصان أعجف، لكنه لم يكن ممثلاً بالقدر الذي يبرز جسده.. وهوت كف الرجل فجأة على صدغ الحصان الأيمن في صفة مهولة، وارتج الرأس قليلاً، لكن الحصان أمال لصاحبه صدغه في سكون.. وكانت هذه هي الحركة التي قام بها، والتي أدت إلى جنون الرجل فراح يهوي فوق جسده بالسوط حيناً وببيديه حيناً آخر.. وكانت الضربات مجنونة متلاحقة، لكن الحصان لم يتحرك، وإن ازداد لونه

اسوداداً، وبان جلده أكثر ارتخاء.. وكان هياج الرجل قد بلغ ذروته وهو يدور حول العربية، كان يسب ويلعن ويقذف من فمه بأقبح الألفاظ، ثم توقف فجأة واستدار صارخاً في وجه الحصان:

«يعني اجرها انا؟.. اجرها انا يعني؟!».

وراح يحاول من جديد..

انثنى على إحدى العجلات وراح يحاول تحريكها.. وخف تساقط الرذاذ.. وازداد تساقط العرق من وجه الرجل وصدره.. وصفت السماء فجأة فبان لونها الأزرق من خلف سحبات داكنة، وازداد لمعان أرض الشارع، ومرقت أكثر من سيارة.. لكن الحصان لم يتحرك!

أصبح جسد الرجل كله مرتجفاً بالانفعال والغضب والتعب جميعاً.. سار بخطوات مترنحة حتى جلس على حافة الرصيف، وجاءت جلسته تحت رأس الحصان تماماً.. فرفع ذيل جلبابه المبتل ومسح به وجهه، ثم أخرج من جيبه سيجارة، أشعلها وهو يقول في نبرات يائسة:

«زمان المخزن قفل.. إنت مش ناوي تمشي الليلة يعني؟!».

وهز الحصان رأسه هزات غامضة بلا معنى.. ثم عاد فسكن من جديد.. فعاد الرجل إلى الحديث وكان صوته متهدجاً:

«التبن ابو بريزه وأكلته كله.. هو انا يعني كنت أكلت ببريزة طول النهار؟!».

ضرب الحصان الأرض بحافره، ونفر بأنفه!

«ما بقاش معايا إلا سبعة صاغ، إنت بشلن تبن، وأنا اتعشى بنص فرنك.. وما بقاش فاضل معايا إلا سيجارتين!!».

جذب نفساً من السيجارة ثم عاود الحديث في ضجر:

«وأهو المخزن زمانه قفل، يعني مفيش فلوس الليلة!».

- 3 -

عاد الرذاذ إلى التساقط من جديد، واشتد ظلام السماء، وبدأ عدد السيارات يزداد.. وراح الرجل يرمق وهج سيجارته بإمعان.. كان صدره قد هدأ، وملامحه قد ارتخت، وظل ابنتسامه يطوف بوجهه ثم يستقر فوق شفثيه...

«إنت زعلان مني؟!».

وساد السكون بينهما لثوان..

«ما هو ما حدش بياكلها بالساهل.. هو انا يعني لما اضربك بابقى مبسوط؟!... وعزة الله الضرب بيوجعني انا!.. داس السيجارة بقدمه الحافية، ثم نهض وراح يتحسس عنق الحصان بيده، ثم احتضن رأسه فجأة ورفعها إلى أعلى.. وقبل الحصان في فمه!

«ولا تزعل.. حقاك علي!».

وتحرك الحصان فجأة في قفزة انزلقت لها قدماه الخلفيتان فسقط جزؤه الخلفي على الأرض!

بان الذعر على وجه الرجل..

«كده برضه تعمل في نفسك كده؟!»

وفي قفزة واحدة كان عند مؤخرة الحصان.. «استنى خليك زي ما انت!..».. انحنى وبرك على يديه وركبتيه، وحبًا حتى أصبح تحت بطن الحصان تمامًا.. «طوّل بالك الأرض مبلولة والحدوى جديدة!».. وبدأ الرجل يرتفع بجسده حاملاً جسد الحصان على ظهره: «انهض معايا يا بن المديوبة.. انهض».. وتحركت ساقا الحصان الخلفيتان في محاولات.. بدأ العرق يتساقط من وجه الرجل وبرزت عروق رقبته.. وراح الحصان يضرب الأرض بحوافره ضربات متتالية، مرة بعد مرة، الرجل يصيح، والحوافر تطلق ساقا الحصان فجأة، وارتفع جسده وانتصب واقفاً..

وعندما خرج الرجل من تحت الحصان كان جسده كله ينتفض، وكان العرق المتساقط قد ازدادت غزارته.. لكنه لم يتوقف، بل مال على عريش العربية وراح يدفعه إلى الأمام.. «ياالله معايا!».. وبدأت حوافر الحصان تضرب الأرض مرات بعد مرات، ودار الرجل حول العربية من جديد، وارتقى فوق العريش وزعق بكل صوته: «معانا يانبي!».. وتحركت قوائم الحصان فخطا خطوة أخرى.. وبدأت العربية تسير ببطء، كان يسرع لحظة بعد لحظة..

كان الرجل يسير بجوار العربية وأنفاسه تتلاحق وصدرة يعلو ويهبط في حشجة مسموعة، فراح يسعل، وراح يجري، واشتد سعاله، وأسرعت خطواته بجوار العربية، وعندما بصق على الأرض بدا أنه أحس بالراحة، فرفع ذيل جلبابه ومسح قطرات العرق عن وجهه وصدرة.. وكان قد أصبح يعدو ليلحق بالعربية.. والحصان مشرع الرأس، تضرب قوائمه الأرض في نغم كان يملأ سكون الشارع الطويل.. وتحت المصابيح المضيئة اللامعة، كان الرجل يقفز إلى مكانه وهو يمسك باللجام في يد، والسوط في اليد الأخرى.. وكان يبتسم، ثم نهض واقفاً في مكانه، وشق الهواء بالسوط في فرقة دوي صوتها كالجرس، وصاح في مرح شديد:

«عايزين نلحق المخزن.. يمكن نلحقه ونتعشى الليلة!»

وراح الحصان يعدو بكل قواه!

وكان في غاية الرضا عن نفسه

دهمني الخوف على غير انتظار أو توقع، رغم أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الخوف إطلاقاً!

فتحت باب السيارة وألقيت بنفسي في المقعد الخلفي ونطقت باسم الشارع فلم ينبس بكلمة.. دار موتور السيارة بعنف فانتهبت قليلاً، وإذ بهزة عنيفة تلصقتني بالمقعد والسيارة تندفع إلى الأمام، ورفعت عيني إليه، ورأيت لأول مرة.. فذب الخوف في قلبي!

كان عملاقاً، هائل الحجم، عريض الكتفين، غليظ الرقبة، كبير الرأس.. كان يملأ كل الفراغ من خلف عجلة القيادة، ولم يكن حجمه الضخم يتناسب مع السيارة الصغيرة التي كانت تنهب الأرض، وتطوي الشارع - رغم ازدحامه الشديد - طياً!

حدث كل شيء وكأنه قضاء وقدر!

واستسلمت للخوف عندما شدتني رقبتة الغليظة فلم تبرحها عيناى.. كانت السيارة تقسح لنفسها الطريق وسط أمواج من الناس في سرعة جنونية.. وكان صاحبنا يضغط على آلة تنبيه غليظة الصوت تصلح لقطار.. ويقدر ما كان حجم السيارة صغيراً، بقدر ما كان صوت آلة التنبيه رهيباً، وعالياً، وساخباً، وغاضباً كأنه يشتم الناس جميعاً!

ما الذي كان يحدث وقتها؟!

كذاب أنا لو قلت لكم إنني أعرف عن يقين.. كانت المرئيات تنتطير من حولي تطائراً.. ولم أكن في عجلة من أمري، وكدت - ذات لحظة - أن أطلب منه السير على مهل، وبالفعل هممت في مقعدي، وملت إلى الأمام، ومددت ذراعي نحوه لأنبهه، ثم التقت عيناى بعينيه في المرأة، فتوقفت الكلمات في حلقي!!

دهمني الخوف أكثر، كانت نظرة العينين غريبة، أمره، تقول: «اسكت!».. ولم يكن أمامي إلا السكوت!

كان الشارع طويلاً طويلاً.. والزحام شديداً، والناس تفر من طريق السيارة في ذعر، وتتقاذف أجسادهم ذات اليمين وذات اليسار، وصوت آلة التنبيه يفزع الأمنيين منهم، وسباب العملاق يلاحقهم.. ورغم أن جلستي كانت مريحة، فإني كنت أشعر وكأنني في سجن!

وعلى البعد لاحت رقبتة لعيني فشدت نظراتي في توجس.

كانت رقبتة تبدو مثل جذع غليظ ثابت بجذور تضرب في أعماق الكتفين، بجوار الجذع لاحت على البعد تلك العربة الصغيرة بحمارها الهزيل.. كان الحمار يفارق حارة جانبية في ذلة المتعب المكدود، رأسه منكس إلى الأرض، جسده ضامر نحيف بارز العظام، جلده على البعد يبدو خشناً مليئاً بالبثور ووخزات العصا، سيقانه ترتجف مع كل خطوة.. على جانبيه تمتد ذراعان مسلولتان تنتهيان بذلك الهيكل المتداعي الذي يئن مع الحركة. تكاد مفاصله تنهاوى، عجلاته تبتلع حجارة الطريق مع كل دورة، الموكب كله يتمايل ويترنح مفكك الأوصال متداعي

الملاح.. حتى الطفل الصغير المعلق عند مقدمة العربة خلف الحمار، كان يبدو كهيكل ألقى في نفس المكان بإهمال، ثم نسيه الناس هناك زمنًا!
انتابني الفزع فارتدت عيناى إلى الجذع الهائل، لكنهما لم تجسرا على النظر إلى الرأس، حتى من المنتصف!!

كان كل شيء فيه هادئًا شديد الهدوء، واثقًا شديد الثقة، ثابتًا شديد الثبات.. وكان السباب من النافذة ينهمر على الناس في الطريق، الذين كانوا يعترضونه والذين لا يعترضونه على السواء.. غير أن الموكب المفكك الأوصال كان يتقدم، وكانت السيارة تتدفع نحوه بجنون، وتعالى في الشارع بعض الصيحات تحذر، ويزداد انهيار السباب من النافذة مع كل صيحة، ويتحول خوفي إلى رعب فترتعد أوصالى، ويلتصق لساني بسقف حلقي، وأنكمش في مقعدي، ويضيع إحساسى ويتبدد.. فراغ سقطت فيه فجأة، وسبح جسدى مع أفكارى فى بلورة من الذعر، وعندما خطف عيناى نظرة من المرأة، سقط قلبى بين ضلوعى، وعجزت عن ابتلاع لعابى!

كانت العربة قد انتصفت الطريق تمامًا، والطفل الجالس فوق مقدمتها خلف الحمار يفزع فجأة على الصياح، وانتفضت عظامه من الهول، فلوح بذراعى محشوتين بالقش فى كل اتجاه وكأنه ينقى غولاً.. ثم راح كل شيء فيه يلوح، ساقاه وجذعه وكتفاه ورأسه وذراعه فى حركات لا علاقة لكل منها بالأخرى.. كان يبدو أن الطفل قد تناثر فى الهواء.. وعندما اندفعت السيارة من أمامه كان رأس الحمار قد تعدى منتصف الطريق، وانحرفت السيارة قليلاً إلى اليسار، وصفعت رأس الحمار صفة دوت فى جنبى الأيمن.. وتعالى فى الشارع الصيحات، وامتد من بين الأصوات خيط رفيع نبع من حلق الصبى، خيط مرتجف يصيح:
«البهيمة!!».

بعدها.. ارتج بي الكون كله، وصرخت عجلات السيارة، ثم توقفت تمامًا، وكانت الشنائم قد ازداد انهيارها، لتسب الدنيا من أولها حتى آخرها، حاضرها وماضيها، جدود الأجداد وأجداد الجدود، وفتح باب السيارة، وغادرها العملاق وصوته يدوي، وقد سكت الناس تمامًا فى الخارج.

لا بد أنى سقطت فى غيبوبة؛ إذ إننى أفقت على جسدى وقد التوى إلى الخلف ملتصقاً بالمقعد أكثر، وانتابتنى رغبة جامحة فى الفرار، وتحسست يدي مقبض الباب، حاولت الحركة فلم أستطع، حاولت الفرار لكنى لم أفر، انتابنى الخوف أكثر.. غزاني تمامًا، شلنى.. كبلى، استولى على ثم احتلنى!.. فبقيت مكاني لا أبرحه!!

وجاءتنى الأصوات فى الخلف فاستدرت.. كان الحمار يقف وحيداً فى ذلة، رأسه منكس والدماء تنزف من جبهته، وأقدامه ترتجف، والعربة من الخلف خالية.. وخلف العربة كان الناس قد تجمعوا فى كرة من الحركة والكلام فى وسط الكرة كان العملاق هناك، يرفع فى الهواء قبضة فولاذية تعلق بها الطفل من جلبابه وانزلق جسده النحيل داخل الجلباب فاختنى فيه، وكان الجلباب يهتز من الداخل، ومن الداخل كان الخيط الرفيع النابع من حلق الصبى يصيح: «البهيمة.. دي البهيمة!».

وهدأت حركة الكرة البشرية، وانتظمت الرعوس في سياج أحاط بالعملاق والصبي.. وخرجت من الأفواه عشرات التعليقات، وصنعت الأصوات سحابة داكنة وكثيفة، وفم العملاق ما زال ينهمر بالشتائم والسباب وتشتد قبضتي على مقبض الباب دون أن تجرؤ على تحريكه والتصقت ركبتي وتخشبتا.. كف العملاق يهوي على وجه الصغير بالصفعات، يميناً ويساراً، في انتظام، بوجه الكف وظهره، بلا مجهود يذكر، هي فقط تتحرك كذراع من حديد، وفي حركتها البندولية ترتطم بوجه الصغير، وخيط الصوت الرفيع ينساب منتعشاً مع كل صفة: «البهيمة.. البهيمة.. البهيمة..».

ثم تفرج القبضة، ويسقط الجلباب مكوماً على الأرض وفي داخله الصبي الصغير، وما زال بالخيط الرفيع يردد: «البهيمة.. البهيمة.. يا خلق زي البهيمة!».. ولم يلبث الجلباب أن تحرك، وبرز رأس الصبي من فتحته، وترنحت ساقاه عندما وقف، ورفع ذراعه في الهواء نحو فمه ليمسح عنه الدم السائل، وكان أنفه الصغير شديد الاحمرار، ثم مشى نحو العربة مطرقاً واقترب من الحمار وراح يمسح الدم عن رأسه المجروح، ثم احتضن كل الرأس بذراعيه، وراح يربت عليه في حنان.. وعندما رفع رأسه للناس كانت في عينيهِ دموع، وارتجف صوته وهو يقول: «دي البهيمة.. البهيمة!».

وتلوى جسدي وأنا أعتدل في جلستي بسرعة.. كان العملاق يعود إلى السيارة، وكان يفتح الباب ويدلف إلى الداخل، وما زالت قبضتي متشبثة بالمقبض بجواري، وشد الجذع الهائل عيني، وزارت السيارة ولساني لا يزال ملتصقاً بسقف حلقي.. وإذ بهزة عنيفة تلتصقني بالمقعد أكثر والسيارة تندفع إلى الأمام، وصوت آلة التنبيه يزعق في الناس، ويفزعهم.. وما زال سيل الشتائم ينهمر من النافذة فوق كل الرعوس على السواء، وكان الصوت الخشن يبدو سعيداً، وكانت نظرة خاطفة إلى المرأة، كافية لأن تظهر: إنه كان في غاية الرضا عن نفسه!

جدتي

كانت جدتي دائماً مريضة.. تجلس في فراشها وتسرع بصوتها الرفيع.. وتتوجع وتشكو - وكنت كثيراً ما أجلس بجانبها أرقب وجهها المنكمش الصغير.. والتجاعيد التي ملأته.. حتى أصبح كورقة بيضاء عبث فيها طفل بالقلم عبثاً لا هدف له.. وبشرتها الناصعة التي لم تكن تنسى أن تدعكها بالجلسرين كل ليلة.. حتى لتراها لأمعة دائماً.

ولم تكن تنهض من فراشها إلا لتؤدي الصلاة.. تلك الصلاة التي ظلت سبعين عاماً تصلي - من اللي عليها!! -.. ذلك أنها لم تبدأ الصلاة إلا في سن الخامسة عشرة!! عندما أنجبت عمي الكبير.. ورغم هذا المرض الذي كانت تدعيه كانت تنهض كل ليلة في الفجر.. فتتوضأ بالمياه الباردة كالتلج - وتجلس في ركن الحجرة فوق سجادة الصلاة التي صنعتها من الملابس القديمة.

وحتى في صلاتها لم تكن «تبطل» الشكوى فهي تقطع الآية لتقول: «أه ياني» ثم تستمر في القراءة..

وكان يلذ لي أن أرقبها وهي تجلس في فراشها وقد تذررت بأشياء كثيرة؛ ملاءة وطرحة.. وجلياب قديم.. وبطانية.. ولا يظهر منها سوى وجهها المكرمش الأبيض اللامع كأنه نقطة بيضاء في إطار صنعه الشال الأسود الذي تصر على أن تضعه فوق كل هذا.. وذات يوم سافرت والدتي إلى الصعيد في زيارة لأختها.. وأصبحت جدتي هي ربة البيت.. وحرار والدي ماذا يفعل في أمر الطعام - وكان واضحاً أن سفر والدتي هذا سوف يربك حالة البيت فترة غيابها.. واستعد كل منا لتلك الفترة في صمت فليس هناك من يقوم بالعمل سوى خادم صغير يدعى عبد الشافي وجدتي لن تستطيع في مرضها أن تفعل شيئاً..

وفي صباح اليوم الأول قال لها والدي:

«حانتغدى إيه النهارده يابينة»؟..

«أنا عارفة»!!

«طيب.. خدي ابعتي عبد الشافي يشتري أي حاجة».

«حاجة إيه»؟!..

«أهو اتصرفي انتي بأه»..

وكان واضحاً كل الوضوح أننا لن نأكل إلا أشياء خفيفة ولكن.. في ذلك اليوم علت وجوهنا جميعاً دهشة بالغة عندما عدنا من الخارج ووجدنا جدتي تقف وسط الصالة مشمرة عن أكمامها وقد رفعت ذيل جلابيها وخلعت كل ما كانت تضعه فوق رأسها عدا منديل صغير، وظهر لأول مرة منذ زمن طويل شعرها الأبيض اللامع، وكان عبد الشافي يعمل بهمة ونشاط وهي تأمره أن ينظف هنا وهناك.. ودخلنا إلى الحجرات ولم نستطع أن نبارحها خوفاً من صراخها الرفيع العالي ورحنا ننظر إليها من خلال أبواب حجرتنا ونحن مشفقون عليها وقد نسينا الطعام والجوع لقد كان منظرًا غريباً حقاً. وقلت لها:

«بعدين تتعبي يانينة» .

«اخرس انت.. همّ سنات اليومين دول سنات»؟

وضحكت وأنا أقول لها:

«يعني انتم بس اللي كنتم سنات»؟

«تعال شوف طلعت إيه من الشقة».

وكانت تشير إلى أترية جمعتها في صفيحة قديمة..

وفي الحقيقة أن البيت أصبح في غاية النظافة.. وكانت جدتي نشطة سعيدة.. ليس بها مرض.. ولم تشك تعبًا.

وتناولنا الغداء في ذلك اليوم مع غروب الشمس.. ولكن أحدنا لم يستطع أن يتقوه بكلمة واحدة.. كان الطعام لذيذاً فعلاً.. والبيت نظيفاً ومرتباً كأنه جنة!!

وسارت الحياة على هذا المنوال - تقف جدتي في منتصف الصالة.. عاقدة يديها خلف ظهرها.. تروح وتغدو كالقائد وسط المعسكر - وصوتها ينطلق مسرعاً رفيفاً يأمر وينهي.. وكلنا نطيع في صمت.. ورضًا..

وكان واضحاً جداً.. أنها شفيت من مرضها تماماً.. وأنها أصبحت في قوة الحصان.. ومرت الأيام.. وعادت والدتي.. وجلسنا نضحك وجدتي تقص عليها ما صنعتها بالبيت.. وما أخرجت من أترية من تحت الدواليب والأسرة.. وتستنشهد بنا.. ونظام الطعام.. وقلة المصروف.. التي عدتها مفخرة المفاخر.

كانت تتكلم في قوة وتفخر كأنها انتصرت في معركة هائلة وقلت لها - طيب يانينة.. ما تمسكي انتي المصروف والبيت..

ونظرت إلي بعينيها الصغيرتين.. ثم مصمتت بشفتيها وقالت..

- أشتغل انا.. وترتاح امك اظن.. ومدت يدها إلى ظهرها تتحسسها.. وخفت صوتها في الحال.. وتحشرج وتقطع وهي تقول في أنين بالغ..

- آه ياني.. ياوسطي..

وعادت جدتي مريضة من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقمة

كانت مشكلة... إنه لا يدري إلى أين يذهب..

وكان يجوس بعينه الخبيرتين خلال الظلام.. وصوت المعلم الأجنس الخشن لا يزال يطن في أذنيه مرعباً مخيفاً.. وقدماه الصغيرتان تتحسسان الأرض المبتلة.. والطين ينفذ من بين أصابعه الدقيقة.. ويضع لطعتين كبيرتين تحملهما قدماه المتجمدتان.. وتبعثان في جسده من خلال ساقيه الرفيعتين.. قشعريرة قاسية..

وعندما كان يدلف إلى زقاق مظلم شديد الظلمة.. كان جسده الممصوص يرتجف في شدة.. ولمعت عيناه في نهاية الزقاق.. وتحت النور الخافت رأى شبحاً بدا له ضخماً طويلاً.. مرتدياً معطفاً ثقيلاً وعلى كتفه بندقية.. وهو يتلمل في وقفته.. ويدور بعينه في المكان كأنه يبحث عن شيء تاه منه..

وأحجم هو في أول الأمر.. وكاد يعود أراجيه باحثاً عن مكان آخر.. ومر بخاطره دعاؤه وتوسله قبل أن يذهب إلى المعلم.. وحقاً هو لم يسرح طول اليوم.. كان يشعر في الصباح بتعب يهد جسده الصغير.. ولم يستطع أن يسرح وراء أعقاب السجائر.. وحلاوة شمس النهار.

وطرده المعلم.. وحرّم عليه المبيت في الوكالة.. وقال له بصوته الأجنس «روح نام عند أمك».

ولكنه لم يكن يعرف له أمّاً ولا أباً.. وقصته لا يدريها.. وهو لا يعرف في الدنيا سوى الوكالة ومن فيها.. وكادت ذراعه تهبطان إلى جانبيه في يأس لولا تعلقه بالأمل وموجة البرودة التي سرت في جسده حتى وقفت لها شعيراته الصغيرة الصفراء.

- يارب اعمي عينيه عني.. يارب.. بحق جاه النبي.. يارب.. وما كاد ينتهي من دعائه حتى غلبه البكاء.

واستند إلى الحائط الخشن المبرز برهة.. وتألّم ظهره المعضم.. وكان الشبح في تلك اللحظة يطلق سعة قوية هائلة انتشرت في السكون وتمددت وتعددت وانقض وأخذ يجوب بعينه من خلال دموعه في المكان.. ثم خفق قلبه.. وتحرك في ببطء وحذر فوق الطين الأملس البارد.

وخلف صندوق القمامة الكبير الهائل الذي يتسع لعشرة من أمثاله جلس ملتصقاً به في خوف وكأنه يحتمي بالجماد من الإنسان ومضى الوقت.. وساد الصمت.. واطمأن عندما خفت حركة العسكري وسرى الاطمئنان إلى نفسه وحاول أن ينام دون جدوى.. كانت أمعاؤه تتلوى من الجوع وقد بدأ يزحف إلى فكره في وضوح بعد ذهاب خوفه.. وأخذ يجول خلال القمامة بعينه.. وكاد يمد يده مرات لولا خوفه في تلك الرجفة اللعينة.. وأخذ يسحب يده في ببطء من تحت إبطه.. ثم توقف.. ثم سحبها في ببطء شديد.. ثم توقف خوفاً من الرعدة.. وظل مدة مسمراً لاهت الأنفاس.. وأخيراً.. خرجت يده.. ومدّها إلى القمامة الطافحة من الصندوق وأخذ يعبث فيها بيده ويجوس خلالها.. ثم لم يجد بداً ففرد ذراعه الثانية وهو يطلق أنة مرتعشة مرتجفة.. ثم انحنى على الكوم الرطب المبلل.

وفجأة.. سمع صوتاً خفيفاً خفيضاً يقترب ويقترب وانتفض قلبه في عنف وخوف.. وتسمر لا يستطيع الحركة واقترب الصوت.. وعندما ظهر شبح الكلب الأعرج أمامه.. كاد يطلق صرخة ثانية.. وسقط قلبه بين ضلوعه من الهلع.. ثم استرد أنفاسه بعد لأي.. والتقت عيناه بعيني الكلب اللاهث المزمجر.. وظل كلاهما يستفز صاحبه.. كان لسان الكلب متدلياً.. وأسنانه بارزة قبيحة.. وصوته يخرج من جوفه لاهتاً صاخباً.. وذيله متقلص ملتصق بفخديه.. والتصق هو بالصندوق.. وقعت عيناه على لقمة.. وعندما مد يده إليها.. زمجر الكلب وهو ينظر إليه محذراً بنظرة نارية.. وسحب يده.. واطمأن الكلب وعاد إلى البحث من جديد.. وكان يعلم أن الكلب سيشمها ويجدها.. ولكن الكلب ابتعد عن مكانها.. واستدار في اطمئنان إلى مكان آخر.. وانتهاز هو هذه الفرصة.. ومد يده بسرعة واختطف اللقمة.. وأحس به الكلب.. وتقلص ذيله والتصق بفخديه في تحفز.. وكشّر عن أنيابه.. وظل يزمجر برهة.. ثم استدار يبحث من جديد.. واطمأن هو قليلاً.. ورفعها إلى فمه وقضم منها في بطن وحذر.

وكان الكلب قد بدأ يصدر أصواتاً خافتة يائسة.. واستدار ينظر إليه كأنه يطلب معونة.. وكان هو يمضغ في ذلك الوقت لقمة يلوكها في فمه.. وتعلقت عينا الكلب به.. وظلا كلاهما ينظر إلى الآخر برهة.. كان أعرج معضماً مثله تماماً وأخذ الكلب يقترب في مودة.. وذيله يتطوح في سلام آمن.. ولكنه أشاح عنه.. وظل يمضغ وأحس بقوة تجذبه للنظر إلى الكلب.. وهو قد تعود أن يشيح عنه الجميع وما تعود أن يشيح عن أحد.. والتقت عيونهما من جديد.. ووقفت اللقمة في حلقه.. وتوقف برهة.. ثم مد يده الأخرى واقطع لقمة ألقى بها إلى الكلب الذي أخذ يلتهمها في سراحة.

واقترب الكلب في بطن.. وهو يرقبه في غير اكتراث. ثم أسند رأسه إلى الصندوق.. وارتعش.. وأخذ الكلب يقترب.. وراه يمد بوزه الأسود الطويل.. ثم أحس بلسانه الساخن يلحق قدمه الصغير.. وشعر لملمس اللسان بدفء لذيذ.. تسرب كخيوط ربيع أخذ يمتد إلى كل جسده.. وابتسم.. ورفع الكلب رأسه.. والتقت عيونهما من جديد وكان الكلب يهمهم وهو يلحق الكف الصغيرة التي امتدت بلا رعشة تمسح على رأسه وتحضنه وذيل الكلب لا يكف عن الاهتزاز أكثر وأكثر.. وضحك هو ضحكة خافتة.. ثم قال وهو يربت على رأس الكلب:

«أنا اسمي بلية.. وانت اسمك إيه؟».

ودفن الكلب رأسه في حجر بلية.. الذي أسند رأسه هو الآخر إلى الحائط.. ونام.

أنا عايزاك إنت

حقاً لقد اختلفنا كثيراً - سوسن وأنا - في السنوات الأخيرة، لكنها كانت خلافات طبيعية تحدث في كل بيت وبين كل اثنين اختاروا - بمحض إرادتهما - أن يعيشا معاً في بيت واحد وتحت سقف واحد في شركة مقدسة يطلقون عليها اسم الزواج!

وأنا لا أذكر أنني أحببت «سوسن» - زوجتي - هذا القدر من الحب الذي يدفعني إلى مغامرة الزواج.. فالزواج عندي في البداية والنهاية أمران، مغامرة ومسئولية!!

مغامرة، لأنني فتحت عيني على الدنيا لأجد أبي يكدح منذ الصباح حتى المساء في عمل متواصل وشاق.. حتى يوفر لنا - أمي وأمه وإخوتي الخمسة، ثم انضمت إلينا فيما بعد عمتي وولداها بعد أن توفي زوجها - لقمة عيش كريمة، كان كل همه في الدنيا أن نأكل جيداً حتى ولو كان الأكل «قرديحي» بلا لحم، وأن نرتدي ملابس لائقة، حتى ولو كنا نرتديها بالتبادل أو التقادم، فملابس الكبير تتول إلى الصغير في العام التالي وهكذا..

لم نكن نراه إلا في الصباح الباكر قبل ذهابه إلى عمله، وهو يسأل كلاً منا عن أحواله وعن مدرسته وعمما ينقصه، لا فرق بين واحد منا وبين ولدي عمتي اللذين انضما إلينا بعد وفاة والدهما.

كان الزواج من وجهة نظري مغامرة لهذه الأسباب.. فالذي يختار حياة كالتي عاشها أبي، لا بد أن يكون مغامراً.. وهو مسئولية لنفس الأسباب، فعندما توفي زوج عمتي، انتقلت مع ولديها إلى بيتنا في هدوء وبشكل طبيعي ودون مناقشة.. كانت هذه مسئولية أبي، فراح يؤديها في صمت ودون كلام!

لست أبغي بهذا اللغو أن أصدع رءوسكم بقصة حياتي، ولكني فقط أريد أن أقول: إنني عندما تزوجت سوسن، انتقيتها من وسط عشرات الفتيات اللواتي مررن في حياتي.. ولقد كانت صورة أمي - دون شك - ماثلة في ذهني وهي تكدح، هي الأخرى! منذ الصباح المبكر حتى يعود أبي في ساعة متأخرة من الليل، فيما بين غسيل وطبخ ورفو جوارب وتفصيل قمصان وجلابيب وبيجامات وكى ملابس إلى آخر كل هذه الواجبات المنزلية التي اندثرت في جيلنا هذا ولا أدري كيف ولماذا؟!!

على كل الأحوال، فأنا أعتقد أن سوسن هي الأخرى لم تحبني ذلك الحب الذي يجعلها تضحي بأي شيء من أجلي.. كنت عريساً ملائماً من كل الوجوه فقبلني أهلها كما قبلتني هي وتزوجنا وكنا سعيدين تلك السعادة الفاترة التي لم تقرأ عنها في القصص ولم تشاهدها في الأفلام أو المسلسلات!

كنا سعيدين دبرنا أمورنا منذ البداية تدبيراً جيداً، وضعنا النقط فوق الحروف، كما وضعنا راتبها فوق راتبي.. ورتبنا حياتنا بدقة، وعشنا في قناعة مثلنا مثل غيرنا من الناس، نسعد بتلك الأشياء الصغيرة التي إذا ما وجدت في حياتنا جعلت لها طعمًا خاصاً.. وعندما أنجبنا سامي - طفلنا الأول - ازدادت بالطبع سعادتنا.. بل إنني أستطيع أن أزعم، أن سامي أضاف إلى هذه الحياة رونقاً جديداً، دفعنا إلى التطلع بعض الشيء نحو تحسين مستوانا الاجتماعي. وكان هذا الأمر قبل مجيء سامي لا يشغل بالنا كثيراً.. فلقد فكرت سوسن - مثلاً - أن الولد لو تعلم في مدرسة أجنبية،

فلسوف تفيدده اللغة في المستقبل، خاصة أن الزمن أصبح غير الزمن، والدنيا لم تعد هي دنياها التي عرفناها.. كان المجتمع يتغير من حولنا بعنف أصابنا في البداية ببعض الارتباك.

ودخلت حياة الناس - ونحن منهم - أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل.. وأنا لا أستطيع أن أنكر أنني أحسست بالزهو لأن ولدي سوف يلتحق بمدرسة أجنبية.. بل إنني رحت أذكر هذا بين زملائي وزميلاتي في العمل، مدعيًا أنني أخذ رأيهم في الموضوع، بينما كنا - سوسن وأنا - قد اتخذنا القرار بالفعل.. ولم يكن حديثي عن الموضوع إلا لإعلام الزملاء والزميلات أنني أصبحت أبا لطفل يتعلم في مدرسة أجنبية وبالتالي فهي مدرسة خاصة، وأن مصاريفه التي تبلغ كذا ترهقني، وأن كتبه التي دفعت فيها كذا تبدو رائعة، وملابس المدرسة كلفتنا الشيء الفلاني.. وليس عيبًا أن أعترف أنني كنت أشعر بلذة حقيقية وأنا أتحدث في الموضوع، وكان الولد سوف يشدني معه إلى حيث ما أتمناه ولا أدريه!!

كنت واعيًا تمامًا، كما كانت سوسن واعية، إلى تلك العقدة التي ترسبت في نفسي من حياتي في بيت أبي، وازدحام البيت بالأطفال، وذلك الحرمان الطبيعي والمنطقي الذي فرض علينا.. بل إننا كنا نناقش الأمر معًا، ونضحك منه وعليه وأنا أحكي لها نوارد من حياتي في بيت أبي الذي نجح في تربيته جميعًا، وتعليمنا جميعًا.. ثم ماتت جدتي وبعدها عمتي وتخرجنا واحدًا إثر الآخر، وتفرقنا في دروب الحياة ولم يبق معه في البيت سوى أمي وأختي الصغرى فاطمة التي كانت تستمع لما كان يحدث في حياتنا الماضية في دهشة ممزوجة باحتقار كان يضحكنا منها، ذلك لأن فاطمة عندما شبت عن الطوق، كان فينا من تخرج ومد يد المعونة إلى أبينا، وكان فينا من يحبها - لأنها آخر العنقود - إلى حد التذليل المفسد.. وكانت الحياة بالنسبة لأبي قد أصبحت أكثر ليونة وأقل تعبًا، بالرغم من أنه لم يكف عن العمل منذ الصباح حتى المساء!

وما علينا من كل هذا، فإن المشاكل بيني وبين زوجتي سوسن لم تتفاهم إلا بعد أن أنجبنا طفلتنا الثانية شرين!

فجأة ازدادت مسؤولياتي!

الولد في مدرسة أجنبية وهذا شيء كانت له أولوية خاصة عندي - ولم تكن هذه جريمة على كل حال - فإن قليلاً من التطلع وسط مجتمع كان التطلع قد أصبح سمة من سمات أفرادها، أمر مقبول ولا غبار عليه.. لكن البنات ولدت ضعيفة وفي حاجة إلى رعاية دائمة، وكان أجر الطبيب قد قفز من جنيهين في الزيارة إلى عشرة جنيهات.. والتهبت الأسعار فجأة كما تشب النار في كومة من القش.. ووجدنا أنفسنا - سوسن وأنا - كمن تحيط به «حريقة» من كل جانب.. حقاً كان راتبي وراتبها قد زاد قليلاً، ولكن، ليس بنسبة تلك الزيادات التي أربكتني رغم أنني منظم وأعرف كيف أضع القرش في مكانه.. غير أنني استطعت - بمساعدة سوسن - أن أعيد التوازن إلى حياتنا بشكل أو بآخر، ولكن.. أي توازن هذا؟!!

كان كل شيء من حولنا يتغير بسرعة مجنونة، وكانت احتياجاتنا تنزأ يوماً بعد يوم، ومصاريف الولد وطلباته واحتياجات المدرسة وأجر الأتوبيس تقصم الظهر، وبدأنا نفتقد - هي وأنا - هذا السلام الذي رفر ف طويلاً في سماء حياتنا، والذي يطلق عليه الناس اسم «راحة البال».. ولكن الأمر لم يكن معضلة على كل الأحوال، فلقد أصبحت مسئولاً الآن عن عائلة، وكان لا بد لي أن أتدبر الأمر وأتحمل مسؤوليتي.. وهكذا قررت ذات يوم أن أبحث عن عمل إضافي!

ولا بد لي من الاعتراف بأنني لم أتخيل أن الأمر سيكون بهذه السهولة، وعندما طرحت الفكرة على سوسن، أطلت عليّ من عينيها نظرة كانت تستغيث، فلأنها مسئولة عن مصروف البيت فلقد كانت تعاني معاناة صامتة وإن كنت أسمع صرخاتها في النظرات المتوسلة حيناً، المتحسرة أحياناً.. وعلى سبيل المثال، فلقد عجزنا ذات شتاء عن شراء «بلوفر» جديد لسوسن بعد أن تهدلت البلوفرات الثلاثة التي تملكها.. كل ما قالته هي أنها خائفة عليّ من التعب، ثم ابتسمت وهي تقول: «علشان تحرم تعاييب على أبوك!».

وعندما وجدت عملاً في إحدى الشركات الجديدة، بدا لي الأمر مبهرًا حتى أقصى درجة.. فالمكاتب كانت جديدة، والحيطان نظيفة، وكل منا على مكتبه تليفون، لكن الأهم من هذا كله، أن السعاة كانوا يعاملوننا باحترام ويلبسون طلباتنا بسرعة.. وكان الراتب الذي عرض عليّ - كبدائية - يفوق راتبي بعشرة جنيهات، رغم أن ساعات عملي كانت «بعض الوقت»- وهذه هي الترجمة الحرفية للتعبير الإنجليزي الذي يستعمل في مثل هذه الحالات - وكانت ساعات عملي بالتحديد، من الخامسة حتى التاسعة مساءً، وما زاد على هذا من ساعات، فهناك أجور إضافية!

الحق أقول لكم أنني شعرت بزهو شديد وكان ولدي قد التحق بمدرسة أجنبية للمرة الثانية.. غير أنني إلى جانب هذا، داخلني إحساس غامض بتأنيب الضمير. وهو إحساس كان يعكر زهوي وسعادتي لوقت، فقد كنت أشعر بالزهو؛ لأنه مع تدبير سوسن وخلو حياتي من المكيفات والسهرات وما إلى ذلك جعلني أوازن، وبسرعة غير متوقعة، حياتي الاقتصادية.. ليس هذا فقط، بل إننا في خلال ثلاثة أشهر - وهو زمن قصير في عمر العائلات - استطعنا أن نشترى «الملون» بالنقسيط - وكلمة الملون هذه كناية عن التليفزيون الملون الذي انتشر فجأة وأصبح حديث الناس في

تلك الأيام - ولم يعد حديثي مقصورًا على الولد ومدرسته الأجنبية والمصروفات التي أدفعها له، بل امتد إلى «الملون» الذي يضيف إلى المسلسلات بهاءً ورونقًا.. هذا، بالرغم من أنني - بصراحة - كنت أستمتع أكثر إذا ما جلست في غرفة الولد والبنت حيث نقلنا التليفزيون الأبيض والأسود، لمشاهدة أفلام السهرة، خاصة الأجنبية منها حتى أدرب نفسي على استعمال اللغة مع الأجانب الذين يعملون في الشركة أو يتوافدون عليها!

كانت هناك أشياء كثيرة تبعث على الزهو والتباهي، منها مثلاً أنني استطعت أن «أفكر»- بعد الشهر الخامس - في شراء سيارة صغيرة.. ذلك أن الشركة كانت تعمل في كل اتجاه ممكن، وكان مديرها المصري رجلاً كالمقشاط، ما إن يدخل في عملية حتى نشعر أن ثمة سوطاً يلهب ظهره كي يفوز بها، فكان يجندنا جميعاً لدراستها والعمل فيها.. لم يكن يعنيه أن نسهر أو نقبض «أوفرتايم»، كان كل ما يعنيه أن يحصل على نتائج سريعة ودقيقة، لأنه هو نفسه كان يحصل على نتائج باهرة، تدفعه لأن يوزع علينا «بونص»- مكافأة - وصلت ذات مرة إلى مائتين من الجنيهات لكل منا!

ثم استدعاني المدير ذات يوم وقال لي باختصار ودون لف أو دوران وبصوت شديد الخفوت، إن العمل في الشركة أصبح يحتاج إلى جهدي «كل الوقت» لا «بعض الوقت».. وإن علي - في خلال يومين لا أكثر - أن أفكر وأن أختار، وإلا.. فلسوف يصبح في حل من توظيف غيري!

وهكذا وجدنا أنفسنا - سوسن وأنا - في مأزق.. كنا قد استطعنا بالكاد أن نلتقط أنفاسنا خلال شهور ثمانية مرت منذ أن تسلمت هذا العمل الإضافي، بل الحقيقة أننا كنا قد تعودنا على استعمال أشياء لم تكن موجودة في حياتنا.. ومع اعترافي الكامل بأنها في غالبيتها العظمى كانت كمالية، إلا أنني كنت قد أصبحت أراها ضرورية.. فأنا رجل يتعب ويكدح حتى ساعة متأخرة من الليل.. وكان من حقي وحق أولادي وزوجتي أن نستمتع بثمار هذا الكدح والتعب!

وهنا، وفي المهلة الأولى التي حددها لي المدير بيومين، بدأ ذلك الإحساس الخفي بتأنيب الضمير يتضح أكثر، ويفرض نفسه، ويبرز ويشكل في حياتي مشكلة حقيقية.

لست أريد أن أدعي أنني مثالي أو وطني متحمس أو أيُّ من هذه الألفاظ التي كنت أقرأها في الصحف، ولكني كنت أواجه حقيقة بدت لي مؤسفة.. وهي أن كل الذي أعطيه لهذه الشركة، قد تعلمته من عملي الحكومي.. كانت الحكومة وهي تعطيني راتبي كل شهر، تعلمني أشياء كثيرة حتى أصبحت «خبيراً» في الفرع الذي تخصصت فيه.. وأنا لم أسمع عن نفسي كلمة «خبير» هذه إلا في الشركة التي التحقت بها.. سمعتها من المدير ذات مساء وهو يقدمني لواحد من رجال الأعمال الأوربيين اللامعي الوجوه الذين كنا نراهم كثيراً عندنا.. ولقد ظننت في البداية، أن الرجل يجاملني، ثم اكتشفت أنني أعامل بالفعل، ومع الجميع، كخبير.. فعرفت قيمة نفسي لأول مرة!

ودون إطالة في الحديث، لقد اتخذت القرار بأن آخذ الإجازة بدون راتب كي أعطي جهدي كله للشركة.. من الثامنة صباحاً، وحتى ما بعد منتصف الليل بساعة أو

أكثر!!

ومر عامان!

عامان من عمر الزمن، لكنهما كانا قرنين في عمر حياتي مع سوسن!

كنا قد اشترينا السيارة وانتقلنا إلى شقة مرتفعة الإيجار دفعنا فيها خلواً وصل إلى رقم لم أحلم في حياتي - قبل هذا - أني سأراه مرة بعيني رأسي.. ثم غيرنا أثاث البيت، وأصبح لسامي غرفة خاصة، ولفاطمة غرفة أخرى.. واشترينا الفيديو، ثم توجنا كل هذا، بشراء سيارة خاصة لسوسن لأن توصيلي إياها إلى مقر عملها في الصباح، كان قد تحوّل إلى أزمة!

كان كل شيء في حياتي يبدو كأنه منضبط مع إيقاع العصر! حتى إذا كانت ليلة عدت فيها من عملي لأجد سوسن مكتئبة، وعندما سألتها عما بها، سألتني بدورها.

«طب وبعدين؟!».

لم أفهم ما الذي كانت تقصده بسؤالها، كنت متعباً مجهداً أفكر في الصفقة الجديدة وذلك الاجتماع الذي سيعقد في السابعة على مائدة الإفطار في واحد من أفخم فنادق القاهرة، مع بعض الخبراء الأجانب لاتخاذ قرار نهائي في أمر هذه الصفقة التي ستدر على الشركة أرقاماً فلكية!

ولقد تركتني سوسن ليلتها بعد أن أحست بتعبي.. غير أنني بعد ذلك، وكلما عدت إلى البيت، كنت أجدّها في انتظاري، وعلى شفيتها نفس السؤال:

«طب وبعدين؟!».

وكان لا بد أن نناقش الأمر كما هي عادتنا.. ولكنني قبل أن أبدأ المناقشة اكتشفت شيئاً غريباً، هو أنني خلال العامين اللذين انقضيا منذ التحقت بهذه الشركة، لم أكن قد جلست إلى سوسن لمناقشة أي أمر من أمورنا. وأني كنت أتخذ القرارات بسرعة وحسم.. ثم أنني تذكرت أنها - بالنسبة لبعض قراراتي - كانت تحاول المناقشة، ولكن حجبي كانت دائماً جاهزة كمدفع رشاش يسكتها تماماً وإن بدا عليها عدم الاقتناع!

في تلك الليلة قالت لي سوسن: إنها لم تعد تراني، وإنها لم تجلس إليّ منذ أن عرفت الطريق إلى هذه الشركة، وإنها تشعر - وكذلك الولد والبنت - بفراغ ووحدة مخيفة، وإنه لا بد من وضع حدّ لكل شيء.. لا بد وأن نعيش معاً!!

حقيقة لم أفهم!!

فما الذي كانت تريده مني أكثر مما قدمت لها وللطفلين؟!

صاحت سوسن!

«أنا مش عاوزة عربيات ولا فيديو ولا ملون.. أنا عايزك انت!».

مرة أخرى لم أفهم!

الغريب في الأمر، وهذا ما لم أصل إلى سبب مقنع له، أنني فوجئت بالمناقشة بيني وبين سوسن تتخذ طابعاً عصبياً للغاية، لدرجة أن صوت سوسن كان يعلو فيستقزني، ليعلو صوتي فوق صوتها فيستقزها، ثم اشتبكت كلماتنا وتصارعت، وهي لا تقول شيئاً كلما عددت لها ما فعلته سوى:

«أنا مش عاوزة ده».

«أمال عاوزة إيه؟!».

«عاوزاك انت!».

«طب ما نا أهوه!».

«إنت فين؟!».

«إنتي اتجننتي.. ما انا قدامك أهو!».

«أيوه.. بس انت مش موجود!».

ولقد تعبت كثيرًا، فأنا رجل مخلص، لم أعرف في حياتي امرأة غير زوجتي، وأنا لا أزال والحمد لله بلا هوايات ولا أهواء وليست لي حياة خاصة.. وكنت إذا ما قلت هذا، تعود إلى الصراخ في هستيريا مؤكدة:

«مش ده.. مش ده!».

«أمال إيه بس ياسوسن؟!».

«إنت.. إنت.. أنا عاوزاك انت!».

وهي، وحتى اليوم، ورغم مرور الشهور لا تزال تطالب بنفس الطلب وما زلت أصيح فيها كلما سمعت صراخها:

«طب ما نا أهو!!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البندول

استيقظ حسين على صرخات زوجته.. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحًا بدقائق.. رآها تتململ في رقدتها، بطنها المنتفخ عاليًا كالقبة فوق جسدها، غمغم وهو لا يزال بين اليقظة والنوم:

«ما لك يا سناء؟!».

قالت سناء بصوت متقطع:

«يظهر المرة دي الحكاية بصحيح يا حسين!».

استدار بوجهه إلى الحائط وهو يقول: «ما تعقلي يا سناء.. الدكتور قال لسه بدري!».

«لا يا حسين.. المرة دي غير المرة اللي فاتت».

لا فائدة من النقاش.. لن يستطيع أن يقنعها أن موعد الوضع لم يقترب، وأن الولادة لن تتم إلا بعد أسابيع.. قال وهو يتقلب، ويواجهها بعينيه نصف المغلقتين:

«وإذا كان لسه يا بنت الناس؟!».

ردت عليه سناء بصرخة طويلة.. تمامًا كما حدث منذ أسبوع.. أيقظته في منتصف الليل، وظلت تصرخ وتصيح وتتوجع حتى غادر البيت.. وسار مشوارًا طويلًا، من البيت المدفون في حارة عبد المنعم إلى الميدان الذي يصل إليه الراكب بعد خمس دقائق.. وهو يومها لم يركب، لم تكن هناك موصلات، فسار، وفرد ساقيه بكل ما فيهما من طول، وجرى خطوات.. وعثر على بائع سجائر مازال يبيع لزبائن آخر الليل.. ومن هناك تحدث مع الطبيب في التليفون:

«ألا بتولد؟! طبعًا يا دكتور دي حالتها وحشة جدًّا..».

وصدقه الطبيب، وجاء بعد دقائق، كانت سناء مازالت تصرخ.. وكشف عليها ضغط بيديه على بطنها.. عبث بأصابعه في جسدها.. ثم هز رأسه وقال:

«لسه بدري.. لسه ثلاث أسابيع على الأقل!».

غرق حسين ليلتها في عرق الخجل.. لم يرد، فماذا يقول للطبيب الذي غادر البيت دون أن ينطق بكلمة؟ كان غاضبًا ولا شك.. دلغ ستات.. وسناء نامت بعد ذلك، ولم تتوجع.. ولم تلد..

«يا حسين المرة دي بصحيح!».

«يا شيخه اعقلي.. نامي.. نامي..» لكنها لم تتم.. ظلت تتوجع، وتصرخ، وتصيح.. وهو حائر.. هل ينادي الطبيب، أم يصبر قليلًا؟! المشكلة بالنسبة إليه عويصة.. عويصة جدًّا.. إنه ليس طفلًا، وليس شابًا غريبًا مندفعًا.. والطبيب ليس لعبة في يده، تعال يا دكتور، روح يا دكتور.. الساعة الثالثة صباحًا.. هل يوقظه من النوم؟!.. غير معقول..

سناء تصرخ.. تزداد صرخاتها.. المصيبة أنهم غرباء.. ليسوا في بلدهم، لا أهل لهم في العاصمة ولا حتى قريب.. وليست عندهم خادمة قالوا له: «خدامين مصر

ماشيين على كيفهم!«.. ومنذ أن نقل من بلده إلى القاهرة.. منذ عام وأكثر قليلاً، وهو متردد.. هل يجازف.. يستدعي الطبيب ويحدث ما حدث في المرة الماضية، أم يصبر قليلاً حتى يتضح الأمر أكثر؟!!

كان رأيه في البداية أن يستدعيه.. لذلك نهض من الفراش.. وربت على كتف سناء.. وتمطى.. ثم خرج إلى الصالة وأضاء النور..

وتعلقت عيناه بساعة الحائط، والتي أهداها له أبوه.. كانت الساعة بالضبط بالضبط.. الثالثة وتسع دقائق.. وكان البندول يروح ويجيء إلى اليسار وإلى اليمين، لا يستقر على وضع أبداً.. منذ أن وعى وهو يراقب هذا البندول.. تيك تاك.. تيك تاك.. هل يستدعي الطبيب، أم ينتظر حتى يتضح الأمر أكثر؟!!

العاقل من صبر.. والطائش من اندفع..

- آآه... يا حسين.. الحقني.

اندفع إلى الحجرة في قفزة..

- مالك يا سناء؟

- تعبانة.. تعبانة يا حسين..

في عينيها نظرة مخيفة.. فيها توسل وألم.. فلماذا ينتظر؟!..!

- حالاً يا حبيبتي.. حالاً..

وغادر الحجرة مسرعاً.. مر بالساعة ولم ينظر إليها، لتكن الثالثة أو الرابعة.. هذه وظيفة الطبيب، إنه يتقاضى أجرًا عن عمله هذا.. ليس هناك مجال للتردد إذن.. وضع رأسه تحت الصنبور، وترك المياه تتسلل إلى شعره ووجهه.. وأفاق.. واختطف الفوطة ولف بها رأسه.. وغادر الحمام..

في طريقه إلى الحجرة.. مر بالصالة.. وفي منتصف الصالة، وقف كعادته يجفف رأسه ووجهه.. أمام الساعة التي كانت تشير إلى الثالثة واثنى عشرة دقيقة بالضبط بالضبط.. والبندول يروح ويجيء ولا يستقر على حال..

ماذا لو استدعى الطبيب كما حدث في المرة الماضية.. هل يحتمل نظرة الاستنكار التي رماه بها وهو يغادر البيت؟ هل يثور عليه لو فعلها اليوم؟.. هل يلقنه درسًا في الأخلاق والرحمة و..؟ ولكن الطبيب لم يفعل شيئاً.. إنها مجرد نظرة.. أين الخطأ؟ وأين الصواب؟!!

شيء محير حقاً!.. جلس على المقعد وتعلقت عيناه بالبندول.. تيك تاك.. تيك تاك.. لا.. لا يجب أن يطاوعها.. قال الطبيب في المرة الماضية إنها لن تلد قبل ثلاثة أسابيع.. ولم يمر سوى أسبوع أو أقل من أسبوع.. لا.. لتصرخ نصف ساعة.. ثم تنام كما نامت المرة الماضية.. وستجبل من نفسها لأنها أيقظته في تلك الساعة..

المفروض أن يستأجر خادمة.. في وقت كهذا كان يستطيع أن يترك معها الخادمة، لكنه الآن لا يستطيع أن يخرج.. كيف يتركها وحدها في البيت وهي في هذه الحالة..

- يا حسين.. يا حسين اتحرك شوية.. أنا خلاص..

انتفض واقفا.. ودخل عليها الحجرة.. ثم قال لها وهو يرسم على شفثيه ابتسامة:
«مش نستنى شوية يا سناء.. يعني لو..».

ولم يكمل كلامه حتى عادت إلى الصراخ من جديد.. كان وجهها شاحبًا شاحبًا..
وعيناها واسعتين، أوسع مما كانتا دائمًا.. ولكن هذا حدث في المرة الماضية.. تمامًا
نفس الصرخات ونفس الشحوب.. وقال الطبيب: «دي شوية تقلصات بسيطة، إنما
مافيش وضع.. لسه بدري.. لسه ثلاث أسابيع!».

- الدكتور قال المرة اللي فاتت إن..

وعادت تقاطعه بصرخاتها.. كانت تتلوى في الفراش..

- انده لي حد يا حسين.. شوف لي حد..

هذا هو الحل.. لماذا لا يوقظ جيرانهم، ويطلب من سلطان أفندي أن يرسل زوجته
لنقظ معها.. إن سلطان أفندي أب لسته أولاد.. وضروري ضروري أن
تكون زوجته ذات خبرة في مواضيع كهذه..

- حاضر.. يا سناء.. حاضر..

غادر الحجرة، وكالعادة، كالعادة فقط تعلقت عيناه بالساعة.. كانت الثالثة والرابع
تمامًا تمامًا.. الثالثة والرابع يعني قبل الفجر بساعة على الأقل، فهل يوقظ
الناس من نومهم؟! مشكلة!!

مشكلة لأنه منذ أن جاء إلى القاهرة ومنذ أن سكن هذا البيت.. ومنذ أن رأى سلطان
أفندي لم تتعد علاقته به سلام عليكم عليكم السلام، فقط.. حتى العائلات لم تتزاور..
كانت أمه تقول له إن ستات مصر لهن طابع خاص.. متحررات.. مكشوفات.. و..
«وياما البيوت بتلم بلاوي»..

لم يكن عنده مانع من أن يزوره سلطان أفندي مع الست حرمة.. ولم يكن عنده مانع
من أن يأخذ سناء ويعبر بها الدهليز الصغير، ثلاث خطوات أو أربع، ويصبح في
مسكن سلطان أفندي.. والجار للجار مهما كان.. ولكن لنفرض أن الست حرم
سلطان أفندي كانت مثلًا مثلًا مثلًا، لتاتة.. من ذلك النوع الذي يقول: «فلانة قالت
وعلانة عملت..» وما له هو وهذه المشاكل؟ حقا لم يحدث من هؤلاء الناس شيء منذ
أن جاورهم.. ولكن من يضمن له أن البيوت لا تلم بداخلها البلاوي!؟

هل يوقظ الناس من نومهم في مثل هذا الوقت؟!.. وماذا يقولون عنه سيقولون: «لما
احتاج لنا جه يزحف ويقول في عرضكم»!.. ولنفرض يعني لنفرض أن سلطان
أفندي رماه بنظرة كالتى رماه بها الطبيب ماذا!؟

انقطع حبل أفكاره، قطعت صرخة سناء الحادة كالكسكين، ومازال البندول يتردد،
تيك تاك، تيك تاك.. لا يستقر على حال..

- يا حسين.. يا حسين!

عاد إليها مرة أخرى.. نفس الشحوب.. لكن في العينين نظرات مختلفة.. فيها
خفوت.. فيها ذبول.. إذن ستنام.. كان معه حق..

- حسين أنا دايدة يا حسين.. أنا تعبانة..

اندفع نحوها بقلب متمزق.. اندفع كالمجنون وأحاطها بذراعيه.. جسدها ساخن..
ساخن جداً..

- مالك ياسناء؟

- الحقني يا حسين.. الحقني بالدكتور..

هذا هو الحل.. ليس هناك حل سوى هذا..

- حاضر ياسناء.. حالاً..

خلع البيجامة.. وألقاها على طرف الفراش، وفي ثوان كان يرتدي القميص
والبنطلون.. ويدس قدميه في الحذاء.. ويعبر الصالة كالصاروخ دون أن ينظر
للساعة.. ويفتح الباب.. ويغلقه وراءه.. ويهبط الدرج مسرعاً.. ويندفع إلى الحارة..
ومن هنا إلى الشارع الموصل إلى الميدان، ويفتح ساقبيه بكل مافيهما من طول ويعدو
عدة خطوات، ثم يسير مسرعاً تارة.. قافزاً تارة.. ويقترب من الميدان.. وبائع
السجائر مازال يبيع لزبائن آخر الليل.. والتليفون موجود.. وسيوقظ الطبيب، سيقول
له: «المرّة ديه بصحيح يا دكتور.. الحالة وحشة جداً.. والله العظيم وحشة»!..
ولكن..

ولكن.. ماذا يفعل لو رفض الطبيب؟!

تسمر حسين أفندي في مكانه.. بينه وبين التليفون عدة خطوات.. وهو مقتنع تماماً
بأن هذا هو عمل الطبيب.. ومقتنع بأن زوجته سناء تتألم.. ولكن.. ماذا لو زال الألم
فجأة؟ ألا يصبح موقفه محرّجاً؟ هل يصدقه الطبيب في المرّة القادمة؟! ستكون
ولادة بحق وحقيق، ولنفرض لنفرض لنفرض أن الطبيب رفض الحضور.. ماذا
يفعل؟!

في التّأني السلامة.. وفي العجلة الندامة..

الميدان خال ليس به أحد.. الأنوار كثيرة تضيء كل شبر في الأرض.. السماء
مظلمة وساكنة.. وحسين ليس طفلاً، وليس شاباً أرعن.. يجب عليه أن يأخذ جانب
الصواب دائماً.. ولكل حقيقة وجهان.. ولكل وجه ملامحه الخاصة.

هل كان مصيباً عندما وافق على الزواج؟!

الغريب أنه لم يعرف الجواب حتى الآن.. أحياناً كان يشعر بأنه أخطأ، فما له هو
والخوف من الخدامات، ومن زيارات الجيران؟! وماله هو والحمل والولادة؟!

وأحياناً كان يشعر بأنه كان على صواب.. سناء جميلة، ولطيفة.. وتحبه.. حقاً تحبه
رغم أنها لم تره إلا عندما أخذه أبوه - عنوة - إلى بيت نسايبه ليخطبها.. ورغم أن
فارق السن بينه وبينها كبير، عشرون عاماً تقريباً.. لكنها تحبه.. ولكن، من يدريه
أنها تحبه؟!

ربما كان ذلك تظاهراً، وربما كان رضا بالأمر الواقع.. لكنها دائماً تقوم على
راحتة، ولا ترفض له طلباً.. أحياناً كانت تقبله بعنف، وتقول له: «أنا من غيرك ولا
حاجة.. أنا بحبك يا حسين.. إنت بتحبني؟!».

وكان يحترق أيضاً.. هل هو يحبها؟! طبعاً طبعاً طبعاً كان يقول لها: «طبعاً بحبك
ياسناء.. مش مراتي!» لكنه بينه وبين نفسه - في الحقيقة في الحقيقة - لم يكن يدري

ما هو الحب! هل..

بترت أفكاره صيحة جندي البوليس، «أها..» أطلقها من طرف الميدان وهو يسدد إليه نظرات الشك.. هذه هي النتيجة.. لقد وضع نفسه موضع الشك، اكتشف أنه مازال واقفاً في مكانه يحملق في التليفون والوقت متأخر.. كم الساعة الآن؟! ربما كانت الثالثة والنصف، وربما كانت الرابعة.. وسواء أكانت هذه أم تلك فالبنودل لا يستقر على حال.. تيك تاك.. تيك تاك.. يكاد يراه مجسماً بخياله.. وليس له أمامه الآن سوى الابتعاد عن هذا المكان، حتى يستقر على رأي، هل يحدث الطبيب أم لا؟ لقد مضى وقت كاف لتهدأ سناء.. تماماً كالوقت الذي مضى في المرة الفائتة.. ما كاد يعود إلى البيت، حتى جاء الطبيب، وحتى هدأت سناء تماماً.. هذا هو الحل.. يعود إلى البيت إذن.. وزيادة في الحيلة، يستمع من وراء الباب.. فإذا كانت لا تزال تصرخ، يعود فيحدث الطبيب، وإذا كان الهدوء شاملاً، يدخل، ولن ينسى أن يؤنبها عندما يطلع الصبح.

الشوارع الخالية لها جمال خاص.. كم أتمنى أن يسير في مثل هذا الوقت وحيداً في الشوارع، تمنى ذلك من أعماق نفسه، لكنه لم يفعلها.. فماذا يقول عنه الناس إذا رأوه؟! وماذا يقول عنه جندي البوليس مثلاً؟!!

ذات مرة راودته هذه الرغبة.. فارتدى ملابسه، وغادر المسكن وهبط السلم.. ثم وقف على عتبة البيت.. يخرج أم لا يخرج.. يخرج أم لا يخرج.. كان قد نظر إلى الساعة قبل أن يغادر البيت، وكانت تشير إلى الثانية وعشر دقائق صباحاً.. والبنودل يتردد تيك تاك.. تيك تاك.. وظل مسمراً في مكانه، حتى مر جندي البوليس، .. «واقف كده ليه يا أفندي؟!».. لم يرد عليه، فماذا كان يقول؟! شيء محرج جداً.. استدار في سكون ودخل البيت، وصعد السلم وعاد إلى الشقة..

وها هو البيت يقترب.. لا صراخ ولا توجع.. إذن فكل شيء على ما يرام والحمد لله..

هبط السلم.. وأنصت..

لا شيء..

وقف دقائق في قفل الباب.. ودخل..

لا شيء..

لا شيء سوى صوت البنودل.. تيك تاك.. تيك تاك، لقد نامت وهدأت..

امتدت يده إلى زر نور الصالة.. لكنه لم يضئه.. تعلق أصابعه بالزر هل يضيئه أم لا؟ ربما إذا أضاءه استيقظت من نومها.. ولكن لنفرض أنها كانت متعبة.. فماذا يفعل؟!.. لا بد أن يراها وأن يطمئن عليها.. تيك تاك.. تيك تاك.. يترك الظلام أم يبدهه؟ يضيء أم لا؟ انتشلته شهقة سناء من ورطته.. فأضاء النور..

- إزيك دلوقت يا سناء.

كانت ممدودة على الفراش.. هادئة في غاية الهدوء.. هذا ما توقعه.. الحمد لله أنه لم يستدع الطبيب..

- سناء.. إزيك دلوقت.

لا ترد إنها نائمة.. في عز النوم ليتركها تستريح إذن.. ولن ينسى في الصباح أن يؤنبها..

جلس على حافة الفراش كعادته عندما يبدأ في خلع ملابسه.. إنه دائماً يخلع حذاءه أولاً.. وضع ساقاً فوق ساق.. وامتدت أصابعه إلى رباط الحذاء.. وتنبه لشيء..

الفراش مبيتل؟! أم هو العرق!؟

ليست مشكلة على أي حال.. ليتأكد بنفسه..

وضع كفه على الفراش.. فغرقت في سائل.. نور الصالة هو المضاء، ونور حجرة النوم مازال مطفأً، والنور الخارجي يلقي على الفراش ظلالاً كانت تخفي الدماء التي أغرقت الفراش!

- سناء.. سناء.. سناء.. كان يصرخ كالمجنون..

- سناء.. سناء.. سناء.. سناء.. ورمته بنظرة.. مجرد نظرة سريعة فيها أشياء كثيرة.. ثم أغمضتهما مرة أخرى.. بلا تردد هذه المرة - فالأمر لا يحتاج لتفكير وقد بان الصواب - اندفع إلى الخارج.. ما كاد يفتح باب المسكن، حتى قفز الدهليز الذي يفصله عن باب مسكن سلطان أفندي.. راح يهوي بيديه على الباب.. ويضغط بأصبعه على زر الجرس.. أكثر من هذا، كان ينادي في توسل: «يا سلطان أفندي.. يا سلطان أفندي!».

ويضاء النور في الداخل.. ويفتح الرجل الباب وهو لا يزال نائمًا.. «خير يا حسين أفندي خير»..

- الست.. الست.. الست.. والنبى الجماعة يروحوا لها لحد ما أجيب الدكتور..

لا يهم الآن عسكري ولا ظلام ولا ناس.. قفز السلم قفزاً، واندفع إلى الطريق اندفاعاً.. وجرى في الحارة والشارع جرياً.. ووصل إلى محل السجائر الذي يبيع الزبائن أول النهار.. وانقض على التليفون.. وأدار القرص بذعر وبسرعة.. الجرس يرن، لا بد أن يستيقظ الطبيب: «الحالة خطيرة، خطيرة جداً، فيه دم يا دكتور، دم مالي السرير».

- حالاً يا حسين أفندي.. خمس دقائق بس، مش حا أغيب أبداً.. اطمئن..

ألقى السماعه.. ونسى أن يعطي الرجل ثمن المكالمه.. عاد يجري ويجري ويجري.. ويصعد السلم قفزاً.. البيت كله صاح.. النور يملأ السلم.. مسكن سلطان أفندي مضاء.. ومسكن الجيران الذين يسكنون الطابق السفلي.. وعلى باب مسكنه.. يقف سلطان أفندي.. في الداخل، زوجة الرجل تبكي بحرقة وهي تردد.. «يا خسارة شبابك يا بنتي.. يا خسارة شبابك»!

وصرخ: «سناء.. مراتي.. سناء»!

وسلطان أفندي يمنعه.. يضمه إلى صدره بحنان غريب، كأنه أب.. ويربت عليه، وتدمع عينا الرجل.. «معلش يا ابني، البقية في حياتك.. لازم تتشجع.. ده أمر ربنا»!

تيك تاك.. تيك تاك.. البندول مازال يدق، وهو لا يبكي، لا يصرخ.. ينهار على أول مقعد، وجار يأتي لاحول ولا قوة إلا بالله: «البقية في حياتك يا حسين أفندي».. والبيت يمتلئ بالناس.. بالسيدات، كلهن يبكين.. من هؤلاء؟! كيف جاءوا.. جيران..

الجار للجار.. والطبيب.. الطبيب يأتي بالبيجامة.. يهرول إلى الداخل، ولا يمكث سوى دقائق.. يخرج بعدها وفي عينيه نظرة.. نظرة رهيبة..

- من إمتى كانت تعبانة؟!!

- من ساعتين..

- وليه ما ندهتليش من ساعتها؟!!

ولم يرد.. لم يرد.. بكى والبندول يتردد.. تيك تاك.. تيك تاك..

عندما جاء الضحى.. كان كل شيء قد أعد.. كان سلطان أفندي قد قام بكل ما يحتمله الموقف.. لم يقل له متشكر، كان سارحًا في أمر غريب، عيناه معلقتان بالساعة، تروحان وتجيئان مع البندول..

بعد ساعة سوف يحضر أبوه وأمه.. وسوف يحضر أبوها وأمها.. وكل عائلة ستطلب أن تدفن سناء في مقبرتها الخاصة.. فماذا يفعل؟ أين الصواب؟ وأين الخطأ؟.. موقف محير.. محير جدًا.. الناس يتهامسون.. «لاحول ولاقوة إلا بالله.. الراجل مذهول»!

والبندول يدق.. تيك تاك.. تيك تاك.. تيك تاك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توحيدة

كان زكي أفندي قد أغمض عينيه وأسند رأسه إلى حافة الشباك.. وسرح بأفكاره.. بينما كانت أم توحيدة زوجته تعد القهوة.. وما لبثت بعد برهة أن قالت وهي تمد يدها بفنجان:

«قهوتك يا ادلعي..».

وفتح زكي أفندي عينيه في ببطء.. كأنما يريد أن يستبقي أحلامه بين جفونه، ومد يده وتناول الفنجان.. ثم رشف رشفة طويلة منغمة.. ووضع الفنجان فوق الصينية وأشعل سيجارة.. وانتشر الدخان في ضوء الشمس الذي حددته فتحة الشباك.. وعندما مد يده مرة أخرى إلى الفنجان قالت أم توحيدة:

«بتفكر في إيه ياسي زكي؟!».

«هي توحيدة لسه ماجتش؟!».

«أبدأ ياخويا.. دي حانتأخر النهارده».

وصمت زكي أفندي بينما استطرقت زوجته..

- دي يا كبدي يا بنتي بتتعب قوي.. وبتيجي زي الفسيخة الهمدانة..

- ما هم العيال يوجعوا القلب.. ودي لسه عضها طري..

وطال الصمت بينهما.. وكانت أم توحيدة تحاول خلالها الكلام.. وهي لا تدري ما الذي كان يمنعهما.. فشفتاها كانتا تنفرجان.. ثم تعودان إلى الانطباق مرة أخرى.. ولكن ترددها لم يطل.. إذ سرعان ما وضعت فنجانها هي الأخرى.. وقالت بعد تنهيدة قصيرة:

- توحيدة موعداني تجيب لي فستان من أول ماهية تقبضها..

وارتسمت ابتسامة خفيفة فوق شفتي زكي أفندي.. وجذب نفساً عميقاً من سيجارته ونفث الدخان دون أن يفتح عينيه..

ذلك أن زكي أفندي كان مصاباً بما يسمونه أحلام اليقظة.. وهو في جلسته هذه قد أدار حال الدنيا.. وغير حالها وبدلها تبديلاً.. وتجسمت أحلامه جميلة لذيذة.. وماذا يمنع؟! إنه لم يبق على أول الشهر سوى بضعة أيام..

- والعيال يا سي زكي.. مش ناوي تجيب لهم كسوة.. الشتا السنه دي برّد خالص.. وهنا فقط فتح زكي أفندي عينيه.. ولكنه لم يبرطم كما هي عادته.

- كله يتعدل يا ام توحيدة.. أهى البننت حاتساعد شويه..

وتنهذ من أعماقه وقال:

- الحمل كان ثقيل عليه قوي يا ام توحيدة لكن..

لكن إيه يا اخويا؟

- ولا حاجة.. بس يعني.. دي.. أصل..

- يوه.. ما لك يا سي زكي.. كفى الله الشر.

- يا وليه انتي لازم تعرفي ان البننت دي بنت ومش لازم آخذ منها حاجة..

«وماله يا خويا.. هو احنا أول الناس ولا آخرهم..».

«ده صحيح.. لكن دي مش ولد..».

«ما تصلي على النبي امال يا سي زكي.. هو بقى فيه حاجة اسمها بنت وولد دلوقت.. يا خويا اسم الله عليك.. أمال احنا بنربيهم ليه.. والله دي البننيه من نفسها قالت.. أنا حاقبض الماهية أحطها في إيد بابا.. يوه حقه ما لكش حق في كده يا سي زكي..».

وكان زكي أفندي في الحقيقة يشعر بالألم لأنه سيعتمد على ابنته.. ولكنه كان دائماً يستسلم ويقول.. ما باليد حيلة.. وكثيراً ما كان ينظر إلى أولاده الكثيرين وتجتاح رأسه خواطر كثيرة.. ويتساءل في حيرة وإشفاق.. هل سأعيش حتى أربيهم؟! ويتحول تفكيره في الحال إلى توحيد.. إنها عاقلة وبنت كويسة.. وكان يحمد الله ليل نهار، أنها كانت تجتاز سنوات الدراسة دون أن ترسب مرة واحدة.

«توحيدة أصبحت مدرسة يا واد.. يا سلام.. يا سلام عالديا».

«وتوحيدة جد.. متعرفش اللعب والمسخرة والحب بتاع البنات الأيام دي.. نحمدوه.. الحمد لله»..

«وبكرة محمد يكبر.. ويشغل.. ويشيل عني الحمل ده كله»..

«محمد!! ده لسه صغير.. صغير قوي.. ابن خمس سنين».

«وايه يعني.. ما هي الأيام بتمر.. وبتجري.. وتوحيدة بنت امبارح بقت مدرسة قد الدنيا».

ولم يكن هناك ما يسعده قدر تفكيره في أنه سيرتاح من الافتراض.. فقد كان السلف جزءاً مكماً لحياته.. ومرتبته.. وهو لا يدري كيف استطاع أن يعيش بهذه الطريقة إلى اليوم.. والذين يقرضونه.. بعضهم كان يعطيه بشق النفس.. والبعض الآخر.. البعض القليل.. بل النادر.. كان يعطيه بلا تعب قلب.. ولكنه في كلتا الحالتين كان يتألم..

وكانت أم توحيدة قد غفت في جلستها.. وهو قد انكمش على نفسه.. وأغمض عينيه.. ودار عقله.. ورقصت أحلامه.. فلم يبق غير أيام معدودة.. وهو سيضيف نصف مرتب توحيدة إلى مرتبه.. ويدفع للبقال دون أن يؤخر شيئاً.. والبوفيه في المكتب.. ويعطي إبراهيم الخولي نقوده.. ويرفع رأسه لأول مرة في المكتب.. ويطلب فنجان القهوة «كاش».. وقسط السمن سيدفعه.. وسيفصل بدلة بالتنقيط.. والحالة ستبقى معدن وعال جداً..

وفتح عينيه وهو يسمع رنين الجرس.. وانتبهت زوجته وقالت: «أهي اسم النبي حارسها جت».

ورسم كل منهما ابتسامة فوق شفثيه.. وذهب محمد ليفتح الباب ولكنه عاد يقول:

«فيه اتنين عاوزينك يا بابا».

ودهش زكي أفندي ونهض وهو يحكم وضع الطاقيّة فوق رأسه، ويضع فوق كتفيه العباءة التي ترم عضمه وتستتره أمام الناس في الشتاء.. وزحف بالشبشب.. وكان هناك اثنان:

«حضرتك زكي أفندي محمد؟».

«أبوه يا أفندي.. اتفضلوا..».

كان يقولها من باب المجاملة.. ولكنهما تقدما.. وأفسح لهما الطريق إلى حجرة الجلوس..

«أهلاً وسهلاً..».

وساد الصمت برهة.. قال بعدها أحدهم

«أنا حسن محبوب.. مهندس في السكة الحديد..».

«أهلاً وسهلاً..».

«وده أخويا حسني.. مدرس.. زميل.. الأنسة توحيدة..».

وكان الأمر حتى ذلك الوقت غريباً على زكي أفندي.. ولكنه اتضح فجأة أمامه.. وانتصب كعملاق كبير..

«أهلاً!!.. تشرفنا يا ابني..».

«والله يا زكي أفندي إحنا طالبين إيد الأنسة توحيدة لاخويا حسني..».

وصمت زكي أفندي.. وطال صمته.. حاول أن يفكر.. يفكر في أي شيء.. ولكن عقله كان قد شل تماماً.. كان الأمر مختلطاً عجيباً.. خططه التي وضعها.. أماله.. السلف.. الدين.. الناس.. البوفيه.. السمن.. إبراهيم الخولي.. أشباح ووقفت منتصبه تفهقه في سخرية.. وتوحيدة.. تتجوز.. يا سلام.. دنيا.. أيام بتجري.. وأنا قاعد اعد واطرح واجمع واضرب.. لكن ازاي؟! دي لسه صغيرة.. صغيرة ازاي؟! دي عندها تمنناشر سنة.. أه.. يعني.. يعني إيه بس؟! هو احنا نربّي ونتعب نفسنا.. وبعدين ييجوا ياخدوهم.. كده.. خطف.. جواز.. كلام فارغ.. ولاد..

«يا زكي أفندي..».

«هيه.. نعم.. أفندي.. أفندي..».

«شوف يا عمي..».

عمي الدبب يا بعيد.. عمك خبط لزق.. كده خلاص.. حليت وربطت.. وبقيت عمك.

«نعم يا بني.. نعم..».

«أنا توحيدة عارفاني كويس.. وعارفة أخلاقي.. إنما أنا عايز أقول لحضرتك كلمتين».

«اتفضل..».

«أنا مش عايز حضرتك تغرم حاجة من جيبك.. أنا مش غريب.. وعارف الحالة كويس.. إللي نفسي فيه.. إني افرش بيتي أنا ومراتي.. من عرق جيبنا.. ونوضبه على كيفنا..».

«لا مؤاخذه.. أنا أصلي في الحقيقة اتلخت شوية.. دي أول مرة حد يكلمني في موضوع زي ده.. وأصل توحيدة أنا عاملها زي اختي مش بنتي.. دي بينها وبين اختها زي عشر سنين.. آه والله.. وباعزها قوي قوي خالص.. وبقت عروسة يا سلام.. حاكم الواحد منا ولأمؤاخذه.. يفضل يبص لأولاده على إنهم عيال صغيرين مهما كبروا.. أهلاً.. أهلاً إنتم شرفتونا..»

وتكلم.. تكلم كثيرًا.. ولكنه لم يكن يدري ماذا يقول.. كان هناك طنين في رأسه.. ودوامة تدور فيها.. وهو حائر.. لا يدري.. ماذا يفعل.. الشاب ظاهر عليه إنه طيب وابن حلال.. ولن يكلفه مليماً.. ومن الذي يفعل ذلك في الزمن ده.. وكان عليه أن يفكر.. وأن يفكر في رويّة وهدوء.. وشربا الشاي ونزلاً.. وكانت الدوامة مازالت تعصف برأسه.. وعاد إلى الحجرة.. وكانت زوجته مازالت تجلس في مكانها..

«ومين دول ياسي زكي؟»

«دول ناس طالبين توحيدة..»

وانتبهت حواسها الخاملة كلها دفعة واحدة ولونت الدماء وجهها المكتنز.. ودقت على صدرها في صرخة لم تستطع إخفاءها وقالت في لهفة طرّبة:

«والنبي.. والنبي يا خويا.. ويبقى مين.. وشكله إيه.. و..؟»

وقاطعها في حدة قائلاً:

«وما لك فرحانة كده.. ده لسه بدري عليها؟!»

«بدري إيه يا سي زكي.. دانتي خدنتي وانا اصغر منها..»

«ده كان زمن.. وده زمن..»

«يا خويا نسترها ونفرح بيها.. هو مش مناسب؟»

«زميلها في المدرسة.. مدرس زيها..»

«والنبي عال.. عال قوي..»

«بس يعني يا ام توحيدة..»

وصمت وفكر.. وخلع العباءة والطاقيّة وجلس على مقعد بجوار الفرش.. وقد احتقن وجهه.. وحاول أن يقول شيئاً.. ولكن الحيرة ألجمته..

«ما لك يا خويا.. إيه اللي محيرك؟»

«ولا حاجة.. بس..»

«يا خويا تفرج.. هو يعني مستعجل والا إيه.. ما تتكلم يا ابو محمد..»

«مش عارف والله..»

«خلاص.. يكتب الكتاب.. ويستنى لما تجهزها على مهلك.. وربنا..»

«أبدأ.. ده عايز هو وهي بس اللي يجهزوا..»

«هو اللي قالك؟»

«أيوه..»

«والنبي كويس.. دا باين عليه ابن حلال قوي..»

ولم يطق زكي أفندي أكثر من ذلك.. وقال في حدة:

«يا وليه اسكتي.. ابن حلال.. ابن حرام..؟».

«يوه.. مالك.. هي الفرحة مخلياك كده؟».

«فرحة إيه يا ولية يا مجنونة انتي عارفه معنى كده إيه.. معناها إن احنا نفضل في الغُلب ده على طول.. فاهمه!!...».

«يوه يا سي زكي.. أهو انت دايمًا كده ما احنا كويسين آهه في أمانة الله.. أحسن من غيرنا كثير..».

«كثير إيه.. حاجيب منين.. هي مكنة بتدق فلوس.. بقى يعني الشهر اللي الواحد إيه.. حايشم نفسه.. يطلع لنا عفريت.. بلاش كده.. هي دي حاجات مش عايزة مصاريف.. هي حاجة بالساهل.. إنتي فاكهه إيه؟! هي البت لسه ماجتش؟».

«لأ.. لسه.. زمانها جايه عندها اجتماع مرشدات النهارده..».

وصمت.. ومد يده إلى سجادة الصلاة.. وألقى بالطاقيفة فوق رأسه.. وسار إلى حجرة الجلوس وهو ينوي الصلاة، وفي الطريق إليها..

جاءت توحيدة..

وانتهى من صلاته.. وما إن وقف بباب الحجرة حتى سمعها تقول لأمها:

«والنبي يا ماما! حسني جه؟! والنبي صحيح! ومعاه واحد! بابا.. ما له؟ معجبوش ليه د حسني كويس خالص.. والنبي يا ماما د شاب لطيف قوي..».

وتسمر زكي أفندي في مكانه.. من أدراها إنه حسني؟.. وحسني بالذات.. إنه لم يخبر زوجته عن اسمه.. فكيف عرفت؟.. وعاد إلى الظلام.. وجلس فوق مقعد.. كانت أعضاؤه تكاد لا تتماسك.. ابنته.. توحيدة لا بد أن بينها وبين حسني شيئًا.. وإلا.. كيف عرفت؟!.. كيف؟! سؤال حائر.. وهو أيضًا حائر.. وتوحيدة هدمت أملًا كبيرًا كان يعيش به..

ولكن خطوط المشكلة كانت قد اتضحت.. وابنته كانت قد وضعت خطأ عريضًا.. سار فيه تفكيره.. وتماسك.. ونهض من مكانه وذهب إلى الحجرة الأخرى.. كانت فكرته عن ابنته قد طوحت به بعيدًا.. بعيدًا جدًا عن نفسه ومثله وأخلاقه وتقاليده.. وما إن رآته توحيدة.. حتى صمتت.. واحمر وجهها وقالت في حياء:

«مساء الخير يا بابا..».

«هو اسمه حسني إيه يا توحيدة؟».

«حسني محجوب يا بابا..».

واتضح له كل شيء.. نعم.. هو.. لا مفر..

لم يكن لب حيرته شيئًا واحدًا.. بل أشياء.. أيمنع توحيدة من العمل وليكن ما يكون؟ ماذا قال لها حسني؟ وماذا قالت له؟ ابنته.. حبيبته.. إنه كان يثق فيها.. كيف تفعل ذلك؟ كيف؟ ولكن.. أليس الحمد لله أنه أتى وطلبها للزواج؟ عظيم.. ولكنه لا يحب تلك المسخرة.. البنت تريده وهو.. هو يريد أن يزوج ابنته حقًا.. يريد أن يسترها يريد أن يفرح بها.. ولكنها اتققت مع حسني قبل أن يأتي إلى البيت هذا شيء مقبول..

وظل هكذا.. حتى قام ليصلي الفجر.. ووقف طويلاً دون أن يبدأ الصلاة، وفجأة أخذت ابتسامة راضية ترسم خطها فوق شفثيه كأنها تتسلل إليهما في الظلام، وكان هو قد أحس كأن ضوءاً باهراً يغمر قلبه.. وصلى ونهض.. وشرب شيئاً ودرش مع زوجته.. واجتاحه المرح.. وارتدى ملابسه وهو يقرأ بصوت مسموع..

وفي الصباح عندما ألفت عليه توحيدة التحية.. ردها بوجه باسم وعينين ضاحكتين وتسربت ضحكته إلى البيت كله.. وكان ينظر إلى توحيدة وهي رائحة غادية.. كأنها ملاك جميل.. وقبل أن تغادر البيت ناداها..

«تعالى يا بنتى.. اقعدى جنبى هنا».

وصبغت الحمرة وجه توحيدة.. وخفضت رأسها وهي تجلس بجواره.. وتحس للمس كفه المعروق فوق كتفها بنشوة كبيرة..

«إيه رأيك فى الشاب ده؟».

«كويس.. كويس يا بابا».

«يعنى.. تتجوزيه يا توحيدة..».

«أمرك يا بابا..».

وتنهذ تنهيدة عميقة.. وقال بصوت مضطرب:

«طيب.. طيب يا بنتى على بركة الله.. قولى له يجي يقابلنى النهاردة..».

ونهضت توحيدة مسرعة.. وقالت وهي تفر وقد شاعت حول جسدها السعادة.. سعادة أحس بها زكى أفندي تغمره.. وتشمل كل إحساساته..

«حاضر يا بابا..».

«تعالى يا توحيدة..».

قالها فى رنة أنكرها هو على نفسه.. وعادت إليه توحيدة.. كانت مشاعره تتدفق كالسيل فى روعة وصدق.. وشعر كأن الدنيا لا تسعه..

«تعالى.. تعالى يا بنتى لما ابوسك».

«وعندما لامست شفثاه وجنتها الملتهبة.. أحس كأن خدرًا لذيذاً يطوف بروحه.. وقال لها بصوت حنون:

«روحي يا بنتى.. ربنا يسعدك..».

وعندما غادر البيت فى ذلك اليوم.. ولفح الهواء الرطب وجهه الساخن.. رفع رأسه ونظر إلى الطريق.. وكان الطريق ممتدًا كما كان بالأمس.. ولكنه بدا له طويلاً.. طويلاً جداً.. أطول مما كان بالأمس فقط..

وبراءة الأطفال تخذعني

أدركت في تلك اللحظة أن هذه السيدة قد طرحتي أرضًا وانتصرت علي بثلاث نقاط، ذكرين وأنتى. وأنها وصلت إلى مبتغاها، وسيطرت علي سيطرة كاملة، وأنه لا مفر من التسليم!

كانت تقف الآن أمامي وقد وضعت يديها في خاصرتيها وهي ترمقني بنظرات محذرة منذرة:

- «ما تجيش إلا من الفرن الآلي.. فاهم؟!».

قلت في استكانة:

- «خلاص يا ستي، حاجيب من الفرن الآلي!».

- «الولاد بيحبوا العيش بتاع الفرن الآلي!».

الأولاد هم القاسم المشترك في كل ما تطلب، نقطة ضعفي التي ظلت تضغط عليها عامًا بعد عام، وطفلاً بعد طفل، حتى إذا ما حاولت التمرد يوماً، أخرجت الكارت الأحمر أو الأصفر وفي حياتنا كارت جديد. رضيع أطلقت عليه الكارت الأخضر. ولولا حبي للأطفال، ذلك الحب الذي تحول في حياتي إلى مرض، لكان لي شأن آخر مع هذا الجنرال الذي أصبح لا يطلب لكنه يأمر ولا يأخذ ولكنه يغتصب «واللي مش عاجبه يخبط راسه في الحيط»!

عندما قالت إن الأولاد يحبون الخبز المصنوع في الفرن الآلي رحمت أنظر إليها في دهشة.. أين هذه المستبدة من تلك الفتاة الرقيقة الناعمة التي استمر حبي لها سنوات كنت أتمنى فيها فقط أن ألمس أصابع يديها، وأسعى إلى سماع صوتها مغموراً بكلمة صباح الخير، وأتوق شوقاً إلى يدها الصغيرة تزحف في نعومة كي تتعلق بذراعي ونحن في الطريق، فإذا فعلت أحسست أنني أملك الدنيا وما عليها.. أين هذا الجبروت من كلمة «من فضلك» أسمعها كمشقة عصفور يغازل صوته أذني؟!!

«أقدر اعرف انت بتبص لي كده ليه؟!».

انتهت على زمجرتها فصحوت من أحلامي، قلت:

«الولاد بيحبوا العيش بتاع الفرن الآلي؟!».

كنت أتساءل فظننتني أسخر، اقتربت مني زمجرة:

«لأنه طري، وطازج، ولأنه أنصف وأرخص!».

كانت هذه هي الحثيات، فقبلت الحكم، وقلت:

«حاضر!».

ثم انصرفت!

الطريق من بيتنا حتى الفرن الآلي وعر.. لا تتمثل وعورته في أرض الطريق فقط، لكنها تتمثل في مسار لا بد وأن أدور فيه حول مستشفى أو مدرسة ومجمع استهلاكي، وحول المستشفى تتكدس العربات ويتزاحم الزائرون وتزجر سيارات الأجرة وتزأر الأتوبيسات وهي تنهش الطريق غير عابئة بالبشر أو المركبات.. كان

الوقت ظهرًا والشمس في كبد السماء ترسل شواظها على الدنيا في غضب. وعند المدرسة - الآن في هذه الساعة - ينصرف مئات الصبية الذين لم يعودوا أطفالاً وهم يلعبون الكرة ويلعبون بحقائب المدرسة، ويلعبون بإطار سيارات أيضاً. يتحول الأولاد في هذه السن إلى شياطين، ويصبح المرور من وسطهم جحيمًا، واختراق الطريق وسط جحافلهم كاختراق جبهة تستعمل فيها جميع أنواع الأسراب الحديثة من كرات وقذائف حجرية تصيب كتفًا أو رأسًا أو ظهرًا، ولأنني تمرست على المرور وسط جمع هذا الجيش اليومي الذي يصنع في الحي نوعًا من اللغط كأزيز أسراب قاذفات الكلمات. لا أنكر هذا.. غير أن المرور من تلك الساحة الصغيرة التي تتكدس فيها السيارات مع عربات الباعة مع أجساد الناس أمام المجمع الاستهلاكي، أمر لم أستطع التمرس عليه.. اختراق هذا الطابور نوع من العذاب لا أطيعه، ولا سبيل إلى الوصول إلى الفرن الآلي إلا من خلال تلك الساحة، فخلف المجمع الاستهلاكي يقبع مبناه الكالحي الذي أبرم معاهدة صداقة مع الشر، فراح ينفث في المكان حرارة شديدة، ويصبح الاقتراب منه نوعًا من المخاطر تحتاج أن يتدرب عليه البشر.

كان من الممكن أن أشتري خبز رشاد بائع الخبز العتيدي في الحي، والذي تحول بمرور السنوات إلى التعود لاسبيل إلى الفكاك منه، هو وحده الذي ظل يمدنا به لسنوات طالت. هو وحده الذي جعل سكان الحي لا يعانون يومًا من نقص في الخبز حين حدث هذا النقص في الأحياء الأخرى.. حقا كان رجلاً ديكتاتورًا يتحكم في سعر الرغيف خارج التسعيرة أو داخلها، لكنه كان لا يشعر أحدنا يومًا بالحاجة إلى البحث - في الصباح الباكر - عن رغيف طازج لأولاده.. ظل رشاد يتربع على قمة الرغيف لسنوات حتى افتتح هذا الفرن الآلي، وتزاحم الناس أمامه من حينًا ومن الأحياء المجاورة، وأصبح رشاد مثل أثر من آثار المكان ينظر إلى زبائنه اللذين أطعمهم يتخطونه إلى الزائر الجديد في حسرة، وكانت نظراته هذه تصيبيني بضعف التنفس، كنت أضطر إلى الدوران من أزقة وشوارع وحواري تبعثني عن دكانه حتى لا أواجه عينيه، وأنا.. وأنا.. أنا ضعيف أمام الأطفال.. لم يطلب أحد من أولادي مرة واحدة طلبًا ولم ألبه له.. براءة الطفل تسحقني سحقًا، هذه البراءة تحولت في يد زوجتي إلى سلاح، وهكذا كان علي أن أقتحم كل تلك الصعاب، وأخترق ميادين قتال سلاحها الحرارة والشمس والصبية والعربات والمرور وصرخات الباعة، كان علي أن أحتمل كل هذا، ف.. فالأولاد يحبون الخبز المصنوع في الفرن الآلي!

ولقد حدث ما توقعته ولكن.. لم يكن هناك سبيل آخر.

فأمام كشك الخبز المجاور للفرن الآلي، كانت المعركة محتدمة. كانت قد وصلت إلى ذروتها!!

كان المشهد أمامي يبعث القشعريرة في جسدي..

أمام فتحة الكشك وجدت كرة هائلة من الأجساد البشرية وهي تتضاغط في عنف، وتتراحم في قسوة في محاولة الوصول إلى البائع الذي صبغ وجهه بسحابات الدقيق الأبيض المتناثر من الأرغفة الطازجة.. فوق الكرة البشرية كانت الأذرع ترتفع منتهية بأيدي تمسك بالنقود.. من أفواه الناس تختلط الصيحات اختلاطًا منفردًا، فهذا يطلب خمسة أرغفة، وهذا يطلب عشرة، وهذا يطلب عشرين.. و.. وتوقفت على

الناحية الأخرى من الطريق أحاول العثور على ثغرة أخترق منها تلك الكرة لكي أصل إلى البائع.. بدا لي الأمر مستحيلًا بكل المعاني.. مرق أتوبيس من أمامي بسرعة أثارت عاصفة من الأتربة لفتني لفا فرحت أدور حول نفسي كي أتجنب استنشاقها دون جدوى.. تذكرت زوجتي يوم كنا نجلس على ضفاف النيل عروسين يستقبلان الدنيا في حب، كان الوقت غروبًا، وكنت أبوح لها بمكنون صدري: «أنا بحب الأطفال قوي!».

وتهادت جفونها في خفر، وافترت شفتاها على ابتسامة عذبة.. وغرد صوتها: «وانا حاخلف لك دسته!».

وتساءلت: كيف يتغير طعم الدنيا؟!.. وإذا كانت قد هزمتني بربع دستة، فماذا أنا فاعل لو أنها برت بعهدا؟!.. غير أنني عندما تذكرت أطفالي، اقتحمت عاصفة التراب، وسرت في الطريق، وألقيت بنفسي وسط الكرة البشرية، وأخرجت نفودي، ورفعت ذراعي، ورحت أنادي على البائع وسط الناس! تضاعطت الأصوات في معركة رتيبة خانقة:

«خمسة عيش يا حسين!».

«عشرة عيش!».

«يا أخي اديني عشرين أنا واقف بقى لي ساعة!».

«عشرة عيش!».

«ما تمشيننا بقا يا عم حسين!».

«عشرة عيش!».

«وبعدين معاك يا حسين.. هو انت عندك خيار وفاقوس؟!».

«عشرة عيش!».

«خمستاشر رغيف من فضلك!».

«عشرة عيش!».

معزوفة هي.. لم يكن اللحن منسجمًا لكن يدا البائع «كالمايسترو» كانت تروح وتجيء وتتحرك في آلية وكأنها جزء من آلات الفرن الآلي.. تمتد يمناه كي تأخذ المال، وتمتد يسراه إلى صناديق العيش، تعود اليمنى إلى اليسرى تعمل اليدان معًا في العد، تلقي بالخبز. إلى صاحبه، ثم تعود مرة أخرى إلى نفس الحركة.. والأصوات هي هي.. أصوات كأصوات الكون، منها الغليظ ومنها الرقيق ومنها العالي ومنها الخفيض، ولكن.. وسط كل هذا، كان ثمة إيقاع لا ينقطع، إيقاع منتظم لا يكف. رتيب هو، يأتي من أسفل، من قلب الأجساد، يردد دون ملل: «عشرة عيش.. عشرة عيش.. عشرة عيش!».

وكلما صاح صوت، لاحقه هذا الصوت الرفيع الثاقب، وكلما طلب أحدهم طلبًا. التصق به ذلك الصوت: «عشرة عيش!» وكأنه آلة تطلق صوتًا لا يتغير.. في البداية لم أنتبه، تسلل الصوت إلى وجداني فكأنه جزء من اللحن العام، تقدمت خطوة، أصبحت وسط الكرة البشرية، دفعتني سيدة، ولكزني رجل، وزاحمتني فتاة.. وراح

جسدي يتقدم دون أن أتقدم أنا.. اكتفيت بيدي الممدودة بالنقود، وتساعدت سحابات الدقيق.

عندما جاء صندوق آخر من الخبز الطازج، ازداد تزامم الأجساد، وتلاحم الأصوات، وحمل الناس جسدي وسط أجسادهم وتقدموا بي خطوة أخرى، وأصبح الصوت أكثر وضوحًا: «عشرة عيش.. انتاشر رغيف.. عشرة عيش.. خمسة ياحسين.. عشرة عيش.. قفوا طابورًا.. عشرة عيش»!.. حتى إذا كانت لحظة،.. لحظة توقف فيها الكون والأصوات وتجمدت الحرارة.. لحظة اكتشفت فيها صاحبة الصوت بين ساقي تمامًا. هناك تحت في الظلام وسط الأجساد.. طفل صغير لا يتعدى عمره ثمانية أعوام، ذراعه مثل عود أخضر، تمتد في فضاء مزدحم، ويده مثل مخلب صغير، تمتد بالقروش العشرة، زاحمت بجسدي كي أرى وجهه، وجه صغير مترب غطته ذرات الدقيق فأصبح في لون القطن، قطرات من العرق تزحف لتصنع فوق الوجه الصغير خطوطًا متعرجة، تدفعه الأجساد فيندفع، تضغطه إلى جوار الكشك فينضغط، تمتد الأيدي من فوقه فتخترق ذراعه، بيده، بقروش العشرة وسط الزحام. وصوته لا يكف، ولا يتوقف ولا يمل: «عشرة عيش.. عشرة عيش، عشرة عيش!».

انقبض قلبي.. هدرت الدموع خلف جفوني.. اختطف البائع في حركة آلية قطعة النقود من يدي ثم ألقى بالأرغفة إلى وجهي، فالتقطتها، وهممت بالانصراف، فجاءني الصوت من تحتي:

«عشرة عيش!».

فامتدت يدي لتأخذ منه قطعة نقود، وأقيت بالأرغفة إلى يديه:

«خد يابني!».

رفع وجهه الذي أطلت من عينيه نظرة دهشة.. صمت:

«خد العيش واطلع من هنا!».

واختطف الأرغفة، وسقط جسده بين السيقان، ثم ذاب.

عندما التقت نحو البائع، كانت قطعة النقود لا تزال في يدي قال الرجل:

«إنت مش لسه و اخذ العيش دلوقت؟!».

ارتفع صوت من خلفي ساخرًا:

«أصله ادى العيش للولد!».

لم أقل شيئًا، ولم يقل البائع شيئًا، لكنه رمانني بنظرة خلعت أنها تسخر مني، وافترت شفتاه البيضاوان بفعل ذرات الدقيق عن نصف ابتسامته، اختطف مني قطعة النقود. وألقى إلي بالأرغفة وهو يقول ساخرًا:

«طب انفضل!».

عندما نفذت من وسط الأجساد إلى خلاء الطريق تنفست الصعداء، دفعني رجل اقتحم الزحام فكاد الخبز يسقط من يدي فلحقته باليد الأخرى، ضممته إلى صدري فلسعتني سخونته، تنفست الصعداء أخيرًا هممت بالسير، فتسمرت في مكاني!

على بعد خطوة مني، كان ثمة سيارة يركبها رجل وامرأة. وكان الطفل هناك، نفس
الطفل بنفس الوجه المصبوغ بذرات الدقيق الأبيض، وكان يسلم الرجل الأرغفة
العشرة ويقبض منه الثمن، وتمضي السيارة.. ويهرول الطفل إلى سيارة كانت تقف
خلفها:

«عاوز كام يابيه؟!».

هكذا جاءني صوت الطفل واضحًا، قدم له الرجل الجالس خلف عجلة القيادة قطعة
نقود قائلًا:

«هات لي عشرة يابني انا مستعجل!».

«حمامة!».

قالها الطفل وهو يختطف قطعة النقود ويستدير عائدًا إلى حيث كانت الكرة البشرية.
وبسرعة بدت لي مدهشة إلى أقصى حد، انحنى بين السيقان واختفى!
ظللت جامدًا في مكاني للحظات، حتى جاءني صوته، وسط عشرات الأصوات وهو
يصيح:

«عشرة عيش.. عشرة عيش.. عشرة عيش!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كوثر والأعزب

الزواج كالموت قضاء وقدر! هكذا قال لي من يعرف في زمان ما.. وقال: إن زواجك مفرد، لكنه ليس مرة واحدة.. وكان ما يعنيه صديقي أنني سأتزوج ثلاث مرات أو خمساً أو سبعا.. وقال لي صديقي صاحب «الزودياك» المنتشر في الصحف العربية الذائع الصيت: ستتزوج لامحالة، فلا تقاوم قدرك، ولا تحذر منه، فاحذر يا صديقي لا يمنع القدر!

كان هذا منذ سنوات طويلة، لكنني لم أتزوج حتى الآن.. لم أتزوج رغم حبي للأطفال!

نعم أنا أحب الأطفال، وليس لي سوى أمنية واحدة في هذه الدنيا: أن يكون لي طفل أو طفلة يحمل أو تحمل اسمي، طفل يصبح ملكي، لي وحدي، شريطة أن يظل طوال عمره طفلاً شريطة.. ألا يكبر وينمو ويناطحني الحياة ويصبح رجلاً أو امرأة ويفقدني لذتي العظمى في ملاعبته واللعب معه، وحبه، وشراء الحلوى له!

ولطالما حيرني هذا الأمر، ولطالما ساءلت نفسي: لماذا أحب الأطفال إلى حد أنسى الدنيا وما فيها إذا ما التقيت بطفل! إلى حد أن أطفال إخوتي وأقاربي وأصدقائي يكونون عالمي الخاص المرح السعيد؟ ولقد فكرت كثيراً، وحسبت الحسبة، ووصلت إلى إجابة مقنعة تماماً.. فلقد اكتشفت ذات ليلة أرقتني فيها الأمر، أنني أحب الأطفال لأنهم أطفال!!

غير أنه قد حدث لي ذات يوم ما جعلني أضع أطفال العالم كلهم في كفة، وأضع كوثر وحدها، في كفة تعادلهم!

منذ المرة الأولى التي التقيت فيها بكوثر أحببتها حتى رحت أنتظر لقاءها يوماً بعد يوم، وفي نفس الموعد.. وظل حبي لها قائماً لايفتر، حتى اكتشفت أنها - وهي ابنة خمس سنوات فقط - أكبر مني بكثير!!!

وكوثر هي ابنة عبده المكوجي!

وعلاقتي مع عبده المكوجي علاقة من نوع خاص، فلأني أعزب، ولأنه ليست لي زوجة تعد القمصان والمناديل والبنطلونات والفساتين وتحسب له الحسبة بالقرش، وتحاصره حتى لا يغالط.. لأنني أعزب لا أفهم في هذه الأمور، فلقد كنت أدفع لعبده ما يطلبه دون مناقشة، وهو - في المقابل - كان يلبي طلباتي دون مناقشة.. وتطور الأمر، حتى أصبح عبده هو المسئول عن غسل ملابسي وكيها، وأصبحت زوجته هي المسئولة عن رتق جواربي، وتركيب أزرار قمصاني المقطوعة!

وكان لعبده طفلان: محروس وخميس!

وهما طفلان من نوع نادر أحدهما يكبر الثاني بعام واحد. لكنهما يبدوان وكأنهما وُلدا في يوم واحد، وساعة واحدة. فكل منهما يشبه الآخر شبهاً يبعث على الارتباك، ظننت في البداية أنهما توعمان، ثم اكتشفت خطأ ظني وتعودت أن أشتري لهما الحلوى، كما تعودت أن أنفخ كلا منهما بقشيشاً، ثم تطور الأمر فأصبحت الأعبهما بأسلوبتي الخاص.

كانا دائماً يأتيان معاً في ساعة الظهيرة، تلك الساعة التي يطلقون عليها في بلادنا، «ساعة القيلولة».. عندما ينام الناس، وتهجع الدنيا بعد وجبة غداء تملأ المعدة وتكتم الأنفاس.. فإذا ما حلت الساعة الثالثة والنصف، وتأخر الجرس عن الرن، انتابني الفلق، ورحت أنظر من العين السحرية في باب بيتي كل دقيقة متسائلاً عما أحر محروس وخميس حتى إذا جاء، اطمأن قلبي وأخرجت حلواي. ورحت أستعد كي ألعب لعبتي!

ذات مرة - وكنت دائماً أعدل بينهما في العطاء - تساءلت: ما الذي يحدث إذا ما كفت عن العدل؟ ماذا يحدث لو أنني أعطيت خميساً أكثر من محروس، أو أعطيت محروساً وحرمت خميساً؟!

هي نزعة شريرة دون شك، لكن المشهد من العين السحرية كان يبدو لي وكأنه ذروة الدنيا.. ففي المرة الأولى أعطيت أحدهما قرشاً ونفحت الثاني قرشين، أخذت ملابسي، وأغلقت الباب وألصقت عيني بالعين السحرية!

«إدأك كام؟!».

«وانت مالك؟!».

«اشمعى انت!».

«مالكش دعوة!».

«بالنص!».

«بعينك!!».

كانا يقفان أمام الباب لا أستطيع معرفة خميس من محروس فكأنهما إنسان وظله، طفل ينظر في المرأة يتحدث مع صورته فنتحدث إليه صورته.. ثم.. ثم ينقدم أحدهما من الآخر، ويتقهقر الآخر إلى الحائط ويبدو أن في الممر الطويل المدى إلى سلم البيت، وكأنهما يلعبان مشهداً في فيلم سينمائي مسحور، قد يلكر أحدهما الآخر، وقد يفر الآخر منه، قد يطول الحوار أو يقصر، وأنا هناك خلف العين السحرية أنتفض بالسعادة، فلأطفال عالمهم، ولهم منطقهم ودنياهم.. حتى إذا ما انتهى الأمر، واختفيا في عمق المشهد، أسدل الستار.. عدت إلى وحدتي بعيداً، أتمنى أن يكون لي طفل لا يكبر.

حتى جاءت كوثر!

قبل أن أقلق. وقبل أن تدق الساعة الثالثة والنصف، دق جرس الباب.
كنت بملابسي الداخلية، وكنت متوقعًا أن الزائرين هما محروس وخميس، أسرعت إلى «الفكة»، والحلوى، وفتحت الباب!
وطالعتني شهقتها.. فارتددت كالكرة إلى الخلف، ليس وجهها ولا نظرها ولا وجودها كله، إنما هي شهقتها تلك التي أطلقتها مع نظرة خضراء من عيني بلورتين واسعتين - ارتددت إلى الخلف وأغلقت الباب وهرولت إلى الداخل وارتديت ملابسني وعدت إليها.. وعندما فتحت الباب كان محروس وخميس هناك، وكانت معهما كوثر. وجه كالبرد في استدارته.
عينان خضراوان واسعتان تتفثان نظرات مقتحمة جريئة لاخوف فيها.. لاتردد.. قوام رقيق وضع فوقه جلباب طفلة تكبرها - على الأقل - بثلاث سنوات، وكانت هي التي تحمل ملابسني!
نظرت إليها طويلاً، فصفعتني نظراتها حتى هربت منها.. التفت نحو خميس وسألت:

«مين دي ياخميس؟!».

«أنا محروس يابيه!».

التفت في ضيق نحو الآخر وأنا أسأل:

«مين دي يا محروس؟!».

«أنا خميس يابيه!».

قبل أن أفتح فمي صاحت:

«ده خميس، وده محروس... اللي عنده حسنة جنب ودنه خميس، واللي ما عندوش محروس!».

وامتلأت بالسعادة، هتفت:

«وانتي مين؟!».

«أنا كوثر!».

كانت لثغاء، تتطق الثاء تاء.. وكان نطقها هذا يضيف عليها سحرًا من نوع خاص.

«كوثر مين؟!».

هكذا سألتها، فرفعت حاجبيها دهشة:

«يوه... أختهم!».

صحت فيهما:

«هو انتوا لكم أخت؟!».

«أمال أنا اطلع إيه؟!».

«أصلهم ما قالوليش!».

«وهو انت سألت؟!».

امتلات بالنشوة والسعادة، كانت كوثر تبدو وكأنها مخلوق ساحر، أحببتها من أول نظرة، ونظرت إلى أخويها فرأيت في عيونهما ضيقاً لا يخفى، اتسعت ابتسامتي:

«وليه ماكنتيش بتيجي قبل كده يا كوثر؟!».

«كنت لسه صغيرة!».

«ودلوقت كبرتي؟!».

«أنا بنت خمسة وماشية في الستة!».

«حسابك كام؟!».

- «الحساب ستين لكن العيال دول عاوزين يسمسروا منك بريزة!».

وأطلقت ضحكة صاحبة.. ضحكت من قلبي. اكتشفت أن محروس وخميس كانا يستغلان حبي ويزيدان في الأجر ويلهفان قروشاً لحسابهما الخاص!

«انتوا بتسمسروا علي يا ولاد؟!».

قال أحدهما:

«ماهو انت بتدينا من غير ماتحسب ولاتحاسب!».

بدا المنطق رائعاً، كما أنه بدا معقولاً، قاومت:

«مش المفروض انكم ماتسمسروش؟!».

رماها خميس - وقد يكون محروس - بنظرة نارية.. أردت عقابهما، قدمت لها جنيهاً.

«خدي الجنيه ده. إدي لابوكي الحساب، وخدي انتي الباقي!».

كنت متوقفاً أن معركة رائعة سوف تتشب أمام باب البيت، تعجلت المشاهدة فأخذت ملابسني وأنا أقول:

«ابقي تعالي كل يوم ياكوثر!».

أغلقت الباب. ولفرط لهفتي على المشاهدة، سقطت ملابسني فلم أهتم...

ألصقت عيني بالعين السحرية، وكان المشهد ذروة في الروعة.

شريير أنا.. ربما.. ولكن، من منكم يستطيع أن يحرم نفسه من مشهد قطة متوحشة ارتدت إلى الوراء وألصقت ظهرها بالحائط وأشرعت مخالبتها في وجه أخويها كرجال العصابات في التلفزيون أو السينما كان محروس وخميس يقفان قبالة كوثر وقد حاصراها:

«انتني فتانة!».

«أنا بقول الحق!».

«هاتي الجنيه ده!».

«لما تشوف حلمة ودنك!».

«حاقول لابويا!».

«أنا اللي حاقول له الأول!».

«مش حانجيبك معانا ثاني!».

«أنا حاجي لوحدي!».

«باقول لك هاتي الجنيه يابت!».

واندفعت كوثر بيديها مشرعتين إلى الأمام، كي تدفع كل واحد منهما في ناحية، ثم، من وسطهما تمامًا، انطلقت كالسهم غائصة في ظلام الممر المؤدي إلى السلم... وقبل أن ينتبه واحد من أخويها، كانت قد اختفت!

وأصبحت في كل يوم أنتظر الثلاثة، أضفى وجود كوثر على فترة الظهيرة نوعًا من السحر ملأ علي وحدتي.. تقننت في شراء أنواع الحلوى والشيكولاتة، كما تقننت في توزيع العطايا بين الثلاثة... وكان لا بد - في كل مرة - أن تنشعب معركة. معركة بين الأطفال. وفي كل يوم كنت ألتصق بالعين السحرية وأشاهد، وأسعد، حتى إذا انصرفوا، عدت إلى وحدتي وقد امتلأت بالنشوة.

حتى كان يوم...

دق الجرس ففتحت الباب... وكانت كوثر هناك وحدها.

«الله... فين اخواتك ياكوثر!».

في عينيها الخضراوين حزن صريح:

«أصلهم عيانيين!».

«سلامتهم. عندهم إيه؟!»

«لوز!».

«زعلانة؟!».

«مش اخواتي؟!».

مددت يدي، تناولت ملابسي، نفتحها جنيهاً...

«ولاتر علي، بكرة يخفوا!».

«قول ياشافي!».

قالتها وهي تستدير ماضية، باظت الحفلة.. قاومت، ناديت عليها:

«كوثر!».

التفتت متوقفة!

«حاتقسمي الفلوس مع اخواتك؟!».

استدارت كلها ناحيتي:

«نقسم ايه يابيه؟!».

«بقية الفلوس!».

«وهو احنا كنا بنقسم قبل كده!».

«كنتي بتاخليهم لوحديك؟!». .

«مش أنا اللي باخد، ولا اخواتي.. ماحنا في كل مرة بنديهم لابويا!». .
كانت كلماتها واضحة صريحة. كانت... كانت مثل صفة هوت على وجهي..
وكانت... كانت هذه آخر مرة أرى فيها كوثر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأخرس

كان عملاقاً.. ذراعه غليظة مفتولة، كأنها مصنوعة من حديد مطروق وكنت أراه في ورشة صديقي.. واعتدت دائماً أن أنظر إليه وهو يرفع المرزبة بذراعيه.. ويهوي بها فوق الحديد الأحمر.. كان اسمه حامد.. وكان أخرس.. وكان صديقي متلاًفاً.. يحب المظاهر ولو على حساب الآخرين.. أناًياً لدرجة كبيرة.. وجاءت أيام.. استنفدت الأعمال الصناعية الحديد «الكريتال» الموجود في السوق.. واضطرب العمل في الورشة.. وصبر العمال أسبوعاً.. وآخر.. وبدعوا يطالبون بأجورهم، وأصبح صديقي في موقف عصيب.. وكان كاتب حساباته قد تركه وفر.. وأخذ العمال يلحقون به الواحد بعد الآخر.. بحثاً وراء لقمة العيش..

وعاصرت تلك الفترة الحرجة من حياة صديقي.. وكان كلما جاء إليّ ثائراً غاضباً.. حاملاً على العمال الذين لا يحفظون الجميل.. والذين يتركونه في الأوقات العصيبة.. أحاول قدر استطاعتي أن أهدئ من ثأرتة..

إنهم مساكين.. وراءهم أفواه جائعة تطلب المزيد من الطعام كل يوم.. ولن أنسى ذات سبت.. وهو اليوم الذي يقبض فيه العمال أجورهم.. يوم أعطاني صديقي أربعة جنيهات لأوزعها عليهم.. ولم يرد هو الذهاب إلى هناك.. بحجة انشغاله في موعد عمل.. وكنت أعلم أنه كان يهرب منهم.. ومن دائنين آخرين..

ولم يعد مصطفى في الأسبوع التالي. وبدأ صديقي من جديد يشكو عدم وفاء العمال..

وخلت الورشة تدريجياً.. ووقف فيها العمل تماماً.. ولم يبق غير فرد واحد.. هو حامد الأخرس..

وكنت أعجب لصبره الطويل.. وكانت الأسابيع تمر دون أن يقبض شيئاً.. يفتح الورشة في الصباح.. ويظل جالساً حتى موعد إغلاقها.. فيقفها ويمضي في سكون.. وكان صديقي قد أصيب في هذه الفترة بضربات متوالية.. وساعت سمعته في السوق.. وأصبح على شفا الإفلاس.

وأصابته هذه الحالة بشيء يشبه السعار.. فما يكاد يعلم أن أحداً من أصدقائه يملك نقوداً حتى يطلبها منه.. وكأنه يطلب حقاً من حقوقه.. أصبح كالوحش المفترس.. يستدين من هنا.. ومن هناك..

وذات يوم جاءني صديقي.. وعرض عليّ أن أعمل معه..

«لكن احنا مش هانتفق يا صبري..».

«ليه يا أخي.. ما حنا طول عمرنا أصدقاء..».

«إنت اتعودت أنك تكون كل حاجة في الورشة.. و..».

«أنا ماليش دعوة بحاجة.. إنت بايديك كل حاجة..».

وألح صديقي.. ولم أرد أن أتخلى عنه في وقت عصيب.. ولم يكن هناك ضرر من أن أبدأ معه لنبني من جديد.. وبدأنا معاً.. نعمل.. ونبحث.. طوال اليوم.. واستطعنا أن نجد أملاً صغيراً.. كأنه شعاع في مكان مظلم..

كل هذا.. والأخرس في مكانه.. صامت.. يقبع في ركن من أركان الورشة فوق مقعد من الحديد وهو يدور بعينيه في المكان.. وما إن يرانا ندخل.. حتى يهب واقفًا.. ويرفع يده إلى رأسه محيياً.. وعلى وجهه ابتسامة.. وأذكر أنني قلت لصديقي ذات يوم ونحن جالسان في الورشة.. وكنت أرقب حامدًا.

«إنت مش بتدي حامد حاجة..».

«أديله منين؟!...».

وفي الحقيقة.. كنت أدهش لصبر هذا الإنسان.. وقد تراكم أجره لدى صديقي حتى أصبح بضعة جنيهات.. واقترحت يومها أن نتناول الغداء في الورشة.. وأرسلنا حامدًا فأحضر بعض الجبن والطماطم والفول الأخضر.

وبدأنا نأكل.. ولاحظت أن حامدًا كان قد جلس في ركنه المعتاد.. ينظر إلينا فترة.. ثم ينهض ويدور في المكان دورًا لاهداف له.. ولم يخطر ببالي شيء من الذي عرفته عندما جاء ووقف أمامنا.. ونظر صديقي وقال وهو يشير بيديه.. ويخرج تلك الأصوات الغامضة..

واتضح أنه يطلب خمسة قروش.. ووقفت اللقمة في حلقي.. ولم أستطع أن أبتلعها.. وأحسست بالخجل يغمرنى.. واعترتني الدهشة وأنا أسائل نفسي كيف لم أنتبه لأمر كهذا منذ البداية.. ولكن دهشتي زادت وتحولت إلى ثورة عندما قال له صديقي..

«ليه.. عاوزهم ليه؟!».

وثرت.. وأخذت الكلمات تتساب من فمي وقد اختفت الدماء في رأسي.. ووقف حامد ينظر إلى صديقي وعلى وجهه ابتسامة خجلة.. وقلت..

«بأه ده سؤال يا أخي.. عايز ياكل زي ما احنا بناكل..».

وتكلمت كثيرًا.. وحامد في مكانه لا يتحرك.. وكأنه تمثال قد رسمت على وجهه ابتسامة بلهاء.. وأعطاه صديقي القروش الخمسة وهو يزفر وينفر.. وعاد يتابع طعامه وكأن شيئًا لم يحدث.. وذهب حامد ثم عاد معه حزمة كبيرة.. وجلس في مكانه المعتاد.. وبدأ يأكل في سراحة..

وأحسست إحساسًا عميقًا بالخجل أمام هذا الإنسان.. وكان هو قد فقد كل شعوره بمن حوله.. وجلس يأكل في صمت وسرعة.. وأشعل صديقي سيجارة.. ونهض لعمل ما..

كانت هناك رغبة قوية تجتاحني لأجلس إلى حامد.. وأتكلم معه.. وأحدثه.. وجدت نفسي كمن يريد أن يحتضن شيئًا غريبًا.. شيئًا يحبه ويملا قلبه..

وظللت في جلستي ألحظه حتى انتهى من الطعام.. ثم نظر إليّ مبتسمًا كما هي عادته.. وقمت إليه وطلبت منه أن يحضر لنا شايًا..

وأخذت أنظر إليه متحدثًا.. مثرثرًا وأنا أشعر به يملأ فراغ الورشة كلها.. وعلمت أن له شقيقًا يعمل في ورشة أخرى.. وأن أباه متوفى.. وأن شقيقه أخرس مثله.. ويعيش ثلاثتهم - هو وأخوه وأمه - في غرفة واحدة.. ولست أدري أية لذة تلك التي كانت تعتريني وأنا أتحدث إلى حامد.. وفوجئت به يخبرني أنه يسمع.. وأنه يفهم ما يقال له.. وأنه كان يتكلم في صغره.. ولكنه أصبح ذات يوم فيجد لسانه عاجزًا عن الحركة..

«ومن إيه ده يا حامد؟».

وأشار إلى السماء..

«ومرحتش لدكاترة..».

«تير.. إيه.. مو.. يده..».

كان يقول إنه ذهب كثيرًا.. وداخ.. ولكن لفائدة..

ومر بنا الوقت.. ولست أدري أي شيطان دفعني لأن أسأله عن سر بقائه في الورشة.. وصمت طويلًا.. ثم نظر إليّ وقد اختقت الابتسامة.. وحل محلها حزن شمل كل وجهه.. وحسبت أنني أغضبتّه.. أو أنه لم يفهم ما أردت قوله.. فكررت السؤال.. وزاد تعقيد قسّمات وجهه الطيبة القوية.. وكان يعقد كفيه ويفركهما في عصبية وقوة.. وأحسست أنني قد ارتكبت جرماً في حقه.. قدمت له سيجارة.. وربت على كتفه وأنا أحاول قدر إمكاني أن أبتسم وأهون الأمر.. وشملتني راحة كبيرة عندما وجدت الابتسامة تعود إلى وجهه.. ثم أخذت الأصوات الغريبة تخرج من حلقه وهو يحاول أن يتحدث.

وجلست أستمع إليه بكلّيتي وقد أمتعني الحديث..

كان حامد قد عمل في أكثر من ورشة.. ولكنه لم يكن يمكث أكثر من شهر في أية واحدة منها.. وغالبًا ما كان يضرب أحد العمال.. أو صاحب الورشة.. ثم يغادرها بغير رجعة..

وكانت يداه معبرتين.. والأصوات التي تخرج من فمه يهتز لها الوجدان.. فهي تخبر وتتكلم وتثور وتهادأ.. كان حديثه شائقًا للغاية.. معبرًا كل التعبير..

«أنا.. أنا.. اسمي حامد.. بني آدم.. زيي.. زيك.. مش اخرس.. فاهم؟».

«فاهم..».

«اسمي حامد.. مش الأخرس.. والأفندي..».

«قصدك صبري.. مش كده؟».

«أيوه.. هو طيب.. عمره ما قال لي يا اخرس.. كان بيقلولي يا حامد.. قال للصنّاعية يقولوا لي.. يا حامد.. عنده حق.. مش كده..».

«مضبوط؟».

«بس.. أنا اسمي حامد.. مش الأخرس.. والناس كلها.. والمعلمين.. والأسطوات كلهم بيقلولوا لي.. يا اخرس.. إيه.. ده مش اسمي.. أنا اسمي.. حامد.. فاهم؟».

«فاهم يا حامد..».

وهنا أشرق وجهه.. وطفحت ابتسامة كبيرة شملت كل تقاطيعه الضخمة.. وبحلق في وجهي.. وأشار بيديه وهو يريد أن يقول..

«خلاص.. أنا فضلت هنا.. علشان.. اسمي.. حامد.. حامد.. مش الأخرس».

لا وقت للأحزان

عرفت عطيات منذ زمن، منذ أن جاءت بكشكها الخشبي واحتلت ناصية شارعنا.. وكان ظهورها فجائياً بعث في نفوسنا التأفف والضيق.. على أن أكثر ما ضايقنا أن يحمل شارعنا الهادئ الحالم تلك العلامة.. كشك خشبي حائل اللون، وثلاجة عرجاء باهتة، وبجوارهما فتاة غريبة.. لكن عطيات سرعان ما احتلت - بعد الناصية - قلوبنا جميعاً.. وفي يوم وليلة تحولت الناصية الهادئة الحاملة إلى منتدى للبوابين والطباخين والخدم، كما أصبحت موقفاً لسيارات الأجرة التي غالباً ما اعتذر سائقوها عن العمل لأسباب واهية!!.. ولا تمر ساعة دون أن يتسكع أحد سكان شارعنا - من الأطباء والمهندسين وأصحاب السيارات التي تسيير بلا صوت - بجوار عطيات ليتبادل معها كلمة أو كلمتين من شباك عربتة.. بينما تقف هي وسط كل هؤلاء كالمباسترو الذي لا يخفى عليه نعم.. تلبية كل طلب. وترد على كل سؤال، وتجبب كل حاجة.

هي فتاة مشرقة باسمة، لها عينان واسعتان ثابتتان، يطل منهما بريق مرح لكنه مخيف، ولا يطرق لهما جفن أمام نظرات الآخرين. جمالها بريء متوحش ينسجم مع أثوابها الفاقعة الألوان التي تلتصق بجسدها اللدن الممتلئ، وتضوي ألوانها الفاقعة فوق استداراته في أمواج مثيرة تحت وهج الشمس في النهار، أو ضوء الكلوب في الليل، فتخطف الأبصار.. وربما القلوب!

جذبتني عطيات كما جذبت غيري، ثم جذبتني أكثر مما جذبت غيري.. ونمت بيننا ألفة ارتاحت لها نفسي وإن عجزت عن تعليل سببها!

غالباً ما سهرت حتى الصباح، ولمحتها من مسكني الشاهق وهي تأتي قبل شروق الشمس تفرقع بشيشبها فوق الأرض في جدل، تحيي في طريقها كل من تقابله ويدندن صوتها وهي تحادث السائقين والعمال وجنود البوليس، وتعزف بين الحين والحين ضحكاتها فتسبح أمواجها في الفضاء المتناثب كنغم حالم يوقظ الناس.

ورأيته من مكاني العالي بعد منتصف الليل بساعة أو ساعتين، وهي تجمع شمل بضاعتها المتناثرة، وتطفئ الكلوب ثم تغلق كشكها وتمضي وحيدة، يتراقص شبها تحت أضواء مصابيح الطريق الباهتة وكأنها دمية من القش تحركها أصابع خفية.

وما بين الصباح والصباح - فهي تأتي في الصباح وتتصرف في الصباح التالي - لم تكن عطيات تكف عن الحركة أو العمل، تضحك وتناقش وتثرثر وتبيع وتشتري وتأكل وتصاحب وتثرر ابتسامتها على الرجال الذين كان عددهم يزداد يوماً بعد يوم. وفي البداية.. ظننت فيها ظنوناً كثيرة.

إلى أن رأيته ذات مساء - وكنت في طريقي إلى عملي - تندفع من باب الكشك الخلفي وتتقض على رجل وتهبش بأظافرها في قميصه وتهوي برأسها - كالصخرة - فوق وجهه فتسيل دماؤه.. حدث هذا في لحظات خاطفة، وعبثاً حاول الرجال أن يحولوا بينها وبينه، كانت أصابعها قد تحولت إلى مخالب وشفناتها المكتنزتان تطلقان في وجه الرجل سيلاً من الشنائم القاسية العارية، وكلما اقترب منها أحد ناله رذاذ من غضبها أو صفعه من كفها.. وأخذ الرجل يتهاوى أمامها.. تمزق قميصه

وتهدلت خرقة عن صدر حفرت في لحمه أظافر عطيات أخايد دامية.. ولست أدري كيف وجدت نفسي أتقدم منها، بل أضع يدي على كتفها وأقول بصوت ثابت: كفاية كده يا عطيات!. وارتفعت يدها لتهوي على وجهي عندما استدارت بوجهها نحوي، وانغرزت نظراتها في عيني.. وجمدت يمناها وسقطت يسراها عن طوق الرجل، وارتخت - لأول مرة - جفونها أمام نظراتي، وعلت وجهها ابتسامة خجلى وهو تعود إلى الكشك قائلة:

«هو كل الطير اللي يتاكل لحمه.. يا بيه دانا وليه وباجري على عيله.. هو يعني..». واحتبس صوتها وترقرقت كلماتها كالدمع، ولكنها لم تبك بل ركلت الباب في غضب ودلفت إلى مكنها.

وعندما عدت بعد ساعات كان كل شيء قد عاد إلى حاله.. الرجال تجمعوا في هدوء، وثرثرتهم معها تملأ جو المكان، وعطيات تضاحك هذا وتعابث ذلك وتتراقص ألوان فستانها وترتعش تحت ضوء الكلوب.. وانحنت ليلتها أمامي على حافة الكشك وأسندت نهديها إلى ذراعيها وهي تقول بابتسامة:

«إن ماكنتش عملت كده ياكلوني يابيه.. وحياة النبي ياكلوني!». «.

وثرثر ليلتها مع عطيات، كما ثرثرت معها ليالي أخرى كثيرة.. وتطورت الألفة بيننا - منذ تلك الليلة - فأصبحت صداقة ساحرة تزداد كلما قصت عليّ طرفاً من حياتها.. واكتشفت مع الأيام أن حياتها مشاكل، وأن مشاكلها كثيرة.. مشاكل مع البلدية..

«طلبوا مني رخصة، جبت لهم رخصة، طلبوا مني فيش وتشبيه، طلعت.. عاوزين تصريح شغل رصيف.. حاجة تحير والنبي يابيه». وشقيقتها الصغرى التي أبت أن تذهب إلى المدرسة.. «يرضيك والنبي يابيه؟!». «.

السائق الذي سلم لها خطاباً غرامياً ملتهباً يطلب يدها، ويعرض عليها كل ماله، حتى عربته التي تساوي ألفاً من الجنيهات، قدمت لي الخطاب ثم قالت: «ده متجوز.. أخرب بيت واحد عشان عينه فارغة؟!». «.

لكن مشاكلها تروح وتأتي دون أن تحتجب ابتسامتها، كانت عطيات «تقرقرها» كحبات اللب الذي تبيعه للأطفال، ثم تحلها ببساطة وقدرة وكأنها تبصق قشر اللب في غير مبالاة.

لكني رغم هذا كنت أشعر كلما تحدثت معها أن شيئاً ما يجثم على صدري، شيء لم أستطع التخلص منه أبداً. قد يكون حرصاً، خوفاً، أو.. أي شيء.

وقد دهمني ذلك الإحساس ذات ليلة، كانت عطيات قد غابت نهاراً بأكمله. وقد اعتراني الضيق لذلك السكون الموحش الذي خيم على الناصية، على أنني عندما عدت في منتصف الليل وجدت الحياة قد عادت إلى الكشك، فحيح الكلوب وضوءه الواهن، الثلجة العرجاء البالية، زجاجات ملقاة هنا وهناك.. وعطيات في الداخل، تطل برأسها بين الحين والحين في قلق محملقة في الظلام وكأنها في انتظار شخص

بعينه.. وما إن لمحتني حتى غادرت الكشك وأغلقت بابه، ثم وقفت في طريقي محتمية بالظلام.

عند ذلك فقط تنبهت أنها وحيدة ليس هناك سмир ولا مشتر ولا معجب، وانتفض في ذلك الشيء في صدري فأبطأت قدمي وكأنهما التصقتا بالأرض.. قصرت المسافة بيني وبينها فإذا هي خطوات، وتكاثف السكون من حولها فإذا هو عميق، لا سيارة ذاهبة، ولا عربة آتية.. حتى ضوء الكلوب كان يتهاوى مسافة قدم ويذوب.. سمعت عن يساري حركة، فأدرت وجهي ولمحت جندي البوليس يقف منتصبًا، رددت عنه عيني فرأيت بواب عمارتنا وهو ينظر ناحيتي.. وارتيكت.. ماذا تريد من وقفها تلك؟! وماذا يريد هذان الرجلان؟!.. لم أفكر، بل إنني ما دريت إلا وأنا أنثني إلى اليسار مبتعدًا عنها إلى الضفة الأخرى من الشارع، ثم أوسّع الخطى مضطرب القلب حتى التحية ابتلعتها لخمتي فلم ألقها عليها.. كنت متعبًا مرهقًا يدفعني خوفي وتوجسي أمامها في رعونة.. وظللت أهول حتى وقفت وراء الشباك أرقبها وهي ترحف وسط الليل وظلامه وحيدة. سهمت برهة ثم ارتجفت فجأة. فقد تنبهت وقتها فقط أنها كانت تلبس السواد.

وتذكرت وجهها المطل عليّ من وسط الكشك، كان وجهًا قد تجهمت ملامحه وانتفخت عيناها وتشعث شعرها، أحسست برغبة طاغية في اللحاق بها وأنا أراها تخطو في الطريق كأنها تضع فوق كتفيها أحمالًا ثقيلة، تتحرف خطواتها إلى ضفتي الطريق، ثم تعودان في انزلاقة سكرانة إلى الضفة الأخرى.. على أن رغبتني هذه كانت مجرد خاطر ذاب تمامًا في دقائق التعب التي كانت تسحق جسدي. فنمت.

وما إن فتحت عيني في الصباح حتى صافحت أذنيّ ضحكتها، فقفزت إلى الشباك، وألقيت ببصري نحوها.. وجدتها كما عهدتها، تضحك وتثرثر وتعمل وتعاتب وتجري وراء خادمة عاكستها، وترفع رأسها في دلال، ويضوي فستانها اللامع فوق استدارات جسدها.

وبعد دقائق كنت ألقى عليها تحية الصباح، واستقبلتني عطيات بابتسامتها وضيء عينيها، فهمست في عتاب وأنا أتناول منها صندوق سجائري:
«كنت لابسه اسود ليه يا عطيات؟!».

قالت في نبرات فضية وهي تداري وجهها:

«ده مش فستانى يا بيه.. دا بتاع واحدة جارتنا!».

ولاحقتها قائلاً: «وكنتي لابساه ليه?!».

خبا الضياء لحظة، وغاضت الابتسامة ثم عادت فانتصرت على تقلصات كادت تغزو الوجه، وتخضبت وجنتاها وهمست في ارتباك:

«أصل ابويا مات.. البركة فيك!».

فضحكت في بلاهة: «هيه?!».

مفيش مشكلة

فجأة وجد كل منهما نفسه أمام الآخر، تلك اللغة المشتركة التي تحدثا بها منذ أن التقيا لأول مرة حتى قالت هي ما قالت دون قصد، وحتى فعل هو الذي فعله بجنون ولسبب بدا لها رهيباً.. راحا يصرخان ويتحاوران ويتخبطان فإذا كل منهما يسبح في عالم من الضياع بلا نهاية، وإذا بالعش الهادئ يصبح كابوساً.. وإذا الحب يقف على شفا هاوية بلا قرار. وإذا هما يتمزقان معاً ويدمعان معاً.. ثم لم يجد كل منهما ملاذاً من عذابه إلا صاحبه!

ليست قصة حبهما عظيمة ولا غريبة ولا هي قصة حب تصلح للكتابة أو السرد أو التسجيل، فهي واحدة من ملايين قصص الحب التي تحدث كل يوم في كل حي أو شارع أو حارة أو شركة أو مصنع أو مصلحة حكومية، ثم إنهما لم يلتقيا لقاءً متميزاً، بل كان لقاءً عاديّاً.. كان هو يحمل أوراقاً من الشركة التي تعمل هي بها.. الأوراق في حاجة إلى اعتماد، والاعتماد في حاجة إلى مراجعة، والمراجعة في حاجة إلى نظر، والنظر في حاجة إلى رئيس ينظر، ورئيس يسأل ورئيس يقبل، ورئيس يرفض، ورئيس يحيل الأوراق إلى رئيس.. هو يعرف هذا جيداً، ولقد وطن نفسه منذ أن أسندوا إليه هذا المشوار، على قضاء يومين أو ثلاثة في حالة من ضيق الخلق والمداهنة والمحايلة وانتقاء ألفاظ بلا معنى و.. وكل هذه الأساليب التي من الممكن أن تيسر ولا تعسر، وتسهل الأمور ولا تعقدها!

دخل إلى الشركة التي تعمل بها وسأل عن القسم الذي يبغيه، فسأله الساعي وهو ينفث في وجهه دخان سيجارة رخيصة عما يبغيه فما كان منه إلا أن قال إن هذا لايعنيه وإنه يريد القسم وإن عليه أن يدلّه عليه.. ولم تعجب الساعي لماضته، ولم يعجبه رد الساعي، فتشابكت كلماتهما وتصايحا فإذا بها، وكانت تعبر الممر لشأن من شئون عملها تتوقف، وتساءل عن الحكاية، وإذا هي المسئولة عما جاء من أجله، فطبيت خاطر الساعي، وانتهت المشكلة وسار خلفها حتى دخلا مكتبها، فجاءت له بمقعد اقترضته من مكتب مجاور، وطلبت له كوباً من الشاي، وأخذت منه الأوراق، وراجعتها، ثم ابتسمت وهي تطوي الدوسيه قائلة إن الأوراق في حاجة إلى اعتماد، والاعتماد في حاجة إلى مراجعة، والمراجعة في حاجة إلى نظر، والنظر.. فقاطعها ناهضاً وهو يشعر بالاختناق:

«قولي لي أروح فين وأنا أروح!».

رفعت إليه عينيها في دهشة وهي تقول:

«وتروح انت ليه، أنا اللي حاروح!».

ودهش وعاد إلى جلسته، وأخذ يحملق فيها وهي تقول إن الروتين سخيف، وأسخف منه القائمون عليه، وهو عصبي المزاج، وإذا كان قد تشاجر مع الساعي فما الذي سوف يفعله مع الموظفين ورؤساء الأقسام والمديرين وأصحاب التوقيعات؟! قالت هذا وطلبت له شيئاً آخر، ثم تركته ومضت.

أدهشه ما فعلته، فراح يتأمل ما حدث.. هي ليست جميلة ولكنها بالقطع مليحة، وهي ليست رشيقة، لكن قوامها ملفوف، وهي ليست خفيفة الظل، ولكن في خدها غمزة

تجعل لابتسامتها سحرًا لا يقاوم.. وسبحان الله الذي يأخذ من ناحية ليضيف في ناحية، وسبحان مفرق القلوب ومجمعها على غير موعد.. ولقد كانت الغرفة التي يجلس فيها تضم ما يزيد على الخمسة مكاتب، وكانت تشغى بالموظفين والموظفات والأحاديث والصيحات والمساومات والمتعاملين والسعاة والخردواتية الذين يبيعون أي شيء وكل شيء والجرسون داخل خارج يدندن بالملعقة في أكواب الشاي.. و.. ورغم كل هذا فلقد اكتشف أنه منذ دخل هذا المكتب لم يكن قد رأى غيرها، أو سمع سوى صوتها، ولا أحس إلا بها.. وهكذا، عندما عادت إليه بالدوسيه، كان قد أمضى ثلث ساعة وهو مستغرق في التفكير يضرب أخماسًا في أسداس، ينظر إلى الآخرين ولا يراهم، يستمع إليهم ولا يسمعهم، يجلس وسطهم ولا يشعر بهم.. وعندما قدمت له الدوسيه سألها في توجس غير مصدق:

«خلاص؟!».

«حظك كويس!».

هتف:

«قوي!».

قالها والحق يقال في حماس واندفاع، ولكنها رفعت إليه عينين انطلقت منهما نظرة نارية فهتف مدافعًا عن نفسه:

«والله مش قصدي!».

بدت عليه خيبة الأمل وهي تقول:

«يا خسارة!».

قالت هذا ودفنت نظراتها في الأوراق المبعثرة أمامها ولم يكن أمامه سوى أن ينهض واقفًا:

«أنا متشكر قوي!».

فلم ترد عليه، غادرها وغادر الشركة لكنه لم يغادر المكان، ظل يتلأأ في الشارع جيئةً وذهابًا حتى جاء موعد انصراف الموظفين فرآها تنصرف معهم، وحين وقعت عيناه عليها لم يكن يعرف ما الذي يفعله بالضبط وما الذي يريد بالتحديد.. وطوال الساعتين اللتين وقفهما في الانتظار حاول التركيز فلم يستطع.. ولطالما توقف وسأل نفسه بصوت عال، وفي الشارع أمام الرائج والغادي: «أنا عاوز إيه بالضبط؟» ثم ينتبه إلى أنه في الشارع، وأنه يتحدث بصوت عال، فينسى السؤال كما ينسى الجواب ويتخذ القرار بالانصراف، وينصرف فعلاً، لكنه ما إن يصل إلى ناصية الشارع حتى يعود مرة أخرى!

وفي حقيقة الأمر فلقد أعجبته تلك الحالة التي انتابته، فهي حالة من تلك الحالات الغامضة اللا إرادية العجيبة التي تعطينا ذلك الإحساس الفائق اللذة بالتمرغ في غموض أهوج.. ولقد حدث كل ما حدث دون قصد بالفعل، فهو عندما اعترض طريقها أثناء انصرافها رفعت إليه عينيه بتلك النظرة النارية فوجد نفسه يقول بصوت أنكره على نفسه:

«تتجوزيني؟!!!».

«لأه».

«ليه؟!».

«لأن معندكش ذوق!».

هكذا من الباب للطاق، لا هو عرف لماذا قال ما قال، أو كيف قال ما قال.. ولا هو فهم كيف سألها ذلك السؤال!! فهو أبدأ لم يفكر في الزواج ولاخطر بباله ولارتب له ولا استعداد، أحس وكأن إنساناً آخر هو الذي يتحدث من داخله، وأن ثمة قوى خفية أصبحت تسيطر عليه منذ أن رأى تلك الفتاة.. وهو بالفعل أراد مغازلتها عندما قالت إن حظه كويس، ثم أدرك أنها من هذا النوع الذي لايتقبل الغزل عندما رتمه بتلك النظرة النارية، فتأسف. ثم ضاع عندما وجدها تتحسر على أسفه فوقع في الحيرة!

انطلقت تسير فسار بجوارها، كان يقول كلاماً لايعنيه ولايعيه، وكانت ترد عليه بكلمات كالحجارة لكنها كلمات لاتصد ولاترد ولافتح باباً ولاتغلقه، وكانت النتيجة أنهما تنافرا في الطريق العام، ثم توقفا، عادا إلى السير.. لكن الحوار استمر.. قالت إنه قليل الذوق؛ لأن السرور كان قد انتابها فعلاً رغم نظراتها النارية - وظننته يريد مغازلتها أو مجاملتها - سيان - لكنه عندما تراجع قالت لنفسها إنه واحد من اثنين: إما أنه جبان يسحب إعجابه لمجرد نظرة غاضبة من فتاة، وإما أنه جبان - أيضاً - لأنه لايستطيع مواجهة الحقيقة بشجاعة!

بالهذا المنطق الغريب العنيد الذي ينفذ إلى القلب فيدفعه إلى الخفقان في بهجة.. وكلما أمعنت هي في منطقتها، أمعن هو في الإصرار على موقفه، وحتى عندما عرف أين تسكن وذهب إلى والدها يطلبها منه فوجئ بالأب أشد حيرة منه، لكنه لم يدهش لما حدث، فهذه البنات - منذ صغرها - ذات منطق غير منطق الناس، وعقل ركب في رأسها بطريقة تبدو غريبة، هكذا قال له الأب، وهكذا انحاز لصفه بعد أن عرف أصله وفصله ومرتبته وماضيه ومستقبله وسأل عنه واستشار وتداول وناقش ووجده صالحاً ابن حلال.. ثم وافقت هي على مضض، وبشرط أن يوضع تحت الاختبار لسنة أشهر!

عندما وضع الدبلة في أصبعها ووضعت الدبلة في أصبعه اعترف لنفسه لأول مرة أنه يحبها، ثم.. وعندما عقد القران وراحا يبحثان عن مسكن، اعترف أنها استطاعت، بمنطقها هذا الغريب، أن تجعله يسير على العجين دون أن يخذش سطحه الأملس.. لكنهما عندما تزوجا كشفت له عن جوهر جعل عقله يترنح وعواطفه تتأجج. ومضت بهما الشهور ناعمة مثل سحابة تتهاوى في يوم مشمس.. ثم برزت مشكلة «الإنجاب»!

في بداية الأمر لم تكن «الخلفة» مشكلة تشغل بالهما، لكنهما أحسا، بعد مرور عام وبعض العام أنهما لا بد أن يناقشا الأمر مناقشة موضوعية وصریحة - هكذا قالت هي - ذلك أن أمها بدأت تسأل، وأمها بدأت تسأل، وأمها تهمس لها، وأمها بدأت تهمس له، ثم تدخل الأبوان، وراح السؤال يتردد مرة تصريحاً ومرة تلميحاً، وعندما قررا المناقشة قالت:

«شوف يا أستاذ - فهكذا تعودت أن تتاديه مدللة إياه - احنا قدام مشكلة واحدة، لايمكن يكون لها إلا سببين اثنين فقط لاغير!».

«إيه هما؟!».

«يا إما العيب فيك، يا إما العيب فيّ أنا!».

«وإذا ماكانش فيه عيوب؟!».

«يبقى مافيش مشكلة!».

كان المنطق واضحًا وصريحًا ومباشرًا؛ لذلك.. فلقد اتفقا على أن تبادر هي وتذهب للطبيب.. ولقد فعلت، كشفت وأجرت التحليلات وجاءت كل النتائج تقول: أن لا موانع لديها على الإطلاق، وهكذا جاء الدور عليه، حسب الاتفاق، كان عليه أن يذهب إلى الطبيب لكنه رفض!! «أنا عارف إني طبيعي.. وما عنديش حاجة!».

«خلاص، تبقى مافيش مشكلة!».

«إزاي؟!».

«تروح للدكتور علشان يقول لنا الكلام ده!».

لكنه لم يذهب للطبيب، أصر على الرفض، ولم تصر هي على ذهابه.. وكانا أحيانًا يتناقشان، وأحيانًا يتتافران، لكنهما أبدًا - فيما يختص بموضوع الخلفة - لم يتشاجرا! لكن أمها لم تعجبها الحال.. وراحت أمه تشكك في صحة التحليلات وتطالب بالذهاب لطبيب آخر.. وللحق، إن الأمر كان يضايقه كما كان يضايقها، وكان من الممكن أن تسير الحياة كما كانت لولا ما حدث ذات ليلة.. كانا في زيارة لحماتها، عندما تركها لمشوار كان عليه أن يقضيه، على أن يعود إليها فيصحبها إلى البيت.

ما إن غادر حتى بدأت حماتها الزن، والحديث عن الحياة الزوجية والاستقرار.. كانت الأم تلف وتدور حول الموضوع فلم يعجبها هي الحال فسألتها:

«إنت بتتكلمي على إيه يا طنط؟».

«يا بنتي ربنا قال: المال والبنون زينة الحياة الدنيا!».

ضحكت مداعبة وهي تسأل حماتها:

«طب انتي عاوزة إيه من الاتنين دول؟!».

«المال.. وادي الله وادي حكمته؟!».

«أمنت بالله!».

«يفضل البنون!».

«الحمد لله!».

هي لاتدري لم قالت ما قالت وكيف قالته وبأية لهجة، لكن الذي حدث أوقعها في ورطة، فلقد اجتاحت ملامح الأم سعادة بلا حدود، ابتسمت هاتفة:

«إنتي حامل؟!».

أعجبها الموقف فقالت:

«في أسبوعين!».

كانت تريد أن تبتز الحديث في الموضوع. وكانت تعلم أنها لن تخسر شيئًا، فهي تستطيع بعد أسبوع أو اثنين أن تدعي أن الحمل كان كاذبًا أو أنها أجهضت، كان ما يعنيهها الآن ألا تتناقش المشكلة، ولقد أرادت أن «تسبك» الدور، فادعت التعب،

واستأذنت وانصرفت قبل عودته كي يصحبها إلى البيت.. عادت إلى بيتها وبدلت ملابسها وأعدت عشاءً خفيفاً وطالعت برامج التلفزيون في الجريدة، وقررت أن تعطي لعقلها إجازة في تلك الليلة وأن تشاهد في السهرة فيلمًا عربيًا!

ما إن سمعت صوت المفتاح يدور في الباب حتى استعدت للقاء زوجها بابتسامة أرادت أن تبدأ بها الحديث عن النكتة التي قالتها لحمايتها، سمعت خطواته وهو يقترب حتى إذا وصل إلى باب الغرفة كان الشرر يتطاير من عينيه وقد انقلبت سحنته فبدا لها وكأنه تحول من إنسان إلى شيطان، ولأول مرة في حياتهما تشعر بهذا القدر من الخوف، فاعتدلت في جلستها وابتلعت ابتسامتها وأدركت أن كارثة تهب على بيتها وكان الخوف - كلما طال صمته في وقفته - ينتشر في أرجائها كإعصار تلجي.. لكنها قاومت حتى وجدت صوتها التائه فيما بين صدرها وحلقها - فقالت مازحة:

«طب قول مساء الخير!».

«إيه اللي نزلك من عند ماما قبل ما ارجع؟!».

«أصل أنا حسيت إني...».

قاطعها هادراً:

«أنا مش قايل لك اني حا عدي عليكى؟!».

«كنت تعبانة!».

«من إيه؟!».

عندما سأل سؤاله أدركت وفهمت ودهشت وذعرت.. إذا به يتقدم نحوها هاتفاً:

«ممكّن أعرف مين هو الأب السعيد لولي العهد اللي جاي؟!».

قفزت من مكانها وهي تشعر وكأن قلبها ينفجر انفجارات متتالية توجع صدرها، نفتت عيناها تلك النظرة النارية وقالت وهي تغادر الغرفة:

«أنا عاوزة اتطلق!!».

ترنحت في سيرها فارتطمت بالحائط والباب ومقعد كان في الطريق.. لاحقها هو بصراخ لكنها لم تسمع، أحست بالطعنة نافذة إلى القلب مباشرة، دلفت إلى غرفة النوم وشرعت في إبدال ملابسها وتجهيز حقيبتها وكان هو عند الباب يلاحقها بصراخه فكان صوته يأتيها من أعماق بئر بلا قرار.. في لحظة التفتت إليه فأحست أنه يتعذب عذاباً بلا حدود، تمنّت لو يسألها لكنه كان يتمزق أمام عينيها إرباً، وانفجر من عينيها شلال من الدمع لا يعرف التوقف، وكان دمعها غزيراً إلى الحد الذي أطفأ نار غضبه فراح يلهث ويلهث ثم ما لبث أن سألها:

«أقدر اعرف انتي بتبكي ليه؟!».

«علشان أنا مش حامل!».

ولأول مرة منذ أن التقى بها في ذلك اليوم في مكتبها بشركتها يأتيه صوتها ضعيفاً واهناً متهاوياً مرتجفاً بحزن بلا حدود، أحس هو بالدواء وقد اتضحت له الحقيقة فانتابه الفزع مما قال وهربت دماء الغضب من وجهه وانسحبت وراءها كل دمائه

فبدا شاحبًا شحوب المحتضر.. كانت هي قد ثبتت عينيها في وجهه وتركتها هناك
وقد انتابها فزع هائل لما أصابه، كان يقاوم إحساسًا مريعًا بالإغماء فقال:
«أمال قلتي لماذا إنك حامل ليه؟!».

«علشان زهقت من كتر الكلام في الموضوع ده!».
ساد بينهما الصمت ولم يتوقف الدمع فعادت إلى الصياح:
«وعشان خايفة كلامهم يجرح شعورك!».
انتفض في وقفته كالمذبوح، راح يحملق فيها غير مصدق فعادت من خلال الدمع
تقول:

«أصلي انا عرفت كل حاجة من زمان!».
أراد أن يسأل لكنه لم يستطع.
«أنا شفت التحليل بتاعك وعرفت انت خبيته عليّ ليه؟!».
وجد صوته أخيرًا فسأل:
«عرفتي إيه؟!».
«عرفت ان مفيش مشكلة!».
هتف باسمها وهو يتقدم منها وقد انفجر بركان الدمع من عينيها.
«وعرفت إن كفاية عليّ طفل واحد!».
كاد يسقط في إحدى خطواته: «كنت خايف تسيبيني!».
«واروح فين؟!».

تلقفته بين ذراعيها، واختلط نשיجهما، كما اختلطت دموعهما وكان كل منهما يشعر
أنه يحب الآخر حتى الموت!!..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرجل والسيارة

- 1 -

الشارع شديد الانحدار يصعد نحو الجراج في حدة، ثم يلتوي فجأة عند الباب في انحناءة لولاها لهان الأمر، ولما أصبحت هناك مشكلة، ولانحلت العقدة.

كانت أشعة الشمس ترسل أول خيوطها الباهتة عبر البيوت ومن خلال الطريق البعيد، وصمت الفجر يلف المكان ولا صوت إلا صوت السيارة وهي ترمجر، وصراخ العجلات وهي تحتك بالأرض كلما بدأت طريق الصعود.. كانت تندفع صاعدة في يسر، حتى إذا وصلت إلى ذلك المنحنى توقفت فجأة!

في النهاية.. كان لا بد أن يحدث شيء من اثنين.. أن يخرج السائس من الجراج، أو تقع معجزة تحمل السيارة إلى فوق!!

شيء غريب بالفعل هذا الذي كان يحدث، فلم يكن البية من هؤلاء الذين يجيدون قيادة السيارات، كانت حركاته وتصرفاته واثقة شديدة الوثوق، وقدماه تتحركان في دراية وحكمة من يقود سيارة منذ سنوات وسنوات، رغم هذا فقد كانت السيارة تتوقف في كل مرة تصل فيها إلى هذا المنحنى، ثم بدأت في هبوط المنحدر رغم كل محاولاته.. وتمضي لحظات حيث يدور بعدها الموتور بصوت عال، يزمجر فتندفع السيارة تتسلق الشارع حتى تصل إلى المنحنى.. ثم تقف!

- 2 -

في النهاية، كان لا بد أن يحدث شيء من اثنين، أن يخرج السائس من الجراج، أو تهبط معجزة من السماء.. لكن المعجزة لم تحدث، وخرج السائس من الجراج عندما فقد «البيه» صبره وعلق بوق السيارة في صراخ حاد طويل، وتصاعد في السكون صوت خطوات السائس وهو يزحف على أرض الجراج في ببطء، ثم خرج إلى الشارع رجل طويل القامة نحيف الملامح، في قدميه الكبيرتين قبقاب وعلى جسده بنطلون وقميص لبسا كيفما اتفق، وقف الرجل عند الباب ناظرًا إلى السيارة والبيه في هدوء مثير، ثم في صوت ناعس:

«دور الموتور وشد الفرامل وعشق العربية واطلع وهي تيجي معاك!».

كان السائس يتحدث وكأنه مدرس يلقي تلميذة درسًا فاربًا وجه البية الشاحب بالغيظ، لكنه - رغم غيظه - بدأ محاولة جديدة، ففشل... وانحدرت منه السيارة حتى كادت تصل إلى أول الشارع، ثم زمجر الموتور، وصرخت العجلات، واندفعت السيارة بسرعة شديدة نحو السائس وكأنها ستدهمه، فلم يتحرك هذا من مكانه ثم انحرفت قليلاً نحو باب الجراج.. لكنها توقفت!!

- 3 -

«عنك انت يا بيه!».

بدأ صوت السائس كأزيز موتور قديم، وبدأت السيارة مسيرتها هابطة، وتحرك البية في الداخل متململاً يريد مغادرتها..

«شد فرامل اليد!».

جذب فرامل اليد لكنها ظلت تنزلق في بطن، وانفتح الباب في الوقت الذي لامست فيه يد السائس نافذة السيارة.. وسرعان ما دق الرجل قدمه في الأرض بقبقاب فبدت وكأنها تسمرت في بطن الأسفلت، وانثنى الجسد إلى الخلف وتقلصت الذراع فتوقفت السيارة عن الانحدار وهبط منها البية.

كان قصيراً نحيلاً شاحب الوجه رقيق الرقبة معروق اليد، وكان يضع نظارة سميكة لا تستقر خلفها عيناه وكان ضوء النهار قد غزا الشارع وبدأ سعال الرجال يخرق السكون مع وقع خطواتهم الصباحية النشطة.. وكان البية عصبياً، بدأت عصبيته أول ما بدأت عندما استدار السائس محاولاً الدخول إلى السيارة خلال الباب المفتوح.

«حانعمل إيه؟!».

أوقفته صرخة البية الحادة فالتفت نحوه، ولم يبد على وجهه - في ضوء الصباح الأزرق - أي تعبير يوحي بالغضب أو السرور..

«ماحدث يسوق العربية غيري!».

كان صوت البية أمراً حازماً لا يقبل الجدل ولا المناقشة، فتسمر السائس في مكانه!

«الموتور تعبان.. الميكانيكي قال محدش يسوقها غيري!».

كان البية يبدو كاذباً فلاحت على وجه السائس بسمة ساخرة!

«إيدك معايا واحنا نطلعها الجراج!».

- 4 -

رغم أن الأمر يبدو مستحيلًا تمامًا، فالسيارة ضخمة هائلة والانحدار شديد والانحناء عند باب الجراج حادة فإن البية وضع يده على السيارة كمن يهم بدفعها.. وهز السائس رأسه وهو ينظر نحو باب الجراج ثم بدأ العمل بلا كلمة.. وطرق القبقاب فوق أرض الشارع طرقعات غير منتظمة، ثم دس الرجل كتفه في فجوة النافذة، ودق قدميه في الأرض فاستقام جسده النحيل كرمح إفريقي، ثم زعق:

«إيدك معايا يابيه!».

ألقى البية بكفه فوق السيارة وبدا منهكاً، ورغم أنه لم يبذل جهداً حقيقياً فإن شرايينه برزت، ونفرت عروق وجهه.. انزلقت النظارة فارتبك وتحركت السيارة نصف خطوة فازداد ميل جسده وبدا كأنه ازداد طولاً، وزام السائس بصوت غليظ فتحركت معه السيارة وكاد البية يسقط لولا أنه تدارك الأمر فاستقام وقد بدا على وجهه الضيق.. وزام السائس مرة وزعق مرة وفرك البية كفيه في عصبية وبدا أن السيارة رسخت في مكانها وأن لا أمل، وقبل أن تتحدر من جديد امتدت يد السائس إلى الداخل وجذبت فرامل اليد فتسمرت السيارة في مكانها.

«يا بيه اديني المفاتيح متخافش!».

رغم صعوبة الموقف فقد رفض البيه في كبرياء..
«ماحدث يسوق العربية غيري!».

قالها وهو يعود فيستند إلى السيارة من جديد، وهز السائس رأسه في استسلام وعاد إلى الدفع من جديد، وتزحزحت السيارة قليلاً وتصيب العرق على وجه السائس وتقطعت أنفاسه.. وكان البيه يفرك كفيه قلقاً وقد أيقن أن الأمر مستحيل.. فماذا يفعل؟!!

- 5 -

ظهرت في السماء - فوقهما تماماً - أول خيوط النهار.. كانت السيارة ساكنة وسط الشارع كالجثة وكان البيه يردد غاضباً في حيرة:
«وبعدين.. وبعدين يعني!».

وقتها علت عند الناصية سعلة وصوت بصقة وخطوات قدمين، التفت البيه فرأى على البعد شبح رجل يرتدي جلباباً وعلى رأسه لاسة، فصاح بلا تفكير:
«إيدك معانا والله يا ريس.. يا.. ريس!».

كان نداء البيه وكأنه السحر، كان نداءً آمراً وانثفاً، التفت بعده الرجل وتوقف لثوان خاطفة.. ثم استدار نحوهما وبدأ يصعد الشارع بلا كلمة!

- 6 -

كان الوافد الجديد عملاقاً صعيدياً عريض الجسد، غليظ الصوت، سرعان ما أسند ظهره إلى ظهر السيارة وراح يدفع بكل قواه.. ومع كل دفعة كانت السيارة تتزحزح قليلاً، وتحمس البيه فصاح في الرجل:
«إجمد امال وخليك جدع!».

كان النهار قد طلع وسعال الرجال يملأ الطريق البعيد وأصوات الخطوات تتناثر، وكانت السيارة قد وصلت إلى المنحنى وبدا الفلق على وجه البيه وتعالص صيحاته عندما ظهر رجل آخر عند الناصية:
«إيدك معانا والله يا ريس!».

وكما حدث في البداية حدث هذه المرة، وأصبح الرجلان ثلاثة راحوا يدفعون السيارة بينما تفهقر البيه إلى الخلف وراح يدفعهم بصوته وزعقاته.
«إيدك معانا يا ريس!».

أيضاً.. كانت كلمات البيه كالسحر، أمرة واثقة مهذبة تعرف طريقها لا أدري إلى أين، فقد توقف رجل ثالث ثم راح يصعد الشارع نحو السيارة.. وكان البيه يعدل من هندامه والسيارة تدور في المنحنى ببطء شديد، وأصوات الرجال الأربعة تبدو كجزء من الصياح الذي غمر الشارع كله، كانوا قد أحاطوا بالسيارة من كل جانب، وأيديهم تقبض عليها في قوة، وسيقانهم مشدودة، وعروق جباههم نافرة، ونسمة صبح تهب فيصيح البيه من بعيد:
«زقة واحدة وتطلع!».

اختفت السيارة داخل الجراج وكان البية يقف في منتصف الشارع وقد اختفت العصبية من ملامحه وحل محلها الارتياح.. سكنت أصوات الرجال في الداخل ثم تعالت خطواتهم مقتربة من الشارع، تراجع البية خطوة ثم صاح في السائس:

«أنا طالع الساعة تسعة ونص وعاوز العربية نضيفة من فضلك!».

ورد السائس من الداخل بسعال طويل وكلام متهدج متآكل الحروف. وعندما ظهر أول رجل من داخل الجراج كان البية يسرع نحو الناصية وهو ينظر في ساعته، وعندما وصل إلى الطريق كان الرجال جميعًا عند باب الجراج فالتفت نحوهم ملوحًا:

«متشكرين يارجاله!».

ثم اختفى!!

كيف يموت الشيء الجميل؟

كان لا بد أن أفرح وتبدو السعادة في عيني..

ها هو أخيراً بعد طول شوق ألقاه.. كم سنة مضت؟.. كم شهراً؟ كم يوماً؟.. كم ساعة منذ أن افترقنا لآخر مرة؟
سقط الزمن واتصل..

ها هو كفه في كفي، ها هو صدره على صدري وكل منا يحتضن الآخر في شوق..
وصوته يغزو أذني كموسيقى طال بي البعد عنها:
«إنت فين؟».

وكان لا بد أن أفرح.. فرغم كل ما حدث.. كل ما حدث.. كل ما حدث كانت الساعات أو الأيام أو الشهور أو السنوات بكل ما فيها من شوق للقياء، وها أنا ألقاه من جديد، بعيني وابتسامته، بلحمه وشحمه، فكان لا بد.. لا بد لي أن أفرح..
غير أن ما حدث.. شيء غريب، فلقد كنت أشعر أنني أشد ابتسامتي إلى شفتي شداً، وكانت ابتسامته هو الآخر مشدودة وفي عينيه كانت النظرة خابية، يكاد البريق يطل منهما فينطفئ.. كان كل منا يقف تجاه الآخر.. وتذكرت الشيء الجميل الذي جمعنا ذات يوم فقلت:
«فاكر؟».

وقال إنه يتذكر كل شيء، وإنه كان مشتاقاً للقياء، وإنه عاتب عليّ، وإن الشيء الجميل لا يمكن أن يموت.. ثم سألني عن أحوالي فلم أجبه وإنما قلت له إنني مشتاق للقياء، وإنني عاتب عليه، وإن الشيء الجميل لا يمكن أن يموت.. لكنني لم أسأله عن أحواله.. كان ثمة برودة في الجو رغم ارتفاع درجة الحرارة..
قال وقلت في نفس واحد: «إنت كبرت كثير!».

وضحكنا.. وعاد كل منا ينظر للآخر ويشد ابتسامته إلى أقصى ما يستطيع.. ذلك لأنه كان لا بد لنا أن نفرح..

في نفس هذا الطريق سرنا من قبل مئات المرات، تحدثنا وتجادلنا وتشاجرنا وتخاصمنا.. لكن أحدنا أبداً لم يفكر أن يوماً سيأتي، ليموت فيه الشيء الجميل، سألني: «إيه اللي كان حصل؟».

وزعقت بكلام سبح من فمي متموجاً على أصوات كالضحكات وهزرت رأسي أنفض عنه ذكرى وقعت هنا، في نفس هذا المكان الذي نقف فيه، وذكرى أخرى في الشارع المجاور، وذكريات في الحوار نصف المظلمة، والأيام القاتظة والليالي الباردة.. ذكريات..

ولأنه كان لا بد لنا أن نفرح لأننا التقينا، فلقد قررنا أن نتناول العشاء معاً، وأن نشرب ونتحدث ونتجادل، ونتشاجر، وألا نتخاصم مثلما كنا نفعل في الأيام التي خلت..

تناولنا العشاء وتحدثنا وتجادلنا، وتشاجرنا.. وراح كل منا يملأ عينيه من الآخر..
ويمتص بأذنيه صوتاً طال به الشوق لموسيقاه.. كان لا بد لنا أن نفرح فلقد التقينا..
لا بد.. غير أن شيئاً ما حدث.. فلقد تذكر كل منا أن وراءه عملاً أو موعداً، أو أي
شيء.. وراى الصمت للحظات طالت، ثم نهضنا وشد كل منا ابتسامته، وتصافحنا
وقال كل منا إن الشيء الجميل لا يمكن أن يموت وإنه لا بد أن نلتقي دائماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والله مانا قاعدة لك في البيت

انفجر غاضباً، فركل غرفة النوم بالكامل. ارتطم بالمقاعد بالفراش بالدولاب بالتوالي والشوفنير لتصبح الغرفة كلها - في لحظة - ركاماً.. رفعت رأسها وكانت جالسة أمام المطبخ الذي رتبته ونظفته ووضعته في مكانه وجهزت الأواني.. بدا الخوف في عينيها، لم تفهم سر غضبته هذه، سألته في صوت مستكين ناعم:

- «مالك ياهاني؟!».

- «أنا قلت لك ميت مرة اني ما احبش أكل من غير سلطة خضره!!».

قالت معذرة:

- «أصل مفيش خيار!».

- «وماجبتيش خيار ليه؟!».

- «مش كنت باحضرلك الأكل يا حبيبي؟!».

استدار مندفعاً نحو باب الغرفة، راح يركل ما تتأثر على الأرض من سيارات ومسدسات وكرات ملونة وبالونة كان قد تعب حتى انتفخت، وصل إلى الباب فاستدار مهدداً:

- «لو كنت حبيبك صحيح، كنتي عرفتي اني باجي من الشغل تعبان!».

بدا الغضب في عينيها الخضراوين وتضرج وجهها بالدماء وهي تنهض إليه. كادت تركل - لفرط ما انتابها من غضب - مطبخها الصغير، لكنها لم تجد في ذلك نفعاً بعد أن تعبت في ترتيبه ووضع الأواني فوق النار.. تقدمت منه ويدها في خاصرتها:

- «تقدر تقول لي حضرتك، أنا باشتغل إيه هنا؟!».

- «مراتي!!».

- «أمال لو كنت شغالة عندك كنت عملت إيه؟!».

أحس بالخجل فألقى بنفسه فوق الأرض، بجوار الباب، ومد يده إلى مسدس وجده بجواره وراح يتلاعب به. طال الصمت، وكان لا بد أن يقول شيئاً، فلوح بالمسدس مصوباً إياه نحوها:

- «خلاص.. مش عاوز اطفح!».

- «هو ده جزائي؟!».

نهض إليها والمسدس مصوب إلى صدرها:

- «شوفي يا راندة.. أنا يوم ما اتجوزتك اشترطنا عليكى إنك.....».

قاطعته في ضيق:

- «دي مش عيشة بقى!...».

«على كيفك!».

«والله مانا قاعدة لك في البيت!».

صرخ:

- «الباب يفوت جمل!».

كادت تخطو نحو الباب لكن جملمته وقعت عليها وقوع الصاعقة.
جمدت في مكانها لثوان. استدارت نحوه محمقة في وجهه الوسيم وتصاعدت
الدموع إلى عينيها، اختنق صوتها معانبا:

«بتطردني يا هاني؟!».

طوّح بجسده مبتعداً عنها ملوحاً بذراعه:

«افهميها زي ما انتي عاوزة!».

«الحق عليّ اللي جيت لك تاني!».

قالت هذا وقد تساقطت دموعها. استدارت نحو الباب وغادرت الغرفة في خطوات
ثابتة. أغلقت الباب خلفها في عنف، فساد الصمت!

نظر حوله فرأى السكون الذي أطبق على الغرفة، ولولا تلك التمتمة التي جاءته من
الخارج لأطلق صرخة كانت محتبسة في صدره. نظر حوله وكان كل شيء
محطماً.. راودته نفسه على البكاء، لكنه رفض. استبد به الغضب فنهض ليركل كل
شيء؛ غرفة الطعام وغرفة النوم والأنتريه والمطبخ حتى التلفزيون الصغير الذي
أهداه له عمه في عيد ميلاده. ركله بكل قواه فارتطم بالحائط وتهشم!

بعدها وقف لاهثاً لكنه كان يشم رائحة غامرة!

قرر أن يحسم الأمر كله، وأقسم بينه وبين نفسه، ألا يلعب منذ اليوم إلا مع
الصبيان!!

عندما غادر الغرفة بعد ذلك كانت رائدة لاتزال تبكي، وكانت أمه راقده فوق
الأرض تربت عليها. وكان أبوه يقف في آخر الممر المؤدي إلى غرف النوم بادي
الدهشة. كان أول ما سمعه هو صوت رائدة الباكي وهي تقول:

«أنا عاوزة اروح لماما!».

أخذته العزة فصرخ:

«في ستين داهية!».

زمر أبوه في غضب:

«وبعدين يا ولد؟!».

وقالت أمه معانبة:

«هاني... عيب كده!».

أطرق صامتاً وعادت أمه إلى رائدة:

«إنتي مش كنتي عاوزة تيجي له من الصبح؟!».

صرخ متعالياً:

«قولي لها!!».

عاد أبوه يزمر:

«هاني!!».

أغلق فمه واشتد غضبه وتلصقت عيناه نحو راندة التي كانت دموعها تغرق وجنتيها الآن.

«طيب قولي لي يا حبيبتي.. إنتي زعلانة ليه؟!».

من بين شهقاتها جاءت كلماتها باكية:

«يا طنط انا متضايقه».

«إنتي عاوزة إيه دلوقت؟!».

«عاوزه اروح بيت بابا!».

قبل أن تفتح الأم فمها بكلمة، صاح هاني:

«قلت لكم سيوها تروح في ستين داهية!».

اندفع الأب نحو ولده وقد اجتاحه الغضب اجتياحًا، لكنه قبل أن يتقوه بكلمة كان هاني يصيح مهددًا راندة:

- «بس يكون في علمك. إذا خرجتي من باب البيت مانتيش راجعاه ثاني!».

أرتج أبو هاني وجحظت عيناه وهو يحملق في ولده غير مصدق. في عنف التقت نحو زوجته وكانت عيناها هناك تمتد منهما نظرات متشبثة ضارعة تنفث حزنًا بلا حدود.. استدار الأب هاربًا من كل شيء فران على المكان صمت ثقيل، صمت امتد لثوان ثم تسلل إليه صوت راندة الحزين:

«الحق مش عليك يا هاني... الحق عليّ انا اللي جيت لك ثاني!».

«مش أنتي اللي اتحايلتي على طنط علشان تجيبك؟!».

- «ما هانش علي تكلمني في التليفون واكسفك!».

أطلقت الأم ضحكة متكسرة الأمواج، ضحكة أرادت لها أن تداري ما في نفسها.. لكن ضحكة الأم أغضبت هاني فصاح:

«عاجبك كده؟!».

هرب الأب من نظرات طفله مستديرًا نحو الداخل هربًا من شيء غامض. والتقت نظراته بنظرات زوجته في لحظة، فخيل إليه أنه رأى في عينيها طبقة رقيقة من دمع حائر.

ولا بد أن الضحكة كان لها نفس التأثير على راندة، فلقد قالت:

«انت السبب!».

«انا اللي ما باسمعش الكلام؟!».

«انت اللي عاوز تحط كل حاجة على دماغي!».

وضع هاني يده في خاصرته ومال بجذعه الأعلى إلى اليمين قائلاً:

«طيب اقدر اعرف.. حضرتك عاوزة إيه دلوقت؟!».

أحسّت الأم أنها أصبحت - فجأة - خارج الموضوع. فنهضت وكان الألم قد انتشر في ركبتيها. خطت نحو الأب وعيناها على الطفلين، وجاءها صوت راندة:

« هارجع بيت بابا! » .
« وتسيبيني من غير أكل؟! » .
تقدمت منه راندة وقد تتمررت فجأة. لوحت في وجهه بأصبعها الصغير هاتفة:
« إياك تكون فاكرا اني عبيطة! » .
« عاوزة تقولي إيه؟! » .
« إنت متغدي بره قبل ماتيجي! » .
هم هاني بالحديث فأردفت:
« شوف انت كنت متغدي مع مين وجاي هنا تعكنن علي! » .
انقضت الأم وقد اقتشعر بدننها فضمت ذراعيها إلى صدرها وصوت ولدها يقول:
« ماتبقيش عبيطة ياريري! » .
صرخت راندة:
« انا اسمي راندة يا أستاذ! » .
تقدم منها مغمغماً:
« طيب خشي البيت عيب عمايلك دي! » .
« متأسفة! » .
« بلاش الكلام ده قدام الناس! » .
توقفت لثوان ثم قالت:
« انت اللي حاتعمل السلطة! » .
غمغم هاني وهو يعود إلى غرفته:
« وبيقولوا عليكم جنس لطيف! » .
زمر الأب وقد طار عقله تماماً:
« ولد ياهاني! » .
استدار هاني نحوه.
« جيت الكلام الفارغ اللي انت بتقوله ده منين؟! » .
ولم يجد هاني جواباً، فقط... راح ينظر إلى أبيه وقد تاهت عيناه... بينما هرب الأب من نظرات ولده مستديراً نحو الداخل هرباً من شيء غامض، والتقت نظراته بنظرات زوجته في لحظة، فخيّل إليه أنه رأى في عينيها طبقة رقيقة من دمع حائر!!

العطش

قد يجرب الإنسان شيئاً ولكنه لا يحسه.

و«جوده» كان قد جرب العطش، ولكنه لم يحسه إلا في تلك الليلة.

وهو عندما كان يعطش في البيت، كان يجري إلى الحنفية أو القلة ليعب منها عباً..

وعندما كان يعطش في الشارع، كان يذلف إلى قهوة المعلم حنفي، ويشب على قدميه حتى تطاول رأسه البنك العالي ويقول لحسن.. والنبي عاوز اشرب..

ولما صام لأول مرة، ونام بعد السحور، وجاء الصباح وأحس بجفاف حلقه، اتجه إلى القلة وشرب منها فوراً، وكان ناسياً، ولذلك لم يبطل صيامه. وتقدم به النهار، وأحس بالعطش، فذهب إلى القلة وتعهد أن ينسى. ثم لم يصم مرة أخرى، وأقنع نفسه بأنه «لسه صغير».

وهو لا يذكر متى أحس بالعطش لأول مرة في تلك الليلة.. ولكنه لم يذكر أنه عطش ولم يطلب ماء.

في أول الأمر كسل عن طلب الماء. ثم عاد وتحمله.. ثم لم يستطع فطلب أخيراً أن يشرب. ولكنه لم يجد ماء. وأمضى الليل ملتصقاً بأمه وهي تلف ذراعها حوله، فيشعر بأصابعها الرقيقة المعضمة تلتف حول كتفه وتضمه إلى صدرها.. ثم ترتفع باردة كالتلج إلى وجهه فتتحسسه.. ويسمعها تهمس بكلمات كثيرة.. كلمات مرتعشة تنساب إلى أذنه عبر الظلام المتكاثف.. ملفوفة بأنفاسها التي كانت تفتح نصف وجهه فتدفعه.

ظلام.. ظلام كثيف مخيف.. لم يكن يرى فيه كفه.

وبرق.. برق مزمر هادر.. يضيء الدنيا ويرجها في قوة وعنف.. فتتهتز وتترنح ثم يخفتي البرق ليعود الظلام والفرقة والهدير الرهيب.

قنابل وطائرات ورصاص وصرخات ليل طويل مرعب مليء بالموت - ودوي وراء دوي.. وهو قابع في صدر أمه، يكتم أنفاسه، وتبطل عيناه في الظلام ويرتجف، ويقرأ الفاتحة وآية الكرسي مرات ومرات.. ولا شيء يتغير أبداً.

كم كان يحب السهر، وكم كان يتضايق عندما يقول له أحد «قوم نام».

ولكن أحداً في تلك الليلة لم يقل له «قوم نام».. وتمنى هو النوم.. وحاول أن ينام دون جدوى، أغمض عينيه، وضم جفونه بشدة حتى ألمته ولم ينام..

ومرت الساعات طويلة بطيئة وهو في مكانه يرتجف ولا يتحرك.

في أول الليل كان يقرأ كل ما يعرفه من آيات بصوت مرتعش.. ويهتز لسانه بسرعة داخل فمه يطرقع ويتلوى.. يلطم سقف حلقه.. ويعود إلى مكانه.. ينفرد ويروح ويجيء في سرعة.. ويخرج الصوت مكتوماً كالفحيح مع الشهيق والزفير.

وعندما توغل الليل.. زم شفثيه الباردين.. وأخذ لسانه يتحرك أيضاً داخل فمه المغلق، وجف ريقه، ونشف حلقه، فوقف لسانه عن الحركة ولكنه استمر يقرأ في سره وأحس بالعطش.

ويهتز البيت، ويترنح السرير، وتفتح ضلفة الدولاب في قسوة، وتتكرس المرأة، ويسقط دهان الحوائط وتصرخ أخته، وتشهق أمه وتتشبث أصابعها بكتفه في قوة حتى تؤلمه.. وتقول متوسلة في وجل: «يا ساتر يا رب.. يا رب عالظالم وابن الحرام».. وبداخله رعب رهيب، وتصطك أسنانه، ويزداد التصاقاً وترتجف أوصاله، ويزم جفونه، ويعود لسانه إلى الحركة في سرعة ولهفة داخل فمه. ثم يعود إلى الصمت مرة أخرى.

كان الليل مرعباً، لم يترك له فرصة للنوم، أو حتى للراحة، النوم الذي افتقده كثيراً، وتمناه ليرحبه من ذلك التتميل الذي أخذ يطوف برأسه وجفونه ويحرق عينيه، وتدوي الفرقة من جديد ويبرق البرق الحارق، ويهتز كل شيء وتصرخ أخته، وتشهق أمه. ويثني هو ركبتيه بسرعة.. فتصطدمان بذقنه ويلتصق فخذه بصدره، ويلف ذراعيه حول ساقيه المنثنتين، وتصطدم أصابع يديه وهي تبحث عن بعضها في الظلام الكثيف، ثم تتداخل بسرعة وتتشابك وتشد بعضها البعض في قوة كأنه يحتضن نفسه.

ويبدأ لسانه في الطرقة المكتومة داخل فمه.. ويعود فيحس العطش من جديد.. يحسه أشد وأعتى وكأنه نار تلهب حلقة. ماذا يريد الإنجليز.. لا يدري..

قالت له أمه «عايزين الكنال» ولم يفهم لماذا يريدون القتال.. ولما قال «ليه؟» لم يرد عليه أحد.

لماذا يريد الإنجليز القتال؟

ولم يجد جواباً.. ولم يسأل أمه.. كان رأسه ثقيلاً.. وقد أخذته سنة من التيه فلا هو نائم ولا هو مستيقظ.. يحس كل شيء ويعي كل شيء.. ولكنه متجد يشك في الأمر كثيراً.. وكأنه حلم مزعج..

ولسانه أصبح يتحرك داخل فمه في كسل وبطء وتراخ، فيحس به لزجاً جافاً، وحلقه تسري فيه حرارة حارقة. وضوء النهار يتسلل من فرجات الشيش المتتالية المتتابعة، أزرق باهتاً، والهدوء يتسلل رويداً رويداً، ويزحف ناعماً خفيفاً، والصمت يخلق فوق كل شيء تدريجياً.. ويتسلل مع الضوء الباهت غارقاً في نفسه، وتتردد الأنفاس مجهدة وتتململ الأجساد في أماكنها، وريح باردة تنفذ من حيث لا يدري أحد. ويدور هو بعينه إلى أعلى، ويرى وجه أمه، وأنفها المستطيل الذي يخترق الفضاء الرمادي الممتد أمام الوجه.. وتحتة شفتان زمتا في قوة، وذقن تقلص وتثنى جلده.. ويتململ «جودة».. ويقول:

«أنا عطشان يا امه».

ويسود الصمت برهة.. وتدير أمه رأسها إلى الناحية الأخرى.. وهو لا يرى ذلك.. إنما يحسه بانقطاع أنفاسها الدافئة في وجهه..

«قومي يا سنية اسقي أخوكي».

وتغمغم سنية.. ويحس هو ارتخاءً وتتميلاً يسريان في كل أعضائه والظلام يخف تدريجياً.. وريح باردة تطوف بالحجرة.. وتنهض سنية.. ويرفع هو عينيه دون أن يحرك رأسه.. وتتمطى سنية.. وتفرد ذراعيها في الهواء.. وتتأهب بصوت عال..

ويتنأب هو الآخر.. وتخطو سنية خطوة.. وتنأب أمه وهي تواصل قراءاتها.. وتخرج الكلمات من بين شفثيها المنفغرتين بطيئة ممطوطة متراخية.. «اللهم يا لطيف بعباده الطف بنا يا عزيز ويا قدير».

ويتحرك شبح سنية خفيفاً ناعماً كأنها تسبح في فضاء الحجرة البارد الثقيل.. وتختفي في الخارج برهة.. ويأتيه صوت أمه:

«مش تقوم تنام بقى يا جودة؟»

ولا يدري ماذا يقول.. والليل الطويل الذي سهره يصعب عليه ويتمنى في قرارة نفسه لو تطلع الشمس، ويغمر النهار الدنيا ليخرج إلى الشارع، ويرى ما حدث في الليل، ويخبر العيال أنه لم ينم وظل ساهراً حتى الصباح.

وهو يدفن رأسه بين ركبتيه فيحس الدفء في انكماشه هذا.. ولكن سرعان ما يرفع صوته عندما يأتيه صوت أخيه من الخارج:

«مفيش فيه في الحنفيات».

ويدب في البيت شيء كالحياة.. وتتحدث أمه مع أخته.. وتعودان إلى الحجرة.. وتخرجان وتتباحثان.. وهو قابع في مكانه قد استسلم للخمول الذي اعتراه.. ولذلك الدبيب الكسول الذي أخذ يتمشى في أوصاله هيناً ليناً فيحس له اللذة كل اللذة.. وترتخي جفونه ثقيلة كأنها تحمل فوقها ثقلاً لا يقاوم.. ويتسلل النوم إلى عينيه بخفة كأنه يريد أن يسرقه.. ويسري في أذنيه طنين رتيب ثقيل.. ويتذكر العيال والشارع.. وهل سهروا كما سهر.. أم سهر بعضهم ونام الآخر؟ لا.. يجب ألا ينام.

ونهض جودة من مكانه.. وسرعان ما دثره الهواء فارتعش واصطكت أسنانه وتضاربت في سرعة متلاحقة متتالية.. وتسلق الكنبه.. ونظر من خلال فتحات الشيش.. ولم ير شيئاً.. ويعود إلى مكانه.. وينسى الليل وهو يفكر في العيال.. ويحس العطش أكثر.. ويطلب ماء.. وأمّه تقول له أن يصبر حتى يطلع النهار، وتبزغ الشمس.. وتتسلل ككل يوم من ثقب في الشيش ترسل خيطاً طويلاً من شعاع أبيض.. يلتقي مع الأرض في دائرة.. فكانه عصاة سحرية كثيراً ما لعب بها.. وتخطاها.. وحملها فوق يده دون أن يحس لها ثقلاً.

وأمه لا تكف عن القراءة.. وتتساءل عن الجدعان وتدعو لهم أن يقف الله معهم ويحرسهم لأهلهم وأولادهم.. وأخته قد عادت إلى مكانها وقبعت كالتمثال.. وبرودة جافة تنفذ إلى عظامه.. وبدأ يتضايق ويقول أنا عطشان ويقول إن النهار قد طلع.. وتقول هي «طول بالك كمان شوية». ولا يطيق.. ويقول لها بصبر نافذ:

«أنا عاوز اشرب».

ويمضي الوقت.. وأخيراً ينهض ويأخذ الكوز الكبير.. ونهضت أمه وراءه وقالت له:

«خلي بالك من نفسك - إوعى تقرب من حد.. ملكش دعوة بحاجة».

ويسرع إلى الباب.. ولا يصبر حتى تفتح أمه له «الترباس».. فهو يتعلق به ويفتحه.. وينفرج الباب.. ويندفع هو إلى الخارج وهو يجذب الباب وراءه.. ويحس كأنه انطلق من سجن بغيض.

وتغمره الشمس.. ويبهر الضوء عينيه فيغمضهما.. ويرفع كفه إلى وجهه.. ويفتح عينيه ليرى من خلال فتحات أصابعه أشياء غريبة.. ثم يغمضهما بسرعة. ويعود ليفتحهما من جديد.. ويرى كل شيء هذه المرة.. وتسقط يده وتتدلى جانبه.. ويفغر فاه دهشة.

وهو في ذهوله لا يعي شيئاً.. تدور عيناه على المكان لتشمله.. ولا يصدق.. ويمتص شفته السفلى بين أسنانه - ويجز عليها.. والأمر كله كالحلم.. وسؤال صارخ يلح عليه:

«أين الشارع؟»

لم يكن هناك سوى هدد وتراب وحجارة.. وصمت عميق كئيب.. وعيناه تجولان مرات ومرات بالمكان فكأنه اتسع وكبر.. ونظر أمامه فإذا البحر الأزرق هناك.. يتزامى أمام الشاطئ فسيحاً رحباً أزرق، والتفت إلى اليسار ولم يجد دكان عم بيومي بائع اللب والحلويات، وعم عدس ليس واقفاً بعربته يبيع الفول ككل صباح.

أيقنون قد نقلوه بالليل من بيت إلى بيت دون أن يشعر؟..

ولكنه كان ساهراً ولم ينم.. لم ينم ولا دقيقة.

«وأين العيال؟»..

ليس هناك أحد.. ليس هناك سوى هدد وهدد كثير.. وأكوام طوب وحجارة.. وأبواب وشبابيك محطمة.

كان يريد أن يعود ولكن ذلك الارتخاء الناعم عاد إلى أوصاله.. فأسند رأسه إلى كف وأغمض جفنيه نصف إغماضة.. وأخذ ينظر إلى البيوت المهدمة في شيء كبير من الرعب، وأغرقت الدموع عينيه فجأة.. وتسلفت ثم انحدرت فوق وجهه الشاحب وقال: «يا عيني».. ولم يكن يدري لم يقول «يا عيني» ولا على أي شيء يقولها كأنه يحس كأنه فقد عزيزاً، عزيزاً مبهماً ولكنه كبير جداً.. كبر حياته كلها.

يمضي الوقت وكانت الشمس مفروشة فوق كل شيء.. والفضاء يمتد إلى بعيد.. بعيد حتى البحر.. وهز رأسه وقال: «يا عيني» قالها حارقة.. وانهمرت الدموع أكثر ثم أخذ الصمت يتسلل إلى نفسه رويداً رويداً وينتشر في داخله حتى لفه كله.. فغرق فيه.. فلا حياة ولا تفكير ولا حركة.. وشيء كالعدم لا يدريه ولا يعرفه.. إنما هو غارق فيه مستسلم له.

ومد رقبته إلى اليمين، وعندما رأى بيت الحاجة زهرة قال: «الحمد لله».. وكانت هناك بيوت.. ولم يكن هناك ناس، ومد رقبته أكثر. ثم نهض ومد نصفه الأعلى كله.. وأخذت عيناه تلمان كل شيء أمامه كأنه يحزم الرؤيا في كتلة كبيرة ويحملها في داخله.. وخطا خطوة.. وسقطت قدمه الصغيرة الحافية وسط الحجارة والطوب.. ونظر إلى أسفل.. وأخذت أصابع قدميه تتشبث بالحجارة العالية.. وتهبط وتغوص في التراب الكثير.. ويصعد جسده الضئيل ويهبط وهو يسير بحذر وقد نسي كل شيء والكوز في يده يهتز.

وهو لا يدري إلى أي شيء كان ينظر وعن أي شيء كان يبحث، كان يسير ببطء ولا يبتعد عن البيت.. ذهب عنه بعض الخوف ولم يذهب كله.. وكان يمصص بشفتيه ويقول: «يا عيني» كلما رأى شيئاً محطماً. ووقعت عيناه على كرة شراب

فخفق قلبه، وعرف على الفور أنها كرة عبده صديقه، والتقطها ونفض عنها التراب، واستدار بلا وعي نحو جدار بيتهم وقرأ ماكتبه العيال.. «شجعوا تيم النسر المتوحش».. «يحيا الكابتن عبده»..

«يا ترى أين ذهب العيال»؟..

لقد قال له بعضهم إنهم سيهاجرون وتحايل على أمه ليهاجروا مثل العيال ولكنها رفضت وقالت: «نموت في بلدنا أحسن من الغربية».

ووجد شيئاً يبرق فانحنى عليه.. واخترقت أذنه صرخة تناديه.. وكان الصوت في السكون كالحياة في القبر.. كان صوتاً رفيعاً يتسلل بكل قواه.. وكأن يداً خفية تمتد لتخنقه وتمنعه من الوصول إليه.. وخفق قلبه بشدة.. واضطرب واهتز.. ورفع رأسه.. ورأى السيد.

وكان واقفاً هناك.. عند أول الشارع. وانتابه فرح طاغ وكأنه لقي لقيه.. وانطلق ناحيته وهو يصرخ بكل قواه.. وقذف بالكرة نحوه، وأخذت قدماه تتشبثان بالحجارة والطوب.. ويعلو جسده ويهبط مع الأرض المملوءة بالهدد.. وهو يتكلم ويتكلم ويفرغ كل ما اختزنه في ليله الطويل.

- وله يا سيد.. يا سيد.. شفت اللي حصل.. سمعت الضرب بالليل.. أنا سمعت كل حاجة.. ما نمتش.. ما نمتش.. ولا دقيقة.. فضلت سهران للصبح.. سهرت طول الليل يا ابني.. وسمعت كل حاجة.. شفت البيوت يا سيد.. كلها مهدودة.. ولقيت الكرة بتاعة الوله عبده في الهدد.. سيد.. سمعت يا وله.. أنا سمعت.. أنا شفت.

كان يجري بكل قواه.. وبكل ما تسمح به الأرض المليئة بالطوب.

وكان صدره يعلو ويهبط بسرعة متلاحقة.. وأنفاسه منبهرة.. وعيناه تلتقطان منظر الأرض في سرعة.. ثم تصعدان وتمران بكل شيء.. بالحجارة والطوب والبيوت المنهارة والجدران المحطمة وأعمدة الدخان المتراقصة في كسل وبطء، ثم تلتقيان بجسد السيد الصغير الواقف هناك.. وتعودان في نفس الطريق.. وتمران بكل شيء وتلتقيان بالأرض تحت قدميه.. وينتقي مكاناً لقدمه.. ويخطو خطوة ليعود فيرفع عينيه من جديد.

وقدماه تغوصان في التراب.. وتتحملان صلابة الطوب.. وهو يجري.. ويصرخ وصوته الرفيع الثاقب ينتشر قليلاً في المكان الهامد، ثم يختنق.. والسيد واقف في مكانه لا يتحرك وقد تمزق جلبابه.. وتلطح وجهه بالتراب.. وبانت ساقاه الرفيعتان قذرتين سوداوين.. ولكن «جودة» لم ير شيئاً من هذا.. كان يريد أن يصل إلى السيد أولاً.. وأن يقسم له أنه لم ينم ولا دقيقة.. ولا دقيقة واحدة.. وأنه سمع كل شيء وأنه.. وأنه..

ويجري.. ويصل أخيراً إلى السيد.. ويقف أمامه لاهثاً وقد كست وجهه موجة من الفرغ - وتسيل من عينيه دمعتان.. ويبرد طرف أنفه.. ويتسرب منه خيط رفيع تتقلص له الأنف كلها.. فيرفع كفه المتربة المتسخة ويدعكها.. وكان لا يزال يتكلم.. والكلمات تخرج من فمه متقطعة منبهرة.. ويسعل سعلة سريعة.. ثم يرى السيد وكأنه يراه لأول مرة.. ويجمد في مكانه.. ويتسلل السكون ثم يندفع بسرعة ليشم كل شيء.

كان السيد يرتجف.. وكان وجهه قذراً علته الأتربة ونقط دماء.. وبده مربوطة برباط أبيض ملوث بالدماء.

«ما لك يا سيد؟»

قالها «جودة» في صوت خافت خاشع.. وبدا له السيد غريباً.. صامتاً كالحجر. وأحس بالخوف يغمره.

«ما لك يا سيد؟»

وتحركت شفتا السيد، وتقلصت ذقنه بشدة.. وتثنى لحمها وتداخل.. واتسعت شفتاه وامتطتا.. وأخذ يبكي في نشج متقطع مبحوح كمن يواصل بكاءً طويلاً، وأحس «جودة» بحيرة كبيرة.. ووقع بصره على الرباط الملوث.

«من إيه ده؟ ما لك يا سيد؟»

«البي.. ت.. نهد.. ع.. عل.. علينا».

وانفجر سيد يبكي بحرقة.. وأخذت الدموع تنهمر من عينيه سريعة.. وأنفه يسيل.. وخيط من لعابه يمتد من فمه ويتأرجح رفيفاً في الهواء.. ثم يستقر على صدره العاري المترب.. وصوته الباكي يتناثر حولهما ولا يمتد إلى أبعد من ذلك.

ورفع «جودة» يده ليبعد ذبابة حطت فوق الرباط وقد اجتاحت نوبة من الحنان.. ولكنه لم يدرك ماذا يقول أو يفعل.. وامتدت يده إلى كتف سيد وربت عليه وقال:

«معلش يا سيد.. فداكم».

وشهق سيد شهقة طويلة.. ثم قال وهو يمسح وجهه بظهر كفه فتختلط الأتربة بالدموع وتصنع فوق الوجه غشاءً معادياً قذراً.

«أمي.. ما. ماتت».

وشهق «جودة».. ولم يدر ماذا يقول.. كان شيء ينغرز في أعماقه انغرازاً بطيئاً مؤلماً.. وساد الصمت برهة.. أحس خلالها كأنه يريد أن يفعل شيئاً.. أي شيء.. وحاول أن يبكي.. ولكنه لم يبكي.. وقال بصوت خفيض هامس «يا عيني» وكان يعني بها شيئاً.. والسيد نشيجه يستمر.. وهو يقول من خلال بكائه:

«وأبوياء..،.. كمان».

ولم يدر «جودة» إلا وهو يبكي هو الآخر وقال: «يا عيني يا عم أبو سيد».. كان الصمت ثقيلاً عميقاً.. والشمس ترتفع في السماء.. والذباب يمرح في الجو.. والتراب تسبح ذراته كثيرة تخنق الصدر.. وتختلط بخيوط الدخان الملتوية.. فكأنهما يصنعان معبداً للشيطان.

وهذا كل منهما قليلاً.. وكان السيد قد جلس فوق الأرض.. و«جودة» قد قبع أمامه وفي يده الكوز فارغاً.. يتدلى من أصابعه.

«متز علس يا سيد».

«أنا بقيت يتيم يا جودة».

وقال «جودة» بحنان كبير. وصوته الخافت يرتعش في رقة:

«طب ما انا يتيم أنا كمان مش ابويا ميت؟».

«لكن انت لسه لك أم».

وصمتا وطوح «جودة» ذراعه يبعد الذباب عن الرباط الملوث.. ثم قال وهو ينظر إلى الكوز:

«مفيش ميه في الحنفيات».

ورفع السيد رأسه إلى «جودة».. وكانت عيناه حمرًا.. ووجهه قذرًا.. وشعره منكوشًا مليئًا بالتراب.. وشفته علتها طبقة بيضاء.. وقال في صوت متحرج خافت:

«إنت عطشان»؟

«أيوه».

«فيه ميه مع الانجليز».

وأحس جودة بكرهية تطوف بصدرة كراهية غريبة.. وتمنى لو يموت كل الإنجليز.. كلهم.. ولا يبقى منهم أحد؛ وصمت.. وعاد السيد يقول:

«جم رجالة خدوني من البيت الصبح بدري.. وربطوالي إيدي».

واستدار «جودة» ناحية الشارع.. ولم يجد بيت السيد. ثمة جدار أسود.. وقد لوثته أدخنة سوداء.. وتغلغل الشيء في أعماقه أكثر.. وغرزت أظافر حادة في صدره نوبات من الألم متتالية سريعة.. لم يعبر عنها.. كانت كأنها شيء صامت.. ولكنه يهدر هناك في أعماق أعماقه فلا يدري حيالها شيئًا.

«قوم نروح يا سيد».

«بيتنا انهد يا جودة».

«قوم نروح بيتنا احنا».

«لأ.. أنا حاقعد هنا».

«يا أخي قوم.. الله».

وهز سيد كتفيه.. وعلا في الجو صوت حاد.. والتقت كلاهما بسرعة.

كانت دبابة تسير فوق الأنقاض.. وتسحق كل شيء.. وداخل كل منهما خوف رهيب.. فنهض «جودة» وهو يقول:

«قوم يا سيد».

وكانت الدبابة تتقدم نحوهما.. وتهتز وتترنح وتكركر بصوت عال مزعج.. وتسير وتخرق الحوائط وتهدمها.

«قوم يا سيد».

ضاع صوته في الضجة التي كانت تحدثها الدبابة.. والسيد في مكانه لم يتحرك.. ينظر إلى الدبابة.. إلى الرجل ذي الوجه الأحمر فوقها نظرة جامدة.. وهي تقترب.. وتقترب.. ومد «جودة» يده يجذب السيد.. ويصرخ وهو يقول له أشياء كثيرة.. وصوته يضيع في صوت الدبابة المقتربة.. والخوف يشل كلا منهما.. وتتعلق عيونهما بها في حقد ووجل.

وتقف الدبابة بالقرب منهما.. ويسود الصمت إلا من فرقة خفيفة تصدر منها..
ويقول «جودة»..

«مش قلت لك.. قوم يا أخي بقي».

ويتكلم الرجل من فوق.. ويشير إليهما.. ويهبط.. وهما جامدان في مكانهما لا يتحركان.. والكوز في يد «جودة» يتمايل مع الهواء.. ويتقدم منهما الرجل.. وفي يده زجاجة.. ويتحدث.. ولا يردان عليه.. ويبتسم ابتسامة شاحبة.. وعيناه تتعلقان بعيونهما الجامدة الخالية من كل شيء.. وكان كل منهما يرسب في أعماقه كلمات غير التي يقولها لهما.

ومد الرجل يده بالزجاجة.. ومد يده الأخرى نحو الكوز.. والتفت رأس «جودة» إلى سيد.. والتفت عيونهما.. والماء يهتز في الزجاجة رائقاً أبيض.. ولم يعد «جودة» يشعر بالعطش.. ولم يعد يريد ماء.. ويده جامدة إلى جانبه.. والرجل ذو الوجه الأحمر يتكلم.. وتمتد يده أكثر نحو الكوز.. ولكن «جودة» يبعد يده وراء ظهره.. ويتوقف الرجل.. ويتكلم في سرعة وقد زاد احمرار وجهه.. ويشير بيديه.. ويتكلم.. وهما صامتان جامدان.

وفجأة.. يتوقف الرجل.. ويهز كتفيه.. ثم يعود إلى الدبابة..

وينهض السيد ويسير «جودة» والسيد يتبعه.. وأقدامهما تنتشب بالحجارة والطوب.. وتغوص في التراب.. وفي نفس كل منهما شيء غريب يعربد ويثور و«جودة» يريد أن يفعل شيئاً.. وهو يحس أنه يريد ذلك.. ويحس ببركان يغلي في صدره.. وشيء.. شيء كالنار ملتهباً.. وتزداد أنفاسه اللاهثة المحترقة عندما تسير الدبابة ويعلو صوتها ليطن على صوت أفكاره المتلاحقة المتضاربة.. وهما يسيران.. والدبابة تسير.. والبيت يقترب.. وينظر «جودة» حوله فلا يجد سوى هدد.. وبيت.. وبيت.. وجدران.. وطوب.. وتراب.. ودخان يتصاعد متمائلاً متراقصاً في كسل.. وغيظ يملأ قلبه وصدره.. ويحس كأن يدًا قاسية تعتصر جبهته.. ودموعاً تقور في أعماقه.. وأنفاسه تنبهر.. والدبابة تحاذيهما.. وتدوس فوق كل شيء.. وتهدم كل شيء.. وصوت الأبواب المحطمة ينكسر تحتها.. والبيت يقترب.. ويقترب.. والدبابة تبتعد.. ويصلان إلى البيت.. و«جودة» يحس دموعاً تنهمر من عينيه سريعة خارقة.. ولسانه يجف وشفاهه تتخشبان.. وكراهية هائلة تقور في صدره.. ويقف ناظرًا إلى الدبابة المبتعدة.. وينطلق صارخًا بكل قواه..

«يا ولاد الكلب.. مش عاوز اشرب».

ويعود الصمت هادراً مضغومًا.. وصوت الدبابة يبتعد.. وتدوي في أعماقه صرخات مزمجرة مدمرة.. فيلقي بالكوز بكل قواه.. وتنتفخ رقبتة الرفيعة وتنفخ عروقها خضراء باهتة.. وتحمر وجنتاه حتى تلتهبان.. وذراعاه تمتدان في الهواء متشنجة مرتجفة في انفعال متوتر.. وأصابعه الصغيرة تتقلص كأنها تمسك بشيء.. وترتجف شفاهه ارتجاجاً عصبياً.. وينطلق صارخاً من جديد.. وصوته الرفيع يتقب الفضاء في سرعة وقوة..

«يارب تموتوا.. مش عاوز اشرب.. يارب تموتوا كلكم».

ويستدير في عصبية إلى الباب يدقه بكلتا يديه.. ويستمر في صراخه الهيستيري.

«اقتحي يا امه.. يا رب تموتوا افتحي يا امه.. مش عاوز اشرب.. مش عاوز اشرب»
اشرب».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعمار

تسربت الضحكات خفية فيما بيننا، كان اليوم هو موعد اجتماعنا الأسبوعي عندهما... منذ أن تزوجت ليلي - أختي الصغرى - وأصبحتا يعيشان وحدهما، اتخذنا قرارنا بالاجتماع عندها مرة كل أسبوع، ولقد تضاحكنا سرًا لأنهما - أبي وأمي - كانا متخاصمين ويتحدث أحدهما إلى الآخر، ولا يوجه أحدهما إلى الآخر كلمة... كانت هذه ظاهرة، فهما - منذ أن عادا يعيشان معًا وحدهما وقد رحلنا جميعًا إلى بيوتنا وزوجاتنا وأزواجنا - كانا يعيشان شهر غسل جديد... ولقد أعلننا منذ اليوم الأول، أنهما ليسا في حاجة إلى أحد، كانا قد تعديا السبعين واحدًا وراء الآخر، وإذا كانت أمي قد أصيبت بعدة أمراض كالسكر وضغط الدم وما إلى ذلك: فلقد كانت لا تزال قادرة على أن تعد له وجبات الطعام اللازمة... أما هو، فلقد كان - رغم أنه تعدى الخامسة والسبعين بعام وبعض عام - قادرًا على شراء ما يحتاج إليه البيت من لوازم...

«كفاية علينا أم محمد مرتين في الأسبوع!».

هكذا كانا يقولان وهكذا ركبا رأسيهما وهكذا أغيانا من كل شيء... كان أبي دائمًا يقول إن لكل منا - ولد أو بنت - بيته وزوجته أو زوجه وأولاده ومشاغله ودنياه التي هو مقدم عليها... لكننا - ربما بإحساس غامر بالذنب تجاههما - قررنا أن نجتمع عندهما في الأسبوع مرة.

«على شرط!».

هكذا صاح أبي معترضًا:

«إيه هو؟!».

«إنكوا تخلوا البيت قبل ما تنزلوا زي ما دخلتوه، نضيف وزى الفل!».

وكان عادلاً في شرطه فلم يعترض أحد... وهكذا سارت بنا وبهما سفينة الحياة، نطلبهما في التليفون ونطمئن عليهما إن شئنا أو شاء أحدنا أو إحدانا، نزورهما بين الحين والحين فرادى نشرب فنجائًا من القهوة أو كوبًا من الشاي أو نحمل إليهما كيسًا من الفاكهة، كانا يشترطان - أيضًا - على ألا يكون كثيرًا أو كبيرًا فقدرتهما على الطعام كانت ضعيفة، وكانت تضعف أكثر كلما تقدمت بهما السنون شهورًا!!!... كانا من ذلك النوع من الآباء والأمهات الذين يتحولون مع الأيام إلى أرواح شفاقة هائلة... ولذلك، فلم يكن غريبًا علينا أن نسمعهما يتحدثان كثيرًا عن الموت!

نعم الموت!

تحول الموت لديهما إلى نوع من الأمل المرتقب، كانا يتحدثان عنه في شوق من ينتظر نهاية رحلة العمر... أحيانًا كنا نضحك من حديثهما، وفي بعض الأحيان كان يصيب بعضنا الاكتئاب خاصة شقيقتي اللواتي كن يبكين لدى سماعهن هذا الحديث... غير أن خلافًا واحدًا نشأ بينهما... أن كلا منهما كان يريد أن يرحل قبل الآخر... كانت أمي تقول في لوعة:

«إلهي ما يحرق قلبي عليك أبدًا يا حاج!».

فيصيح فيها أبي محتجًا:

«اشمعي عاوزة تحرقي قلبي أنا عليكى!».

ولقد كانا يبدوان في تلك اللحظات وكأنهما قد تحولا إلى جسدين نورانيين. أو هكذا كان يخيل إلينا، كانا يبدوان راغبين عن كل شيء في الدنيا، في الطعام والزينة وحتى الفرح... كانا يصيحان:

«كفاية بقى!».

تلك لحظات لا تتسى، وكيف ينساها الإنسان عندما يواجه مصيره قبل حلوله... كان أبي إذا ما عاتبته إحدى شقيقاتي يقول:

«بتقولوا سعادة، بتقولوا فرح، بتقولوا أكل... كل ده انتوا ما تعرفوش عنه حاجة لأنكم مساجين، ويا ريتكم مساجين في أوضة، إنتوا مساجين في جيفة!».

أذكر عندما سمعت قوله هذا في أول مرة أحسست برغبة قوية في التقى، كان الأمر قاسياً وفوق كل احتمال، ولقد صاح فيه أخي ذات مرة!

«معنى كلامك ده يا بابا إننا نسيب حالنا وشغلنا ودينيتنا ونقعد نستنى الموت!».

«مين اللي قال؟».

«إنت اللي بتقول؟».

«أنا باقول ده يا أستاذ بعدما بقيت عالية!».

اختنقت شقيقتي الكبرى هاتقة:

«بابا».

«تقدرى تقولي لي أنا باعمل إيه دلوقت؟!».

صحت فيه:

«طب ما انت عملت يا أخي!».

«محدث يعرف!».

«بص لنا وانت تعرف!».

«عملت لنفسى ولأولادي.. لكن إيه اللي عملته للناس؟! هو ده اللي في علم الغيب؟!».

كان محيراً!

حياته سلسلة متصلة من الصراع مع الدنيا، ولد يتيمًا وذاق مرارة الحرمان منذ نعومة أظفاره لكنه راح يحفر في صخر الحياة بإصرار عنيد... كان يقول في لحظات صفاء:

«شوفوا يا ولاد... أنا كل اللي انا عاوزه، وكل اللي اتمنيته ربنا اداهولي!».

وتؤمن أمي على حديثه والكلمة تخرج من أحشائها:

«الحمد لله!».

«وهي دي القضية يا حاجة!».

«أمال إيه القضية؟!».

«يا ترى كل اللي هو عاوزه، أنا ادتهوله؟!».

قال هذا واختق صوته، وكست عينيه طبقة رقيقة من دمع حائر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة متسائلة، واران علينا الصمت ثقيلًا ثقل ذنوبنا، فغمغمت:

«لما انت بتقول كده، اللي زينا يقول إيه؟!».

«بفتكر يوم زي اللي فيه ده!».

نعم كانا يحلمان بالموت، ويتحدثان عنه حديث المنتظر الملهوف، ويختلفان فيمن يسبق الآخر منهما، لكنهما في تلك الليلة كانا متخاصمين.

وكان لا بد لنا أن نلح، سألناها عن السبب فقالت في تغاضب:

«اسألوا أبوكم!».

وعندما سألناه قال:

«اسألوها، هي اللي زعلانه!».

كانا بيدوان كطفلين يلعبان فاختلفا فتخاصما... وكان لا بد للإلحاح من أن يأتي بنتيجة، فلقد قالت أمي ذات لحظة:

«أبوكم عاوزني أموت، ما بقاش طايقتي خلاص!».

هتفت ممازحًا:

«مش انت اللي كنت عاوزه كده؟!».

قالت في احتجاج:

«أنا أعوز حاجة، وهو لما يقولها حاجة تانية!».

من الغرفة الأخرى جاء صوت أبي:

«الحق عليّ اللي مش عاوزك تتعبي!».

بدا لنا الأمر وكأنه يود المزاح العنيف، لكن الأمر لم يكن كذلك، كان جدًّا في جد.. قال أبي يحكي الحكاية إنهما كانا. بعد أن انتهت من صنع قهوة الصباح، وانتهى هو من حل الكلمات المتقاطعة في جريدته اليومية، راحا يتسامران، فقال فيما قال من أحاديث إنه «زهق» وأنه أصبح يتعجل الرحيل، فقال هي كما كانت تقول دائمًا إن عليه أن ينتظر حتى ترحل هي، فهي لن تحتل رحيله وبقائها وحدها بدونه... وبدلاً من الرد التقليدي الذي تعود أن يقوله، قال لها إن هذا الأمر أصبح يشغله في الأيام الأخيرة كثيرًا، فهي مريضة وتحتاج إلى دواء، كما أنها تحتاج إلى نوع خاص من الخدمة، وهو لا يريد لأحد من الأولاد أو البنات أن يتضرر منها فهي لن تستطيع أن تعيش وحدها، هو لا يريد لها عبئًا، يريد لها سيدة بيتها حتى آخر يوم في حياتها... وهي لو ماتت، فلسوف يستطيع هو أن يدير حاله، وألا يتعب أحدًا، وألا يكلف أحدًا حتى مشقة صنع فنجان القهوة أو كوب الشاي.

«يعني انت عاوزني أموت يا حاج؟!».

«قلبي عليكي!».

«قلبك عليّ، والا انت عاوز تخلص مني؟!».»

وهنا انفجر أبي غاضبًا، كان الحوار بينهما غريبًا لا يسمح لأحد بالتدخل أو المشاركة أو الحديث، كان الحوار يبدو خاصًا وكأنهما حبيين يتتاجيان، انفجر أبي قائلاً:

«خلاص انتي حرة، بكرة لو جه يومي قبل يومك حاتعرفي، إن الله حق!».»

ساد الصمت تمامًا، حتى الأولاد الصغار كفوا عن الصياح واللعب وارتكن كل طفل إلى ساق أمه أو أبيه ورحنا جميعًا ننظر إليهما، وكان ما أمامنا شيء لا علاقة له بالواقع، حتى قالت أمي:

«طيب.. بس على شرط!».»

«اشرطي زي ما انت عاوزه!».»

«ما تتأخرش عليه!».»

«أتأخر ازاي، كلها خمستاشر يوم واحصلك، هو انا بقيت اعرف اعيش من غيرك؟!».»

وانفجرت شقيقتي في البكاء، وانفجرت أنا وأخي في الضحك! اختلطت الدموع بالضحكات كما اختلطت التعليقات وسرى في الجو دفء من نوع نادر، أحسست في لحظة أننا حبات عقد تنتظمها أفكار هذا الرجل الغريب الذي تصادف أنه كان أبي...

ولقد كان اليوم حميمًا.

أكلنا وشربنا وضحكنا وسمرنا وسهرنا...

تركناهما بعد العشاء وكان كل منا يحمل في قلبه قدرًا من الحب من الصعب احتمالاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد كل منا إلى بيته...

وعادا هما إلى حياتهما الرتيبة... توضأ أبي وصلى العشاء، وأدت أمي الصلاة خلفه
جالسة... أطفأ الأنوار وأغلقا الباب بالمفتاح وأوى كل منهما إلى فراشه، كان ثمة
ضوء خافت يأتي من اللمبة «السهاري» التي وضعها في منتصف الممر المؤدي
إلى الخارج، سألته أمي إن كان يريد شيئاً فسألها إن كانت قد تناولت الدواء... ثم قال
لها: تصبحي على خير!

ونام...

ولم يستيقظ...

مات!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحطيم الأحلام

أخيراً... أخيراً تحقق الحلم، أصبح حقيقة فاجتاحتهما سعادة بلا حدود، وراحا - في بعض الأحيان - يختلقان المشاوير، كي يغادرا البيت... وعندئذ يركبان السيارة معاً ويفتحان النافذتين كي يلفحهما تيار الهواء قوياً، ثم لا يذهبان إلى المشوار، وينطلقان ضاحكين، ويتصارحان بأنهما غادرا البيت، فقط كي يركبا السيارة!

نعم، اشتريا سيارة!

ولأربع سنوات كاملة كانا يحرمان نفسيهما من كل متعة كي يحققا هذا الحلم العسير! حدث هذا يوم أن عادت هي باكية إلى البيت. كانت دائماً ما تصل قبله من عملها فتجهز الغداء وتسرع في ترتيب البيت حتى إذا عاد مارسا حبهما في الطعام ومشاهدة التلفزيون وتبادلا آخر الأخبار والأقاويل.. فلقد كانا - قبل أن يقعا في الحب - صديقين، وكانا يرتاحان إلى بعضهما البعض بشكل بدا لكل منهما غامضاً وإن لم يثر هذا الغموض فيهما أي تساؤل، جرفتهما الصداقة كالموج الهادئ إلى شاطئ الحب فتصارحا وهما يضحكان، فلقد كان من ألد أحاديث النميمة بينهما قصص الحب الخفية والعلنية... وما لبثا أن راحا ينمان على نفسيهما ويقولان عنهما ما كانا يقولانه عن الآخرين، يومها ضحكت وهي تهتف: «داين تدان!».

وعندما اتخذوا قرار الزواج، كان أكثر ما يضايقها أنها لن تستطيع الشماتة فيه فسوف يشمت هو الآخر فيها وفي نفس الليلة بل في نفس اللحظة، لقد حرما حبه من نعمة النوم عليه وتقطيع فروته وإطلاق النكات عليه... أما هو، فقد استسلم للحب وهو يردد بين الحين والحين: «أنا عمري ما فكرت فيك... عمري!».

بعد أن تزوجا، كانت المواصلات واحدة من مشكلاتهما القومية - حسب تعبيرها الساخر - لكنها لم تكن مشكلتها وحدها، فسرعان ما دبوا الأمر، واتخذ كل منهما لنفسه مساراً، هو إلى عمله، وهي إلى عملها.

وحتى عادت في ذلك اليوم باكية، لم يفكرا أن يشتريا سيارة، لا لشيء، إلا لأنهما لم يكونا يملكان ما لا يشتريان به هذه السيارة، وعد غنماتك يا جحا، راتبه وراتبها ولا شيء آخر، لا دخل ولا إرث ولا أب غني ولا أم تحوش المال تحت البلاطة... والراتبان، بالكاد كانا يكفيانها... وعندما مر عام وبدأت أسئلة الأهل تلاحقهما سائلة عن ولي العهد، لم يأخذ منهما الأمر أكثر من ثوان، فرغم ذلك الشوق الطبيعي عندها كي تصبح أمّاً، وتلك الرغبة الدفينة في صدره بأنه يريد أن يصبح أباً، اتخذوا القرار بالأفكار في الأمر، مهما تساءل الأهل، ومهما قالت أحزاب النميمة، إلا بعد أن يحصل كل منهما على درجة يزيد بها الراتب قليلاً!

وحتى ذلك اليوم الذي عادت فيه باكية، أفكر في شراء سيارة.. «منين»!؟

لكنهما في هذا اليوم، اتخذوا قراراً بأن يشتريا سيارة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلت واقفة على محطة الأتوبيس لساعة ونصف دون أن تستطيع أن تجد لنفسها مكاناً لقدم على السلم... كان اليوم عادياً والركاب هم الركاب، والأتوبيس هو

الأتوبيس والموعد هو الموعد... ولكنهما في ذلك اليوم بالذات، لم تستطع أن تتركب الأتوبيس، فقررت أن تتركب سيارة أجرة!

هدأ التاكسي من سرعته عندما أشارت له، كان بالداخل راكبان أحدهما يجلس بجوار السائق، والآخر في المقعد الخلفي، هتفت باسم الحي الذي تسكنه فوقف التاكسي وركبت في الخلف... مضى التاكسي في أمان الله حتى أشار له رجل يقف في الطريق، هدأ السائق من السرعة وسمع الجميع صوت الرجل يهتف باسم نفس الحي، توقف التاكسي وأصبحت هناك - مع النور - مشكلة!

مالت على الجالس بجوار السائق متوسلة:

«لامؤاخذة يا حضرة!».

«نعم يا مدام!».

«ممكن سيادتك تقعد ورا.. وأنا أقعد مطرح سيادتك!».

في اختصار شديد، قال:

«متأسف!».

كان التاكسي واقفاً، والباب المجاور لها مفتوحاً، وإحدى ساقيهما في الخارج استعداداً للانتقال إلى المقعد الأمامي، ولم يكن معقولاً أن تنحسر في المقعد الخلفي بين رجلين، أو تنزلق بجوار أحدهما، وهو رجل، ويجلس مرتاحاً بجوار السائق.

«يا أستاذ أنا باستسمحك!».

«رجلي بتوجعني!».

كان الرجل سمجاً سماجة تفوق الوصف، بارداً لدرجة تبعث القشعريرة في أشد الأجساد تبادلاً، جاثماً على المقعد وكأنه لن يتزحزح من فوقه مدى العمر.

«يا أستاذ!».

صاح السائق متبرماً:

«ما تخلصونا بقى!».

أسلمت أمرها إلى الله وغادرت السيارة طالبة من الراكب الجديد أن يدخل حتى تجلس هي إلى جوار الباب... ما إن فعلت حتى جاءها صياح من الداخل:

«أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم!».

كان هذا صوت الرجل الجالس في الخلف... انحنيت مقبلة بنظرها نحوه لكنه أدار وجهه إلى الناحية الأخرى في تأفف وهو يقول:

«ما بقاش فيه خشا ولا حيا ولا دين!».

أدركت أن الأمر قد خرج الآن من يدها فأرادت أن تحسم الأمر، خطت نحو النافذة الأمامية سائلة السائق:

«حسابك كام يا اسطى؟».

«اللي تشوفيه!».

في ضيق قالت:

«أنا ما اقدرش اشوف لأن العداد بيشتغل من قبل ما اركب!».

«هاتي جنبه زي بعضه!».

«يا نهار اسود!».

فتح السائق الباب وغادر السيارة صائحًا من فوق سطحها في عرض الطريق
وبصوت حيائي:

«وحاتسودي النهار ليه يا ست، البنديرة ضاربة مية وعشرين بأقول لك هاتي جنبه
بس!».

مالت ناظرة نحو الرجلين الجالسين في الأمام والخلف وكانا يبدوان وكأنهما تحولا
إلى حجر، عادت تطل على السائق من فوق السيارة، فصاح وكان الراكب الجديد
يدلف إلى السيارة دون كلمة:

«ماتخلصينا يا ست، إحنا مش ناقصين مخالقات!».

وكان لا بد أن تخلص نفسها هي أولاً، فدفعت الجنيه، وعادت إلى البيت باكية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك اليوم قررا أن يشتريا سيارة!

وكان لا بد - وقد اتخذوا القرار - أن يحرما نفسيهما من متع كثيرة، أبسطها ألا يذوقا
الفاكهة إلا مرتين في الشهر، وألا يدخلوا السينما إلا مرة في الشهر، وأن يقتصدا في
النور، والملابس.. و.. ولقد هان كل شيء، هان تمامًا، عندما وقفت بهما السيارة
أمام باب البيت!

في البداية.. كانا يستيقظان مبكرًا، ويرتديان ملابسهما في نشاط، ويتناولان الإفطار
بشهيبة مفتوحة، ويتبادلان آخر أخبار النميمة، ويدلي كل منهما بتوقعاته لما سيحدث
في ذلك اليوم، ثم يغادران البيت، ويعاتبان البواب، لأنه لم ينظف السيارة كما يجب..
كانت أولى المشاكل التي واجهتهما هي المكان.. ذلك أن سكان الشارع الذين يملكون
سيارات كانوا ينزايون يومًا بعد يوم.. وكل مالك لسيارة قد وضع يده على مكان في
الشارع لا يستطيع أحد أن يتعدى عليه.. في بداية الأمر حدثت مشاجرات وحناقات
ثم استقر الأمر في النهاية بالتسليم لكل صاحب سيارة بقطعة أرض من الطريق
العام تتول ملكيتها إليه.. وعندما اشترى السيارة كان الشارع بطوله قد أصبح ممتلئًا
تمامًا، وعندما فكرا في وضع السيارة في الجراج القريب، فهي هناك ستكون في
مأمن لكنهما تراجعوا عن الفكرة على الفور، فقبل أن تصل السيارة دق جرس الباب،
وعندما فتحاه، كان البواب هناك:

«بيقولوا من غير مؤاخذه يا سعادة البية إنك حاتشترى عربية!».

تبادلوا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعيًا.

«أيوه يا متولي.. خير!» كشر البواب عن أنيابه قائلاً:

«لأ يعني كنت بأقول إننا أولى من غيرنا!».

تبادلوا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعيًا!

«وحتاخذ مني كام؟!».

«زي الجراج!!».

هتفت في البواب وقد استفزها الأمر:

«ليه بقي.. إنت بدمتين يا متولي؟!».

«ليه ياست هانم لا سمح الله؟!».

«الجراج بياخد سبعة جنيه ونص على العربية، وانت بتاخذ من كل نمرة خمسة..
أربعة جنيه بس!».

«مين اللي قال؟!».

«أنا اللي بأقول!».

«ده كان زمان يا ست هانم.. أيام كان الرغيف بقرش!».

تبادلا النظرات، ثم اعتبرا الأمر طبيعياً:

«بس على شرط يا متولي!».

«وحاتشرط عليّ ليه يا سعادة البيه؟!.. الجراج حايببتها لك في الشارع، وهنا
حاتبات في الشارع، على الأقل هنا حتبقى قدام البيت وتحت إيدنا!».

«بس الجراج بيغسل العربيات!».

«طب قوم ظل ساعة الفجرية من لامواخذة الشباك، حاتلقاني أنا والعيال وأمهم
نازلين غسل في عربيات الحارة كلها!».

كانا يعلمان مقدماً، أنه لا سبيل للحوار، وأنهما لا بد وأن يستسلما للرجل الذي كان
يقف قبالتهم متحدياً لا متحدثاً... ويا ويلهما إن هما لم يطيعا.. حدث هذا لنمرة سبعة
أصر على وضع سيارته في الجراج فرأى النجوم في عز الظهيرة، ضاعت
خطاباته، وأهين ضيوفه، وأهملت قماماته وبع صوته ذات عصر وهو ينادي على
البواب الجالس أمام باب العمارة دون أن يرد النداء.. وعندما نزل إليه قال:

«لا مؤاخذة ما سمعتش!».

«أنا عندي ضيوف وعاوز حاجة ساقعة!».

«لا مؤاخذة خلصت!».

كان البواب يبيع المتلجات منذ بضعة أعوام ويحتكر بيعها لسكان العمارة فلا
يستطيع أحد أن يتعداه.. وعندما قال إن الحاجة الساقعة لا مؤاخذة خلصت كان
الصندوق أمام عيني نمرة سبعة مكتظاً بالزجاجات صرخ الرجل مشيراً إلى أكداس
الزجاجات:

«أمال إيه ده كله?!».

فقال البواب وهو يضطجع في جلسته:

«دي لامواخذة متباعة!» تذكرنا كل هذا.. كانت حريتهما أثن من أي شيء، مضى
الرجل مطاعاً، وجلس كل منهما قبالة الآخر دون أن يستطيع كل منهما أن يواجه
نظرات صاحبه.. في داخل كل منهما خجل صارخ.. وكان لا بد لهما أن ينسيا
الأمر، أو يجدا تبريراً لاستسلامهما لكنهما لم يستطيعا، فلذا بالصمت، لم يعد
للمسلسل التليفزيوني طعم، ولا للعشاء معنى، راحا يتحركان في البيت حركات

أقرب إلى الهرب.. فكل منهما يعتز بكرامته، ويفخر باعتزاز صاحبه بكرامته، في حياتهما قيم جمعتهما، فكيف يتنازلان بسهولة عن حريتهما لبواب؟! فجأة صاحت هي:

«ما هو ده كمان مش معقول!».

استدار نحوها، أطلقت عيناه تساؤلاً صامتاً، فأجابته:

«حتى الفرحة الواحد ما بقاش عارف يفرحها عدل!!» وناما! فيما تلا ذلك من أيام، بدأت السيارة، التي كانا سعيدين بها كل هذه السعادة، تسبب لهما مشاكل بلا حصر.. كان هو قد تعود في الصباح أن يحملها إلى عملها، وهما في اليوم الأول، وعندما استشعرا ذلك اليسر في الوصول إلى العمل، وجد مبرراً لاستسلامهما للبواب.. كان الأمر يستحق، ولكن هل يستحق الأمر كل هذه المشقة أمام مقر عمله!؟

اكتشف أن هناك عم سيد المنادي!

وهو كان يرى عم سيد، ويعرفه، ويتعامل معه أحياناً في السجائر والسندوتشات وما إلى ذلك.. ولكن، لأنه لم يفكر في اقتناء سيارة، فلقد غفل عن سطوة عم سيد وسلطانه.. كان المكان فيما يحيط بالوزارة مكتظاً بعشرات السيارات، في بعض الأحيان، وعندما يطل من نافذة مكتبه على الطريق العام، كان يشعر أن السيارات ليست واقفة على الأرض، بل مكومة فوق بعضها لكثرتها التي تتزايد يوماً بعد يوم.. وسط هذه الغابة، كان عم سيد هو الأسد المطاع الكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تزويغة

إنني لا أكاد أرى.. صدري ضيق.. أكاد أنام من فرط الإعياء.. والترام يهتز ويترجرج.. والمحطة التي سأنزل بها لا تزال بعيدة.. أين السجارة الباقية؟.. ربما تفتحت عيناى بعد تدخينها.. ولكن.. ليس هناك من أشعلها منه.. الجميع على وجوههم نفس المسحة الحزينة التي اعتدت أن أراها على وجوه أمثالي من الفعلة.

- تذاكر.. ورق.

يا ساتر.. يجب أن أزوغ اليوم بأي ثمن.. أليس هناك من أشعل منه هذه السجارة؟
أبدًا.. كلهم صامتون.. كلهم متعبون واجمون مثلي تمامًا.. ولكني أرتعد!!

- ورق.. ورق.

لعن الله الترام.. والكمسارية.. والتذاكر.. إن يدي ترتعد فعلاً.. والسجارة تكاد تسقط من بين أصابعي.. والجو ليس باردًا.. ربما كان ذلك من فرط التعب والإجهاد.. أو من «الخضة».. إنني منذ أن كدت أسقط من أعلى الحائط وأنا مضطرب.. هذا هو سبب رعدي.. ومحمدين سقط اليوم.. ومات.. وظللنا نعمل.. حتى الإسعاف رفضت أن تأخذه.. ليس في قلوبهم رحمة.. والمعلم صرخ فينا لنعود إلى العمل.. وعدنا.. وأخذوا محمدين.. سيدفن في مدافن الصدقة بعد أن يقطعوا جثته.. يشرحوه.. لقد كان رجلاً طيباً.. لا بد أنني مضطرب لهذا السبب.. لا.. أبدًا.. فكثيراً ما حدث مثله.. ولم أرتعد.. بكيت يومها كما بكيت اليوم..

كان ذلك في الشهر الماضي.. وقع اثنان.. ودفنوهما في مدافن الصدقة.. لم يكن لهما أهل في مصر.. مصر البلد الكبير هذا الذي أعيش فيه وحدي.. وهناك في الصعيد زوجتي وأولادي.. لماذا أذكرهم الآن؟ ربما لأنني أرى هذه المرأة التي تجلس مع أولادها.. إن هذا الطفل من سن محمد ابني.. كم أوحشني.. لقد كنت أظن عندما غادرت البلد لأول مرة منذ سنوات أنني سأعود بعد شهر على الأكثر لأخذهم إلى مصر.. مصر البلد الكبير.. ولكن لم أجد بها غير هذا العمل.. وأنا أرسل لزوجتي جنينين كل شهر.. يوميتي اثنا عشر قرشاً.. والباقي لا يكفي أبدًا.. ولكن ماذا أفعل؟!
آه الملعون الكمساري.

- ورق.. تذاكر.

يجب أن أدير وجهي إلى الناحية الأخرى.. لا أستطيع أن أدفع ثمن التذكرة اليوم.. وغداً؟!.. غداً يحلها ربنا.. إنني متعب.. متعب جداً.. يا لهذا الترام اللعين! لماذا يقف كثيراً هكذا؟! الأولاد أوحشوني جداً.. ومبروكة أيضاً.. مدة طويلة لم أرهم فيها.. عظيم.. جاري يشعل سجارة.

- تسمح تولع لي.

يا سلام.. الدخان لذيق إن يدي ستكف عن الارتعاد ولا ريب.. يا خير!.. لقد نسيت.. بعد العشاء.. لا بد من أن أحبس.. وليس معي ما أشتري به سجارة.. كيف أطفئ السجارة؟!.. لا بد أن أطفئها.. ولكنني محتاج الآن لسجارة.. نفس واحد فقط.. نفس

آخر.. لا.. إنها ستنتهي.. هذا النفس فقط.. نعم.. فقط هذا.. يدي تعصى ولا تريد أن
تخفق السيجارة.. لعن الله الفقر.. يجب أن أحافظ على هذا النصف.
- ورق.. تذاكر.

ألا يكف هذا الملعون عن ترديد هذه الكلمة!

- العتبة.. الورق الأخضر.

لا يزال أمامي مشوار طويل.. لا نزال في العتبة.. أسير المسافة الباقية وأمري إلى
الله.. ولكنني متعب.. ومن الفجر وأنا أهد عمارات.. عمارات كبيرة.. وقديمة..
«عمارات تنهد.. وعمارات تتبنى.. وأنا.. ومراتي.. وأولادي.. والغلابة».. أين
نسكن؟! في عشش صفيح.. وكل عشرة في حجرة.. هكذا خلقنا.. فقط لا أحب أن
يأتي الكمساري.. عال.. نهض جاري.. سأجلس في مكانه.. نعم هكذا في الركن لن
يراني.

الترام يقف كثيرًا.. ولكنها نفس المحطات.. أنزل أفضل.. نعم.. يجب أن أنزل..
ولكن ساقاي لا تكادان تحملاني.. الناس دائمًا تقول: «صعيدي يكسر الزلط».. نعم
نكسر الحديد أيضًا.

وماذا يهمهم؟! لا شيء.. المعلم الذي لا يفعل شيئًا غير الوقوف والصراخ.. كل يوم
يتعدى برطلين كباب.. أمامنا جميعًا.. ونحن نجلس بجوار الحائط.. وفي وسط
التراب.. والطوب.. والزلط.. نأكل طعمية وفول وباذنجان.. نعمة.. الحمد لله.. باقي
محطتين.

- ورق.. تذاكر.

باقي محطة واحدة.. غريبة.. أين الصاغ.. الصاغ الباقي؟! يا خبر.. لا بد أنني
وضعت في جيب الصديري.. أبدًا.. لا حول الله.. كيف سأتعشى؟! الصاغ..
الساغ!.. ولا هنا أيضًا.. وصلنا.. لكن الصاغ.. وهذا دكان المعلم حسن.. والطعمية
ساخنة.. لا حول الله.. لا.. أهو.. الحمد لله.. يا سلام..
- بقرش طعمية ورغيف.. و.. وحتة طرشي سايق عليك النبي.

حين يكبرون

الحمد لله.. كل شيء كما كان يتمنى.. الشوارع خالية، الضاحية هادئة، البيوت يكسوها ذلك الرداء الرمادي الشاحب.. ونقيق الضفادع في حدائق القصور بدأ يزبن الجو بنغمات ساحرة.

ما أحلى الدنيا وما أجملها حتى لو لم ترنُ إليه بنظرة! ما أحلى الدنيا وهو يطوف بيتها فيلمح ذات مرة شعرها، ومرة أخرى طرف ثوبها! وإن رضيت عليه بنظرة كانت هذه أحلى لياليه.. ما أحلى الدنيا وهو في كمال عدته، وفي أعلى درجات النشوة!!

جاء البنطلون من عند المكوجي أخيراً.. وقد كاد يلبس البنطلون الآخر القديم، واستولى من والده بعد ساعات رجاء وساعات- على قرشين بدلاً من قرش، وضع أحدهما في جيبه للظروف واشترى بالقرش الثاني ثلاث سجائر وضعها بعناية في جيب قميصه، وحرص على أن يضع بينها وبين الناظر إليه ورقة صغيرة، حتى لا يلحظها أحد أصدقاء أبيه - لو قابله أحدهم - أو رماه حظه في طريق أبيه الذي يحلو له أن يتمشى في أقاصي البلدة مع أصحابه، وقد يصلون في سرحاتهم إلى هذا الحي.. وقد.. ولألف سبب وسبب فليس هذا مهماً، المهم أنه استطاع بعد جهد أن يفتنص علبة الكبريت من المطبخ دون أن تضبطه أمه، وإلا اضطر إلى شراء صندوق بنصف القرش الباقي وقد.. وقد.. المهم أنه وصل.. وأنها تقف الآن في شرفتها المطللة على الحديقة.. ولعلها تنتظره، لعلها تنتظره، لعلها أخيراً أحست به.. لعلها قررت أن ترد على الخطاب الذي ألقاه في الحديقة بالأمس.. لعلها.. لعلها.

هذا هو الوقت المناسب.

عند الناصية تماماً يجب أن يقف.. هنا.. نعم هنا.. وأن يثني ساقاً ويفرد أخرى.. لكي يستطيع أن يميل بجانبه الأيسر، ويخرج السيجارة بيده اليمنى، ثم يدسها في جانب فمه.. نعم هنا.. بالضبط، لكنها - أي السيجارة - لا بد وأن تتدلى أكثر.. أصابعه تتشل علبة الكبريت من جيبه بمهارة.. أيام وأيام قضاهها مع فوزي يتعلمان كيف يلعبان هذه الحركة البارعة.. علبة الكبريت في الجيب الأيسر، الأصابع تندس بخفة.. لتقبض عليها.. ثم تقذف بها إلى يده اليمنى لتلعب أصابع يمينه في الغطاء وتلاحقها أصابع اليسرى لتلتقط عوداً يشعل بنفس اليد، مع استدارة أمام الوجه ثم.. أه.. تماماً تماماً.

إنها تنتظر إليه.

هذه هي اللحظة، هذه هي اللحظة.. اليمنى ترفع برشاقة لتلمس على الشعر المصبوغ بالصابون.. رباه.. ليس هذا معقولاً.. أنامل الحبيبية تمسح هي الأخرى على شعرها الذهبي كأنها حورية من الجنة.. الابتسامة تضيء الوجه بألف مصباح.. موسيقى ملائكية تنساب إلى أذنيه من صرخات السيارات البعيدة.. ونقيق الضفادع، وصوت النسومات وهي تمر على وجهه.

ما أحلى الدنيا وأجملها!!

على الرغم من كل شيء.. على الرغم من السجارة التي قاربت على الانتهاء، ولا بد من إشعال سجارة أخرى لتظل الصورة، لتكتمل مع المشهد التالي الذي لا بد أن يحدث وإلا ضاع كل شيء.. المشهد الثاني هو الحاسم في الموضوع كله.. في مصير قلبه الذي يدق كطبل الكشافة الضخمة المدوية.

المشهد الثاني هو النهاية والبداية.. هكذا تعلم من أصدقائه.. والمجربين منهم على وجه الخصوص. لا بد من المشهد الثاني.. الذي هو نهاية ثلاثة أشهر مضت منذ رأى سعاد لأول مرة وهي ذاهبة إلى المدرسة.

فتاة من مئات الفتيات اللواتي يراهن كل يوم مندفعات في سرعة من شارع البحر العريض إلى شارع القاضي إلى كفر اسكاروس إلى مدرسة البنات.. هو على العكس ينبت كل صباح من قلب كفره اسكاروس، ليخترق شوارعه وحواريه حتى ينتهي به المطاف عند شارع البحر في طريقه إلى مدرسته على الضفة الأخرى للبلدة.

وانتظرها في صباح اليوم التالي والذي يليه، وطوال ثلاثة أشهر كتب فيها أكثر من قصيدة تغزل فيها بجمالها، وعرف أثناءها مكان بيتها ورقم التليفون، واكتشف بطبيعة الحال أنهم من ثروة المدينة وأغنيائها.. وعثر على زميل له في الحي الذي تسكنه محبوبته.. ومن ثم أصبح صديقه في المدرسة، فلا مانع من زيارته في بيته.. و.. ويومًا بعد يوم، وأسبوع بعد الآخر.. أصبح معروفًا في الحي الراقي بشلته وعصابته أنه صديق أحمد الوقاد، فلا مانع من وقوفه في الحي في بعض الأحيان في انتظار أن يمر أحمد الوقاد.. ولا مانع من تبادل التحيات مع رجال عصابات الحي المدرسية.

- سلام عليكم.

- عليكم السلام ورحمة الله.. ولا ينطق و «بركاته».. فهو يستطيع أن يلعب بلسانه كما يلعب بأصابعه.. ومن شيم الجدعان ألا يكمل جملته.. وعلى محدثه أن يفهمه بسرعة وإلا كان قفلاً لا يستحق احترامه.

الأيام تمضي، والحب ينمو في قلبه ويتمكن، ولكنه لم يتمكن أبدًا قدر تمكنه اليوم، وقد خلت الدنيا من كل شيء عدا طيفها الذي كان ينساب من باب الشرفة إلى سلم السلامك.. وما هي إلا ثوان.. وتكون قد اخترقت الحديقة وجاءت إلى حوض الورد، وهنا يبدأ الشوط الثالث.

لقد نجح.. نجح.. هل هذا معقول؟!.. حلم أم علم!؟

قبل أن تنزل يدها من على شعرها كانت رأسه تميل بسرعة أمره إياها أن تأتي.. لم يصدق عينيه.. وهو لا يستطيع تصديقها، إن ابتسامتها تزداد ضياء، وطيفها ينحدر من الشرفة إلى سلم السلامك إلى الحديقة، إلى قلبه الذي كان يتهاوى مترنحًا تحت وطأة خفقاته المؤلمة القاسية اللذيذة - أروع اللذة وأجملها.

السيجارة الأخرى لتداري ارتبাকে وتردد أنفاسه، وخفقات صدره العاتية.. أصابعه ترتجف انفعلاً وهي تشعل السجارة، ولكن هذا غير مهم.. المهم بداية الشوط الثالث والأخير.. كلمة مساء الخير أفضل أم بنسوار؟!.. إنه رجل حقاً.. فيجب أن يستعمل لغة بلده، ولا داعي للحذقة.. ولكن.. هي من عائلة غنية؟ أهلها لا بد أنهم يستعملون

هذه الكلمة.. ولا بد أنها لا تعرف فإن تقولها.. فماذا تقول عنه؟ تقول عنه أنه جلف من أبناء البلد؟.. وليكن.. إنه وطني.. مصري، متطرف.. و.. و.. وهي تقترب، تتحني على حوض الورد.. تنهض.. تتجه نحوه وكأنها لا تراه، تقترب منه فلا يصبح بينهما سوى سور الحديقة فقط.. قد يصادفها.. قد يلمسها.. قد ... يكاد ينفجر بالسعادة، يكاد يحترق باللذة.

قلبه يدق، يجري، يجري.. يجري مع الأقدام التي كانت تندفع من طرف الشارع على عجل، وفي لهفة يقفز إلى الخلف خطوة.. وتجعلها تجفل وتقر هاربة وسط ظلام الحديقة.

ووجه أحمد الوقاد يبرز في الظلام مع أول أضواء المصابيح الخشبية العالية.. وأنفاسه تتهدج وهو يتكلم في لهفة:

- خير يا أحمد.. خير.. قالها بحدة ولهفة وجدعنة، فربما كان أحمد في ورطة أو خناقة وقد يحتاج ذراع صديقه الوفي كما حدث منذ يومين ودخل هو المعركة كأبي صديق رجل، وخرجا ظافرين.

- إنت صاحبي صحيح.. يابو صلاح.
اضطرب قلبه بعنف.

- خير يابو حميد.. عيب انت مع راجل!

- يعني لي قيمة عندك.. ليه كلمة؟

- الصاحب للصاحب يابو حميد!

- سيب الحنة دلوقت، يالله بينا من هنا.. إسمع كلامي.. وقع المحذور.. لا بد أنهم آتون.. العصابة تتحرك، فلم يعد لديهم مزيد من الصبر.. هو يعرف تمامًا ما قد يدور بينهم من أحاديث.. ثلاثة شهور ما لوش وقفة غير قدام بيت سعاد.. أيوه يا عم ويقول لك أحمد الوقاد.. اسمعوا يا رجاله إنا مش عيال.. نكلم أحمد.. إبراهيم يزعل.. وإيه يعني.. إبراهيم راجل، هو أخو أحمد صحيح، وبطل الحي تمام التمام، يعني.. إلا إنه ابن الحي قبل ما يكون أخو أحمد.. كده تمام.. أيوه.. معاك حق.. ونكلم أحمد.

وها هو أحمد يقف أمامه مبهور الأنفاس، منتظرًا رده، فلا بد أنهم آتون.. والكثرة مهما كان تغلب الشجاعة.. وليس معه خنجره.. حتى المطواة التي لا تغادر جيبه.. ألقاها اليوم على الفراش تحت الوسادة.. فقد كان في طريقه إلى الحب..

وأنى له أن يعرف.. أنى له أن يعرف..

- قلت إيه يا بو صلاح.. قلت إيه!؟

أحمد متعجل.. وهي تقترب من السور في خفة، يلمح شبحها وراءه.. هي تسمع كل كلمة.. مصير حبه في كفة ميزان، رجولته تتأرجح على طرف كلمة ينطق بها لسانه الآن.. أحمد يردد بلا توقف:

- قلت إيه يابو صلاح.. قلت إيه؟

- إيه رأيك يا أحمد.. مش أعرف الأول إيه السبب في طلبك ده؟

قال السطر الأول من الجملة بلا معنى سوى طلب النجدة من صديقه.. وقال السطر الثاني لكسب الوقت ولتغطية استغاثته الأولى.. لكن الوقت يضيع.. والاستغاثة

تصبح بلا معنى، الشارع الآخر يبذر فجأة بعشرات الصبية من عصابات هذا الحي.. في ضوء نور الشارع كان يرى الكراييج والمدي ونصول الخناجر والعصي.. تمامًا كما هو الحال في حيه ومع شلته التي لا بد وأن تأتي للانتقام في اليوم التالي.. غير أن النتيجة ستكون واحدة.. وأمامه حلال لا أكثر.. إما أن يجري.. وهنا سيسقط من نظرها إلى نهاية العمر.. وفوق هذا فسوف يضرب.. فالكثرة تغلب الشجاعة.. وإما أن يصمد ويدخل المعركة أعزل.. وهنا سوف يضرب أيضًا.. فالكثرة تغلب الشجاعة، فإن رجولته ستتجح أمامها في أعرس امتحان لأقوى الرجال.

الخوف يشنت حواسه، السيجارة ترتجف في يده، الحمد لله فالدنيا ظلام.. ركبناه ترتجفان داخل بنطلونه الطويل الجديد، وصديقه يكف عن الحديث فجأة، ويتسمر في مكانه، والركب الحاشد يقترب منه على رأسه فتى قصير القامة.. مليء الوجه.. ضخم التقاطيع.. حلو الملامح.. في أقصى يسار فمه سيجارة تتدلى في شموخ ويداه فارغان لا مديّة ولا سكين ولا خنجر ولا كرباج ولا حتى لبيسة أهدية.

إنه الزعيم الذي لا يدخل معركة بسلاح سوى ذراعيه.

الوجوه كلها متلاصقة والأهدية تكحت أرض الشارع، والأجساد تتمايل على موسيقى خفية.. ويصبح الوجه في الوجه، والعين في العين. والأنفاس تختلط بالأنفاس ويقول الزعيم في اقتضاب ولسان ملتو شأن كل بطل زعيم:

- مساء الخير..

- سا النور..

اختصر الميم والهمزة متعمدًا.. ولوى لسانه بقدر الإمكان واستجمع كل الهواء في دفعة من حلقة تخشن صوته.. وقبل أن يبتلع ريقه الذي سال بين شذقيه انفعالا..

قال الزعيم:

- بقى صل على النبي..

- ألف صلا على الحبيب..

- أنا محمود القتال..

- وأنا صلاح الساهر..

- بقى شوف إحنا ناس جدعان..

- واحنا كمان..

قالها بوضع يده الممسكة السيجارة فوق صدره، فإذا بجمرة السيجارة تكاد تحرق وجه الزعيم، فتراجع هذا دون وعي إلى الخلف ليتفادى النار، وخفق قلبه هو سرورًا فقد كسب النقطة الأولى على أية حال، وأصبح هناك شيء يقوله بعد المعركة التي سيخرج منها مهزومًا لاشك.. فالكثرة تغلب الشجاعة، ورفع السيجارة إلى شفتيه وجذب نفسًا عميقًا، ثم نفث دخانه غزيرًا مسموع الصوت كالقاطرة، وتنحى الزعيم وهو يشعر بالغيط يتملكه، فقال في حدة ملقياً بنفسه في المعركة مباشرة:

- ممكن تقول لنا أنت بنتيجي هنا ليه؟

السؤال المتوقع والذي كان ينتظره.. غير أن الرد غير جاهز.. فماذا يقول؟
إن قال إنه يأتي لأحمد الوقاد فقد يخرج هذا صديقه أمام أبناء حيه، وإن قال عذراً
آخر ربما جاء واهياً، لكنه لو قال الحقيقة لكانت الطامة..

- السؤال ده محرج يا محمود، إنت عارف إن صلاح صاحبي.

هذه هي الرجولة حقاً، والمنقذ الوحيد من المشكلة هو أن يتحدث أحمد، أن يقف على
الأقل في صفه، هنا سيكون الموقف أكثر ليونة، فمن غير المعقول أن يغامر أحد
بإذكاء مشاجرة مع شقيق النمر المرهوب إبراهيم الوقاد. الشبح يقترب من وراء
الجمع وسور الحديقة وفروع اللبلاب ليصبح قريباً من المعركة ويسمع كل كلمة..
مرة أخرى عليه أن يضع رجولته فوق طرف أي كلمة ينطق بها، حبيبة القلب تقف
بجواره، ليت هذا يحدث في موقف بلا ناس.. ليس في الدنيا غيرهما.. غير أن
للأحلام وقتاً غير هذا، الزعيم يعود للزئير، معاتباً أحمد، خاطباً في الجمع المحيط
به وكأنه يقودهم نحو ثورة..

- ما هو ده مش كلام يا احمد، ولاد حتتك أولى بيك.. «آه» وردد الجميع وراء كلمة
«آه» بنغمات حاسمة متحمسة.. وعاد الزعيم إلى الزئير:

- وكمان ده مايخلصش ابراهيم آه..

- آه..

ردها الجميع للمرة الثانية في زمجرة أشد من الأولى..

كفة الميزان تتلاعب، وهنا عليه، كأني رجل، أن يتدخل وينقذ صديقه من هذا
الموقف، من شبها المائل وراء فروع اللبلاب، ثم يقول:

- اسمع يابو حنفي..

لوى الزعيم رقبته فمال رأسه، وأخرج من جيبه سيجارة أشعلها بعد أن دسها في
طرف شفتيه، وبعد أن بصق بقايا السيجارة الأولى على الأرض.

- سمعنا.

باختصار، كنفرات ذراع التلغراف النحاسية تحت أصبع عم مينا زميل والده،
باختصار كان يتحدث، وباختصار كان يسمع:

- عاوز تعرف سبب...

قاطعته محمود الزعيم:

- أيوه عابزين نعرف.

- أنا بكلم مين؟

- بتكلم رجاله.. قصدك إيه؟

- كلكم رجاله..

زادت الأصوات النحيلة الصبية:

- طبعاً.. قصدك إيه؟

- أنا جاي هنا عشان سعاد.. الكلام ده مايصحش يطلع بره!

أبدًا هو لم يفكر للحظة واحدة، أبدًا أبدًا أبدًا هو لم يفعل هذا، كلماته التي نطق بها
لا علاقة لها إلا بلسانه.. قال الحقيقة، وأمنهم عليها، وبان وكأنه أشد حرصًا على ابنة
حيهم منهم. ماذا يفعلون؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا بعد الصمت!

تتنح صديقه في سعادة، ومد إليه يداً بها أصبعان مفرودتان، فوضع هو السيجارة الباقية بينهما، ولعب ببسراه ويمناه وأشعل عود الثقاب وقدمه إلى صديقه دون أن ينظر إليه، ودون أن تغادر عيناه عيني محمود الزعيم الذي أحس بالحيرة والارتباك غير أنها - والحق يقال - شلة رجال بحق، الصديق منهم يسند صديقه، والأخ يلحق أخاه.. فقد نطق فجأة شاب آخر من وسط الجمع، وكأنه لاعب تلقف الكرة فقذفها في نفس الثانية، وقال:

- وأنا كمان بحب سعاد!

يعود الموقف إلى التأزم من جديد، ولا بد أن ينسحب أحدهما من طريق الآخر بأي وسيلة، سواء أكانت المفاوضة أم المعركة نفسها.. لا بد من انسحاب أحدهما، وهو غريب، والآخر من أبناء الحي.. والجار أولى بالشفعة، والمقربون أولى بالمعروف.

الكرة في يده ولا يعرف أين يقذف بها، والشبح وراء فروع اللبلاب، يتململ، ويتململ معه قلبه بالهفة.. ماذا يقول؟!!

لا وسيلة إلا الهجوم.. ولن يخسر نقطة، وغداً يأتي بشلته، وسيرون.

- بقى اسمع بقى انت وهو.. بقى يعني..

- مايعنيش..

- اسمعوا.. لو فيه..

- مانسمعش..

- عاجبك كده يا احمد.. لو فيكم.

- بلاش تماحيك.. إتكلم كلام رجالة..

إنها الفرصة.. الفرصة..

- الكتره تغلب الشجاعة، ولو كنتم رجاله صحيح، اطلعوا لي واحد واحد..

في الامتحان تعود على نصيحة لم يكف أبوه عنها طوال حياته.. المسألة السهلة الأول، إخلاص منها، وبعدين تروح للصعب.. تقوم تضمن نمر..

لا فرق بين الامتحان والمعركة، ليبدأ بأصغرهم فيضربه، ثم أكبرهم.. لا.. ليست المعركة كالامتحان.. سيكون وقتها منهك القوى.. أما من حل آخر؟

- تعال لو كنت جدع.. اطلع لي عند الناصية الثانية..

رائع..

- يالله بينا..

رائع فلو ضرب فسيضرب بعيداً عنها، لن تكون هزيمته أمامها، ما أحلى الدنيا وما أجملها، عندما يواتيك الحظ!، فأنت سعيد، وهو الآن سعيد، سعيد، سعيد، عند الناصية الأخرى دكان سيشتري منه ثلاث سجاير أخريات بالقرش الأخير..

الطريق يبدو قصيرًا بالرغم من طوله.. أصوات الأقدام كالموسيقى تزف معركة تسال فيها الدماء، لماذا لا يضربهم ويكسر شوكة قانون الكثرة التي تغلب الشجاعة؟ لماذا لا يضرب حتى خمسة منهم فيعود لرفاق حيه ويقص عليهم بطولته وربما يصبح زعيمًا بعد «فوزي» الذي سينتقل إلى الإسكندرية مع أهله؟

زعيمهم يخرج سيجارة ويقدمها بطرف أصابعه، يريد أن يبرهن على الرجولة وكرم الضيافة.. تناول السيجارة بلا اهتمام وسمع الزعيم يقول:

- إحنا ناس جدعان.. وكرماء.

نظر إليه بجانب عينه وقد كفت ركبته عن الارتجاف وهدأت نفسه - وكان هذا عجبًا - ثم قال في اقتضاب وكأنه يتحدث عن أشهر مكان في الوجود:

- إنت جيت كفر اسكاروس؟

- كثير، حبايبنا فيها كثير.. ورجالتها جدعان..

بنفس الاختصار والسرعة قال:

- تعرف مين فيهم؟

- فوزي.

- صاحبي..

- سالم..

- حبيبي.. متربيين سوا من أيام الطفولة.

كانه كهل يتحدث عن عهد غابر، ارتجف صوته بالانفعال، والتأثر بنبل شديد.

- وسليم جعيصه.

- ساكن في الشقة اللي قدامنا.

صمت الزعيم وهو يستدير ليواجه فريقه بجانب وجهه، ويواجهه هو بالجانب الآخر. ثم قال في صوت ممطوط مستريح.. و.. ومرحب أيضًا.

- الله.. أمال يا أخي لما انت جدع من جدعان اسكاروس.. ليه بس العمائل دي؟

- بالتفاهم نفهم بعضنا..

- ماهي حاجة مفهومة للشمس.. يعني برضه استأذن من صحاب البيت.

- استأذنا يا أخي، ودي تيجي برضه، داحنا ناس برضه نفهم الأصول.

- ماحصلش.

- حصل.

- من مين؟

- من أحمد الوقاد!!

قالها وكأنه يختم بها مباراة رائعة ألقاها عبر الهواء إليه وكأنها كرة خالصة لاتصد ولاتقف أمامها عقبة، جاءت رائعة، والموقف رائع، ولاينقص سوى التصفيق.

عم الصمت، وهبت نسمة ندية، لطفت من حرارة وجهه، واستراحت الملامح على الوجوه، وتطلع الجميع إلى وجه أحمد الوقاد الذي قال:

- حصل..

وعاد الصمت من جديد.

كيف حدث ما حدث؟ كيف سمع وأجاب؟ كيف انتقى الجمل والكلمات؟ كيف سار على هذه الشعرة وكأنها الصراط المستقيم؟ كيف لايزغرد ويهلل ويجذب أنفاساً سعيدة من سيجارة نوعها فاخر لم يذقه سوى مرتين ولايقوى على ثمنه إلا أبناء هذا الحي؟.. كيف كيف كيف.. كيف نطق الزعيم بهذه الكلمات؟!:

- أحمد ابن الحته، وإبراهيم بطل الجبهه كلها.. يبقى عداك العيب.. طب مش تقول؟

ما أجمل الدنيا وما أحلاها!.. وصدق المثل القائل ما صداقة إلا بعد عداوة، الأيدي في يده، يد وراء يد، قرأ الجميع الفاتحة، وغداً يجتمع أفراد الحيين في فرح يباركون فيه الحب الجديد، عودة من نفس الطريق بعد أن دفع القرش للبقال، وأخذ منه السجائر الثلاث ووزع اثنتين منها، وأشعل الثالثة وقدمها - بكل أخوة - إلى الزعيم ليجذب منها أنفاساً، ويتشاركون السيجارة كالعيش والملح.. فلا خيانة.

الطريق طويل رغم قصره، المسافة بينه وبين الحديقة تقل لكن ببطء شديد، والضحكات تنتالي، والأيدي تتضارب في سعادة، وهو في الوسط كالعريس، رافع الرأس، مبتسم الوجه، وعيناه تسبقانه إلى السور، وتخرقان فروع اللبلاب، وتلتقيان بشبح يقف خلفها، ولا بد أنه سعيد وفخور.. ولا بد من تحية، يده تمر على شعره، وأناملها تلامس شعرها.. والسعادة تغمره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجريمة

كان غريبًا ومثيرًا ولا يصدق هذا الذي رأيناه فجأة في وسط الشارع.. ثلاثة رجال ينهالون بالعصي فوق رأس رجل رابع، كانت العصي غليظة والضربات شديدة وقاسية لدرجة أن أحدنا لم يتحرك من مكانه، ورحنا جميعًا نرقب المشهد بأنفاس محبوسة وعيون مشدوهة، ولم يكن سبب الدهشة والانبهار هو منظر الرجال الخشن وأجسادهم الفارعة التي كانت تبدو كأجساد عمالقة.. بقدر ما بهرتنا حركات الرجل الذي بدا كالعفريت بألف روح، كان يقع ثم ينهض يتقي ضربات ويتلقى ضربات، وشعره الغزير متناثر حول وجهه في جلال أخاذ، وعضلاته المفتولة جعلته كواحد من آلهة الإغريق..

ولقد حاول أحدنا في البداية أن يفضّ النزاع، فأصابته عصًا سقطت فوق رأسه فأثر بعدها الانسحاب، وحاول آخر أن يفعل نفس الشيء لكنه تراجع من منتصف الطريق واكتفى بالصياح من بعيد «كفاية يا رجاله.. مش كده امال..» ثم هز كتفيه وعاد إلى الحلقة التي التقت حول المتعاركين، وقد بدا لنا جميعًا رغم العصي والوحشية، أن المعركة متكافئة..

وبعد لحظات لم يكن من الممكن أن يلحظ أحدنا السيارة الصغيرة التي وقفت، ولا وجه الشاب الذي أطل منها وهو يسأل أقرب الواقفين إليه:
«إيه الحكاية..؟».

وجاء الرد من رجل لم تقارق عيناه أرض المعركة:
«خناقة».

ثم تنبهنا جميعًا عندما غادر هذا الشاب سيارته واخترق الحلقة وأصبح في الأرض الفضاء وهو يصيح:

«بقي دا اسمه كلام.. ثلاثة على واحد؟ كفاية يا جدع انت وهو..».

وبلغ انفعال الناس أقصاه عندما هوت فوق رأس الشاب إحدى العصي.. وتعجل أغلبنا انسحاب هذا الشاب الذي كاد يفسد المشهد كله، لكن الدهشة ازدادت عندما وجدناه يدخل المعركة بدوره، ويقف في صف الرجل الوحيد..

ورغم أن عراغًا كهذا كان لا يمكن أن يفض إلا بالقوة، فإن أحدنا لم يفكر في العسكري على الإطلاق.. لذلك، فعندما جاء العسكري بالفعل بعد بضع دقائق لم ينتبه أحدنا إليه، وبدا لثوان أنه كاد يستسلم لمتعة المشاهدة هو الآخر فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حانية وهو يشب من خلف الناس لينتفج، بل إنه زاحم البعض حتى وجد لنفسه مكانًا وقف فيه وراح يرقب المعركة وقد استراح جسده فوق ساقيه وهو يسأل جاره في ود:

«إيه الحكاية؟!».

وقال الجار بانفعال: «خناقة!».. ثم لاحت من عينيه نظرة نحو العسكري فانفجر يصيح: «خناقة يا شاويش.. خناقة!».

ولم يعد أمام الشاويش مفر بعد تلك الصيحة، فسرعان ما شد ساقيه وزعق زعقته وهو يتقدم نحو المعركة.. كانت قامة العسكري مديدة، وتقاطيعه قوية، وخطواته تدق الأرض في ثقة.. كان منظره في الضوء الخافت مهيباً لدرجة جعلت الرجال ذوي العصي يولون الأدبار.. تركوا الشارع عدواً واختفوا في لمح البصر!

وصرخ العسكري في الواقفين أن يلحقوا بأولاد الكلب هؤلاء، وسرعان ما استجاب البعض لصرخته في حماس فانطلقوا في أثر الثلاثة صائحين في مرح: «حرامي.. حرامي»، كانت الصيحات مرحة لدرجة أضحكتنا جميعاً ودفعتنا إلى تبادل الابتسامات والتعليقات الودية، وسرعان ما ذابت الصيحات ثم تلاشت، وكان العسكري يتقدم من الرجل المضروب وهو يسأله في جفاء تعمد أن يجعله مصطنعاً: «إيه الحكاية؟!».

كانت آثار الضربات بادية على كل مكان في جسد الرجل، ورغم أنفاسه المتهدجة فإنه راح يسوي من وضع ملابسه وخصلات شعره في هدوء.. وأشاح بوجهه بعيداً عن العسكري في غضب ولم يرد على سؤاله، وقال الشاب صاحب السيارة للعسكري في حماس:

«كانوا ملمومين عليه بالعصيان يا شاويش!».

وزمجر الشاويش في الرجل: «إيه الحكاية يا أستاذ؟».

فرد الرجل في جفاء:

«ولاحاجة.. مافيش حاجة!».

«لكن إيه اللي حصل؟».

وكان لا بد أن يتطوع أحد الواقفين لحكاية ما حدث، وبدأ أحدهما يحكي ومعه اثنان تطوعاً للإدلاء بمعلوماتهما، وما لبث عدد المتطوعين أن ارتفع إلى عشرة رجال التقوا جميعاً حول العسكري الذي راح يستمع إليهم ويحدثهم ويناقشهم ويحاوهم جميعاً في وقت واحد.. وعندما عرف الحكاية من أولها حتى لحظة وصوله، بدا عليه الارتياح الشديد، وبرقت عيناه بالحماس:

«عفارم عليك يا جدع.. أهو كده المرحلة والإله.. هو فين؟ فين المضروب؟».

واكتشفنا فجأة أن الرجل قد اختفى، وساد اللغط وكل منا يحاول تفسير سر اختفائه، وتشابكت أصواتنا في نشاز أغضب العسكري الذي سيطر على الموقف بزعة حازمة فرقنا جميعاً في امتثال شديد، غير أن أقدامنا سرعان ما توقفت على صيحة من العسكري دوت في سكوت الشارع:

«عربية مين دي؟».

فقال الشاب وهو يسوي من وضع ملابسه ثم يربت على سيارته الصغيرة:

«دي عربيتي انا يا شاويش!».

«الوقوف هنا ممنوع، ثم إنك ماشي غلط كمان!».

وانتبهنا لحظتها فقط أن الشاب كان يسلك بالفعل الطريق الخاطئ، وربما انتبه الشاب نفسه لهذا الخطأ لأول مرة في تلك اللحظة، فقد بدا عليه الارتباك والخجل وهو يقول:

«ماهو انا.. أصل انا كنت.. الخناقة يعني كنت انا..».
وتطوع بعضنا للإدلاء بمعلوماته مرة أخرى، وتطوع آخرون بملاطفة الشاويش
الذي صاح:

«هنا الوقوف ممنوع.. دي أوامر!».

قالها وهو ينحني - دون سابق إنذار - على إحدى عجلات السيارة ليفرغها من
الهواء، هكذا تحول الأمر أمام عيوننا فجأة فأصبنا بما يشبه الصدمة، وانسلخ صوت
الشاب:

«يا شاويش إنت مش فاهم.. أصل.. إل..».

«إسمع يا أستاذ.. إنت ماشي غلط، فاهم يعني إيه غلط!؟».

كان العسكري يتحدث وهو يمضي بعيداً عن السيارة: «أيوه غلط، والعربية دي
لازم تروح المرور، الأوامر كده.. دي أوامر!».

وتسمرنا جميعاً في ذهول، وتبددت كل متعة أحسنها، فقد كان العسكري يتقدم
وهو يضع الصفارة في فمه، وينفخ فيها، وبدأنا جميعاً نتقارب في انفعال،
والعسكري يصفر، والشاب يتوسل.. دون جدوى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا انا.. يا الكتب

قال لي صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبى إن زوجته ليست مخطئة، وإنه عرفها كما هي، وأحبها كما هي، وتزوجها كما هي، وأن لا شيء يتغير فيها لكنه لم يعد يطيق، وهذا كل ما في الأمر!

وقالت لي زوجته السيدة سوسن سليم الرمالي، إنها لاتعرف ما الذي حدث لزوجها، فهو فجأة هدد بالويل والثبور وعظائم الأمور، وانهاال على كتبها ومجلاتها تمزيقاً وتقطيعاً، وإنها وقفت أمامه ذاهلة لا تدري ماذا تفعل، حتى إذا انتهى مما كان فيه، تحول إليها والشرر ينطلق من عينيه قائلاً:
«يانا، يا الكتب دي!!».

وبدت لي المشكلة مضحكة ومحيرة في نفس الوقت، ذلك أني أذكر جيداً يوم تحدث إلي صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبى - وهذا هو اسمه الرباعي الذي عرفناه به منذ كنا في المدرسة معاً، ولست أدري، لم اشتهر هو بيننا بهذا الاسم الرباعي الذي ظللنا نناديه به حتى يومنا هذا، ولا أذكر أن أحدنا تحدث عنه باسمه مجرداً، بل كان لا بد أن نذكر هذا الطابور من الأسماء كي نعرفه - على كل فأنا أذكر جيداً يوم تحدث إلي عن تلك الفتاة التي وقع في هواها على غير انتظار، كان يعدد مناقبها ومحاسنها وينوه بمسلكها وأخلاقها واستقامتها ثم يقول:
«دي مثقفة!».

وفي حقيقة الأمر لم أكن أعرف ما الذي يعنيه حسين بكلمة «مثقفة» هذه، فلم تكن من سمات صديقي هذا أنه يحب الثقافة أو يقبل عليها أو يعتبرها شيئاً هاماً في حياته، بل ربما كان العكس هو الصحيح، فغالباً ما كان حسين عبد الخالق محمود الزغبى يسخر منا نحن هواة القراءة والكتابة ويتهمنا بأننا نضيع العمر هباءً فيما لانفع فيه، وأن الحياة أثن من أن نضيعها بين دفتي كتاب أو مناقشة قصة أو قصيدة أو مسرحية أو فيلم جيد، وعلى أيامنا كانت أفلام إسماعيل ياسين هي أفلامه المفضلة، ومجلات الأطفال هي الشيء الوحيد الذي يتلذذ بقراءته، لكنه كان صديقي وكنت أحبه كما هو، وكنت صديقه وكان يحبني بعيوبي الكثيرة التي من أهمها أني أهوى «المنظرة» والتظاهر بالمعرفة.. وعندما حدثني عن «سوسن سليم الرمالي» - هكذا ذكر لي اسمها - زميلته في العمل، بدا لي مبهوراً لاهت الأنفاس، كان يتحدث عنها طويلاً، كيف تتصرف وكيف تتحدث، بل كيف تنطق بعض الكلمات بالفصحى فإذا بها تتساقط من بين شفثيها كحبات الملبس - هكذا كان يقول - وليس مثلي كالطوب أفذف به وجوه الناس في تعال، كان يتحدث ويتحدث ثم يردف مؤكداً حديثه بقوله:
«إنت حانتبسط منها قوي دي مثقفة!».

وعندما عرفت سوسن سليم الرمالي دهشت حقاً، هي فتاة هادئة متزنة رقيقة، تحب القراءة إلى حد الإدمان، وهي تقرأ أي شيء وكل شيء يقع تحت يديها، من العلوم إلى الاقتصاد إلى السياسة إلى الأدب والفن، والقراءة عندها ليست للمعرفة فقط، ولكنها تبدو وكأنها غذاء تنغذى عليه، وكانت سوسن تقول إنها لا تعرف متى تعلقت بالكتاب، ولكنها تشعر كلما قرأت شيئاً جيداً أنها كانت جاهلة بشيء لا بد أن

تعرفه.. فلسفتها في الحياة أن الإنسان لا بد أن يعرف كل ما يستطيع تجميعه من معارف؛ لأن الحياة قصيرة، والمعارف كثيرة، وعار على الإنسان أن يعود إلى ربه جاهلاً، وكانت موقنة أشد ما يكون اليقين، أن الله سيسألها يوم القيامة لمَ لم تقرأ الكتاب الفلاني ولمَ لم تعرف العلم الفلاني.

ولقد اختلفت مع سوسن كثيراً لكني كنت أنظر دائماً إلى الأمر على أنه نوع من غرائب الطبيعة، فلقد قبلت سوسن الزواج من حسين عبد الخالق محمود الزغبى كما تقبل عملاً عرض عليها في شركة وعاش كلاهما سعيداً بالآخر، وجاء وقت على صديقي ما إن يرى كتاباً جديداً، أو يسمع من أحدنا عن كتاب جديد، حتى يسارع بشرائه لنقرأه سوسن.

وعندما تزوجا كانت سوسن حريصة، أشد ما يكون الحرص على أن يكون ضمن جهازها مكتبة، ولم يختلفا على ذلك أبداً، وربما كان - وهذا أمر بدلي غريباً بعض الشيء - حسين عبد الخالق محمود الزغبى أشد اهتماماً منها بهذه المكتبة التي بدأت صغيرة ثم تكدمت فيها الكتب يوماً بعد يوم وعماماً بعد عام.. والغريب في الأمر، أن الخلاف الوحيد الذي حدث بينهما حول هذا الموضوع، أن حسين كان يهوى ترتيب المكتبة. أما سوسن، فلم يكن هذا الأمر ليعنيها في كثير أو قليل.. ولقد انتهى الخلاف بينهما عندما سلم حسين بأن المكتبة من حق سوسن التي كانت تقرأ الكتاب ثم تلقيه فوق أحد الأرفف في لا مبالاة، وتتحول المكتبة مع الأيام إلى شيء لا أول له ولا آخر، تبدو الكتب فوقها في أكوام يعلوها التراب أحياناً، لكنك - وهذا أيضاً كان غريباً - إذا طلبت منها كتاباً، أي كتاب، مدت يدها دون أن تبحث أو تنتظر أو تتأمل أو تفكر، لتأتي بالكتاب من مكانه الذي قد يكون مدفوناً تحت ركام هائل من الكتب.

غير أن هذا لم يكن حائلاً بين سوسن وبين بيتها، كانت زوجة مثالية، وأمّاً مثالية أيضاً.. وكثيراً ما كان حسين عبد الخالق محمود الزغبى يتندر على زوجته قائلاً إنه كان يسألها وهي مستغرقة في القراءة: «حانقراً إيه النهاردة يا سوسن؟!».

فترد عليه دون أن ترفع رأسها عن الكتاب:

«كوسة يا حبيبي!!».

هكذا كانت حياتهما، وهكذا عاشا سنوات أنجبا فيها ولدين كان أكبرهما صورة من أمه، وأصغرهما صورة من أبيه، غير أن الكبير الذي يشبه أمه كان من النوع اللعبي الذي يهوى ركوب الدراجات ولعب الكرة في الشارع والمدرسة والنادي وحتى في البيت، ونشأ الصغير - الذي يشبه أباه - عزوفاً عن اللعب، محباً للتأمل والقراءة، يعرف موعد صدور مجلات الأطفال ويقلب الدنيا إذا نسي أبوه أن يشتري له المجلة في يوم صدورها.. وهنا كانت المتاعب أكثر، فالكبير يغيظ الصغير بالاستيلاء على مجلاته وكتبه، وكثيراً ما فضّ الأبوان اشتباكاً أشعل النار في غرفة «العيال» حول كتاب أو مجلة.

هكذا كانت حياتهما، تسير سيراً رقيقاً، وكنا جميعاً نعتبرهما من أسعد الأزواج على الإطلاق، بل إن المناقشة إذا امتدت إليهما في جلسة من جلسات النميمة هذه المحببة إلى قلوب البعض منا، كان تفسيرنا يصل إلى أن اجتماعهما وحبهما هو اجتماع النقيضين وتجاذب الضدين وأن كلا منهما يكمل الآخر، بل وصل الأمر إلى الحد

الذي راح بعضنا يحاول في حياته، تقليد حياتهما لعلنا نهنا في حياتنا الزوجية مثلهما!

حتى كان ذلك اليوم الذي حدث فيه ما حدث.. عاد صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبى من الخارج جائعاً - كان الولدان قد تعشياً وناما في أمان الله، وكانت هي، كالعادة، مستغرقة في كتاب كبير الحجم كانت تقرأ فيه منذ أيام، بدأ حسين في إبدال ملبسه وهو يسألها «حانتعشى إيه النهارده؟!». «

رفعت رأسها إليه هاتفة:

«تصور يا حسين إن معدل التطور الإنساني بيتزايد في سرعات مخيفة، وأن الإنسان بعد ألف سنة هايرجع قرود تاني؟!». «

ووقف حسين عبد الخالق محمود الزغبى أمام زوجته ذاهلاً، أحس أنها - لسبب ما - تسخر منه!

«يا سوسن أنا جعان!». «

نهضت على الفور وهي تتحي الكتاب جانباً مستطردة:

«ماهو احنا لو عشنا ألف سنة كمان، حانتعشى سوداني!». «

حتى الآن لم يفصح حسين عن السبب الذي ثار من أجله..

«يا سوسن!». «

قالها من بين أسنانه فالتفتت إليه:

«عارف هانرجع قرود من تاني ليه؟!». «

قالت سوسن إنها عندما نظرت إليه لم تلاحظ شيئاً غريباً، كل ما في الأمر أنه كان ينظر إليها في صمت، فعادت، وهي تستعد لتجهيز العشاء، تقول:

«أجيب لك موزه؟!». «

قال حسين وقد أحس بالإهانة تلسعه كصفعة:

«سوسن!». «

«أنا رأيي إننا نوفر ألف سنة من عمر الدنيا!». «

من بين أسنانه سألتها:

«إزاي؟!». «

«أحط لك شوية سوداني وكام موزة وتسييني أكمل الكتاب!». «

- ما الذي تقوله سوسن؟! ولماذا؟! «

وما الذي فعله حسين؟!... ولماذا؟! «

«قصدك إيه يا ست هانم!». «

كانت - الآن - تضع الجبن والحلاوة الطحينية والخبز، قال حسين إن العشاء كان جاهزاً بالفعل، وإنها كعادتها لم تقصر في شيء، بل إنها لم تعد للكتاب كما تعودت أن تفعل، وجلست إلى المائدة ساهمة وهي تقول:

«أصل مع التطور، الإنسان حاخترع كل حاجة تخليه مايعملش حاجة!..». «

جلس أمامها وقد داخله الشك - لأول مرة - في قواها العقلية!
«سوسن!».

«يعني لما يبقى البيت فيه شغالة بالكهرباء وغسالة بتشتغل لوحدها، والأكل حايبقى في أنابيب، كل الأعضاء الإنسانية مش حايبقى لها لزوم، تقوم تنقرض، وأول حاجة حاتنقرض في الإنسان هي مخه!».

صرخ حسين عبد الخالق محمود الزغبى غاضباً:
«سوسن!!».

لكنها أكملت:

«وبكره أطفال الأنابيب دول حايبقوا موضة قديمة!».
«قصدك إيه؟!».

«مفيش ست حاتحمل وتخلف وكلام من ده!».
«أمال حايبقى فيه إيه؟!».

«جهاز العروسة حايبقى فيه مكنة بالكهرباء، يقولوا لها خلفي تخلف من غير وجع قلب!».

كان حسين - هكذا قالت سوسن - يجز على أسنانه في غيظ وهي تستطرد:
«ما هو مخك حاينقرض علشان مش حايبقى له لزوم!».
«مخي أنا اللي حاينقرض يا سوسن؟!».
«الكتاب بيقول انه بدأ في الانقرض فعلاً!».
«مخي أنا؟!».

«فيه رجل أمريكي اسمه جوني هو ايت بيقول إن العالم بعد...».

ولم تكمل سوسن، وهي تقسم بأغلظ الأيمان إنها رأت زوجها يقفز من مكانه كما تقفز القردة بالضبط، ليقطع المسافة من غرفة المائدة إلى غرفة التليفزيون في قفزة واحدة، وينقض على الكتاب، وينهال عليه تمزيقاً.. وأنها لم تفعل شيئاً على الإطلاق، بل هي مندهشة لأنها لم تغضب ولم تحزن، وإنما راحت ترقبه وقد هبطت عليها سكينه من نوع غريب..

ويصرخ حسين عبد الخالق محمود الزغبى قائلاً، إنه وهو في ثورة غضبه تلك، سمعها تقول ساخرة:
«مش قلت لك؟!».

كان الرجل يلهث غضباً، وكانت هي تبتسم مستطردة:

«أصلك يا حبيبي لو بصيت في المراية حاتعرف إنك بقيت قرد فعلاً!».
«أنا قرد يا سوسن؟!».

«وهو فيه إنسان يقطع كتاب؟!».

جاءت جملتها الأخيرة كالضربة القاضية، فلقد قال حسين صارخاً:

«قرد بقرد يبقى يا اللا!!».

وتقسم سوسن إنه تسلق المكتبة بلا مقعد ولا سلم، وإنه راح يقذف الكتب التي كانت قد وصلت بعد طول السنين إلى السقف، يقذف بها إلى الأرض، وإنها عندما رأته معلقاً هكذا.. يمسك المكتبة بيد، ويقذف الكتب بيد، وساقاه مفرودتان يميناً وشمالاً، أحست إحساساً غامضاً بقدرة الله على تحويل المخلوقات في لمح البصر من كائنات إلى كائنات أخرى، فلم تزد على قولها:

«سبحان الله!!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لأنهما استدعياني في الثالثة صباحاً، فلم أعرف كيف أسوس الأمر، كنت أجلس بينهما ومن حولنا تناثرت الكتب يميناً ويساراً وفوق وتحت، وكان المكان قد تحول إلى فوضى، وكان صديقي حسين عبد الخالق محمود الزغبى يردد:

«يانا يا الكتب!».

وكانت هي تردد:

«والكتب ذنبها إيه؟!...».

وكان طعام العشاء موضوعاً في مكانه لم يمسه أحد عندما قالت سوسن في حزن:

«أنا أسفه يا حسين».

«بعد إيه بقى؟!».

«قوم اقرأ لك حنة جينة انت ماتعشتش!».

«مش عاوز أطفح!».

«طيب إيه اللي انت عاوزه بالظبط؟!».

قال في تحد:

«يانا يا الكتب!».

عادت تردد.

«والكتب ذنبها إيه؟!».

صرخ وقد فاض به:

«اختاري يا سوسن يا رمالي.. اختاري، يانا يا الكتب!».

اختنق صوتها لأول مرة، قالت:

«إنت!».

وجاءت كلماتها على غير انتظار منه. فهي عنيدة وهو يعرف ذلك فكيف سلّمت بهذه السهولة.

أحس أن في الأمر شيئاً حذرهما:

«سوسن يا رمالي، أنا عارفك كويس!».

«يعني إيه؟!».

«مفيش كتب فعلا!».»

«وأنا موافقة حتى يهبي الله أمرًا كان مفعولًا!!»

صرخ - في الرابعة صباحًا - حتى سمعه الجيران بالتأكيد:

«عاوزه تموتيني علشان تقري على مزاجك؟!».»

«لا مش كده!».»

«أمال ازاي!».»

نهضت سوسن وهي تجمع الكتب وقد انهمر دمعا غزيرًا:

«حاختصر الزمن!».»

نظر إليّ مستفزًا:

«سامع يا سيدي!».»

«وهي قالت إيه بس يا حسين!».»

«عاوزه تخلينا قرود من دلوقت، بكت سوسن، وقالت من خلال دموعها التي أغرقت وجهها:

«طب عاوزني اعمل إيه؟!».»

«عاوز تقريني زي ما بتقري الكتاب!».»

نظرت إليه طويلًا، وكان دمعا لايزال ينهمر..»

في لحظة، أحسست أنني غير مرغوب فيه، فلقد هبط حسين عبد الخالق محمود الزغبي على ركبتيه، وراح يللم الكتب مع سوسن سليم الرمالي، وكان الحديث بينهما الآن خافتًا، قالت:

«أنا زعلانه منك!».»

«وانا حاطق من جنابي!».»

«لو كنت صبرت شويه ماكنتش قطعت كتاب قيم بالشكل ده!».»

«اشمعني!».»

«لأن مٌخنا لما حاينقرض حاتبقى الحياة الزوجية من غير مشاكل!».»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القطة التي اشتعل ذيلها

احتدم الأمر فجأة وانفجر أبي بالغضب أثناء خناقة عادية من تلك الخناقات التي تنتشب كل يوم بيني وبينه..

وكان من الممكن أن يمر الأمر بسلام.. كان من الممكن أن يمر بسببها يطلقها في وجهي، أو صفة يسود بعدها الصمت أو يتناثر الغضب من بين شفثيه كالرذاذ وهو يمضي مبتعداً.. كان من الممكن أن يمر بسلام لولا شيء تسلط على رأسي وسيطر على أفكاري.. فقد قررت فجأة أنني قد كبرت، وأنه قد أصبح لي الحق في أن أفعل ما أشاء..

كانت التجربة رائعة، ولم يعد من السهل أن أتنازل عنها، ولقد علم أبي بالأمر، وبلغه أنني جلست على المقهى في وسط البلد، وأني كنت ألعب الطاولة مع بعض أصدقائي.

وخيل إليّ في بداية الخناقة أن الأمر كان من الممكن أن يختلف لو أنني لم أجلس على نفس المقهى الذي تعودت أن أجلس عليه، كان صوته يجلجل في البيت:

«حضرتك رايح تقعد لي على القهوة، وكمان اللي انا باقعد عليها؟.. مافضلش غير انك تيجي تلاعبني طاولة وتعزم عليّ بسيجارة!».

لم أكن خائفاً منه هذه المرة، وقد أدهشه عدم خوفي كما أدهش أمي التي كانت تبدو دائماً كلما تشاجرنا كالقطة التي اشتعل ذيلها، وعندما رددت عليه بحت أمي بصوتها مستنكرة، لكنني في الحقيقة كنت أكثر منها دهشة لهذا الذي يحدث كأن شيئاً ثقيلاً ينساب في عظامي برفق، وصدري يتسع لأكبر قدر من الهواء، وصوت نقر الزهر وبداية الإجازة السنوية والجرسون وهو يقول لي: «الشاي يا بيه!» كل هذا كان يبدو لي شديد الروعة، فقلت لأبي بصوت ثابت: «خلاص.. نبقي نقعد على قهوة ثانية!».

ولم يرد أبي هذه المرة، بل ردت أمي بشهقة مذعورة: «مش عيب ترد على أبوك كده يا بني؟!».

ربما كانت هذه الجملة بالذات هي سبب الاحتدام والانفجار وتناثر الغضب في كل أرجاء البيت، فقد التهب وجه أبي فجأة وهو يصرخ: «مفيش قعاد على القهاوي خالص!».. كان من الممكن أن ينتهي الأمر بعد ساعة أو ساعتين، لولا أن صوتاً خرج من صدري في شبه زمجرة: «مانا حاقعد على قهوة ثانية يا بابا!».. وكان صوتي غاضباً فارتبكت، وعندما هوت الصفة على وجهي لم أشعر بالألم وعدت أردد:

«أنا مش صغير يا بابا علشان انضرب!».

«خلاص كبرت وبقيت راجل.. طيب مفيش نزول من البيت لمدة أسبوع!».

كان قد مضى وقت طويل منذ عاقبني أبي مثل هذا العقاب، تلعثمت للحظات وبدأت أمي تروح وتجيء بيننا كالقطة المذعورة وهي تردد كلمات لم نكن عادة نسمعها أو

نلتفت إليها، وكان أبي يزمجر: «هي كلمة مفيش غيرها!» وارتجفت ركبتي داخل ساقى بنطلوني الطويل فصرخت:
«أنا خارج يا بابا.. أنا مش صغير!».

«بقى كده.. طب عليّ الطلاق من امك لو خرجت من البيت لمدة شهر!».
وطغت صرخة أمي، التي تشبه مواء قطة تحترق، على ما قلته، أو ربما كان أبي قد اكتفى بقسمه ولم يعد يريد السماع، فقد انطلق خارجًا من البيت وأنا أردد بصوت ممزق: «أنا نازل.. أنا حانزل.. أنا مش صغير!».

كنت موقنًا أنه سمعني جيدًا.. لكنه لم يرد بكلمة!!
سدت أمي باب الغرفة بذراعيها.. «حatemل إيه يا ولد.. إنت اتجننت؟!».
كنت أرثدي ملابسي استعدادًا للخروج.

«إنت سمعت أبوك قال إيه يا ولد؟».
وانتهيت من ارتداء بنطلوني الجديد.
«إنت مش خارج من هنا.. فاهم؟».
لم يكن يخيفني تهديدها أبدًا.. رفعت إليها رأسي ساخرًا:
«حارج!!».

ورحت أبحث عن الشراب.
«أبوك لما يقول كلمة لازم تتنفذ، وأنا كمان لما أقول اقعد لازم تقعد!».
تحول صوتها إلى مواء، وأخذت تروح وتجيء كعادتها..
«إنت سمعت أبوك قال إيه؟» وكدت أنتهي من ارتداء الحذاء.
«إنت سمعت أبوك قال إيه يا بني؟».

وبحثت عيناى عن المشط.
«يا بني اهتدي بالله واخزي الشيطان.. دلوقت يرجع وتصالحه؟».
كان وجهي في المرأة شديد الإحمرار، وشعري كثيفًا.
«هو انا حالاقبها منين ولا منين؟!» عندما استدرت نحوها كان وجهها قبالة وجهي تمامًا.

«أبوك عمره ما حلف يمينا زي ده أبدًا!».
كان هذا صحيحًا، ولكن..
«أنا ماليش دعوة!».

واندفعت خارجًا فهرولت خلفي: «يا بني الناس تقول علينا إيه؟».
رحت أقفز السلم وقد انتبائتي نشوة عارمة، وأطلت عليّ وهي تصيح بصوت ممزق:

«انتو حاتغلبوني معاكم.. طب وانا أروح فين يعني.. أروح فين بس يا خواتي?!».

عندما رفعت وجهي إلى أعلى كانت هي تستدير إلى الشقة. وكان صوت بكائها مكتومًا، ورغم أن باب الشارع كان أمامي، ورغم أنني حاولت أن أستعيد نشوتي وأن أكمل طريقي، فإني لم أستطع، فعدت أصعد السلم من جديد.. وأحسست ساعتها برغبة شديدة في البكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شوفولكم حل..

- 1 -

ثار.. وكان لا بد أن يثور.

هدد... وكان يعلم أن تهديده لن يأتي بنتيجة!

غلى الدم في عروقه وصعد إلى رأسه فاحتقنت عيناه وراح يُرغِي ويُزبد، وتدفقت الكلمات من فمه كالطوفان، كلمات تعني شيئاً وكلمات لا تعني شيئاً. وكان الثلاثة يقفون أمامه في صمت وقد أذهلهم هذا الذي يحدث!!

ولم تكن الحكاية في حقيقة الأمر تحتاج إلى كل هذه الثورة وكل هذا الغضب، عادت البنت من الكلية متوترة الأعصاب غاضبة وقد أعلنت العصيان على أي شيء وكل شيء. فهي لا تريد أن تأكل ولا تريد أن تشرب ولا تريد أن تتحدث، ولا تريد حتى أن تقصح عما بها.. سألتها أمها عما بها فغمغمت بكلمات لا معنى لها، ألحت عليها الأم فصاحت بصوت مختنق «ماما.. شوفولكم حل!».

وعندما علمت أمها بالمشكلة أطرقت في سهوم، فالبنت كانت تريد ما يزيد على الثلاثين جنيهاً كي تشتري المحاضرات أو الكتب التي تخرج في ملازم وكل ملزمة لها ثمن وكل ثمن لا بد أن يدفع.. ولقد طنشت البنت مرة ومرتين وثلاثاً. حاولت أن تنقل الكتاب، أو تقترضه، أو.. أو.. ولكن هذا كان مستحيلًا.. فزميلاتها وزملاؤها كانوا قد اشتروا الملازم، بل إن بعضهم كان يؤجر من يكتب له المحاضرات حتى لا يتعب يده في الكتابة ملاحقاً الأستاذ الدكتور وهو يتدفق في الحديث في مادته تدفق العالم الخبير...

في البداية، وعندما طرحت البنت الحكاية على أمها نظرت إليها قائلة:

«مفيش حل غير حكاية الفلوس دي؟!».

وكانت البنت تعلم البئر وما تحويه، وكانت تعلم أنها لا بد أن تساعد، أن تكون غطاء للبئر التي كانت تتضب شهرًا بعد شهر. ومن أين يأتي أبوها بالمال وكل مرتبه يدخل البيت، وكل ما يصل إلى يده يتسرب إلى البيت، حتى التدخين، كف عنه شهورًا، وقد أصبحت العيشة لا تطاق! غير أنها اليوم لم تعد تستطيع!

لم تعد تستطيع الاستمرار على ما كانت عليه، فالأساتذة الدكاترة متمكنون من علمهم. يدخل الواحد منهم إلى المدرج المزدهم بالطلبة والطالبات، وفي المدرج ليس الزحام زحامًا كالذي يعرفه الناس.. ويا ماما لقد أصبح بعض الطلبة يحملون مقاعدهم معهم من بيوتهم كي يجلسوا عليها، وبعضهم يدخل المدرج مع الساعات الأولى من الصباح كي يجد مكانًا، والأستاذ الدكتور معذور، فهو يلقي محاضرات بسرعة، هو لا يناقش؛ لأن المناقشة مستحيلة، وهو لا يستمع لأسئلة؛ لأنه لو استمع لما عاد إلى بيته، وهو لا يتوقف؛ لأنه لو توقف فلن يكمل المقرر.

لكن اليوم لم يكن ككل يوم، كانت للبنت صديقة تشتري الكتب، أبوها مقاول، وهي غنية تأتي في سيارة وتعود إلى البيت في سيارة، وثمان الملازم أو الكتب لا يعنى

بالنسبة إليها شيئاً، لكن صديقتها وجدت لها صديقة غيرها، غنية مثلها، ذات سيارة وأب يعمل ما لا تدري لكنه ثري مثله، والطيور على أشكالها تقع.
«شوفي لك واحدة زيك يا بنتي!».

«إللي زيي ما بيدوروش على اللي زيي، بيدوروا على اللي بينفعوهم!».
أطرقت الأم وربتت على كتف ابنتها، تنهدت حيرة وقالت «ربنا يسهل!».
«إمتي؟!».

رفعت الأم إليها عينين تتذران بالشر، فالست متدينة تصلي الوقت في وقته وتعرف الله ولا تحب التطاول حتى في ساعة الغضب، وقالت البنت معذرة على الفور.
مش قصدي يا ماما.. قصدي إمتي حاتشوفولي حل؟!«.
لما يبجي أبوكي من شغله!

- 2 -

قبل أن يصل الرجل من عمله وصل الولد من مدرسته!
دخل البيت مزمجراً ثائراً مهدداً، ودون إحم أو دستور، ألقى بكتبه فوق المائدة بطول يده وهو يصيح بصوت كصوت رجل ذي حنجرة أوبرالية!
«إنت يا ست ماما!».

كبر الولد فجأة. بين يوم وليلة تحول من صبي إلى رجل خشن الملامح محجب الوجه غليظ الأنف، جاءت الأم من الداخل مهرولة، وكانت قد فرغت لتوها من صلاة الظهر قبل أن تقوتها:
«خير يا بني!».
«شوفولكم حل!».

لم تكن في حاجة لأن تسأل. كانت تعرف المشكلة منذ أسابيع: الولد في حاجة إلى دروس خصوصية.. ليست المشكلة في أنه عاجز عن استيعاب الدرس، أو حتى المذاكرة.. لكن المشكلة كانت تكمن في أن الكل أصبحوا يأخذون دروساً خصوصية، والكل أصبحوا قريبين من الأساتذة. وتحولت المسألة إلى أنه أصبح وحيداً أو كالوحيد، منبوذاً أو كالمنبوذ.. ذلك أن التلاميذ، وقد أوشك العام الدراسي على الانتهاء واقترب موعد الامتحانات، أصبحوا يتبارون في الإجابة عن أسئلة لم تطرح في الفصل، أسئلة كان يطرحها عليهم الأستاذ في أثناء الدرس الخصوصي.
«طب انت مش مذاكر يا بني؟!».

هكذا قالت أمه؛ فصاح مختق الصوت!:
«مذاكر يا ماما وكل حاجة، بس الأسئلة دي أصلها.. أصلها..!».
ثم توقف ولم يستطع أن يكمل: حملق الولد في أمه وأخته، ثم دق الأرض بقدمه:
«مش عارف، بس انا لازم آخذ درس زيي زيهم!».

- 3 -

عندما وصل الأب كان الحوار قد اصطدم بين الثلاثة، البنت تبكي. والولد يهدد، والأم تَؤنّب.. ولا يقدر على القدرة سوى الله، هكذا كانت تقول، ثم هذا هو الجمل وهذا هو الجمال، وهما ليسا صغيرين بعد، إنهما يستطيعان أن يفهما... أبوهما يفعل كل ما في وسعه، كف عن التدخين حتى يوفر لهما حياة كريمة، كف عن الذهاب إلى المقهى والجلوس مع أصدقائه؛ حتى لا يتورط في مصروف قد يحتاج إليه البيت، يشتري لهما ما يحتاجان إليه من ملابس، ويحرم نفسه من بذلة جديدة رغم أن ما يملكه من بذلات قد أن أوان إحالته إلى المعاش.. هما في حاجة إلى محاضرات ودروس خصوصية، هذا حق وهي تصدقهما، وهو «أبوهما» في حاجة لأن يفهما، لأن يدركا مدى ما يعانيه من متاعب في سبيل تربيتهما.

قالت البنت فجأة:

«أنا مالي... محدش قال لكم تخلفونا وانتوا مش قد الخلفة»:
«إخرسي!».

ولم تكن المشكلة مشكلة صفقة تلقفتها الفتاة، لكنها كانت مشكلة قهر كانت تحس به فازداد إحساسها الآن بالقهر، صمتت البنت، ولم تفعل أكثر من النظر إلى أمها في عتاب، لكن الولد صاح:
«وكمان بتضربيه يا ماما؟!».

كانت أعصاب الأم انفلتت، فهوت على صدغه هو الآخر بصفعة!
واشتعل الموقف.
ووصل الأب!!!

- 4 -

لا أحد يدري ما الذي حدث له في الطريق من عمله إلى البيت، كل ما عرفوه أنه عندما دخل، وكان الموقف مشتعلًا، كانت عفاريت الدنيا تتراقص أمام عينيه، فتح الباب بالمفتاح وخطا إلى الداخل، وكان المشهد أمامه في غير حاجة إلى سؤال أو استفسار فقال:
«إيه الحكاية؟!».

قالت الأم وكانت لاتزال في ذروة الانفعال:

«أنا إيش عرفني.. أهم ولادك عندك أسألهم!».

وسألتهما.. وما إن عرف الحكاية حتى ثار... وكان لا بد أن يثور!!

هدد... وكان يعلم أن تهديده لن يأتي بنتيجة!... غلى الدم في عروقه وصعد إلى رأسه واحتقنت عيناه وراح يُرغِي ويُزبد، وتدفقت الكلمات من فمه كالطوفان، كلمات تعني شيئاً وكلمات لاتعني شيئاً، وكان الثلاثة يقفون أمامه في صمت، وقد أذهلهم - رغم ما كانوا فيه - هذا الذي يحدث:

لم يكن الرجل قد عرف سوى أن ابنته في حاجة إلى محاضرات والولد في حاجة إلى دروس خصوصية، ثم لاشيء عن التفاصيل التي أدت إلى الموقف الذي دخل فوجده أمام عينيه، ورغم هذا فلقد كانت ثورته غريبة وعارمة وعنيفة.. كان ينتفض

لاهثا والكلمات تتناثر من بين شفثيه كرزاذ لعابه في كل اتجاه، كان جسده كله يرتجف بانفعال غامض ظل يتصاعد ويتصاعد حتى وصل إلى ذروة مزقت قلوب الثلاثة فتوقف عن الصياح لاهثاً.

ساد الصمت لثوان قال بعدها بصوت مختنق:

«إنت عاوزة تشتري المحاضرات، وانت عاوز دروس خصوصية.. وانا ما عنديش فلوس!».

بدا الأب وكأنه يتمزق إرباً. «يعني أنا لو كان معايا كنت هاحوش عنكم!».

كانت الفتاة أول من أدركت ما الذي ألمَّ به فهتقت:

«بابا».

«بلا بابا بلا زفت!».

حاول أن يخطو لكنه ترنح فقفز إليه الولد:

«بابا!».

دفعه بعيداً عنه فازداد ترنحاً! همت زوجته بالاقتراب منه، لكن نظرة من عينيه أوقفتها، كانت العينان مبللتين بدمع خفي!

دخل إلى غرفته وأغلقها عليه.. وجلست الأم في مكانها وقد انفجرت في البكاء.

فقال الفتاة نائحة:

«أنا مش عاوزة محاضرات.. بس ابقني صحيني بدري يا ماما علشان الحق الأقي لي مكان!».

وقال الولد مدمدمًا!

«ولا انا عاوز دروس خصوصية بس... بس...».

لكنه لم يكمل...

وخيم على البيت - لساعات طويلة - سكون عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نومة

كانت مشكلته أنه لا يعلم إلى أين يذهب.
طرده المعلم وحرّم عليه المبيت في الوكالة قائلاً له بصوته الخشن «روح نام عند امك».

وهو لا يعرف له أمًا ولا أبًا.. لا يعرف غير الوكالة والمعلم.

وخالتي سعدية زوجة المعلم.

ولكن هذا غير مهم، المهم عنده هو أن يعلم إلى أين يذهب.

وهو يريد أن ينام، والمطر ينهمر وهو يحتمي تارة بالجدران والأبواب والشرفات، وتارة أخرى يسير تحت سيل المياه باحثًا عن مكان يبني فيه.

إنه بلا شك يكره المعلم. لقد كان محصوله اليوم من الأعباب ضئيلاً، وماذا يفعل؟! لم يجد أعباباً، كان اليوم مطيراً والناس قليلة وفي المقاهي التي ذهب إليها طرده، والتي لم يطرده منها كان زملاؤه قد سبقوه إليها.

المعلم يقول له «روح نام عند امك» وهو يعلم أنه بلا أم.. ومن أين يأتي بأمّ وهل مثله يكون له أب أو أمّ؟ ورغم أن المعلم يعلم ذلك جيداً فقد قال له ذلك... فلماذا؟.. لماذا؟... الشارع مليء بالنور. والأرض تلمع بعد أن غسلتها المياه، والعسكري يقف عند الناصية.

وهناك زقاق مظلم سيدخله، فربما وجد مكاناً يبني فيه.

المعلم حسونة بلا شك سيدخل النار؛ فهو يقسو عليه رغم أنه يعلم أنه يتيم وغلبان ولكن.. هل هو يتيم حقاً؟

إن اليتيم أبوه مات وأمه ماتت.

كم كان يتمنى أن يعرف له أمًا، لا لأنه يريد أمًا فماذا سيصنع بها؟.. إنما ليرى شكلها فقط!!

ترى كيف سيكون شكلها؟

لو كانت مثل خالتي سعدية لما أحبها إنها ولية كثيرة وحولاء وشكلها وحش.

الزقاق مليء بالأبواب وكلها موصدة والمطر قل.. ولكن الأرض كلها طين.. أين ينام؟ إنه بردان.

هل لو كان له أم.. كان سيعيش في بيت صحيح كما كان يعيش «سمعه؟».. غير معقول، لسبب بسيط هو أن والد سمعه كان موظفًا في الحكومة ويلبس بذلة كالأفندية. ثم مات فجأة عندما داسه أتومبيل. وهل أبوه - لو كان له أب - سيكون موظفًا مثل «أبو سمعه»؟ شيء مضحك صحيح.. مضحك جدًا.

ولكنه فعلاً يريد أن يعرف شكل أمه، وهو لا يدري حقًا إن كان كل إنسان لا بد أن تكون له أم. لا يدري... ولكن المعلم حسونة، ياباي، إنه يكرهه جدًا، سيدخل النار حذف.. قال له «روح نام عند امك» وهو يعلم أنه لا أم له، سيشوى جسده في النار.. وسيفقى هو في الجنة ويتفرج عليه.

ربما كانت له أم، ولم لا، وإذا كان هذا صحيحًا.. فأين ذهبت..!! ولماذا تركته هكذا؟.. غير مهم أن تتركه أو شيء من هذا القبيل، ولكن المهم أن يعرف شكلها، وألا تكون مثل خالتي سعدية.

العسكري يشمشم كالكلب السلوقي، ولو رآه لكانت واقعه سوده.. سيندس في صندوق الزبالة هذا.. حقًا الزبالة مبلولة وباردة جدًا، ولكن مؤقتًا إلى أن يمضي العسكري... يا خسارة.. كان في جيبه عقب كبير خبأه ليدخنه ويدفيه، لقد طالته المياه وأصبح لا ينفع.. حتى عود الكبريت والشكاكة طالتهما المياه.

هل أمي كانت تدخن مثل خالتي سعدية؟.. إنه يريد أن يعرف كل شيء عنها، وربما كانت لا تدخن.. وربما كانت تدخن، شيء غير مهم بالمرّة، المهم أن يعرف شكلها أه.. أليس كل طفل يرضع وهو صغير؟ لا بد أن يرضع الطفل حتى يصبح كبيرًا مثله، أليس كذلك؟ وهو لا بد أن يكون قد رضع، وأن أمه هي التي أرضعته ضروري، وإلا كيف كبر وأصبح هكذا؟

إن خالتي سعدية لا يمكن أن ترضعه طبعًا، لأنها لا تتجب وليس عندها أولاد، ثم إن صدرها مهرول كالخرق.. فلا بد إذن أن هناك من أرضعته.. إنه سعيد جدًا.. حقًا الزبالة مبلولة وطرية وتجعله يرتعش، ولكنه سعيد؛ لأنه له أمًا، وإلا لو كانت ماتت كان عرف كما عرف «سُمعهُ»، وكان أصبح يتيمًا أيضًا، فهي لم تمت إذن.. لأنه لا يعرف ولأنه ليس يتيمًا.

هي لم تمت، إنها ما زالت تعيش فأين هي إذن؟

ولكن.. لماذا يفكر في أمه الليلة، لماذا يعني.. هيه؟ كثيرًا ما ضحك منهم وهم يشتمون أمه، لأنه لم يكن يعرف أن له أمًا، ولكنه لن يترك أحدًا يشتمها بعد الآن.. فهي موجودة.

ولماذا هو فرحان؟ لم كل هذا السرور؟ هل هو يحب أمه؟

إنه لا يعرفها ولا يعرف شكلها، وليس مهمًا أن يعرف شكلها، المهم أن يعرف أين هي، ولماذا تركته، إنه صحيح لا يحبها وهو ليس فرحان كما يظن، وقلبه لا يطب لا، إنه لا يطب. ولكنه حقًا شيء مثير أن يكون للواحد أم. وهو قطعًا له أم أرضعته، ماذا لو نزلت من السماء الآن وأخذته لتدفنه في حضنها وهو يرضع كما كان طفلًا؟.. مش معقول.

إذن ماذا لو سخطه الله صغيرًا. أليس الله قادرًا على كل شيء، ويقدر يسخطه من أول وجديد؟

إنه لو حدث ذلك حقًا فسوف لا يترك أمه أبدًا، سوف يتشبث بها، ويبكي ويصرخ ويضرب الأرض بقدميه ويقول لها ألا تتركه ليذهب عند المعلم. حقًا إن الأطفال لا يتكلمون وهم صغار ولكنه سيبيكي ويقول لأمه وستفهم هي طبعًا ما يريد، أليست هي أمه؟.. وهي لا بد تحبه كما يحبها. أه إنه يحبها، لم لا؟ مش أمه، وهل هناك من يكره أمه؟!

يا سلام.. سيكون دافئًا صدر أمه هذا.. سيدفئه ولا يجعله يرتعش كما يرتعش الآن.. المياه تسربت إليه من الزبالة، ولكن في حجر أمه لن تكون هناك مياه كهذه.. وسيبتسم لها وستقبله أمه ويقبلها، وستقول له يا حبيبي يا بني، وسيرفس بقدميه

وبصرخ لو رفعت عنه ثديها، سيتعشى كل يوم لبنًا، أحسن من الجوع الذي يحس به الآن... لن يترك صدرها طوال النهار، أبدًا لن يتركه. وسيظل يرضع حتى يشبع، وسيكبس عليه النوم، النوم حلو... يا سلام يا سلام... وسيغمغم. ويتمطى ويتشبث بصدرها... المهم أنه سيدفأ.. ولن يرتعش وسيتعشى.. ولن يجوع.. وينام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشارع

كان هذا الشارع في البداية شقاً يتعرج بين بيوت الحي بلا نظام.. لم تكن له بداية ونهاية ككل شوارع الدنيا، فلا أحد كان يعرف من أين ينبع وأين يصب.. هو موجود وغير موجود. هو جزء من شوارع عديدة وعشرات الحوارى التي تنتفذ إليه من كل جوانبه، وينفذ إليها بالطول أحياناً وبالعرض أحياناً.. لكنه أبداً لا يتوقف.

وكان الإنسان إذا وُجد في هذا الشارع، في أي مكان فيه، في أوله - إن كان له أول - وفي آخره - إن كان له آخر - فهو في الحي.. فإذا ما غادره الناس كانوا يعرفون تماماً أنهم يغادرون الحي بأكمله.

وفي تلك الأيام البعيدة جداً، لا يذكر أحد أنه كان لهذا الشارع اسم. حتى العجائز الطاعنون في السن لا يذكرون له في تلك الأيام اسماً على الإطلاق. لا هم بأنفسهم، ولا ذكرياتهم عن آبائهم الذين ولدوا وتربوا وماتوا في هذا الحي.. ولا أمهاتهم، ولا حتى يذكرون من الجدود أنه كان لهذا الشارع بالذات اسم.

كل ما يذكره العجائز الطاعنون في السن أن عم حسنين الصرماتي كان هو العلامة الوحيدة، عند مفترق طرق وحوار وزقاق، التي تدل على أن الإنسان قد أصبح في زمام الشارع.. ويذكر الأولون أن الصرماتي كان رجلاً بذوي اللسان حشاشاً لا يفارق طوال ليله أو نهاره، لكنه كان محبوباً من الجميع، وكان يفخر بأنه يصلح كل أنواع البلغ والأحذية والشباشب.

وفي مكان ما يبعد كثيراً عن مكان الصرماتي، يذكر العجائز الطاعنون في السن أن دكان أبو عكوش الخياط كان هو العلامة الثانية. وبينما كان أبو عكوش نحيلاً رقيقاً ذا قلب صغير وعينين شديدي الضيق، كان عم حسنين الصرماتي سمياً غليظ الصوت هائل الحجم يتدلى كرشه فوق ركبتيه طوال النهار، ويصدر عنه فحيح مسموع إذا ما تنفس.

ويقولون إن الصرماتي كان يعرف كل سكان الشارع، ولم يكن أبو عكوش يعامل سوى الأثرياء والموسرين من التجار.

وهناك، على بعد خطوات عديدة من دكان الخياط كان يقوم فرن الأعسر وبجواره الحمام.. وكان الأعسر يملك الفرن والحمام معاً، ويذكر الأولون أنه كان رجلاً اشتهر بجشعه وبخله، ولم يكن سكان الشارع يعاملونه. فجميعهم كان يصنع خبزه في بيته، لذلك ففرن الأعسر لم يعمر طويلاً، لم يعمر سوى سنوات لا تزيد على الخمسين عاماً.

وإذا كان الأعسر يصنع الخبز في مخبزه من أجل الأحياء الأكثر رقياً من أهل الشارع، فإن هذه الأحياء جميعاً كانت تأتي من أجل الماوردي... كان «الموردي» صغيراً شديداً الصغر، كان وكأنه ثقب نظيف في جدار مليء بالبنور.. وكان صاحبه سمياً ذا لحية بيضاء مسترسلة، وكان جميل الوجه، أبيض البشرة والملابس، باسم العينين، لا يحدث إلا بذكر الله.. يؤدي الفرض في وقته ويعطي الفقير من بضاعته دون مقابل، ولا يستحل لنفسه مال الغني إلا بقدر ما يعطيه، وكان له ولدان مثله تماماً، وكانت تقوح منهم ومن دكانهم، رائحة ماء الورد.

ويؤكد الجميع أن اسم «الماوردي» لم يكن اسم الرجل أو واحد من ولديه، وإنما أطلق عليه الماوردي لأنه كان يبيع ماء الورد. ولا يذكر واحد من الأولين والعجائز أو الطاعنين في السن اسم هذا الرجل الحقيقي.. لا أحد يعرفه ولا يعرف له اسمًا سوى الماوردي.

وكان للماوردي زبائن يأتونه من كل الأحياء، ويسعون إليه مهما علا شأنهم، فكان الواحد من أهل الحي إذا كان ذاهبًا إليه، قال إنه ذاهب إلى الماوردي.. فأصبح اسم الشارع الماوردي من أجله.

وكان سكان الأحياء الأخرى إذا ما كانوا ذاهبين إليه لشراء أو بيع قالوا: إنهم ذاهبون إلى الماوردي.. فأصبح الماوردي اسم الحي كله!

ولقد مرت سنوات طويلة حتى اختفى فرن الأعسر والحمام معًا.. لا أحد يذكر متى حدث هذا بالتحديد، لكن الكبار يذكرون جيدًا أنه يوم أن أغلق الحمام واختفى الفرن.. مات الصرماتي.

ولقد أحدث موت عم حسنين ضجة هائلة.. لم يكن للرجل زوجة أو ولد ولم يعرف له أحد أبًا أو أمًا.. بل إن الكثيرين لم يكن أحدهم يعرف أين يسكن، كل ما كان يعرفه الناس أنه يجلس هنا.. وهنا مات عم حسنين الصرماتي، كان صوته يطفح بالتشاؤم والبداءة منذ الصباح.. ثم صرخت امرأة كانت تقف عنده، وتلفت الناس فوجدوا الصرماتي في مكانه كما هو، بنفس جلسته، وكرشه الرابض فوق ركبتيه.. لكن رأسه كان مائلًا إلى الأمام، كان العنق ملتويًا، والرأس راقدًا فوق الصدر.

وخرج السر الإلهي من الرجل فهب الشارع كله يودعه، ويقسم الطاعنون في السن أن كفن الصرماتي كان من أغلى الأقمشة، وأن جنازته لم يشهد لها الشارع مثيلًا.. ثم أصبح قبره جامعًا صغيرًا، أصبح اسمه سيدي الصرماتي.

بعد سنوات أخرى طويلة، يذكر الناس أن الحكومة أرادت توسيع الشارع.. وعندما جاءت مصلحة التنظيم عند الجامع، لم تستطع إزالته، ولم يمر الشارع منحنيًا إلى يمين الجامع، بل احتضن الجامع من الناحيتين، وتحول الشارع في هذه المنطقة بالذات، إلى ذراعين تلتفان حول الجامع، ثم تلتحمان بعده.

في تلك الأيام غيرت الحكومة اسم الشارع، وكان دكان الخياط قد أزيل، ولا يذكر أحد بالتحديد متى مات الخياط، وأصبح للشارع أول وآخر، وأصبح مثل عصا تشق الحي من شماله إلى جنوبه، ووضعت عند ناصيته لافتة كتب عليها «شارع طوسون».

ولم يلفت هذا نظر أهل الشارع، ولم يعن أحدهم أن يسأل من هو طوسون هذا.. وكان في الشارع شاب أزهرى كان الناس يعرفونه باسم «المجاور»، ولقد قال هذا المجاور ذات مرة إن طوسون كان مفتشًا كبيرًا في وزارة المعارف، وهز الناس أكتافهم بلا كلمة، وظل اسم الشارع هو الماوردي.

وكان الرجل الكبير قد مات منذ زمن بعيد، وواحد من الأخوين تزوج وافتتح لنفسه دكانًا آخر.. وظل الابن الثاني يقف وسط هذا الثقب الذي ازداد صغره، لكنه كان لا يزال ثقبًا نظيفًا لامعًا، وكان يقف فيه رجل سني، له لحية بيضاء مسترسلة فوق صدره، وكان وجهه أبيض مثل ملايسه، ولا يحدث الناس إلا بذكر الله. وعندما أصبح لمصلحة البريد مكتب في الشارع سمته «مكتب الماوردي»، وإذا أرسل

أحدهم خطابًا إلى الشارع، باسم طوسون كان الخطاب يعود إلى مرسله لعدم وجود العنوان، كانت اللافتة لا تزال فوق الجدار، كان الصداً قد أكلها تمامًا، وتساقطت قشرة الجدار العلوي عليه، وكان اسم طوسون لا يزال واضحًا.

ولم يكن للابن الثاني أولاد، ويوم مات كانت رائحة «ماء الورد تفوح من الدكان المغلق.. وفي نفس هذا اليوم سمع أهل الشارع أن اسم شارعهم قد تغير وجاء بعض عمال التنظيم ليرفعوا اللافتات القديمة الكالحة ويعلقوا لافتات حديثة لامعة كتب عليها «شارع السهر وردي»، ثم بخط أصغر «طوسون سابقًا».

وتساءل البعض عن يكون «السهر وردي» هذا.. لكن أحدهم لم يعنه أن يسمع الإجابة.. فلقد ظل الناس كلما كانوا في طريقهم إلى هذا الشارع، قالوا: إنهم ذاهبون إلى الماوردي، وكان سكان الشارع يقولون: إنهم من الماوردي.. وكانت المحلات الكبيرة في الشارع تحمل اسم الماوردي.. ولقد اختفى الثقب النظيف من جدار الشارع، وأصبح نافذة زجاجية أنيقة في محل كبير وهائل، وكانت هذه النافذة بالذات مخصصة لعرض زجاجات الروائح العطرة.. وفوقها تمامًا تلمع لافتة تحمل اسم «لوليتا»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزوز العبيط

إنني ما زلت أذكر عزوز العبيط.. جلبابه الوحيد الذي كان يلبسه صيفاً ما زلت أذكره وهو راكب عربة الطحين وقد تكدست فوقها مقاطف الغلال أو الدقيق الذي كان دائماً يغمر وجهه، وجلبابه الوحيد الذي كان يلبسه صيفاً وشتاءً. كان يركب دائماً وراء عم فرج.. يردد نداءه مقلداً إياه بصوته الضخم وكلماته المدغمة..

«الطحين يا بت.. الطحين يا بت».

وكان الجميع في كفر الزيات يعرفونه ويحبونه.. ويتحفونه أيضاً بما فيه القسمة من الصفعات والسجائر والطعام.

ولم يكن عزوز يثور عندما يصفعه أحد.. بل يظل وجهه جامداً كما هو ولا تختفي ابتسامته البلهاء الباهتة.. وكثيراً ما كانوا يضحكونه بقولهم.

«بطه ايه يا عزوز بطه ايه..».

وكان عزوز يرقص منتشياً وهو يردد نغم..

«بطه.. يا بطه.. يا حبيبتي يا بطه».

وكنت أسمع عن عزوز قصصاً مختلفة في التفاصيل.. ولكنها كانت تلتقي عند نقطة واحدة.. وهي أنه من عائلة ثرية.. وأنه كان يحب فتاة اسمها بطه.. وأنها تزوجت غيره فأصابه ما أصابه من البلاهة والعبط..

كان أمام منزلنا بيت مهجور كان ينبعث منه إذا أوغل الليل صوت بكاء مكتوم.. وكان الناس يخافون السير في الشارع.. ويقولون إنه مسكون بالعفاريت التي تقذف الناس بالطوب والحجارة إذا مروا من أمامه بعد منتصف الليل.

أما في رمضان فإن العفاريت والجن تقيد بالسلاسل تحت الأرض فينقطع البكاء ويمر الناس أمامه في أي وقت.

وفي كل شهر كنت أذهب مع فاطمة جارتنا إلى وابور الطحين بالغلال والذرة لنعود به دقيقاً.. ورَدَّة.

وكنت أحب صحبة فاطمة.. كانت طيبة وحلوة.. أرتاح إليها كثيراً.. وتحنو عليّ دائماً.. وتمنع أبي عن ضربتي إذا أتيت ذنباً يغضبه.. وما كان أكثر هذا!!!

وجاء شهر رمضان.. وظللت أنتظر ليلة الطحين التي أسهر فيها حتى الصباح مع فاطمة في المطبخ.. وأشاهد عزوز والجميع ينهالون عليه بالصفعات.. وهو يبتسم للجميع في وداعة وطيبة.. وأتقدم أنا الآخر لأقلد الكبار وينظر إليّ عزوز مبتسماً ويقول بصوته الغليظ الكلمات:

«اسكت ياله».

في تلك الليلة من رمضان.. لعبت كثيراً بجوار الترعة مع الأولاد.. وعدت إلى فاطمة التي كانت تجلس فوق الغلال تنتظر دورنا في الطحين.. وبعد قليل قمت

وأخذت أجوس خلال المطحن.. أصعد وألعب وأتفرج.. وقادنتني قدماي إلى غرفة وراء المطحن.

كانت غرفة صغيرة.. جدرانها من الصفيح القديم.. وعلى أرضها المتربة حشوية من الخيش ممزقة، وفوقها لحاف قذر ممزق هو الآخر.. ومقعد خشبي قديم ملقى بإهمال بجوار الحائط.. ولا شيء غير ذلك.

ولم أكن أدري عندما مررت بباب تلك الحجرة.. أن أحدًا في الداخل.. ولكن أذني التقطت صوت همهمة.. وأطلت برأسي.. كان عزوز راقداً فوق الحشوية وظهره نحو الباب.. كأنه يصلي.. وكان منحنياً فوق شيء يمسكه بيده.. والجلباب منحسر من على قفاه الذي بان عريضاً مغرياً بالصفع.. وتقدمت ببطء وأنا أستعد لصفعه.. وما إن وقعت عيناى على الشيء الذي كان بيده حتى توقفت.. كانت صورة فاطمة جارتنا.. ولست أدري كيف أحس بي عزوز.. فعندما استدار ورآني عبس وجهه الأبله الطيب وقال لي بنفس كلماته الغليظة:

«إيه اللي جابك هنا يا وله؟!».

كان يحتضن الصورة في يده.. ويضمها إلى صدره كأن هناك من سينتزعها منه.. وانتابني رعب هائل - وتفهمت حتى التصق ظهري بالحائط.. وأخذ عزوز يتمتم بكلمات كثيرة لم أفهم منها سوى «إيه اللي جابك هنا يا وله?!».

وأردت أن أهدئ من حدة غضبه.. واغضببت ابتساماً رسمتها على وجهي بعد جهد شديد.. وقلت بصوت مرتجف خائف:

«بطه يا عزوز.. بطه الحلوة..».

وزاد غضبه، ونظر إلى المقعد الخشبي.. ومد يده إليه ورفع في الهواء وزمجرته تخرج غريبة كأنه وحش مفترس.. وشملني الرعب حتى إنني لم أحس بفاطمة جارتنا التي كانت تبحث عني في كل مكان وكانت تقف بالباب عندما كان عزوز يهم أن يهشميني.. وسمعت صرختها..

«عبد العزيز...».

وجمد عزوز في مكانه.. واستدار إلى حيث كانت تقف.. وهبطت يده بالمقعد إلى الأرض.. وتدللت ذراعه إلى جانبه.. ورأيت وجهه تكسوه غمامة حزينة. وعيناى تبرقان بالدموع.. وهمس بصوت خافت..

«بطه؟! يا فاطمه!».

وزمجرت فاطمة وهي تتقدم منه في ثورة قائلة:

«عايز تموت الوله؟! يا اهيل يا عبيط».

«أنا يا فاطمه؟! أنا?!».

كان عزوز يتكلم.. وكان كلامه واضحاً أشد الوضوح.. وكان صوته خافتاً حنوناً.. ليست به تلك الوحشية التي اعتدناها في نبراته، وقالت فاطمة في حدة..

«أيوه انت.. أيوه انت..».

ورفعت كفها.. وهوت به على صدغه في صفعه قوية..

ورأيت دمة تنحدر على وجه عزوز.. وتحسس مكان الصفحة بكفه ثم استدار
وخرج من الحجرة..

وعندما كان عزوز يغادر باب المطحن.. كان صاحب المطحن يناديه.. والتفت إليه
عزوز برهة.. ثم انفلت يجري في الظلام..

وعندما جلست بجوار فاطمة.. كانت يداها ترتجفان في انفعال.. وهي تنظر إلى
الباب حيث خرج عزوز.. وإلى الظلام المتكاثف حيث اختفى.. ونظرت إليّ..
ورأيت دموعها في عينيها.. دموعًا كثيرة.. وقالت وهي تفرك كفها في عصبية..
«ليه بس رححت وراه؟!».

ولم يظهر عزوز منذ تلك الليلة في كفر الزيات.. وانتهى رمضان ولكن الجان ظلت
مقيدة تحت الأرض بسلاسل.. ولم نعد نسمع البكاء في المنزل المهجور المجاور
لمنزل فاطمة.. ولم تعد العفاريت تقذف الناس بالطوب!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حديث لا يسمعه أحد

لو أن إنساناً قال له شيئاً كهذا منذ عام واحد لاتهمه بالجنون.. بل لو أن إنساناً قال له منذ شهر لا يزيد إنه سيفعل ما فعل، لأيقن أنه معتوه.. وإلا، فبالله عليكم كيف يمكن لرجل مثله أن يفكر في تركيب تليفون في بيته؟!!

لقد جاءت الفكرة كالإلهام.. فجأة وبلا مقدمات، هبطت عليه من حيث لا يدري فوجد نفسه - على غير ما تعود طوال عمره - منساقاً خلفها مبهوراً بها وكأنه فقد إرادته وحواسه ومنطقه وعقله جميعاً..

وحاول بينه وبين نفسه أن يبرر تلك الحماسة التي أقدم عليها في لحظة رعناء.. لكنه اكتشف أن كل تبرير ساقه إلى ذاته وهو يناقشها غير معقول، حتى ولو كان التبرير معقولاً أو منطقيّاً..

هو من ذلك النوع من الناس الذي يبدو للآخرين سقيماً قليلاً مع أنه في كامل الصحة وأتم عافية.. ولو أن واحداً ممن يعرفونه راقب وجهه الشديد البياض وقت أن هبطت عليه تلك الفكرة لارتجف بالدهشة لتلك الحمرة التي دبّت في الجلد المشدود فصبغته بما يشبه لون الحياة.. ولقد كان في الحقيقة يرتجف لهول المفاجأة، وظل أسير اضطراب لذيذ طوال ساعات يومه.. وكم تمنى أن يخبر أحداً بما انتواه، وطافت بذهنه أول ما طافت ذكرى أبيه وأمه فارتد قلبه بالحزن.. وكاد في لحظة من لحظات السعادة الغامرة أن يميل على أحد زملائه فيخبره بالأمر سرّاً لكنه تراجع، فهو لم يتعود أن يطلع أحداً على شأن من شئونه الخاصة أو العامة.. وهكذا انكب بعينه على أوراق الصادر والوارد، وبوجدانه كله مع أطياف الماضي القريب والبعيد على السواء..

لم يكن له أحد سواهما، ولم يكن له أحد بعدهما أو معهما.. وهو طفل وهو صبي وهو شاب ثم وهو رجل، كان يجد لذيها وعندهما ومعهما وهو يستمع إلى الراديو ويشاهد التليفزيون.. كل شيء، كل شيء..

لذلك، فيوم أن ماتت أمه كاد الحزن يقتله قتلاً، لكن أباه استطاع أن يسد الفراغ وإن كان الحزن قد بدأ يأكله هو الآخر.. وتعلم من موت أمه - رغم حزنه الشديد - أن الحياة من الممكن أن تستمر بشكل آخر لم يألفه، واستقر به الحال مع أبيه، كانا يلعبان الطاولة والورق، ويذهبان إلى السينما والمسرح، ويستمعان إلى الراديو ويشاهدان التليفزيون.. وجاء عليهما وقت كانا يتحدثان فيه عن «المرحومة» دون أن تدمع عيناه..

وعندما تذكر أباه ساعة أن هبطت عليه فكرة تركيب تليفون، حزن عليه حزناً أشد من حزنه عليه يوم وفاته.. ودمعت عيناه، ففي الأيام الأخيرة كان قد تعود على محبة أبيه، وخيل إليه في لحظات - وإن لم يؤمن أبداً بهذا - أن من المستحيل على رجل مثل أبيه أن يموت، حتى يوم أن أصابته الإنفلونزا التي لم تمهله سوى أيام..

لكنه أيقن منذ اللحظة الأولى لفراقه عند القبر، أنه لا بد أن للحياة شكلاً آخر لم يألفه أيضاً، وأن عليه أن يتعوده.. ووجد هذا الأمر ممكناً على أي حال، واستطاع أن يستمع إلى الراديو ويشاهد التليفزيون، ويذهب إلى السينما والمسرح، ويضحك من

قلبه وهو يلعب نفسه الورق أو الطاولة.. واكتشف أن حياته الجديدة فيها من المتعة جوانب كانت خافية عليه فراح ينهل من كل ما يصادفه، حتى لقد ذهب مرة إلى ملعب الكرة، وشاهد المباراة لأول مرة في حياته بلا شاشة تليفزيون.. ولو كان أبوه حياً لاستمتع معه بالحديث الجديد الذي كان يهزه من الأعماق.. تليفون..

تليفون أسود يلمع في ركن الأنتريه القريب من غرفة النوم، أو بجوار فراشه.. تليفون يدق جرسه، فيرفع السماعه إلى أذنه ويقول: ألو... وعاد إلى البيت ذات يوم فوجدهم في انتظاره... وبدأت الأحداث تتحرك بسرعة، وحلم الشهور الأخيرة كلها يتحقق في لحظة، كان قد أدمن الانتظار حتى تعوده، واهتزت نفسه بقلق شديد عندما وجد نفسه مع التليفون وجهًا لوجه.. وحدهما، ولا أحد معهما.

وبدأ على الفور ودون انتظار.. كان يرتجف بانفعال لذيذ وهو يدس أصبعه في ثقب القرص وهو يدير أرقامًا كان ينتقيها بلا هدف.. ثم انتظر.. وسمع رنين الجرس على الطرف الآخر، وانقطع الرنين ليتسلل إلى جسده صوت ناعم هادئ: ألو..

ساعتها كاد قلبه ينفجر لفرط الانفعال.. أصابه شيء كالدوار، وأحس برغبة طاغية في القيء، وعاد الصوت يردد: ألو.. وشعر كأن أطرافه تتجمد، كان وكأنه معلق في فضاء... وعاد الصوت الناعم الرقيق يقول في غضب: ألو.. وعندها فقط وجد نفسه وصوته، وارتجفت شفثاه بالكلمة وكأنه يصلي: ألو... قالها.. ثم أعاد السماعه إلى مكانها، وهو يتنفس الصعداء.

ساعات وهو يدور في البيت كالحبيس وعيناه لا تفارقان التليفون.. وتذكر أن له عمًا لا يعرف عنه شيئًا، فكر في أن يطلبه، لكنه عدل عن فكرته.. فماذا يقول له؟!... والحاج محمد البقال ليس لديه تليفون، والمكتب مغلق وليس هناك أحد من زملائه، وهو لن يجروء على أن يطلب المدير في البيت.. وكان قد بدأ يقضم أظافره عندما برقت في ذهنه فكرة.. فلماذا لا يكلم نفسه؟!!

هكذا انقض على سماعه التليفون وهو يرتجف بالانفعال، الأزيز المنبعث من السماعه يسري في أعصابه سريانًا له لذة لم يألفها من قبل، القرص الدائر له نغم إنسان يتحدث.. أدار الرقم - رقم تليفونه - ثم اعتدل متهدج الأنفاس متوتر الأعصاب في انتظار الجرس، وطققت السماعه وجاءه صوت صفارة رفيعة منقطعة، ولم يدق جرس التليفون...

انتابته الحيرة للحظات لم تطل فقد تنبه للأمر، فالسماعه مرفوعة والجرس لا يدق إلا وهي في مكانها.

ولم يكن الأمر في هذه المرة يحتاج لجهد أو تفكير، راح يدير القرص من جديد وقد دهمه الفرح بقوة أشد.. وما إن انتهى حتى وضع السماعه في مكانها بسرعة، وانتظر...

ولم يدق الجرس..

في صباح اليوم التالي كان وجهه شديد البياض، وعيناه حمراوين حتى إن أحدهم سأله - على غير العادة - إن كان مريضاً.. وقد أيقنوا جميعاً منذ اللحظة الأولى أن شيئاً هائلاً قد حدث في حياته، فهو يقدم على تصرفات غريبة وغير مفهومة... إنه - مثلاً - كان ينهض بين الحين والحين، ويجلس إلى التليفون... ويدير رقماً، ويضع السماعة على أذنه، ثم ينصت في شغف شديد، ويقول: ألو... ويعيد بعدها السماعة إلى مكانها... دون كلمة واحدة!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سينما

كان الاهتمام الشديد باديًا في عيونهما الصغيرة اللامعة. وأقدامهما الحافية كانت تتواكب فوق أرض الطريق في سرعة ومرح.. وبينما أخذ أحدهما يُصغي لزميله في شغف شديد انحنى الآخر بغتة والنقط عقبًا دسه في الصندوق الذي يحمله.. بينما تهدل شعره الأصفر الغزير المترب فوق جبهته العريضة وعلى حاجبيه، فرغ كفاً تحمل أصابع دقيقة نحيلة، أظافرها تتخللها الأوساخ، وإن بدت رغم هذا جميلة. وحجل الأول على ساق واحدة في نشوة وقفز قفزات سريعة مرحة.. ثم استدار وأطلق صيحة، وما لبث أن سدّد سبابته النحيلة إلى صدر صديقه، وصرخ في مرح «ارفع ايديك»..

وابتسم صديقه وهو ينقض عليه ويكيل له لكمات في الهواء وانطلق الصديقان يضحكان ويتعابثان، وهواء الليل يداعب أطراف جلبابيهما فيتطايران عن سيقان رفيعة سوداء، وعادا يسيران متجاورين.. وكان باديًا أنهما في غاية السرور.

رفع طاهر ذراعه العارية ووضعها على كتف عباس، وتدلّى جلبابه الممزق إلى جوار جسده، وهو يلصق رأسه برأس صديقه قائلاً في غبطة: «بقى السيمة حاتفتح بكره.. والله زمان يا طاهر..» وضحك طاهر وهو يشير إلى بعيد حيث كانت أضواء السينما تضوي في الظلام حمراء وخضراء وصفراء.. تنطفئ وتعود لتضيء ثم تنطفئ من جديد واللافتات الكبيرة والرسوم الملونة أخذت تزغل عيونهما اللامعة من بعيد، وقال طاهر وهو يغلق عينيه ويستنشق الهواء ملء صدره: «الصيف حلو يا جدع.. أنا محبش الشتا أبداً».

فقال عباس في اهتمام:

«والتذاكر يا طاهر؟».

«زي ماهيه».

«بنص فرنك؟».

«ونكله».

وصفق عباس بيديه وهو يعود للحجل من جديد في طرب قائلاً: «يا حلاوة النبي يا جدعان».

وكانا ساعتها قد أصبحا أمام دار السينما في الناحية المقابلة.. فاندفعا في سرعة يجتازان الطريق الذي يفصلهما عن الأنوار الباهرة والأضواء التي كانت تجذب قلبيهما الصغيرين.. والتصق جسداهما بالباب الحديدي الضخم، وتشبثت أصابعهما بقضبانه الرفيعة المتشابكة وعيونهما تلمع وتنظر إلى الصور المعقدة في سرور ونشوة.

ومال عباس برأسه إلى الخلف، وأخذ يردد وجسده يتطوح في الهواء بينما يدها متشبثتان بقضبان الباب المغلق:

«بكره الافتتاح العظيم، ثلاثة أفلام هائلة في بروجرام واحد».

وكان واضحًا أنه لا يقرأ شيئًا، وابتسم طاهر ساعتها وهو ينفذ بيده من خلال قضبان الباب ويشير إلى الصور المعلقة على الجدار اللامع في الداخل ثم يقول: «ميت فل، ده بكره الفيلم بتاع آه يا ظالم».

وبان السرور على وجه عباس وهو يعود إلى وضعه الأول ويقول: «أنا ما شفتوش».

«أما حتة فيلم يا بني!!».

«حلو؟».

«أنا دخلته أربع مرات السنة اللي فاتت».

«حلو؟!».

«لوز».

وبحلق عباس بعينه الزرقاوين في إحدى الصور المعلقة، وانفجرت شفتاه عن أسنان دقيقة صغيرة وهو يصيح:

«الله.. ده الوله بتاع ظلمتوني ياهوه».

«ده باس في الفيلم بوس يا ويكا».

«أحكي يا أبو الطهر أحكي والنبي..».

«شاييف الصورة دي.. ساعتها كانوا بيتخانقوا».

صفق عباس في غبطة شديدة وهو يقول:

«هو فيه عراق كمان؟ ميت نجف».

«لا يا وله، ده عراق نواعمي، أصل هو كان أبوه باشا».

«وهي؟!».

«أبوها.. أبوها غني قوي.. وكان هو ساكن في حتة دين سراية لوحده، وكانت بتروح له هناك.. وكان فيه واحد تاني بيحبها، فعمل فيهم مغرز».

«وبعدين؟!».

«راح سراية أبوها..».

«أبوها كمان عنده سراية؟».

«أمال.. سراية أبهة، كان يا سيدي فيها عفش ييجي.. ييجي.. ييجي بمليون بدشيليون جنيه.. وعنده يمكن... يمكن عشرين... قول تلاتين خدام.. وكل خدام بياخد في الشهر قول.. قول ميت جنيه..».

«وكان فيه أكل في السراية؟».

«وكان ليها أخ بايظ ابن حرام..».

«كان مرافق اربع نسوان..».

«وعنده سراية؟».

«أمال!...».

«وكان فيها أكل؟».

«وكل واحدة من النسوان كان مأجر لها سراية».

«وكان فيها أكل؟».

انفلت طاهر يجري إلى الشارع وقد لمحت عيناه عقبًا متوهجًا يطير من إحدى السيارات يتدحرج فوق أرض الطريق وسرعان ما أطبقت شفثاه الرقيقتان على العقب. وجذب نفسًا عميقًا ثم قدمه إلى عباس وهو يسعل قائلاً:

«كرافن».

وقال عباس وهو يلتقط العقب ويدسه في نهم بين شفثيه.

«قول بأه يا بو الطهر وبعدين..؟ كان فيه أكل في السرايات؟».

«كانت كل سراية فيها بيحي عشرين.. قول ثلاثين.. لا.. خمسين أوضة، وكل أوضة فيها أربع...».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوقت متأخر دائماً

- 1 -

كان لا بد للحصانين بعد أن انحدرا في النفق أن يصعداه مرة أخرى إلى الشارع المضيء.. وكان الصعود رغم صعوبته دائماً ما يصيب الرجلين والحصانين بنوبة مرح ونشاط.. وعندما انتهى نصف النفق المنحدر أخذ الحصانان يستعدان للصعود، فضربا الأرض بحوافرهما، وصهل أحدهما، وشرع الآخر رأسه، وبدأت الرحلة عندما وقف الرجلان خلفهما وأطلق كل منهما صيحته..

على الفور فعلت الصيحات فعلها.. فقد نفرت عضلات الحصانين واندفعت حوافرهما تضرب بلاط النفق في قوة فجرت منه الشرر، وامتلاً قلب النفق برجع الصدى في سكون الفجر هذا، واختلطت ضربات الحوافر بالصيحات المرحية بفرقة السياط.. وعندما أطل ضوء الشارع بدت الأرض مبتلة بندى الصباح البارد، ولم يكن شعاع الشمس قد طرق حافة الأفق بعد، والعربتان آتيتان من حقل واحد ذاهبتان إلى سوق واحد.. وما زال الوقت متسعاً.. ورغم هذا فلم يكف الحصانان عن العُدو عندما وصلا إلى الطريق، وبدت عضلاتهما في ضوء المصابيح متناسقة قوية.. وانتظمت ضربات الحوافر على الأرض في إيقاع كانت تصاحبه الصيحات المرحية.. وظل الرجلان واقفين وكل منهما يشرع في الهواء سوطه، ويبدد السكون بصوته وقد غمر الجميع سرور كبير..

- 2 -

كان الشارع ينساب حتى يصب في بحيرة النور عند الميدان الصغير، ثم ينثني إلى اليسار لينطلق بين صفيين من الأشجار حتى مَدَى البصر.. وعندما وصلت العربتان إلى الميدان كانت سرعتاهما في ازدياد.. وكان قلب النفق من خلفهما يستقبل سيارتين فارهتين كانتا تتحدران خلف بعضهما في انسياب هادئ.. غير أنهما أصبحتا متوازيتين عندما انتهى النصف المنحدر وبدأ طريق النفق الصاعد.. ومن خلال نوافذ السيارتين المفتوحة انبعثت الضحكات شديدة المرح، وأطل أحد الركاب واقترح الذهاب إلى مكان آخر ليكمل الجميع فيه ليلتهم، ودوت على الفور صيحات المرح هنا وهناك، وظلت السيارتان متوازيتين وهما تزاران في طريق الصعود، وكل سائق يبذل مع السيارة جهده فيزداد الزئير.. وعندما ظهر نور الشارع فجأة لم تخفف السيارتان من سرعتيهما، وازدادت الضحكات صخباً، واندفعت السيارتان نحو الميدان في لمح البصر، وبدأتا الدوران مع الشارع والسرعة تزيد لحظة بعد لحظة.. وبدت عربتا الخضار في قلب الشارع غير بعيدتين، وعندما انتهت دورة السيارتين حول الميدان، كان أول وفد من أشعة الشمس حافة الأفق.. فانطفت الأنوار، وعم الظلام..

- 3 -

انبعث من السيارتين ضوء باهر بدا كنفق يخترق جبل الظلام، وازداد تصايح الركاب وصخبهم وهم يرقبون عربتي الخضار المنفعتين في سباق متكافئ تماماً، وصنعت الصيحات مع زئير السيارتين لحنًا شديد الصخب، وكان الضوء يغمر عربتي الخضار وينفذ إلى الطريق أمامهما فيزداد اندفاع الحصانين.. كانت إحدى العربيتين تسبق الأخرى.. وكلا الحصانين قد شرع رأسه في الهواء وتطاير الشعر فوق عنقه لامعًا، وصيحات الرجلين تطاردهما بلا توقف.. والتصقت مقدمتا السيارتين بمؤخرتي العربيتين، وامتلاً الصبح بضجيج الأبواق وأصوات الرجال الذين أطلوا من النوافذ وراحوا يمطرون السائقين بالصرخات، وبدأت المسافة بين العربيتين تزداد اتساعًا، وازداد عدو الحصان المتأخر فاشتد صياح السائق المتقدم، واندفعت السيارتان معًا نحو المنطقة الخالية وكادت أن تصطدما لولا صُراخ العجلات وهي تتشبث بالأرض، وجفل الحصان المتقدم فصهل واندفع إلى الأمام فجأة.. وتمايل الخضار فوق العربة عندما اندفعت إحدى السيارتين لتنفذ من بين العربيتين. واستدارت السيارة الأخرى لتصعد الرصيف بسرعة ثم تمايل إلى اليسار بعنف لتتهبط إلى الطريق وتستقبل ضوء السيارة الأخرى في مقدمتها تمامًا.. ودوى في الظلام صوت الصدام، واندلع لهب شديد الاحمرار، وقفز الحصان الأول إلى أعلى، وجذب الرجل الثاني لجام حصانه فانزلقت حوافره على الأرض ثم تسمرت فوقها.. وساد بعد ذلك سكون عميق، كانت تقطعه بين الحين والحين صيحات الألم!!

- 4 -

عندما تحركت العربتان بعد ذلك كانت الشمس قد أشرقت منذ زمن، وكان الطريق أمامهما مسدودًا بالحطام والدماء. فكان عليهما أن يعودا حتى الميدان لينتظيا نحو طريق آخر.. ورغم أن الوقت كان متأخرًا، ورغم أن السوق فتح أبوابه منذ ساعات، فإن العربيتين كانتا تزحفان من جانب الطريق في ببطء.. عربة خلف الأخرى.. وكل رجل علق اللجام بيده وأطرق صامتًا.. وراح الحصانان يضربان الأرض بحوافرهما في نغم حزين.. وأحمال الخضار تتمايل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مغامرة صغير

ضح المكان بالصراخ من كل جانب، وزحفت عجلات عربة مسرعة فوق أرض الطريق في صوت حاد مفزع، وانطلقت أبواق سيارات كثيرة تملأ المكان بالضجيج وكأنها تقول: «حاسب..!»

وانفلت الصبي من أمام العربة مندفعًا غير مبال، وقفز بقدميه الصغيرتين الحافيتين قفزة سريعة، وتوقفت عجلات أخرى مسرعة، وأطلقت صراخًا حادًا ثاقبًا وازداد الذعر فجأة، وجحظت العيون وهي ترقب الجسد الصغير وهو يتدحرج فوق الأرض اللامعة كبلية ضئيلة قذرة، بين جبال لامعة مضيئة، وعجلات سوداء مستديرة ربطت فوق الأرض بلا حراك، أو أخذت تدور في ببطء شديد.. كان الصبي في ذلك الوقت قد توقف لبرهة، ثم قفز إلى الورا قفزة سريعة، ومرقت سيارة من أمامه.. فانتنى مسرعًا ودار حول نفسه مبتعدًا عن طريقها، وتعلق طرف جلبابه بمؤخرة السيارة، فتمزق وامتدت يده الصغيرة السوداء تطوي طرف الجلباب حول ساقيه النحيلتين وهما تعدوان مسرعين.. وكل شيء كان قد تسمر، عربة وراء عربة، وتوقف طابور طويل من العربات.. وفتح سائق باب عربته وهبط منها مغيظًا محنقًا وهو يسب ويلعن.. ثم هبط آخر، وثالث.. و.. وازدادت الضجة، وأسرعت أقدام كثيرة تهبط الرصيف، وتلاقت كفوف بكفوف، وانفجرت شفاه والتقت لاعنة ساخطة.. وتوقف ناس كثيرون، وأتى آخرون من بعيد، وانصبت كل العيون فوق الجسد الصغير الذي كان يزحف مسرعًا بين العربات كدودة صغيرة، وأسرع رجل وراء الصبي مهددًا، وأسرع الصبي يدور بين العربات.. ارتفعت يد وهوت تجاه صدغه في غل، وأمال هو رأسه فأفلتت اليد، وقفز من تحتها مسرعًا، واندفع نحو منتصف الطريق، وصرخت عجلات أخرى مسرعة، وتوقفت تمامًا عن السير.. وسب الرجل للصبي أباه، فارتفعت رأس الصبي بغتة إلى أعلى، والتقت عيناه المرحتان بعيني الرجل الغاضبتين، وافتر فمه عن ابتسامه، وسب للرجل جدوده غير مبال، فاندفع هذا نحوه مغيظًا، وتجمع الرجال حوله من كل جانب، فدار حول نفسه، وانتنى يخترق الفضاء الصغير بين عربتين لامعتين، وتحسست كفه سطح إحدى السيارتين، فتوقف برهة مسرورًا بنعومتها ولمعائها، ولمح خياله على سطحها، وارتفعت عيناه فلمحتا وجهًا أكثر نعومة كان جالسًا داخل العربة وقد بانث في عينييه الخضراوين دهشة غريبة، فابتسم ورفع كفاً صغيرة دقيقة ذات أطافر سوداء إلى رأسه في تحية سريعة، ولم يسع الوجه الناعم إلا أن يفتر عن ابتسامه رضي عنها الصغير وخفق لها قلبه فرحًا.

واندفع نحوه في تلك اللحظة عملاق هائل الجثة، وقد فرد ذراعيه الحائلتين يسد بهما الطريق عليه.. فتسمرت قدماه فوق الأرض الملتهية، وتحرك العملاق إلى الأمام.. فمال هو إلى اليمين، ومال العملاق إلى اليمين بسرعة، وسرعان ما اندفع الصبي نحو اليسار وانفلت كالريح.. وضج المكان بالضحك.. فازداد سروره، وازدادت ابتسامته اتساعًا.

كان واضحًا أنه يبحث عن شيء.. ذلك أنه كان دائمًا يلقي بنظراته إلى الأرض، ويتحسس بهما الأماكن، ولكنه لم يتوقف، وكان الهجوم قد ازداد عليه وتطوع أكثر

من واحد للإمساك به، والضجة تصم الأذان، والضحكات والتعليقات تترى من هنا وهناك.. وكان واضحاً أنه وجد في الجمع بعض المؤيدين والمشجعين.. وصرخ جندي ظهر فجأة في المكان كأن الأرض انشقت ولفظته، وأصبح المنظر أكثر إغراء وأكثر جاذبية.. وهو سادر في زوغانه السريع، يجري من بين ساقين، ويزوغ من كف هائلة تسقط فوق جدار عربة فتحدث دويًا شديدًا.. ويصرخ صاحب اليد، ويصرخ صاحب العربة فيه، ويكاد الرجلان يتماسكان لولا أن المنظر أصبح أشد إغراءً عن ذي قبل.. فالصبي لا يتجه إلى خارج الحلقة، بل هو يندفع إلى الوسط، ويحوم حول العربة الأولى التي كان صاحبها يطلق نفير عربته ليوسع له الناس طريقاً دون جدوى.. وانهاال السباب من كل فم، وازدادت ابتسامة الصغير ولمعت أسنانه الصغيرة البيضاء، وقالت سيدة كانت تطل من شباك عربة «واد عفريت.. يا حرام!».. وقال رجل كان مستنداً إلى عجلة صدئة «دا ابن حرام.. هو حاسس». وما لبث الطفل أن صعد فجأة فوق سطح سيارة.. وانطلقت الضحكات والشتائم في وقت واحد.. وجسده كان يدور في سرعة فوق السطح ثم يهوي بحذق نحو الأرض.. وانكمش تماماً.. وامتدت أصابعه الدقيقة وهبشت سيجارة كانت مقدمتها مشتعلة.. وما لبث جسده أن انفرد بغثة كما انكمش بغثة.. وانفلت يجري بكل قواه.. يداعب هذا، ويسب ذلك، ولا يكف عن الابتسام..

ثم قفز قفزة.. وأصبح في جانب الطريق.. وأطلق ساقيه للريح.. سرعان ما تحركت العربة الأولى، وتلتها عربة أخرى، وعلت الضجة من جديد - ضجة الرحيل - والناس مجتمعون وهم يرقبون جسده من بعيد، كان صغير الوجه، دقيق التقاطيع، عيناه زرقاوان برافتان، وشعره أصفر ناعم، تهدلت خصلة منه فوق جبينه العريض اللامع، ويتوسط وجهه أنف دقيق جميل، ينتهي بشفتين صغيرتين تفتران دائماً عن ابتسامة عريضة.. وبين الشفتين، كان قد دس السيجارة التي التقطها منذ برهة.. وأخذ ينفث دخانها في تلذذ شديد، وبين الفينة والأخرى كان يستدير برأسه إلى الوراء، ويلمح بقايا المتجمعين، فتزداد ابتسامته، ويجذب نفساً شديداً يدفع به إلى رثنيه الصغيرتين ثم ينفثه في الهواء.. وصوت الجندي يصل إليه مهدداً إياه.. ويعاود هو سيره في اطمئنان.. اطمئنان شديد.

حادث على الطريق

على غير العادة، كان الأتوبيس خالياً، لم يكن هناك سوى السائق والمحصل وراكبين.. كانت شوارع المدينة مزدحمة بالخلق، ورغم هذا فلم يركب الأتوبيس أحد. وكان المحصل سعيداً كل السعادة لهذه الظاهرة التي اختفت في الأيام الأخيرة، فراح يتندر مع السائق بصوت عال عن الركاب وتزاحمهم، وعن الخلق الذين يتكاثرون كالأرانب، وعن البعض الذين يشمون بأنوفهم وكأنهم ليسوا بشراً مثل خلق الله، هؤلاء الذين يقولون كلاماً غريباً مضحكاً، ويرتدون قمصاناً بيضاء، وأربطة عنق يصل ثمن الواحدة منها إلى أجر شهر كامل، ويسبسون شعورهم ذات اليمين وذات اليسار ويظنون أن الكلام الذي ذكروه في المدارس يجعلهم أهم من غيرهم من عباد الله الذين يشقون من الصباح حتى المساء، من أجل لقمة العيش.

وتحمس لهذا الكلام أحد الراكبين وكان يرتدي بذلة أنيقة، وقيصاً حريراً أبيض، ورباط عنق يلمع تحت ضوء الشمس المتسلل من نافذة السيارة، ويبدو عليه أنه قرأ كثيراً حتى ضعف بصره، فقد كان يضع على عينيه نظارة سميكة..

تحمس الأفندي لهذا الكلام فدق إصبعه في منتصف نظارته، وجاء صوته رفيعاً كخيوط حريري، وراح بدوره يسب هؤلاء المتغطرسين الذين لا يفهمون معنى الحياة، ويؤكد أن الناس إخوة، وأن كل فرد في المجتمع عليه أن يؤدي واجبه كما يجب، بصرف النظر عن درجة «محصل» وموظف درجة خامسة في وظيفة تعتبر من أخطر الوظائف العلمية في وزارة الاقتصاد، بصرف النظر عما إذا كان هذا المحصل لا يعرف سوى القراءة والكتابة، وبصرف النظر أيضاً عن الدرجة العلمية البالغة الخطورة التي حصل عليها هذا الأفندي، والتي تعتبر فتحاً علمياً في تاريخ الاقتصاد الوطني، وتعتبر عكازاً علمياً يستند إليه المجتمع، وأسلوباً علمياً جديداً سوف يرفع من شأن الناس في كل الأقطار، بصرف النظر.. بصرف النظر..

وساد الصمت لثوان، وتبادل المحصل والسائق نظرات دهشة، ومر الأتوبيس بإحدى المحطات، وأشار راكب للسائق أن يقف عليها غير أن هذا - لسبب لا يعلمه أحد - لم يقف بل ضغط بقدمه على مفتاح البنزين فازدادت سرعة السيارة.. وتتحنح الراكب الثاني.

وكان الراكب الثاني يجلس في المقعد المقابل للأفندي، وكان على عكسه تماماً ضخم الجثة، غليظ الصوت، منفوش الشارب، لا يرتدي بذلة، وإنما يرتدي جبة وقفطاناً منتقاً من ناحية الشمال، ويكاد انتفاخ القفطان هذا أن يصرخ: أنا بنكنوت!

ولم يكن للصمت معنى ورغم هذا فقد ساد السيارة!

وكان المحصل يبدو قلقاً عصبياً فصاح أنه يريد أن يذهب ليخلص الشاب حتى ولو ذبحه الشرطيان، ولولا أنه في ساعات عمله لفعّلها.

فتمتم الأفندي وهو يداعب رباط عنقه بيد رقيقة إنه هو الآخر على موعد عاجل، وأن هذا الذي يحدث ليس سوى بربرية، وأسلوب همجي وبقايا استعمار، بعض الناس يخافون من السلطة، وأن الأسلوب العلمي كفيل - ذات يوم - بالقضاء على هذه الظاهرة.

ضحك المعلم بصوت عالٍ.. المسألة ليست بهذا التعقيد، إن بضعة قروش كفيلة بأن يتحول هذان الشرطيان إلى تابعين للمرء... الشاب يحتضن الراديو في خوف وهلع، والأغنية في حضنه وبين ذراعيه تنتهي، والمذيع ينادي الجماهير الملتمة من حوله، والصفعات لا تزال تدمي الوجه، ولا بد أن تكون المسألة برمتها قروضًا يأخذها الشرطي في السر، فتحل المشكلة.

وانتاب الأربعة غيظ شديد، وانطلقت كلماتهم تتشابك وتتبارى وراحوا جميعًا يتحدثون في حماس.. الغضب يحتدم، يحتدم، يحتدم، للأمر من وجهة نظر كل منهم حل، حل هو الوحيد، هو الفعال هو الكفيل بوقف كل إنسان عند حده، ووضع الشرطي في مكانه، ولا بد للسيارة أن تتحرك، فالسائق مرتبط بموعد، والمعلم على موعد للقاء عاجل، والأفندي مرتبط.. وعندما بدأت السيارة تتحرك، لمحها أحد الشرطيين فجأة، فترك الشاب، وجرى نحوها، وضغط السائق على الفرامل فهدأت سرعتها، وقفز الشرطي إلى السيارة، وعم الصمت تمامًا.

وقال المعلم بصوت أجش إن المسألة في الأصل هي الأصل، وما دام أصل الإنسان عريقًا فالرجل منا لا يعيبه سوى جيبه، هذه هي الحكاية.. وإذا كان الناس متساوين وأبناء شهور تسعة في بطون أمهاتهم، فالفرق بين الرجل والرجل ليس سوى قدرته على أن يكون رجلًا.. هذه هي الحكاية، هذه هي الحكاية فقط.

وكانت لهجة المعلم توحى بالإنذار، وإذا كان الأفندي بدا غيبًا لا يفهم ما يريد المعلم أن يقول بالضبط، فإن المحصل أيد الحديث الأجش بسعادة، وراح ينقل حقيبة النقود من ناحية إلى أخرى، ويعدل من وضع ربطة عنقه ويصيح بأن الله قد جعل بعضنا فوق بعض درجات، وأنه إذا كان محصلًا فإنه متعلم قطع شوطًا لا بأس به في التعليم، وإذا كانت المسألة مسألة أصل فكل الناس أولاد أصول، وأنه - شخصيًا - ابن رجل كاد يصبح ذات يوم وكيلاً للوزارة، وأن له شقيقًا في الدرجة الرابعة وربما كانت الثالثة في وظيفة خطيرة بوزارة عظيمة.. وأن الحكاية منبتها وأصلها وجذرها هي الأخلاق فما فائدة المال إذا كان الإنسان مكروهاً؟ وما فائدة العلم إذا كان الإنسان غيبًا يتعالى على خلق الله بما أعطاه الله؟ هذا هو الأمر، هذا هو الأمر!

وصاح السائق في الكمساري وسرعة السيارة تزداد: إن الرجولة هي كل شيء في الإنسان، هي كل شيء، هي كل شيء.. وإذا كان الرجل رجلاً فلا يعيبه أحد، أما إذا كان جبانًا فهذا هو العيب الأكبر.. لا العلم ولا المال ولا الأخلاق، لا أبدًا.. الرجولة هي المحك، الرجولة هي التاج الذي يتوج هامات البشر، الرجولة هي كل شيء، ليس كذلك.. الرجولة هي كل شيء...

وسكت السائق وارتجت السيارة بمن فيها ارتجاجًا هائلًا، توقف فجأة وكان السائق يريد أن يثبت كلامه بالفعل.. توقف صارخًا من جديد وهو يشير إلى جمع من الناس يقفون عند ناصية زقاق، كانت الشمس تميل، ووجه الدنيا يبدو رماديًا متجهماً حزينًا، وصوت السائق يجلجل في السيارة، هذان شرطيان يضربان شابًا يحمل بين ذراعيه راديو، كان أحدهما يصفع الشاب فينتفاه الآخر بالصفع ليعود إلى الأول من جديد، هل هذه رجولة؟ - هكذا صاح السائق - ووالله لو حدث هذا معه لأكل الشرطيين أكلاً.. هنا، في مثل هذا الموقف.. ماذا يفعل العلم؟ هل يضرب الشرطيين؟ وماذا يفعل المال، أو حتى الأخلاق؟ وجه الشاب يدمي من الصفعات، وصوت الراديو يلعلع بأغنية!!

ولم يكن ممكناً للصمت أن يدوم، كان يبدو على الشرطي أنه غاضب فبدأ يتمتم بكلمات راحت تتناثر وكانت عيون الأربعة تائهة في الشارع الرمادي الهادئ الذي كانت السيارة تعبره، وكانت تمتمة الشرطي تتحول إلى زمجرة، كانت تطالبهم بالرد على الحكاية التي راح يحكيها، حكاية الشاب المضروب، الدامي الوجه، وكان واضحاً أن أحدهم لم يسمع الحكاية، فقد كان صوت الشرطي يتناثر مع تيار الهواء المندفَع من الباب المفتوح، وما إذا كان هذا الشاب مخطئاً، ولا بد أنه مخطئ.. أليس كذلك؟.. أليس كذلك؟!

وقال المحصل فجأة - وفي حماس - : إن الشرطي على حق، وإن الشاب مخطئ، وأنه يستحق ما ناله.. قالها وعيناه تسبحان في سقف السيارة، وقال الشرطي وهو يدق عينيه في عيني المعلم: أليس معه حق فيما فعل؟ ألا يستحق الشاب ما أصابه؟

وقال المعلم: إن المسألة مسألة أخلاق، وإن عديم الأخلاق لا بد أن يعاقب!
وقال الأفندي: إن على السلطة أن تمارس حقها، وإن على الإنسان أن يحترم القانون، وإن الخروج على القانون ليس سوى بربرية يجب أن تجابه بالقوة..
وقال السائق: إن المسألة مسألة أصول ولو أن أهل هذا الشاب كانوا أولاد أصل لما فعل ما فعل، وإن الحكاية حكاية تربية..

وعاد المحصل يقول: إن العلم هو المهم، ولو أن مثل هذا الشاب تعلم كما يجب لعرف أن الله حق.. وأن.. وأن.. وأن..

وعاد الصمت يسود السيارة من جديد.. كان الشرطي قد قفز منها فجأة في أحد المنحيات، والتقت عينا المحصل بالأفندي، فهربت عينا الأفندي إلى النافذة، واستدارت عينا المحصل نحو المعلم الذي كان يجمع جيبته وقفطانه وعيناه على الأرض، وصاح المحصل في السائق إن الوقت تأخر، وإن عليه أن يسرع..
فأجابته زمجرة السيارة، غير أن أحدهم لم ينطق بعدها بكلمة.. وكانت سرعة الأتوبيس تلهب خوف الناس في الطرقات.

المقامرون

كان المكان كأنه مولد كبير لأحد الأولياء.. بائعو الكبد والطحال. الطعمية.. الطرشي.. البرتقال واليوسفي.. وأناس كثيرون.. متباينون ومختلفون.. ولكنهم جميعاً كانوا كمن أصيبوا بحمى غريبة.. يتناقشون ويتحمسون.. يصرخون ويهمسون.. كلهم كانوا يقفون في الشارع في حلقات متفرقة.. ولكنها كانت تذوب تدريجياً في طابور طويل.. يختفي كالثعبان في فرجة الباب المفتوح نصف فتحة كالساقين إلى قدر محتوم..

ولم أكن قد شاهدت سباقاً للخيل من قبل.. ودفعني حب الاستطلاع لأن أدخل.. ولم يطل ترددي.. وأصبحت نقطة في خط الطابور الطويل.. وابتلعتني بعد لحظات، الباب المفتوح نصف فتحة.

ولم يكن المنظر في الداخل أقل غرابة منه في الخارج.. والأصوات تنتشر في الجو فتحدث نغماً منسجماً.. لست أدري من أين أتى انسجامه هذا.. كان كالموسيقى الصاخبة التي تهدف إلى إحساس معين.. موسيقى خلقتها روح فنان مبدع.. أراد أن يفودنا نحو القلق والأمل.. والخيبة والعذاب..

وصعدت السلم إلى المدرج الكبير.. وتركت ورائي الأوراق والناس.. ومرجان.. وستهم.. وشيخ العرب.. وأسماء كثيرة لجياد لا أدري عنها شيئاً.. واخترت ركناً بعيداً.. عن الناس.. واشتد الزحام فجأة مع حماس وغمغمة.. ومررت جياد صفق لها البعض.. وبحلق فيها البعض الآخر.. ولكن عيون الجميع كانت تنطلق بالرجاء.. والأمل..

وبجانبي كان رجل أبيض الشعر.. وجهه جامد لا ينم عن شيء.. في فمه سيجارة كادت تحرق شفثيه.. وكان مكباً على جريدة بين يديه.. وقد أمسك قلمًا وبجانبه كان يضع طفلاً صغيراً يلبس سرواً قصيراً.. وقميصاً قديماً قذراً..

كان الطفل.. ينحني على أذن الرجل الذي كان واضحاً أنه أبوه.. ويهمس فيهز الرجل رأسه هزة خفيفة بلا مبالاة ويقول في صوت خافت «بعد الشوط ده..».

وتتهد الصبي وهو يسند رأسه إلى كفه الصغير..

وكان أحد الأجانب يجلس بجانب الطفل وهو في مناقشة حامية مع اثنين من أولاد البلد.. كان أحدهما يضع على عينيه نظارة سوداء.. وسيجارة في يده اليسرى بينما يده اليمنى تعبت في الجريدة بغير اهتمام.

وكان الأجنبي يتكلم عن أسماء.. وجياد ومكاسب وخسارة.. وحاولت أن أفهم شيئاً مما يقوله دون جدوى.

«إنتي لازم تسمعي كلامي.. دي محجوب واخذ حسان كويس كثير.. دي جاب ثلاثة جيني وأربعين قرش».

وتدخل الرجل ذو النظارة السوداء في ذلك الوقت.. وقال لزميله: «ما تسمعش كلام الرجال ده.. إنت مش صاحب مزاج..!».

ونفخ صاحبه صدره.. وجذب نفساً من سيجارته.. ولوى رقبته إلى اليمين، وقال:

«أه.. أمال..».

«خلاص.. العب على اللي تفهمه.. وبس..».

وجذب الطفل الصغير انتباهي في هذه اللحظة.. فقد كان ينحني على أبيه.. وهو يقول في رجاء.. وقد علا صوته.. وظهر الألم على قسماط وجهه التي انكشمت تعلن ضيق وتبرم صاحبها.
«عاوز سميطة يا بابا..».

ورفع الرجل رأسه من الجريدة التي كان منهمكاً فيها.. ونظر إلى ولده.. كأنه لا يراه.. ثم قال بصوت خفيض..
«بعد الشوط ده..».

وانكشمت الصبي في مكانه.. وخفض رأسه هذه المرة إلى الأرض.. كان صوت الرجل هادئاً حقاً.. ولكنه كان جاداً باتراً كالسيف..
ورحت أدور ببصري في المكان المزدهم.. وأنا أحس كأني في حلم غريب.. وفجأة.. نهض كل الناس مرة واحدة.. وسمعت صوت ناقوس حاد.. وأخذت الأصوات تتضخم وترتفع.. فنهض الرجل العجوز من مكانه ولكن الصبي لم ينهض.. وبقي تحت الأقدام يسند رأسه إلى كفه الصغير..
«يا لالا.. يا لالا يا مرجان.. هوب.. يا لالا يا شيخ العرب.. شد حيلك.. أيوه».

ولم أكن قد رأيت شيئاً بعد.. أين الجياد؟!.. واستدرت لأسأل جاري العجوز.. وكان الرجل صامتاً.. ووجهه ما زال جامداً ولكن عينيه كانتا مثبتتين على مكان ما وفي يده الجريدة ترتجف.. وبين شفثيه السيارة تهتز.. وامتصني منظره.. وأحسست كأني أريد أن أحتضنه وأخرج به بعيداً عن ذلك المكان وهذه الحياة.. ولكنه فجأة.. رفع قبضته.. وأخرج من فمه فحياً.. وكانت الجياد قد ظهرت واضحة قريبة.. شيء غريب جعلني أحبه.. وهو واقف يخرج ذلك الفحيح.. وعندما حادثنا الجياد.. كدت أنساه تماماً.. كان الصراخ قد علا واشتد والناس كأنهم في تشنج عجيب والجياد تجري بسرعة..

وانتهى الشوط.. ونظرت إلى جاري لأطمئن عليه.. كان جالساً بجوار ابنه.. وقد نطق وجهه هذه المرة بالخيبة والألم.

وجاء إليّ صراخ الرجل الأجنبي.. وهو يتكلم مع زميله وفي يده أوراق عديدة..
«شاييف اللعب.. دي اسمه فن.. تقول مزاج.. مزاج إيه.. دي فن.. روح بيتكم أحسن..».

وكان زميله ينظر إلى الأوراق في حسرة والناس بعضهم ينزل..
والبعض جالس في مكانه.. وآخرون يتناقشون والصراخ قد علا من جديد.. الوجوه المنفعلة المتألّمة.. والنظرات الحيرى المتعبة.. التي تنظر إلى لاشيء.. وتتبع في الهواء أشباحاً وأوهاماً.. ووجوه صفراء ممتعة.. وأخرى حمراء منفعلة..
والناس كانوا قد غابوا عن وعيهم في إغماء اسمه السباق.. والصبي جالس في مكانه يختلس النظر إلى أبيه بين الفينة والفينة.. دون أن يتكلم.

ونزل الرجل.. وعاد.. وما اختفت السيجارة من فمه.. ولا الجريدة من يده وجلس بجانب ابنه.. ولكن الحياة بدأت تدب في وجهه.. وعيناه شَعَّ منهما بريق عجيب.. ووجنتاه كانتا تحملان شعيرات بيضاء ثابتة أخذت تهتز.. ويده لا تكفان عن الارتجاف..

وعندما مرت الجياد في عرض قبل الشوطين.. ووقف وهو ينظر إليها ولمحت شبح ابتسامة يطوف بوجهه.. ثم عاد إلى الجلوس.. ولأول مرة نظر إلى ولده.. وربت على كتفه الصغير..

كنت سعيداً وأنا أنظر إلى هؤلاء الناس من بعيد.. وأكاد أضحك بصوت عالٍ لصراخهم ساعة جري الخيل.. إنهم بلهاء!!.. لم يصرخون ويهللون.. ألا تجري الخيل بدون هذه الهستيريا العنيفة التي تصيبهم؟

واستدار شيخ العرب في تلك اللحظة.. وقفز.. ثم انطلق يجري بسرعة.. وأحسست شيئاً يتحرك في أعماقي.. ماذا لو جربت حظي مرة واحدة؟!!

حقاً إن الأمر يبدأ دائماً بهذه الكلمة ولكنني لست مثلهم ولست في مثل جنونهم.. نعم.. يجب أن أبرهن لنفسي أنني أقوى من هذه السفاسف.. سألعب.. إنها تجربة.. ماذا في ذلك؟!.. وعندما وقفت أمام الرجل.. وفي يدي القروش العشرة.. اختطفها مني في سرعة وهو يقول:

«عاوز ايه..».

«إديني نمرة..».

كنت حائراً.. بين مرجان وشيخ العرب.. وقال في ضيق..

«هيه بسرعة من فضلك».

«نمرة أربعتاشر من فضلك..».

وأمسكت بالذاكرة الخضراء في يدي.. ومضيت إلى مكاني.. ودق الناكوس ووقفنا.. ومرت لحظات.. وظهرت الجياد مع ازدياد الصراخ.. ولمحت جاري في مكانه.. كانت السيجارة تهتز اهتزازاً شديداً بين شفثيه.. وقبضته تلوح في عنف.. واقتربت الجياد.. وعلا الصراخ يصم الأذان.. كان مرجان وشيخ العرب في المقدمة.. ومرجان يسبق شيخ العرب.. كان يجري كالريح لا يوقفه شيء.. عظيم.. ولكن شيخ العرب قفز قفزتين..

«يا للا يا مرجان.. شد حيلك.. يا مرجان.. يا للا..».

ونظرت إلى قبضتي وهي تهتز في الفضاء.. كنت أصرخ مثلهم مثل الجميع.. لم أكن أحسن منهم.. نفس الصرخات كانت تتدلع من حلقي.. وهزة عنيفة كانت تشملني.. وجمدت في مكاني لحظة.. وكانت الحقيقة قد ظهرت جلية.. كلنا سواء..

وأنزلت يدي.. ضحكت في سخرية.. ونظرت إلى الرجل العجوز كانت عيناه تبرقان.. ولكن بريقهما كان خافتاً حزيباً.. ونظر إلى الورقة الخضراء في يده.. وقال وهو يكور الورق الأخضر الذي كان يحمله ويلقي به إلى الأرض:

«ده شيخ العرب اللي كسب».

قلت وأنا أجد لنفسي طريقاً إلى السلم.

«مانا عارف..».

وما إن خطوت خطوة.. حتى سمعت الصبي يقول في رهبة وتردد «بابا.. أنا جعت خالص».

وعلا صوت الرجل لأول مرة وصرخ قائلاً:

«قلت لك بعد الشوط الجاي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصرع إنسان

على الرغم من أنه لم يشاهد السينما مرة واحدة في حياته.. فإن أحدًا لم يهوَ السينما مثله، ولم يحب إنسان السينما وقصص السينما قدر حبه لها.. بل إن الواحد لا يستطيع أن يتذكر قصة فيلم رآه في العام الماضي إلا بالكاد، أما هو، ورغم السنوات التي لا يعرف أحد عددها والتي أشعلت رأسه بالشيب، فقد كان يستطيع أن يقص عليك قصة مائة فيلم دون أن يغفل منها حادثة، أو كلمة حوار، أو حتى نغمًا موسيقيًا!

وهو لا يدري السبب الذي من أجله لم يفكر في شراء تذكرة وولوج ذلك الباب الذي يقود إلى عالم يحكون عنه الحكايات.. بل الواقع أنه لم يكن هناك سبب لذلك على الإطلاق.. كل ما هنالك أنه لم يشعر لا في شبابه، ولا في رجولته، بل حتى في شيخوخته وبعد أن أحب السينما أكثر من أي شيء في الوجود.. لم يشعر برغبة ولو عابرة في مشاهدة فيلم.

ورغم ذلك فقد هوى السينما.. في الشتاء، حيث تغلق الدور الصيفية، وتصبح السينما فقط داخل أماكن مغلقة.. كان يظل طوال تلك الشهور يترقب وينظر في لهفة وشغف.. ثم ما إن يهل الربيع، حتى تبدأ تلك الدور في العمل.. وتتطلق منها الأصوات إلى الخارج، فيسمعها الرائح والغادي ويرى الناس أشباحها المتحركة من أماكن معينة من الطريق، وقد يتوقفون بالساعات ليشاهدوها بلا تذاكر.. وفي تلك الأثناء، يبدأ هو جولاته بين الدور، لايفوته فيلم، ولا يترك عرضًا دون أن يستمتع به.. يقسم أيام الأسبوع بين الدور المتناثرة في الأحياء، ويستمتع كما لا يستمتع أحد، دون أن يدفع ثمن تذكرة، أو يقف مع الناس في الطريق، فنظره ضعيف لا يصل إلى هناك.

كانت البداية في أحد أيام الصيف، وكان قد انتهى من عمله والشمس لم تغرب بعد، ودبيب التعب يسري في أعضائه الواهنة المتهالكة، وهو يجر قدميه باحثًا عن مكان يستريح فيه.. وعلى شاطئ النيل وجد ناسًا كثيرين منتثرين كحبات الأرز.. أطفالًا وصبيانًا وبنات ورجالًا ونساء وباعة وصراخًا ونداءات وضجيجًا، وضيقًا يتسرب إلى نفسه فيدفعه عن الناس، فليس له بينهم أحد.

ولا يدري يومها ما الذي ألقى به بجوار ذلك السور المنخفض.. كان المكان خاليًا إلا من سيارات مرصوفة وأرض الرصيف ناعمة نظيفة، فألقى بنفسه وتكؤم.. أسند رأسه إلى ذراعيه، وأسند ذراعيه إلى ركبتيه.. وسرح، ولا يدري فيم كان سرحانه وهموم الدنيا ثقيلة، وهم عجوز مثله أثقل.. فلا زوجة له ولا ولد. حياته بدأت من نقطة بعيدة موعلة في البعد، وكان الظلام يحوطها، وكلما تقدمت السنوات اشتد حولها الظلام.. وعاش حياته بلا إرادة.. يبيع تارة ويشترى تارة، ويحمل الأثقال تارة، ويعمل بناء يومًا، وبائعًا يومًا، وخادمًا شهرًا، وحمالًا أيامًا.. ولا يفرق بين عمل وعمل ما دام يحصل منه على لقمة العيش.. وتمضي به الحياة فلا ذكريات ولا أحداث، ولا حتى ذاكرة تريد أن تحفظ شيئًا، بل هي تلفظ كل شيء وتتمدد في استرخاء غير عابئة.

كانت ثمة أصوات تصل إلى أذنيه، أصوات ناس يتكلمون، وموسيقى وغناء، وكان يعلم أنها السينما، فلم يلق لها بالاً.. فوراء السور حديقة.. ووسط الحديقة ذلك العالم

الذي لم تطأه قدماه ولم تره عيناه.. وغاص في لجة من الفضاء، سرح بفكره.. وجذبتة - دون أن يعي - الأصوات والموسيقى والأحداث.. ولما تنبه ذات لحظة.. ابتسم لنفسه، فلم يكن يفهم شيئاً، وإن كان يسمع حديثاً.. أشعل سيجارة.. وترك للحديث والكلام والموسيقى نفسه.. فامتصها تماماً.. وثمة نسمة رطبة هبت على المكان.. فمدد ساقيه في استرخاء لذيد.. وسرح.

وعندما أضيئت الأنوار في الداخل، أطلت عليه من فوق السور فغمرتة، وأفاق لنفسه.. وضحك.. وانتابته راحة من نوع غريب، وتناوبت ذاكرته وتمطت.. ثم أخذت تجتر ما وعته دون أن تلفظه، وتربط بين الأحداث، وتسترجع الحديث، وتستعيد الأغاني والمعاني.

وأحس بشيء يملأ حياته..

فعاد في اليوم التالي.. عاد وكأنه مقدم على مغامرة، كأن شعوراً غامضاً قد بدأ ينمو طيلة اليوم في نفسه، وذاكرته التي نشطت فجأة وعلى غير انتظار، أخذت تغذي خياله بشيء لا يعرفه.. بل بعالم غريب كان يذيب روحه.

وفي المساء وجد نفسه يجلس في نفس المكان.. ووجد نفسه يستمع، وينصت، وأحس أنه يفهم الحديث، بل أحس أنه يفهم تلك النغمات الصاخبة حيناً، الهادئة حيناً آخر، كانت وكأنها تلقي إليه بحديث مسحور.

واستجابت نفسه لكل شيء، وجد نفسه يضحك مرة، ويسخسخ مرة، ويبيكي مرة، ويغضب، ويثور، ويفعل، ويتخذ أصدقاء، وأعداء ويحب، ويكره، ولا يغادر مكانه بجوار السور..

كان العجوز قد اكتشف السينما.. وكان اكتشافاً عظيماً.

ذلك أنه يوماً بعد يوم، وأسبوعاً وراء أسبوع، وشهراً ثم آخر.. كان قد أدمن اكتشافه الجديد، وكان قد قسم دور العرض التي يعرفها كلها، ثم أخذ يجرب وينتقي..

وأصبح فجأة صاحب مزاج وذوق.. وأصبحت السينما كل حياته.. فقد فتحت له أبواب عالم مسحور.

ثم كانت ليلة...

كان يومها قد اختار وانتقى، وقرر أن يعيش مع قصة عاشها قبل ذلك مرات عديدة، عاشها بكل ذرة في نفسه، ولا يدري لماذا، وأحبها وأحب بطلها بكل جوارحه، ولا يدري لماذا...

وليلتها كان عليه أن يختار بين دارين تعرضان نفس الفيلم.. كانت إحداهما على ناحية من النيل، والأخرى على الناحية المقابلة.. ولكن تردده لم يطل، فلقد أمدته خبرته بما يكفي شر التردد.. وقرر الذهاب إلى إحداهما..

ذهب بعد أن اشترى عشاءه وسجائره.. واختار مكانه، وجلس، وأسند ظهره إلى السور، وتعشى، ثم أسند رأسه إلى السور، ودخن سيجارة، وغربت الشمس، وأضيئت الأنوار، وعزفت الموسيقى.. كان في نشوة، وكان في ترقب لذيد.. وكانت ذاكرته تفرز محتوياتها. وتقص عليه القصة بحذافيرها قصة المجرم الذي كرهه جميع الناس إلا هو.. فلقد أحس أنه يحبه، فأحبه بكل جوارحه.. أحبه رغم أنه كان يسرق ويقتل ويضرب ولا يخاف أحداً.. كان قاسياً شريراً عربيداً.. يشرب الخمر

ويختطف النساء ويسلب الرجال أموالهم ويقتل بلا رحمة.. في أعماقه إنه بريء.. ليس له ذنب في كل ما كان يحدث ويخفق قلبه عندما يسمع صوته، وعندما يسمع حديثه مع أمه التي كانت تتوسل إليه أن يكف، ولكنه يترك لها مالا ويقبل يدها.. ولا يكف.. ثم.. ثم..

ثم غمر الدنيا ظلام كثيف أيقظ العجوز.. كان الفيلم قد بدأ وكان هو يعيش أحداثه عندما حدث خلل وانقطع التيار الكهربائي عن الحي.. وتوقف العرض.

ومضت دقيقة.. ودقيقتان. وتسرب إلى نفسه شعور غريب، فراغ رهيب، شيء كالعطش، كالجوع، شيء ينقصه، القصة.. باقي القصة الوقت بطيء.. وصدوره يضيق. ولا يستطيع أن يصبر حتى يعود التيار من جديد.. إنها هناك، في الدار الأخرى، تجري أحداثها بلا توقف.. ووجد نفسه منطلقاً نحو الدار الأخرى.. عبر الكوبري مسرعاً.. لا بد أن يلحق النهاية، فالأحداث تفرزها ذاكرته وتصبها في مخيلته فتتجسد وتعيش ولا تتوقف.

سيحاصره البوليس، وسيطلق عليه النار، وسيجد نفسه محاطاً بفوهات تصب عليه الموت من كل ناحية.. ولكنه سيدافع عن نفسه، ويظل يقاوم رغم رجاله الذين هربوا والذين سلموا أنفسهم للبوليس والذين سقطوا صرعى.. ورغم توصلات أمه التي جاءوا له بها كي يسلم نفسه، أبداً لن يسلم نفسه، انتهى الكوبري.. فانتفى العجوز إلى اليسار.. لن يسلم رغم بكاء أمه، ورغم بكائه هو، وعندما يصرخ المجرم في أمه أن تعود إلى البيت، وأنه ترك لها من المال ما يكفيها الفقر الذي ذاقته طوال حياتها.. يزداد بكاء الأم.. وبكاء العجوز.. وتتوسل للرجال أن يتركوه.. ويتوسل العجوز، وتتداخل المرئيات أمام عينيه.. وتضيق الشوارع وتترقق خلف دموعه..

العجوز يطوي الطريق ويترنح في سيره.. شارعاً وراء شارع، وحارة تتفرع منها حارة، ثم تصب في شارع طويل لامع، وفي نهايته كانت أضواء الدار تضوي. فيسرع ويعدو، ويشرع في عدوه.. فهو الآن يطلق النار على الشباك والضابط يأمر الرجال أن يدوروا من خلف البيت.. والموسيقى الصاخبة التي كانت تهز أعماقه فتستجيب أعماقه بكليتها تصل الآن أصداؤها إلى أذنيه فيخفق قلبه خفقاناً شديداً.. الدار تقترب وتقترب، وتزغل أضواؤها عينيه، وأصبح عليه أن يعبر الطريق.. فقط يعبر الطريق. والأصوات واضحة، فهو يتسلق الماسورة ويهبط إلى شارع، ويقفز، ويجري، يجري بكل قواه، ولا يستطيعون اللحاق به ولكن تدهسه سيارة مسرعة هوجاء. سائقها لا بد أعمى.. لولا هذا السائق اللعين الذي يندفع بلا وعي.. ويندفع العجوز ليعبر الطريق ورأسه مشحون بالأحداث، وتحثك عجلات السيارة بالأرض في صراخ حاد مفزع.. ثم تصدمه وتطويه تحت عجلاتها في قوة، ويصرخ الناس، ولكن، لماذا يصرخ الناس في الشارع هكذا، ولماذا يشتد الصراخ من حوله، والموسيقى الصاخبة تشتد.. وصدمة رهيبية تزلزله وتدفعه بلا رحمة، ثم.. ثم الأم رهيبية، وخدر مر كالعقم يتسرب إلى كل كيانه.. ناس، صراخ، أصوات.. موسيقى.. والمجرم لا بد ملقى فوق الأرض جثة هامدة.. كان يبكي دائماً عندما يسمع صوت رجل يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله».. وقد سمع الصوت، ولكنه لرجل آخر، ليس الصوت الذي تعود عليه.. وصوت الأم وهي تصرخ بلوعة «يا ابني..!» يأتي إليه من بعيد.. يذوب في الضجة.. وفتح العجوز عينيه.. ومن خلال ضباب كثيف، كانت وجوه تحيط به وتطل عليه.. وجسد هائل يربض فوق

جسده.. وعجلات سوداء تحيط بجانبه.. والموسيقى تنبعث من الدار فتتهز قلبه.. لقد مات الآن.. وتقر دمعة من عينيه.. ويغمر المكان الضوء مطلاً من فوق السور.. ويزحف الخدر قوياً قوياً فيشل جسده تماماً.. إنه يختنق.. يختنق.. ويشهق شهقه.. شهقة واحدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حادث في السيرك

الأبواق النحاسية تصدح بالألحان، والأفواه تصدح بالكلمات والضحكات.. والناس يصفقون، ويضحكون، وسحب الدخان تتصاعد من الأفواه وتتعدد في سقف المكان، وتتجمع حول المصابيح المضيئة فتتحول أنوارها الساطعة إلى أضواء شاحبة تدغدغ الحواس، تغرق الناس في جو كالحلم، وانساقوا وراء إحساساتهم وثوراتهم.. وأخذوا يشجعون هذا، ويصفرون لذلك، ويسبون بعضهم بعضاً، ويتعاركون ثم ينفضون ويعودون للزليطة والضحك والكلام والحديث.

كل ليلة.. كل ليلة.. واللييلة كانت مثل باقي الليالي.. «بعزق» كالمح في الطعام، الناس يضحكون عليه كلما ظهر، وهو دائماً موجود.. ما من نمرة إلا وكان له فيها نصيب، إذا تشقلب اللاعبون تشقلب معهم وضحك الناس عليه. وإذا مثل الممثلون مثل معهم وضحك الناس عليه، وإذا هرج المهرجون كان أولهم وفضس الناس عليه من الضحك.. عندما دخل الفرسان الحلبة وهم يمتطون جيادهم، دخل بعزق وراءهم يمتطي سهوة حمار أعرج.. وعندما قاد المدرب فيلا ضخماً دلف بعزق وراءه وفي يده معزة عجفاء!

وبعزق قزم ضئيل.. قامته لا تطاول قامة طفل في الخامسة، ووجهه يبدو كأنه لطفل في السادسة، وشاربه الصغير يبدو كأنه ذرات من تراب علقت بشفته العليا. وكادت اللييلة تمر ككل ليلة.. لولا أن حدث ما حدث..

فجأة.. توقفت الدقائق السريعة عن الجريان. وتدلت الأذرع بأكفها بلا تصفيق. وفغرت الأفواه في رعب شديد. وشمل السكون كل شيء. ثم مزقه زئير الأسد الناثر.

وحول الحلبة كانت هناك دوائر وراء دوائر من الأجساد المتشنجة التي تحولت كلها إلى رعوس، والرعوس تحولت كلها إلى عيون، والعيون جاحظة.

صرخت النسوة، وبكى الأطفال لصراخ أمهاتهم، وحمل الرجال أولادهم وجروا.. وساد هرج ومرج، وتصاعدت صيحات واستغاثات، ناس يفرون. وناس يصرخون. ورجال السيرك شلتهم المفاجأة... وفي داخل القفص الكبير كان الأسد ثائراً يزار، ومروضته الجميلة قد التصقت بالقضبان في رعب حاولت إخفاءه. وكانت عزلاء. سوطها في ناحية، والشوكة الكبيرة المدببة في ناحية، ولا تكاد يدها تقترب من مسدسها حتى يعلو زئير الأسد ويتحفز.. فتندلى إلى جانبها من جديد.

توقفت الدقائق، ولهتت الأنفاس وترددت العيون بين الوحش الغاضب وفوهات البنادق التي صوبت نحوه وهو لا يستقر في مكان، يروح ويجيء.. يقفز فوق دعامة ثم يهبط إلى الأرض والفوهات تلاحقه. ولا تكاد أصبع تضغط على زناد حتى يرتد، فالجموع لا تزال في هرجها ورعبها تحيط بالقفص من كل ناحية، ومرت الثواني كالوميض.. وذابت دقيقة وكأنها لم تكن.

وفجأة..

دقت القلوب ودقت وارتجت، وأصاب العقول ذهول شديد.. وعم سكون مطبق رهيب. حتى الأقدام توقفت عن الفرار.. وتحولت كل الرعوس نحو الحلبة.

كان بعزق يقف بقامته القصيرة في الوسط، يداها الصغيرتان تتوءان بحمل شوكة طويلة، وساقاه القزمتان تروحان وتجيئان في قلق، وأطلت مع الرعب دهشة كست كل الوجوه.. لم يدر أحد كيف دخل بعزق، ولم يدر أحد لم فعل ما فعل. قال رجل في همس مرتعب.. «مجنون». وصرخ آخر بصوت هامس «إطلع يا وله..». وهمهم ثالث وتشهد وترحم عليه. وتعالق كلمة من هنا.. وكلمة من هناك. ثم توقفت الألسنة، وران صمت عميق بلا حدود. وزحف صوت بعزق ضامراً ناحلاً يصرخ في وجه الأسد.. «آلي.. آلي..».

طوح الأسد برأسه نحوه، وأطلق زئيراً مخيفاً. وعاد السكون يلف كل شيء. كانت الثواني تمر كأنها ساعات.. والدقائق تمر كأنها أعوام بلا نهاية. وقد مرت دقيقة أخرى، دقيقة أمسك الفلق والخوف بطرفيها وأخذها يجذبانها فطالت وطالت حتى لم تبد لها نهاية.

وكل شيء جمد تماماً، الرعوس المثبتة فوق الأعناق المشرببة، والعيون الجاحظة وكأنها بلا أجفان، والأفواه المفغورة وكأنها بلا شفاه. وقضبان القفص طويلة طويلة. والمكان يضيق، والسقف ينسحب من كل ناحية ويصعد نحو نقطة في الوسط ليكون مخروطاً أجوف بدا وقتها كأنه مأوى للأشباح.

والذي حدث كان شيئاً غريباً.

ولكن الذي فعله بعزق كان أغرب، والذي فعله بعد ذلك كان أشد غرابة.

قفز في مكانه والشوكة الطويلة في يده وعلا صوته الناحل يزحف في السكون «آلي.. آلي..».

وكان منظره مضحكاً.. فضحك رجل.. ودوّت ضحكته في السكون وجلجلت، ثم ماتت وكفنها الصمت الرهيب، وبان الغضب على وجه بعزق، غضب شديد تحول إلى كلمات.. وصرخ بصوته الثاقب.. «بتضحك على إيه يابن الكلب!». ومرت لحظة، لحظة خاطفة دمرت السكون، بعدها ألف صيحة رعب انطلقت من ألف حجرة.

وكان بعزق قد ألقى بالشوكة من يده.. ثم أخذ يعدو متدحرجاً فوق أرض الحلبة، واتجه نحو باب صغير يؤدي إلى ممر يقود إلى قفص الأسد الذي يببب فيه.

وتسلق إلى الممر سلمة عالية بدت بالنسبة إليه وكأنها سور شاهق الارتفاع، تسلقها القزم في خفة كقط كبير الرأس، ثم استقام جسده واستدار نحو الأسد الذي كان يهز رأسه الضخم وكأنه غير مصدق. برقت عينا الوحش وسال اللعاب من بين أنيابه الطويلة.. وهوى السكون من جديد، وعلا صوت بعزق..

«إبقى اضحك كمان إبقى اضحك يابن الكلب..».

ولكن ثورة الوحش كانت قد بلغت قمته.. بينما ثورة بعزق تزداد عتوّاً وصوته يدوي صارخاً كأنه بكاء..

«آلي.. آلي.. ببيضحك على حضرتك.. آلي.. تعال.. كلمني.. عشان يضحك كمان.. آلي..» كانت ذراعاه القصيرتان تتطوحان في الهواء بحركات هيسثيرية نائرة.. وكان الوحش يزار زئيراً متصلاً يخلع القلوب.. وقد خلعت القلوب، خلعت عندما تحفز الأسد واعتمد على قدميه الخفيتين، ودقت القلوب واضطربت الأنفاس، واشتد الطنين في الأذان، وقفز الأسد قفزة هائلة وسبح جسده في الفضاء عابراً سماء الحلبة في سرعة مخيفة، وهوى جسد القزم في نفس اللحظة من فوق السلمة نحو الأرض، هوى في لمحة خاطفة ثم تكور وتدحرج في سرعة بعيداً عن المخالب التي هبشت في الممر العالي ثم اندفع الجسد الوحش الهائل إلى الداخل، وهوت وراءه بوابة ضخمة.

ومرت لحظة.. لحظة دامت آلاف الساعات، دوى بعدها تصفيق حاد محموم، وأخذت الألوف تلتقي وتفترق ثم تلتقي وتفترق ثم تلتقي وتفترق في هيسثيرية. والناس تصرخ وتهتف. وزئير الأسد يشق الفضاء. وكفوفه تضرب جدران سجنه في غضب جنوني. والناس غير مصدقين. والقلوب يزداد وجيبها. والرجال يندفعون إلى داخل الحلبة.

بينما كان القزم ينهض من رميته، وجسده القصير يستقيم في وسط المكان، وعيناه ترتفعان في ذهول وتلتقطان منظر الأكف المصفقة ولاحت على وجهه ابتسامة، ثم انحنى يرد تحية الناس، واستقام وانحنى ثم رفع وجهه نحو الرجال الذين أحاطوا به.. وامتدت ذراعاه وأشارت أصبعه نحو جموع الناس، وقال بصوت ذاب وسط الضجيج «بيصفقوا.. بيصفقوا..» ولمعت في عينيه دمعة، وامتدت ذراعاه عملاق لتحملاه. فكست وجهه غضبة وتملص من الذراعين ثم وقف فوق الأرض.

وعندما كان يتجه خارجاً كان يسير في موكب، وكان الناس لا يزالون يصفقون وكان هو لا يزال ينحني. وصدرة ينتفخ وينتفخ، وقدماه تضربان الأرض في قوة، وجسده مستقيم يشق الفضاء.. وبين الأونة والأخرى. كان يتسلق ببصره الأجساد الفارهة المحيطة به، ثم يستقر بهما إلى الأيدي المصفقة.. فيهمس في صوت مضطرب ويهز رأسه غير مصدق..

«بيصفقوا.. بيصفقوا».

والناس تصفق. وتصفق.

(تمت بحمد الله)

أحدث إصدارات المؤلف

الأستاذ/ صالح مرسي

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
- رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
- رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.
- البحار مُندي وقصص من البحر.
- نساء في قطار الجاسوسية، رواية.
- الكذاب، رواية.
- الخوف.

الأعمال الكاملة للأستاذ صالح مرسى

(أ) من ملف المخابرات المصرية

قصص واقعية للصراع مع المخابرات الإسرائيلية

1 - الحفار.

2 - رأفت الهجان.

3 - الصعود إلى الهاوية.

4 - نساء في قطار الجاسوسية.

5 - قاتلة باردة الأعصاب.

6 - دموع في عيون وقحة.

(ب) روايات ومجموعات قصصية:

1 - زقاق السيد البلطي.

2 - الكداب.

3 - السجين.

4 - السير فوق خيوط العنكبوت.

5 - خطاب إلى رجل ميت.

(ج) من أدب البحر والرحلات:

1 - البحار مندي وقصص من البحر.

2 - رحلات السندباد البري.

(د) سيرة ذاتية:

- مذكرات كاريوكا.

متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

الفهرس ..

إهداء..

الخوف..

أم

الابن

الرجل الكبير

الذهب

العروسة

قاع البحيرة السوداء

خناقة

الست هانم

البحر

قصة رجلين

خطيبي العزيز زكي أفندي

كلمة

كان زمان

الصديقتان

رحلة

الناس

حب للبيع

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

- 8 -

- 9 -

الرجل والحصان

- 1 -

- 2 -

- 3 -

وكان في غاية الرضا عن نفسه

جدتي

لقمة

أنا عايزاك إنت

فجأة ازدادت مسئولياتي!

البندول

توحيدة

وبراعة الأطفال تخذعني

كوثر والأعزب

حتى جاءت كوثر!

الأخريس

لا وقت للأحزان

مفيش مشكلة

الرجل والسيارة

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

- 5 -

- 6 -

- 7 -

كيف يموت الشيء الجميل؟

والله مانا قاعدة لك في البيت

العطش

أعمار

عاد كل منا إلى بيته...

تحطيم الأحلام

تزويفة

حين يكبرون

ماذا بعد الصمت!

الجريمة

يا انا.. يا الكتب

القطة التي اشتعل نيلها

شوفولكم حل..

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

نومة

الشارع

عزوز العبيط

حديث لا يسمعه أحد

سينما

الوقت متأخر دائماً

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

مغامرة صغير

حادث على الطريق

المقامرون

مصرع إنسان

حادث في السيرك

أحدث إصدارات المؤلف

الأعمال الكاملة للأستاذ صالح مريسي